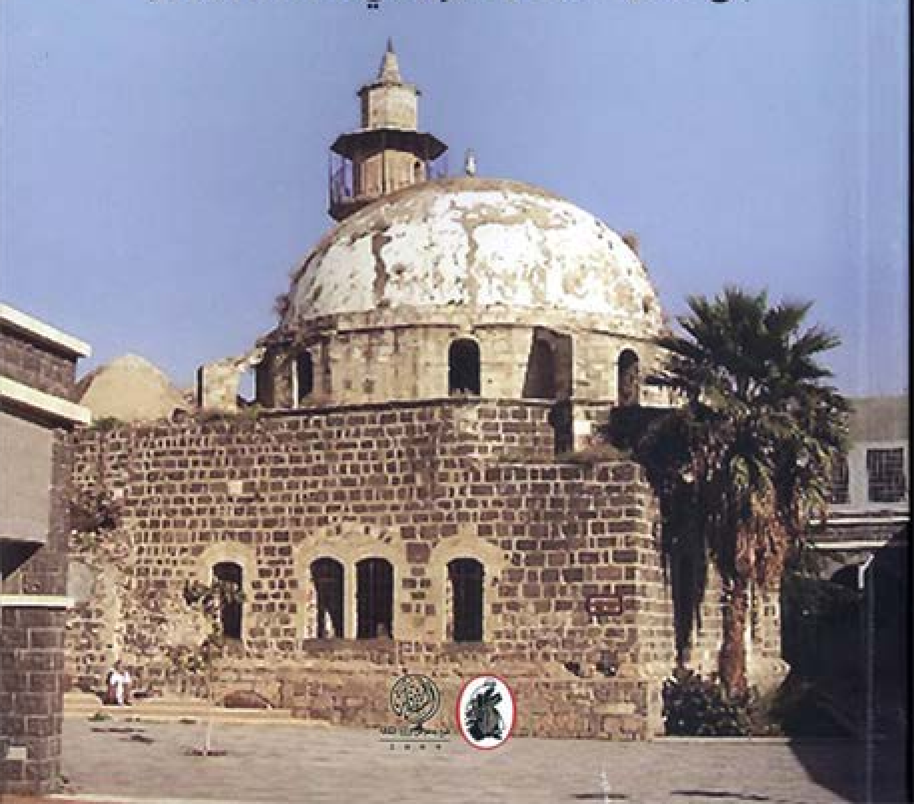
ISSAM SAKHNINI

تاريخ
HISTORY

د. عصام سخنيني

طبريّة

تاريخ موسوعي من إنشائها سنة 20 م
إلى نهاية الانتداب البريطانيّ سنة 1948 م



طبريّة

تاريخ موسوعي من إنشائها سنة 20 م
إلى نهاية الانتداب البريطاني سنة 1948 م

طبريّة : تاريخ موسوعيّ
من إنشائها سنة 20م إلى نهاية عهد الانتداب البريطانيّ سنة 1948م / تاريخ
د. عصام سخنيني / مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 5460-11 ، هاتفاكس : 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com
الإشراف الفنّي وتصميم الغلاف :
®
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **دكو برس / بيروت ، لبنان**

طبع بدعم من : *وزارة الثقافة ، عمّان / الأردنّ*
ساهمت *جامعة البترا الخاصّة* بتمويل هذا البحث

ISBN 978-9953-36-307-2

تاريخ
HISTORY

د. عصام سخنيني

طبريّة

تاريخ موسوعي من إنشائها سنة 20 م إلى نهاية الانتداب البريطانيّ سنة 1948م





إهداء

إلى شقيقي الأكبر صالح محمد سخنيني

الذي ما انفكت طبرية حية في وجدانه وعقله

وعلى لسانه منذ أن كان الخروج

وإلى زوجتي نعمت

استذكارا لطفولة سعيدة عشناها معا في طبرية

وإلى أبنائنا الأربعة لمى ونينا ويعرب وإياب

إذ هذه هي مدينة أبويهم وأجدادهم

كما هي مدينتهم

عصام

المحتويات

ملحق الخرائط

الجداول

مقدمة

(١)

إن القصد من تصنيف هذا الكتاب هو تقديم سجل توثيقي شامل لتاريخ طبرية على امتداد ما يزيد عن تسعة عشر قرنا، منذ إنشائها لأول مرة سنة ٢٠ للميلاد إلى أواخر عهد الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٤٨) عندما سقطت بيد الصهيونيين وشرد أهلها منها وصودرت ممتلكاتهم ودمرت منازلهم. وقبل هذا الكتاب كانت قد صدرت أخرى لا نريد هنا أن نبخس أصحابها حقهم في الريادة وفي الجهود التي بذلوها للتعريف بهذه المدينة، إلا أن ما يؤخذ على هذه الكتب أن بعض محتوياتها كان يفتقر إلى أبسط قواعد البحث العلمي، وبعضها كانت تغلب عليه موجات من الخطابة الحماسية، وبعضها جانبته صحة المعلومة التاريخية، وبعضها كان مجرد انطباعات ونوع من قصص الذكريات و"النوادر. وهكذا فإن طموح العمل الحالي الذي بين أيدينا لم يكن قط إصدار "كتاب آخر" عن طبرية، بل الوصول به إلى مستوى العمل الموسوعي الموثق، والشامل، والعلمي، لتاريخ المدينة على امتداد الزمن الطويل الذي أشرنا إليه دون الوقوع في ما اعتور ما كتب عنها من قبل من نقص وأخطاء. ومع هذا، فلا ندعي أن هذا العمل قد وصل إلى درجة الكمال، بل هو جهد بذل للارتقاء إلى هذه الدرجة، أو ما هو قريب منها.

(٢)

والكتابة في تاريخ طبرية تستحق هذا الجهد. فإذا كانت من حيث المبدأ تنتمي إلى جنس الكتابة في تاريخ المدن التي برع فيها الأسلاف من المؤرخين العرب الأقدمين الكبار أمثال ابن عساكر في تاريخ دمشق، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن العديم في تاريخ حلب، وغيرهم، دون أن نجد من المحدثين – إلا القليل النادر – من اتبع سنتهم واستكمل ما كانوا قد اختطوه عميقًا في هذا الجنس من الكتابة التاريخية، إذا كان الأمر كذلك من حيث المبدأ، فإن لطبرية عوامل جذب خاصة بها، وبما يماثلها من مدن نشأت في التاريخ، للتعرف عليها عن كثب وللتعريف بها.

فهي، أولا، واحدة من أقدم المدن التي ظلت مأهولة بالسكان على مدى حقب زمنية متطاولة على الرغم من كل ما كان يصيبها من كوارث بفعل الطبيعة أحيانا وبيد الإنسان مرات عديدة. إذ يستدل من القرائن التاريخية أن موقعها، الذي كان يعرف بالرقت، أو الرقة، كان مأهولا في عصر البرونز الأول (٣٣٠٠-٣٠٠٠ ق.م)، وعلى أنقاض هذا الموقع أقيمت طبرية سنة ٢٠ ميلادية، واستمرت بالبقاء حتى الآن.

وهي، ثانيا، تلخص – منذ أن نشأت – تاريخ القسم الجنوبي من بلاد الشام، فهي إن لم تكن بالتأكيد تصنع تاريخ هذه المنطقة، فهي بموقعها المتوسط فيها كانت تتقاطع عندها مصائر

المنطقة من أي اتجاه كانت، حتى ليصح القول بأن دراسة تاريخها تمثل عتبة للولوج إلى سبر أغوار التطورات التاريخية في هذه المنطقة بأجمعها.

وهي، ثالثا، غنية بالذكريات المقدسة لأتباع الديانات السماوية الثلاث. فالعرب المسلمون جعلوها قاعدة لإدارتهم في بعض أقسام بلاد الشام الجنوبية، وسكنها بعض الصحابة الذين لهم مكانتهم الأكثر تبجيلا لدى المسلمين كافة، وهي من الأمصار السبعة التي احتفظت بنسخة أولى من القرآن الكريم في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، وهي خرجت علماء عديدين اشتهروا بعلوم الحديث النبوي الشريف، وهي كانت مركزا مهما لـ"مجالس العلم" التي كان شداته يقصدونها من مختلف الأرجاء لتلقي العلم على أربابه فيها. وهي أيضا ذات مكانة متميزة لدى المسيحيين كافة، فتاريخ السيد المسيح مرتبط بمنطقتها، ومعجزاته ظهرت فيها، وبحيرتها هي التي مشى على سطحها، وأعظم تلامذته كانوا منها. وفي مراحل لاحقة، يستذكر تاريخ المدينة أسماء أساقفة كبار منها شاركوا في المجامع المسيحية المسكونية، كما أن الكنائس التي عمرت في المدينة ومنطقتها لا تزال ماثلة للعيان. وهي كذلك بالنسبة لليهودية، ففي المدينة كتب التلمود الفلسطيني أو الأورشليمي، وفيها طورت طريقة خاصة، هي الشائعة، في كتابة اللغة العبرية، وهي تنسب إليها، وسكن فيها علماء في الدين اليهودي لهم مكانتهم الخاصة لدى اليهود كافة.

وقد أهلها هذا الوضع لتكون مدينة/ نموذجا للتسامح الديني وللتعايش السلمي بين أتباع الديانات السماوية. وقد تجلى هذا الوضع

بأعظم صوره عندما كانت المدينة تحت حكم العرب، فلم تحتفظ ذاكرة التاريخ قط بما يشي بأن حقوق الأقليات الدينية قد انتهكت في المدينة أو أصابها ضرر وضيم.

ومع هذا، فهي ـ رابعا ـ نموذج يستحق الدراسة للكيفية التي تتم بها عمليات التطهير العرقي والإحلال السكاني في التاريخ. فقد تعرضت طبرية مرتين لهذا النوع من العمليات الرهيبة، مرة عندما احتلها الفرنج (الصليبيون) واقتلعوا سكانها العرب منها، وأحلوا محلهم أقواما من مختلف أنحاء أوروبا، ومرة عندما أخذها الصهيونيون بالقوة وطردوا بالتواطؤ مع سلطات الانتداب البريطاني سكانها العرب، وأحلوا محلهم مستوطنين قدموا أيضا من أربعة أركان الأرض. وإذا كان أمد الفرنج في المدينة قد استطال ٨٦ سنة، فمن يدري كم سيطول أمد الاحتلال الصهيوني، ومن ذا الذي لديه اليقين بأن نهايته لن تكون مماثلة لنهاية سلفه الفرنجي؟

وطبرية ـ خامسا ـ مدينة فلسطينية ينبغي ألا تضيع من الذاكرة وهي بهذه الصفة. فالكتابة في تاريخها هي مسعى لكي لا يلفها النسيان، ولكي تظل منغرسة في وجدان العرب وذاكرتهم.

وأخيرا، فللذات دوافعها أيضا في الكتابة عن المدينة. فطبرية مدينتي ومدينة آبائي وأسلافي، وهي التي ولدت فيها، فامتلكت طفولتي المبكرة. ومنذ ستين سنة ـ منذ أن كان الخروج منها ـ وأنا أمتلكها في القلب والذاكرة، فلعلي في أحضان الكتابة عنها أستعيد دفء حضنها هي نفسها.

(٣)

يواجه المؤرخ وهو يتصدى للكتابة عن طبرية إشكاليات مختلفة بالنسبة لمصادره. فتاريخها القديم منذ إنشائها سنة ٢٠ ميلادية وحتى أواخر القرن الأول يعتمد بشكل يكاد يكون حصريا على أعمال فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus، وهو يهودي عاش في ذلك القرن، وميز نفسه في البداية معارضا للرومان ومشاركا في مقاومتهم، ثم ما لبث أن "ارتَد"، واستكان إلى الأحضان الرومانية، وسكن روما ومنح "المواطنة الرومانية". له كتابان مشهوران في التاريخ اليهودي صنفهما في روما: حروب اليهود The Jewish Wars كتبه في حوالي العام ٧٥م، وعصور اليهود القديمة Antiquities of the Jews صنفه في حوالي العام ٩٤م. وفي الكتابين نجد معلومات مهمة عن بناء المدينة وتاريخها حتى تلك السنة. لكن هل يمكن الاعتماد على ما جاء لديه عن المدينة للكتابة في تاريخها حتى ذاك؟ هناك تحفظات عديدة على ما كتب إجمالا، لكن ليس هناك مصدر نصي آخر يمكن الرجوع إليه للتأكد من صحة معلومات يوسيفوس، خاصة فيما يتصل بطبرية، وبذلك يفترض المؤرخون المحدَثون أن رواياته صحيحة في هذا الشأن، ولا يجدون مندوحة من التسليم بها مع بعض تحفظات هنا وهناك.

المصدر المهم الثاني عن تاريخ طبرية القديم هو ما تكشف من آثارها القديمة. والإشكالية التي يواجهها المؤرخ في ذلك هي أنه لا يجد غير النافذة الإسرائيلية طريقا للإطلال عليها. فقد احتكر

الآثاريون الإسرائيليون، إلى حد بعيد، مهمات التنقيب عن آثار المدينة والمناطق المجاورة لها، وهم غير مبرّئين على الإطلاق من أدواء ما يعرف بعلم الآثار التوراتي Biblical Archaeology الذي هو في محصلته، وباختصار، استخدام التنقيب عن الآثار القديمة بهدف التثبت من المرويات التوراتية (والأصح تسميتها بالأساطير أو الحكايات التوراتية) والبرهنة عليها. وفي هذا، يقف المؤرخ في موضع التساؤل عما إذا كان ما اكتشف في طبرية من آثار هو كل شيء، أم كان ما جرى من تنقيبات هو عملية انتقائية تخدم فقط أهداف "علم الآثار التوراتي"؟ كذلك، ينتاب المؤرخ شك يدور حول سؤال كبير: هل كانت هذه المكتشفات الآثارية قد قرئت بصدق وموضوعية وتجرد، أم لُونت التفسيرات المرافقة للمكتشفات بتلوينات أيديولوجية تخدم اساسا أغراض ذلك "العلم" المشار إليه؟ مثل هذا الشك يغدو مفهوما لدى كل من تابع ما سمي بـ"فضيحة العصر" التي انفجرت في الأوساط الأكاديمية المهتمة بآثار فلسطين القديمة، عندما تبين باليقين العلمي (قبل ثلاث أو أربع سنوات) أن جميع "الآثار" التي زعم على مدى أعوام عديدة أنها "اكتشفت" في منطقة الحرم القدسي الشريف على الأخص، أو ما تعرف بأنها الإثار التي تعود إلى عهد الهيكل، إنما هي مزورة وصنعت حديثا لإثبات الدعاوى التوراتية عن الهيكل المزعوم. وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن لنا وسيلة أخرى للتعرف على آثار طبرية القديمة غير ما كتبه "الآخرون" عنها، إلا أننا أسقطنا منها في هذا الكتاب ما كنا نشتم منه بأنه كان يسير بشكل مفضوح نحو أهداف "علم الآثار التوراتي".

المصدر الثالث في دراسة تاريخ طبرية القديم، خاصة في مطالع القرن الأول الميلادي هو الإنجيل، غير أنه ينفرد فقط في التأريخ لحركة السيد المسيح وتلامذته وعلاقتهم بالمدينة ومنطقتها، وهو ينطلق بالتأكيد من الأيديولوجيا المسيحية.

وهكذا فإن على المؤرخ أن يتعامل، وهو يتصدى للكتابة في التاريخ الأقدم لطبرية، مع مصادر ليست بالضرورة محايدة أو مستقلة، لكن عليه مع ذلك أن يذعن لسلطتها المرجعية، إذ ليس بين يديه سواها، مع إبقاء هوامش من الشك هنا وهناك لا تصل به إلى حد اليقين المطمئن.

والصورة تبدو مختلفة عند الوصول إلى المدينة في تاريخها العربي ـ الإسلامي. هنا تتعدد المصادر، وتغزر المعلومات مع تنوع في الروايات، ما يظهر الحقيقة التاريخية في صورة أكثر جلاء. فأخبار طبرية مبثوثة في أوعية هذا التاريخ جميعا (الحوليات والتاريخ العام والتراجم والسير وكتب الطبقات إلخ) برؤى مختلفة لكنها تأخذ جميعا الصيغة "التسجيلية" للحدث ما يسمح للمؤرخ أن يقارن فيما بينها، ويأخذ بالتالي ما يطمئن إلى صدقيته، أو ما يعده قريبا منها، بعد أن يمرره على محك النقد. غير أن المؤرخ يواجه وهو في صدد تجميع بياناته عن المدينة في تاريخها العربي ـ الإسلامي بصعوبة عليه أن يبذل جهدا مضاعفا لتذليلها، تلك هي أن طبرية لم تكن بعظمة بغداد أو دمشق أو القاهرة أو القدس التي كانت تستحوذ على انتباه الرواة والمؤرخين العرب الأقدمين باعتبارها صانعة تاريخ، وبذلك فالبحث عن أخبارها في المصادر ليست بتلك

السهولة التي يكون بها البحث عن المدن الأرفع شأنا منها بالنسبة للمؤرخين القدامى. وتزداد الصعوبة عندما يسعى المؤرخ إلى التعرف على الأعلام الذين ظهروا في طبرية أو كانوا منها بهدف إدخالهم في مخطط بحثه. فهنا عليه أن يتصفح كل ورقة تقريبا في مصادره العديدة للوصول إلى هذه الغاية. غير أن ما سهل العمل للكاتب الحالي واختصر الجهد بنسبة كبيرة رجوعه إلى العمل الرائع الذي قام به المجمع الثقافي في أبوظبي بإنشاء قاعدة بيانات ألكترونية تضم عددا ضخما من كتب التراث، بمختلف التخصصات، تحت عنوان alwaraq.net، ووضعها على الشبكة العنكبوتية لتكون في خدمة الباحثين بطريقة سلسلة ومتقدمة تكنولوجيا. وقد سهلت العودة إلى هذه القاعدة للكاتب الحالي مهمة أن يصل ـ بطرائق البحث الألكتروني ـ إلى العديد من أسماء الأعلام الذين اشتهروا في تاريخ طبرية العربي ـ الإسلامي والذين سيجد القارئ قوائم بهم في الفصل الثالث أدناه.

وإذا قفزنا إلى مصادر تاريخ طبرية الحديث والمعاصر، يجد الكاتب الحالي من واجبه أن ينوه بثلاثة أعمال دراسية مهمة (واحد بالعربية واثنان بالإنجليزية) كتبها الدكتور مصطفى العباسي، الأكاديمي العربي الفلسطيني المقيم في فلسطين المحتلة منذ العام ١٩٤٨، عن سنوات طبرية الأخيرة في عهد الانتداب البريطاني، مستفيدا من الأرشيفات الصهيونية التي كشف النقاب عنها قبل سنوات قليلة. وربما دون الرجوع إلى هذه الأعمال (التي سيجد القارئ عناوينها في حواشي البحث وقائمة مصادره ومراجعه) ما كان يمكن

التعرف على مجريات الأحداث بدقة في تلك الفترة الزمنية. كذلك تتبغي الإشارة في هذا الصدد إلى دراسات الدكتور وليد الخالدي التي تعد رائدة في مجالها. وأيضا الإشارة إلى ما كتبه بعض المؤرخين الإسرائيليين، الذين يعرفون عادة بالمؤرخين الجدد، عن الحرب العربية-الإسرائيلية الأولى في العام ١٩٤٨ الذين كشفوا ــ بعودتهم إلى الوثائق الصهيونية والإسرائيلية ــ جوانب مهمة من حقيقة ما كان يجري آنذاك. ويتيح الرجوع إلى وثائق الحكومة البريطانية، وهو ما فعله الكاتب الحالي، الحصول على معلومات عديدة ومتنوعة عن فترة عهد الانتداب البريطاني على فلسطين وسنواته الأخيرة. كذلك استفاد الكاتب الحالي من المجموعات الوثائقية العربية في رصد قضايا مهمة تتصل بالحركة الوطنية في فلسطين في ذلك العهد، ونخص بالذكر عمل الشهيد الدكتور عبد الوهاب الكيالي وأوراق أكرم زعيتر المنشورة. لكن كل ذلك لا يحجب أهمية ما كتبه المؤرخ الفلسطيني الكبير عارف العارف ــ في كتابه عن النكبة ــ عن أيام طبرية الأخيرة في عهد الانتداب. فمعلوماته، وإن كانت مجملة ومختصرة، إلا أنه استقاها من مصادر مباشرة، وهي تتصف بدرجة عالية من الموضوعية، ولا يمكن الاستغناء عنها. وبالإضافة إلى ذلك، عاد الكاتب الحالي وهو في صدد تسجيل مجريات الحرب التي أدت إلى سقوط طبرية في العام ١٩٤٨ إلى صحيفتين عربيتين فلسطينيتين كانتا تصدران آنذاك، هما "فلسطين" و"الدفاع"، بالإضافة إلى صحيفة بالستاين بوست Palestine Post الصهيونية الناطقة بالإنجليزية، إذ هي تتيح جميعا متابعة أخبار ما كان يحدث آنذاك

يوما بيوم. ومثل هذا فعل بالعودة إلى تلك الصحف نفسها لتتبع الأخبار اليومية في أثناء الثورة العربية الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩.

على كل حال، لقد تنوعت مصادر الكاتب الحالي وتعددت، وفق اختلاف الفترات الزمنية المتعددة التي يغطيها هذا الكتاب، وهي مثبتة جميعا في قائمة المصادر والمراجع هنا فيما بعد.

(٤)

هناك ثلاث ملاحظات يبديها الكاتب الحالي حول المنهج المتبع في الكتاب:

الأولى أن طريقة عرض المادة تغلب عليها الصفة التسجيلية/ التوثيقية، وتتجنب ما أمكن إطلاق الأحكام التي قد تخل بموضوعية هذه الصفة.

والثانية أن المنهج المتبع في التطرق إلى الحدث المتصل بطبرية يذهب إلى وضعه في إطار تاريخه العام، وربما في إطار تاريخ المنطقة التي تنتمي إليها المدينة وتطوراتها. لذلك قد يرى القارئ أحيانا أن ثمة إسهابا "لا لزوم له" في رصد تلك التطورات العامة وتسجيلها، وأنه كان من الأفضل الدخول في الحدث مباشرة دون تلك التفصيلات العامة الي قد يجدها غير ضرورية. والكاتب الحالي يرى خلاف ذلك. فإذا سلمنا بأن طبرية، وهي المدينة الصغيرة بمقاييس عديدة، لم تكن هي التي تصنع تاريخ المنطقة، فقد

كانت تطورات هذا التاريخ تتقاطع عندها في كثير من الأحيان، وهي كانت في جميع الاحوال تتكثف عندها تيارات هذه التطورات جميعا. من هنا كان هذا الذي يبدو في بعض صفحات هذا الكتاب توسعا، أو إسهابا، في رصد التطورات التاريخية الأوسع، فمثل ذلك يمثل إطارا عاما ضروريا ولا يمكن الاستغناء عنه علميا للتعرف بشكل دقيق وشامل على تلك التطورات المتصلة تحديدا بطبرية.

والملاحظة الثالثة أن الكاتب الحالي يضع في حواشي بعض الصفحات (في القسم الأسفل منها) بعض تعريفات أو توضيحات لكلمات واردة في المتن. وهو يرى أن ذلك يبدو مناسبا للقراء عامة وأولئك منهم غير المتخصصين في التاريخ للتعرف بشكل أفضل على ما يرد في المتن.

(٥)

قسمنا البحث في هذا الكتاب إلى سبعة فصول: الأول منها خصص لتاريخ المدينة القديم منذ إنشائها ثم مرورا بالعصر الروماني والبيزنطي، وأبرزنا فيه التطورات السياسية والعمرانية كما كانت في هذا التاريخ، والفصل الثاني جعلناه لدراسة تاريخ طبرية تحت الحكم العربي ما بين الفتح الإسلامي وبدء حروب الفرنج. وعلى الرغم مما كان يعتور المدينة من محن في ذلك الزمن، فما هو مؤكد أنها كانت تعيش آنذاك في أزهى عصورها الحضارية. وخصصنا الفصل الثالث لتاريخ المدينة وهي ترزح تحت الاحتلال الفرنجي ثم تحريرها

على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وما تبع ذلك من أوضاع سادت في زمن الأيوبيين المتأخرين وعصر المماليك عندما انحدرت مكانتها السياسية والعمرانية. والفصل الرابع يرصد وضع طبرية في العهد العثماني عندما تواصل هذا الانحدار إلا ما كان في زمن إمارة الشيخ ظاهر العمر الذي اتخذ من المدينة مركزا لحكمه فأعيد لها بعض ما كان لها من تقدم في زمن الحكم العربي الإسلامي. وتتكامل الفصول الثلاثة الأخرى اللاحقة فهي تغطي الفترة التي كانت فيها المدينة تحت الحكم البريطاني. فالفصل الخامس من الكتاب يرصد التطورات السياسية والاجتماعية التي مرت بها المدينة تحت هذا الحكم. أما الفصل السادس فيعرض للحركة الوطنية في المدينة بشقيها: العمل السياسي والمقاومة المسلحة. وأخيرا يأتي الفصل السابع ليسجل بالتفصيل التطورات السياسية والعسكرية التي أدت إلى سقوط طبرية في يد الصهيونيين وتشريد أهلها منها وما لحق بالمدينة من دمار.

وقد زودنا الكتاب (في ملحق له) بشبه اطلس يضم خرائط رأيناها ضرورية لفهم الحدث التاريخي ضمن إطاره الجغرافي.

(٦)

وأخيرا، يود المؤلف أن يتقدم بالشكر والامتنان لوزارة الثقافة في المملكة الأردنية الهاشمية التي دعمت بمنحة سخية طباعة هذا الكتاب ونشره، وذلك انسجاما مع توجهها الأصيل في رعاية

الحركة الثقافية في البلد وإسنادها. كذلك فـإن الـشكر موصـول لجامعـة البترا الخاصة في عمّان (ممثلة بعمـادة البحـث العلمـي فيهـا) لتفـضلها بتمويل جزء كبير من نفقات إعـداد الكتـاب (كـشراء بعـض المـصادر والمراجع والأعمال الورقية). ويقـر المؤلـف بأنـه لـولا دعـم هـاتين الجهتين ما كان للكتاب أن يخرج بمثل هذه الصورة وهذا الحجم.

أ.د. عصام محمد سخنيني

عمان / شباط ٢٠٠٩

موجز جغرافي

تقع طبرية عند تقاطع خط طول ٣٥ درجة شرقا وخط عرض ٣٢ درجة شمالا. وهي في المنطقة الشمالية الشرقية من فلسطين كما عرفت حدودها في عهد الانتداب البريطاني.

نشأت المدينة على الشاطئ الغربي للبحيرة المسماة باسمها (بحيرة طبرية) والتي هي جزء من التكوين الجيولوجي الذي يعرف بحفرة الانهدام التي تمتد من شمال سوريا وتتجه جنوبا فتمر في سهل البقاع، فبحيرة الحولة ومجرى نهر الأردن الشمالي، فبحيرة طبرية، فغور الأردن والبحر الميت ووادي عربة، ومن هناك إلى خليج العقبة فالبحر الأحمر إلى مخرجه الجنوبي عند باب المندب. وبوجودها في هذا التكوين الجيولوجي فهي تقع في انخفاض يتراوح ما بين ١٦٠ و٢٠٠ متر عن سطح البحر.

وبسبب هذا التكوين الجيولوجي تقع المدينة في منطقة بركانية/ زلزالية، وقد تعرضت في تاريخها إلى عدد من الزلازل كان بعضها شديدا إلى درجة التدمير كما حدث في السنوات ٧٤٩، ١٠٣٣، ١٠٦٨، ١٧٥٩، ١٨٣٧ للميلاد.

تقوم طبرية على سهل منبسط يمتد على موازاة البحيرة، بينما ترتفع التلال في غرب المدينة وشمال غربها وجنوبها. ويمتد السهل المنبسط في الجنوب إلى حماماتها المعدنية المشهورة. ويقع إلى الغرب منها جبل مطل على الشريط السهلي عرف باسم جبل اللوزات

الذي يتفرع منه آخر باسم جبل القعقعية، وهو الاسم الذي عرفه به سكان المدينة. وقد جاء ذكر هذا الجبل في بعض المراجع التاريخية باسم جبل برنيك، تبعا لاسم أميرة من أميرات الأسرة الهيرودية التي بنيت المدينة في عهدها. وتخترق هذا المرتفعات الجبلة عدد من الأودية تصب في البحيرة.

أما بحيرة طبرية فتقع على انخفاض ٢٠٩ أمتار تحت سطح البحر، وهي على شكل قيثارة أو ثمرة كمثرى غير منتظمة، ويبلغ أقصى طول لها ٢٣ كيلومترا، وأقصى عرض ١٤ كيلومترا. وتبلغ مساحة سطحها ١٧٠ كيلومترا مربعا، وطول خط شواطئها ٥٣ كيلومترا. وتغذى البحيرة بمياه نهر الأردن، بمجراه الشمالي، وبعدد من الأودية التي تصب فيها من المرتفعات الغربية، وبأخرى من هضبة الجولان في الشرق، بالإضافة إلى بعض الينابيع من قاع البحيرة نفسها، وبما يهطل عليها من أمطار. ويتم تفريغ البحيرة في نقطة عند جنوبها مشكلة بداية نهر الأردن في مجراه الخارج من البحيرة إلى مصبه في البحر الميت.

درجات الحرارة في طبرية هي انعكاس لوضعها الطبروغرافي، إذ انخفاضها الشديد عن سطح البحر يجعل درجات الحرارة فيها عالية، تصل في معدلها السنوي في فصل الصيف إلى ٣٠ درجة مئوية (وترتفع في آب إلى ٤٠ درجة)، بينما تشهد المدينة دفئا في الشتاء لا يقل معدل درجات الحرارة السنوي فيه عن ١٢ درجة مئوية (في كانون الثاني).

الفصل الأول

النشأة والتاريخ القديم

(١)
الأدوميون المؤسسون

باني مدينة طبرية، سنة ٢٠ للميلاد، هو أنتيباس، والمعروف كذلك باسم هيرود انتيباس، كما يرد اسمه في الأناجيل برسم هيرود فقط. فمن هو هذا الرجل وما انتماؤه العرقي والديني، وهل كان يهوديا كما يشاع عنه في بعض الكتابات التاريخية؟ ربما يحسن التوقف عند هذه النقطة لاستجلائها قبل المضي قدما في التعرف على ظروف إنشاء المدينة والمدينة نفسها وتاريخها القديم إجمالا.

ما هو معروف تاريخيا أن أنتيباس أدومي. فمن هم الأدوميون؟ نضرب صفحا عن الحكاية التوراتية التي زعمت أن الأدوميين هم نسل عيسو بن إسحاق بن إبراهيم (الشقيق التوأم ليعقوب) الذي سمي أدوم لحمرته، فعرف نسله بهذا الاسم[١]. فالحكاية هي من جملة ما أوردته التوراة من أخيولات لتفسير معاني اسماء الأقوام ولإظهار تفوق "بني إسرائيل"، وهو الأسم الذي ألصقته التوراة بيعقوب نفسه، على سائر الأمم والشعوب. فما هو متعارف عليه تاريخيا أن الأدوميين كانوا من الأقولم المهاجرة من الجزيرة العربية وقد استقروا في زمن لم يتفق عليه المؤرخون في المنطقة ما بين جنوب البحر الميت حتى مدينة ميناء العقبة الحالية على البحر الأحمر. وكان أول ذكر لهم في التاريخ قد جاء في وثيقة مصرية قديمة تعود إلى عصر الفرعون مرنفتاح[٢] (١٢٢٤-١٢١٤ ق.م).

وقد جاء في هذه الوثيقة التي هي رسالة كتبها على البردي أحد قادة الثغور المصرية في فلسطين إلى الفرعون: "لقد انتهينا الآن من السماح للقبائل البدوية من أدوم باجتياز قلعة مرنفتاح ... لنحافظ على إبقائهم أحياء، ولنبقي قطعانهم حية أيضا"[٣]. وقد شكل الأدوميون في هذه المنطقة التي توطنوا فيها "مملكة" كانت على درجة من التقدم الإقتصادي عالية، بفضل سيطرتهم على للتجارة البحرية، حيث كانت مواطنهم تطل على البحر الأحمر (من موقع العقبة الحالي)، وتحكمهم بطرق التجارة المارة بأراضيهم، وأيضا لوجود مناجم نحاس في مناطقهم كانت هي الأعظم في المنطقة (وما تزال آثارها قائمة في خربة النحاس التي اكتشفت حديثا في جنوب الأردن). وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد جاءت هجرة العرب الأنباط إلى المنطقة فدفعوا الأدوميين إلى الشمال ليستقروا في جنوب فلسطين (إلى الجنوب من مدينة الخليل الحالية). وقد أنشأ الأدوميون في هذه المنطقة حضارة متميزة، فقد "اشتهروا بحكمتهم وكتاباتهم وصناعتهم للنسيج وتميز صناعة الفخاريات لديهم ومهارتهم في الصناعات المعدنية"[٤].

تعرض الأدوميون في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد لغزو يهودي بقيادة جون هيركانوس John Hyrcanus حاكم أورشليم من الأسرة المكابية (الحشمونية)* والكاهن الأعظم (حكم بين ١٣٤

* تعرف السلالة باسم المكابيين Maccabees كما تعرف أيضا باسم الحشمونيين Hasmoncans . وقد أسست السلالة لأول مرة على يدي ماتاثياس Mattathias الذي>

و ١٠٤ قبل الميلاد) الذي تمكن من اجتياح مدنهم وارتكب فيهم مجزرة قبل أن يجبرهم على الخضوع لأحكام الشريعة اليهودية°. وسوف نعرض لـ"يهودية" الأدوميين بعد قليل. ومن يهمنا منهم لأغراض هذا البحث هو أنتيباتر الأدومي Antipater فهو جد مؤسس مدينة طبرية.

ظهر أنتيباتر بقوة على مسرح الأحداث سنة ٦٣ قبل الميلاد عندما احتل القائد الروماني بومبي Pompey مدينة أورشليم (القدس). وكانت تلك السنة نقطة تحول جذرية في تاريخ فلسطين والمنطقة عامة إذ بدأت بها حقبة السيطرة الرومانية على المنطقة. وقد سبق هذا الحدث مخاض كبير شهدت فيه المنطقة انهيار السلطة السلوقية•

° تمرد على حكم السلوقيين في أورشليم وأسس فيها حكما يهوديا بدءا من عام ١٦٤ق.م. وقد استمر حكم السلالة إلى سنة ٦٣ ق.م. عندما استولى القائد الروماني بومبي على أورشليم وأخضعها للحكم الروماني.

• بعد وفاة الإسكندر المقدوني، انقسمت مملكته في الشرق (٣٢٣ ق.م) بين اثنين من قادته: بطليموس Ptolemy الذي أسس حكم البطالمة في مصر، وسلوقس Seleucus الذي استفرد بإرث الإسكندر في آسيا وأقام مملكة عرفت بالمملكة السلوقية. وقد امتدت المملكة في أوج عظمتها على مساحة جغرافية واسعة من الهند حتى سوريا، وكانت عاصمتها أنطاكية. غير أن المملكة تعرضت لانتكاسات عديدة نتيجة لاستقلال كثير من الأقاليم عن سلطتها المركزية والاضطرابات والثورات الداخلية التي شهدتها المناطق الخاضعة لحكمها، حتى تقلصت سلطتها في أواخر أيامها لتشمل سوريا وحدها. وكان الحكم السلوقي مسؤولا عن غلبة الثقافة والحضارة اليونانية (الهللينية) على سوريا. وقد انتهى أمر هذه الدولة باحتلال الرومان لسوريا سنة ٦٣ ق.م.

وتفتتها وصراعا داميا بين أطراف الأسـرة الحـشمونية، أفـرادا وكهنـة، في مدينة لورشليم التي كانت تحكمها، وصـراعا ممـاثلا بـين الطـائفتين (الحزبين) اليهوديتين الرئيـسيتين: الـصدوقيين والفريـسيين. ولـم يكـن لنتيباتر الزعيم الأدومي الداهية بمعزل عـن هـذه الأجـواء المـضطربة التي استغلها لمصلحته. وقد هيأ نفـسه لخـوض الـصراع بعقـد صـداقة وحلف مع العرب الأنبـاط (وكـان تـزوج مـن ابنـة أحـد زعمـائهم، ويسميها للرومان Cypros) ومع حكام غـزة وعـسقلان[٦]، بحيـث تمكـن استنادا إلى هذا التحالف من خوض موجة الـصراع التـي كانـت قائمـة بـين وريثـي الأسـرة الحـشموينة: هركـانوس وأرسـطوبولس Aristobulus اللذين ورثا السلطة الزمنيـة والدينيـة فـي أورشـليم عـن والدتهما الكـسندرا. وقـد اتخـذ انتيبـاتر فـي هـذا الـصراع جانـب هركانوس (وهو ليس جون هركانوس الـذي أخـضع الأدوميـين لأحكـام الشريعة اليهودية الـذي جـاء ذكـره أعـلاه)، وقـام بمـساعدة العـرب الأنباط بحصار أورشليم التـي تحـصن فيهـا أرسـطوبولس وأنـصاره، وهي لم ينجها من الاقتحام إلا إرسال بومبي (ولـم يكـن بعـد قـد احتـل أورشليم) أحد قادته لفك الحصار عنها.

غير أن استعراض القوة هذا الذي أبداه انتيبـاتر قـد أثمـر بلفـت أنظار بومبي إليه عندما احتل أورشليم، فقـام بتعيـين حليفـه هركـانوس في منصب الكاهن الأعلـى لليهـود، وتعيينـه هـو نفـسه نـاظرا علـى أورشليم (procurator). وقد جـاء هـذا التعيـين فـي إطـار التنظيمـات الإدارية الجديدة التي قام بها الرومان، منـذ بـومبي، فـي سـوريا التـي ورثوا الحكم فيها عن السلوقيين.

ظل انتيباتر يتمتع بهذا المنصب منذ توليه سنة ٦٣ ق.م إلى سنة ٤٨ ق.م عندما انحاز إلى يوليوس قيصر في صراعه مع بومبي، ليقدم خدمات جليلة إليه عندما أقنع العرب بالانضمام، وبزعامته، إلى قوات يوليوس قيصر في مصر في حربه ضد بومبي. وبخروج يوليوس قيصر منتصرا من هذه الحرب بمقتل بومبي (سنة ٤٨ ق.م)، كافأه بتعيينه ليس ناظرا على أورشليم وحدها بل مد سلطته على مناطق واسعة شملت معظم فلسطين (تسميها المصادر اليهودية يهودا)، بما فيها الجليل بالإضافة إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن. وغير ذلك، منحه لقب "مواطن روماني" وأعفاه من الضرائب في جميع المناطق التي تحت حكمه، كذلك أقر هركانوس، حليف أنتيباتر، في منصب الكاهن الأعلى لليهود.[٧]

وزع أنتيباتر مسؤولية الحكم في المناطق التابعة له بين أثنين من أبنائه، فقد عهد لابنه هيرود Herod حكم منطقة الجليل بينما أوكل لابنه الثاني فاسيل Phasael مهمة الحكم في أورشليم ومحيطها بالإضافة إلى المناطق التي تقع شرق نهر الأردن. وقد استمر هذا الترتيب نحوا من أربع سنوات، غير ان اغتيال يوليوس قيصر في روما (آذار ٤٤ق.م) كان له انعكاساته في المنطقة. فقد دبرت أوساط يهودية اغتيال أنتيباتر بالسم (سنة ٤٣ ق.م) بأمل التخلص من حكم الأسرة الأدومية، ثم ما لبثت زعامات الأسرة الحشمونية (التي كانت قد فقدت سلطتها السياسية باحتكار الأدوميين للحكم) أن اتصلت بالفرس الذين كانوا قد استغلوا الفوضى التي حدثت في روما بعد اغتيال يوليوس قيصر فغزوا سورية بهدف مد غزوهم إلى أورشليم.

وفي هذه الاتصالات، وفقا للمؤرخ اليهودي يوسيفوس، تطوع انتغونوس Antigonus ، وهو ابن أرسطوبولوس الذي أبعده أنتيباتر عن السلطة لمصلحة حليفه هيركانوس، بأن يقدم ألف طالين وخمس مئة امرأة من نساء اليهود إلى القائد الفارسي إن هو عزل هيركانوس عن منصبه وقتل هيرود[8]. وقد امتد الغزو الفارسي بالفعل إلى أورشليم التي دخلوها سنة ٤١ ق.م. وقتلوا فيها حاكمها فاسيل بن أنتيباتر، وأسروا هيركانوس وعينوا أنتيغونوس مكانه.

أما هيرود فقد اضطر إلى الهرب من منطقة حكمه في الجليل. وقد التجأ في البداية إلى البتراء طالبا الحماية من ملكها النبطي العربي مالك الثاني (الذي يسميه الرومان Malchus) مستندا إلى حقيقة أن أمه تنتمي إلى الأسرة الملكية في البتراء، وكذلك الأمر مع زوجته الأولى التي كانت تنتمي إلى الأسرة ذاتها. إلا أن هيرود لم يجد ترحيبا من الملك النبطي، فاتجه إلى مصر طالبا دعم كليوبترا، وعندما فشل في الحصول عليه توجه إلى روما التي وجد فيها دعما من سيدها آنذاك مارك أنطوني. وبتأثير من أنطوني اتخذ مجلس الشيوخ في روما قرارا بتعيين هيرود حاكما على أورشليم.

عاد هيرود إلى المنطقة متسلحا بهذا القرار، وابتدأ عمله سنة ٣٩ ق.م.، بمساعدة جيش من الرومان، من منطقة الجليل التي كانت قبل تحت حكمه. وقد تمكن من أن يستعيد سلطته فيها ليتجه بعدها إلى أورشليم التي دخلها بعد سنتين من عودته إلى الجليل. وكانت أولى عملياته فيها أنه أقنع مارك أنطوني، الذي كان آنذاك في أنطاكية، بقتل أنتيغونس لينهي بذلك حكم الأسرة الحشمونية اليهودية،

وليؤسس فيها حكمه الذي استمر إلى وفاته سنة ٤ ق.م. وهيرود هذا هو الذي يعرف في التاريخ باسم هيرود الكبير، أو العظيم، نظرا لما كانت عليه المنطقة التي كانت تحت حكمه، خاصة أورشليم، من قوة ومنعة واستقرار، وأيضا لحركة الإعمار الواسعة التي شهدها عصره.

أورث هيرود الحكم بعد وفاته، وبترتيب منه، إلى ثلاثة من أبنائه، وقد أقرهم في الحكم الإمبراطور الروماني أغسطس (الذي عرف قبل توليه منصب الإمبراطورية باسم أوكتافيان): أرخيلوس Archelaus الذي عهد إليه بمعظم مملكته بما فيها أورشليم، وفيليب Philip الذي ورث المناطق التي تقع إلى الشمال والشرق من بحر الجليل (بحيرة طبريا فيما بعد)، بما فيها الجولان وسهول حوران، أما إقليم الجليل وامتدادا نحو الجنوب الشرقي ليشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن بين وادي الموجب ووادي الزرقاء (التي كانت تعرف باسم بيريا Paerea)، فكان من نصيب أنتيباس Antipas الذي يعرف عادة بهيرود أنتيباس (انظر الخريطة رقم ١ لمنطقة حكم أنتيباس والتي استقل بها بعد موت أبيه هيرود). وما يعنينا هنا من هذا الترتيب الذي ابتدأ بعد موت هيرود الكبير في السنة الرابعة قبل الميلاد هو هذا الوريث الأخير نفسه إذ هو الذي بنى طبرية.

لم يختلف أنتيباس عن سلفيه في الأسرة، جده أنتيباتر وأبيه هيرود الكبير، في الولاء للرومان. وإلى جانب ذلك، عزز صلاته بالإمبراطور الروماني تيبيريوس Tiberius (الذي خلف أغسطس في

الحكم وامتد عهده من سنة ١٤ إلى ٣٧ ميلادي). حكم انتيباس نحوا من ٤٣ سنة بدءا من السنة الرابعة قبل الميلاد، وانتهى حكمه سنة ٣٩ للميلاد عندما اتهمه الإمبراطور كايوس (كاليغولا) بالتآمر على الرومان (نتيجة وشايات دبرت ضده)، فعزله عن حاكميته، ونفاه إلى ليون في بلاد الغال (في فرنسا الحالية) لينتقل بعدها إلى إسبانيا فيموت فيها.

ونتوقف قليلا في هذا السرد التاريخي لنلتفت إلى ديانة الأسرة الهيرودية. نذكر في البداية ان المؤسسة الدينية اليهودية امتنعت عن الاعتراف بيهودية ذلك الجيل من الأدوميين الذي جاء في السرد السابق، على الرغم من أن هركانوس فرض عليهم اتباع الشريعة اليهودية. ففي نص صريح في التوراة أن الأدوميين لن يدخلوا "جماعة الرب" إلا من الجيل الثالث بعد أولئك الذين فرضت عليهم الشريعة اليهودية[٩]. أما كتبة التلمود فكانوا أكثر تشددا إذ اشترطوا أربعة أجيال لكي يعترف بيهودية المرأة الأدومية[١٠]. هذا، مع الأخذ بالاعتبار أن انتقال اليهودية لأي من هذه الأجيال يكون عن طريق الأم، إذ تثبت يهودية الشخص بهذه الواسطة فقط. ولا تنطبق هذه الشروط على أي من الشخصيات الثلاث التي أسست للأسرة الادومية الحاكمة: أنتيباتر وهيرود الكبير وأنتيباس.

وإذا كانت المعلومات التاريخية عن الجد أنتيباتر ضئيلة نسبيا، فإننا نعرف موقف اليهود منه بتدبير المؤامرة الناجحة ضده التي انتهت باغتياله، كما ذكرنا سابقا. أما هيرود فتمدنا الروايات التاريخية عنه بصورة أكثر جلاء. فقد كان مشبعا بالثقافة الهللينة

وشديد الإعجاب بها، وتدلنا هذه الروايات ليس فقط على موقف اليهود منه، إذ عملوا جهدهم على التخلص منه لكن دون جدوى، بل ايضا على موقفه هو من اليهود عندما أقدم بعد أن استعاد سلطاته على التخلص من السنهدرين (المحكمة اليهودية العليا) بقتل أعضائه جميعا، وتلاعبه بكهنتهم واجترائه على قتل بعضهم. ومثل هذا العداء المتبادل لم يكن بغير أساس. فهيرود لم يكن يخفي حقيقة كونه غير يهودي. فعندما اتخذ مجلس الشيوخ بروما قرارا بتعيينه ملكا على أورشليم دخل معبد جوبيتر في روما ليؤدي للإله الروماني واجب الشكر على ذلك. أما في مملكته فقد اقام معابد لآلهة الرومان وأباطرتهم (وخاصة أغسطس)، كما أقام معبدا في رودس للإله أبولو. وعندما أقام المعبد اليهودي في أورشليم (ليثبت بذلك تسامحه الديني تجاه مواطنيه جميعا وعلى قدم المساواة) زين مدخل المعبد بالنسر الروماني، وهو ما يخالف الشريعة اليهودية، ما زاد من نقمة اليهود عليه.

أما انتيباس، فكان كأبيه مشبعا بالثقافة الهللينية ومعجبا بها. وإلى ذلك فقد صهر للأنباط العرب فتزوج من ابنة ملكهم الحارث الذي يسميه الرومان Aretas. أما عن يهوديته فهي لم تزد عن يهودية أبيه وجده المشكوك فيها. لكنه لم يصل به الأمر إلى ما فعله أبوه من مواجهات مكشوفة وحادة مع اليهود، وإن كان لم يقصر في انتهاك الشريعة اليهودية، وهذا ما جعل اليهود في زمنه يعتبرون هزيمته أمام الأنباط وتدمير جيشه (في حرب دارت بينهما نتيجة خلاف على أراض محاذية لمنطقتي حكمهما) عقابا له من الله عادلا[١١]، كذلك رأوا

في عزله عن حكمه من جانب الإمبراطور كايوس، المعروف أكثر باسم كاليغولا، عقابا مماثلا من الله[١٢].

والخلاصة، أن باني مدينة طبرية (أنتيباس) كان أدوميا ينتمي بأصوله إلى الذخيرة السكانية في شبه الجزيرة العربية، ولا يمكن القطع بيهوديته، بل هناك ما كان يدل على خلاف ذلك.

(٢)
إنشاء المدينة

كانت صفورية Sepphoris قاعدة حكم الجليل في عهد هيرود، وخلال ست عشرة سنة من حكم أنتيباس. غير أن هذا اختار أن ينقل عاصمته إلى موقع آخر يتمتع بمزايا سياسية واقتصادية ودفاعية أفضل، فكان أن وقع اختياره على موقع له هذه المزايا وبنى فيه في السنة السادسة عشرة لحكمه (أي في عام ٢٠ للميلاد) عاصمة جديدة أطلق عليها اسم تيبيرياس Tiberias إكراما لصديقه الإمبراطور الروماني آنذاك تيبريوس Tiberius.

الموقع الذي اختاره انتيباس لمدينته الجديدة كان على الشاطئ الشرقي لبحر الجليل (فيما بعد بحيرة طبرية). وقد أثبتت التنقيبات التي قامت بها سلطة الآثار الإسرائيلية في العام ٢٠٠٧ أن هذا الموقع كان مأهولا منذ عصر البرونز الأول[١٣] (ما بين ٣٣٠٠ و٢٠٠٠ ق.م). وكان البناء على أنقاض بلدة قديمة عرفت باسم "رقّت"، وهي تقع إلى الجنوب قليلا من مدينة طبرية الحديثة. وهذا

اللفظ كنعاني قديم، وقد اشتركت اللغة العربية به بلفظة "الرَّقة" التي تعني في اللغة "كل أرض إلى جانب واد ينبسط عليها الماء"[14]. وبالفعل، فإن تضاريس المنطقة تدل على وجود وادٍ يقع في جنوب طبرية يبدأ من المرتفعات الجبلية التي تطل على المدينة من الغرب وينتهي بالسهل المنبسط الذي تقوم عليه المدينة.

إن اختيار أنتيباس لهذا الموقع ليبني عليه عاصمة جديدة لحكمه بدلا من صفورية كان يحكمه عدد من العوامل: فهو موقع متوسط في منطقة حكمه التي تمتد على منطقة الجليل بأكمله إلى الغرب والشمال من البحيرة من جانب، والمنطقة التي تقع إلى الجنوب الشرقي من البحيرة وإلى الشرق من نهر الأردن من جانب آخر (انظر الخريطة رقم ١ فيما سبق). وباختيار هذا الموقع المركزي يكون على مسافات متساوية تقريبا بين أقاصي تخوم مملكته شمالا وجنوبا من جهة، وغربا وشرقا من جهة أخرى. وإلى ذلك فإن الموقع نفسه كان يتمتع بخصائص دفاعية جيدة إذ كان محميا من البر بمرتفعات جبلية تحيطه من الغرب والشمال، وببحر الجليل من الشرق.

أما أهميته الاقتصادية فهي من كونه كان يقع على طريق التجارة القديم الرئيسي الذي يربط دمشق بمصر. وقد عرف هذا الطريق منذ العصر البرونزي، وعرفته الأقوام القديمة باسم الطريق الفلستي (الفلسطيني) إذ كان يخترق الأراضي الواقعة تحت حكم الفلستيين (الفلسطينيين). وعرف فيما بعد، في العصر الروماني، باسم Via Maris وهما كلمتان لاتينيتان تعنيان "طريق البحر". وكان هذا

الطريق يبدأ من هيليوبـوليس (مـن ضـواحي القـاهرة حاليـا) ويتجـه شمالا إلى تنيس الفرعونية القديمة (صان الحجر حاليا فـي دلتـا النيـل)، ثم إلى بلوسيوم Pelusium على البحر المتوسـط (علـى بعـد ٣٠ كـم من مدينة بورسعيد الحالية) ومن هناك يأخذ طريـق الـساحل إلـى رفـح فغزة فأسدود فيافا فدور (على الساحل جنوب مدينـة حيفـا الحاليـة)، ثـم يتجه إلى مجدو في الداخل ويتجه شرقا إلى الرقـة الكنعانيـة علـى بحـر الجليل، ليسير شمالا على شاطئ البحر في اتجـاه المجـدل فكفـر نـاحوم (تل حوم)، ثم يحاذي نهر الأردن الـشمالي (قبـل أن يـصب فـي بحـر الجليل) إلى حاصور، ومن هناك يتجه باتجـاه الـشمال الـشرقي صـاعدا الجولان، لينتهي إلى دمـشق. وكـان هـذا الطريـق الرئيـسي للتجـارة المشرقية القديمة يتصل فـي دمـشق بمـا يعـرف بـالطريق الـسلطاني king's highway الذي يوازي "طريق البحر" أهميـة، إذ كـان يمتـد مـن الرصافة على الفرات الأعلى، ويمر بتدمر، فدمـشق، ثـم يـسير جنوبـا إلى بصرى، فإلى ربة عمون (عمان)، ويتجـه منهـا إلـى أيلـة (العقبـة الحالية)، ومن هناك يعبر شبه جزيرة سـيناء لينتهـي بهليوبـولس (انظـر الخريطة رقم ٢ التي تبين طريق البحر).

كان موقع "الرقـت" إذن، وهـو الـذي اختـاره أنتيبـاس لينـشئ عليه عاصمته الجديدة، يقع بامتياز عند مفصل مـن أهـم مفاصـل طـرق التجارة في المـشرق القـديم، وهـو مـا أسـهم بازدهـار طبريـة فـي عصورها اللاحقة. وبالإضافة إلى كل ذلك ينبغـي ألا نقلـل مـن أهميـة ينابيع المياه الـساخنة الملاصـقة للموقـع والتـي كانـت لهـا شـهرتها العلاجية في العالم القـديم، وقـد وصـلت شـهرتها حتـى إلـى رومـا،

فوصفها المؤرخ الروماني بليني الأكبر Pliny the Elder (عاش من ٢٣م إلى ٧٨م) بأنها "الطريق الموصلة إلى استعادة الصحة"[١٥].

في هذا الموقع إذن بنى هيرود انتيباس مدينته. واتباعا لسنة أبيه هيرود الكبير في الإعمار بنى قصرا له في المدينة ومسرحا وملعبا رياضيا (استاديوم) وزين ساحاتها وطرقاتها الداخلية التي كانت تشقها بالأقواس وبالتماثيل المنحوتة من الرخام. كما بنى سورا يحيطها من جهاتها الشمالية والغربية والجنوبية، مع إبقاء الجهة الشرقية منها مفتوحة على بحر الجليل. وقد أظهرت التنقيبات الأثرية الحديثة فخامة ما كان عليه البناء في عهده. ومن ذلك "البوابة الجنوبية" للمدينة التي كانت منشأة على شكل "قوس نصر" مقام على ثلاثة ابراج دائرية قطر الواحد منها سبعة أمتار، بينما نصبت ما بين هذا "القوس" وفتحة المدخل أعمدة تقوم على قواعد مزخرفة تتخذ شكل المعين[١٦]. كذلك كشفت هذه التنقيبات عن موقع قصر أنتيباس نفسه حيث أظهرت بقاياه التي اكتشفت ما كان عليه القصر من فخامة[١٧].

أسكن أنتيباس مدينته الجديدة عناصر من أقوام شتى جلبهم من مختلف أرجاء مملكته. وقد اتبع وسائل متنوعة لكي يكثر من عدد السكان. ويكتب يوسيفوس عن ذلك قائلا: "إن الأغراب قدموا ليسكنوا المدينة، وكانت أعداد كبيرة من سكانها من الجليليين (سكان الجليل)، وأعداد أخرى اضطرهم هيرود [أنتيباس] أن يأتوا إليها من المناطق التابعة له وأجبرهم على السكنى فيها، وكان بعضهم من ذوي الأوضاع الحسنة. كذلك أفسح المجال للسكنى في المدينة للناس

الفقراء من مختلف الجهات، وكان بعضهم من غير الأحرار. وقد أحسن [انتيباس] لهؤلاء فأعتق أعدادا كبيرة منهم، إلا أنه ألزمهم بألا يهجروا المدينة بأن بنى لهم منازل جيدة على حسابه الخاص، ومنحهم قطعا من الأراضي"[١٨].

كان سكان طبرية إثر بنائها إذن خليطا من الأقوام المختلفة التي كانت تقطن المنطقة التابعة لأنتيباس آنذاك، فمن هم هؤلاء؟ يعطينا المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابو Strabo، في كتابه (الموسوم الجغرافيا) الذي صنفه في حوالي السنة التاسعة عشرة للميلاد (أي قبل بناء المدينة بسنة واحدة)، جوابا مجملا عن هذا التساؤل بوصفه سكان المنطقة آنذاك. فهو يذكر "أن سكان أورشليم والمناطق المتاخمة لها كانوا من المصريين والعرب والفينيقيين، كما ينطبق هذا الوصف على سكان الجليل وسهل أريحا ومناطق فيلادلفيا [عمان الحالية] والسامرة"[١٩]. وعلى هذا، يمكن أن يستدل مما كتبه يوسيفوس وسترابو على أن أقواما من العرب الذين كانوا يكونون جزءا من الخليط السكاني الذي كان تحت حكم أنتيباس كانوا من أوائل من سكنوا طبرية منذ إنشائها.

وبخلاف ذلك لم يكن لليهود صلة بالمدينة عند بنائها. فقد اتخذوا منها موقفا سلبيا واعتبروها "نجسة" لأن أقساما منها بنيت على أرض كانت مقبرة دارسة إذ نبشت منها عظام آدميين موتى، والأموات في الشريعة اليهودية يعتبرون نجسين ما لم يتم تطهيرهم خلال سبعة ايام من وفاتهم. وكان هذا سببا لامتناع اليهود من السكنى فيها بعد إنشائها عندما أخذ انتيباس على عاتقه مهمة استقطاب السكان

إليها[20]. وسنعود إلى صلة اليهود بطبرية في قسم لاحق من هذا الفصل.

(٣)
وضع المدينة
في العصرين الروماني والبيزنطي

ظلت طبرية عاصمة للجليل طوال عهد هيرود انتيباس الذي انتهى سنة ٣٩ م، كما مر أعلاه. كذلك استمرت طبرية تتمتع بهذه الصفة في عهد هيرود أغريبا الأول Herod Agrippa I (وهو حفيد هيرود الكبير) الذي عينه الرومان حاكما على الجليل سنة ٣٩م، ثم أضافوا إلى حكمه سنة ٤١م جميع المناطق التي كانت تحت حكم جده. وإثر وفاته سنة ٤٤م. عُين حكام رومان للمنطقة أبقوا على طبرية عاصمة للجليل. غير أنه في العام ٦١م ألحقت طبرية بالمنطقة التي كان يحكمها أغريبا الثاني Agrippa II (وهو من الأسرة الهيرودية) التي كانت عاصمتها بانياس عند منابع نهر الأردن (كان يطلق عليها آنذاك قيسارية فيليب Caesarea-Philippi). وقد ظل الوضع كذلك إلى وفاة أغريبا الثاني حوالي سنة ١٠٠ للميلاد (وكان هو آخر الحكام الهيروديين في المنطقة) إذ عين للمدينة بعد وفاته حكام من الرومان.

في جميع هذه الأحوال كانت طبرية، شأنها في ذلك شأن سائر المناطق التي كان يحكمها حكام من الأسرة الهيرودية، خاضعة

بشكل ما، خاصة في شؤون الجبايات المالية والضرائب، وأحيانا في الشؤون العسكرية، لحاكم ولاية سوريا (Province of Syria) الروماني الذي كان يدير شؤون الولاية من مركز الحكومة في أنطاكية. وقد كان هذا الحاكم، في نظام مراتب الحكم الروماني، الذي كان يعرف عادة باسم legatus ويترجم إلى الإنجليزية برسم legate، أعلى رتبة من حاكم مقاطعة معينة بلقب tetrarch الذي كان يتمتع به الحكام من نسل هيرود الكبير، وهو لقب يوحي بالتبعية لحاكم أعلى مرتبة منه. وهكذا فمن منظور التنظيم الإداري الروماني، كانت طبرية تتبع الحاكم الروماني العام لسورية، وإن كان ذلك من خلال أغريبا الثاني في بانياس الذي كان يحمل لقب tetrarch.

غير ان هذا الوضع تغير بعد القضاء على الثورة اليهودية على الرومان (٦٦-٦٧) إذ أعاد الإمبراطور فاسبسيان (وهو نفسه كان القائد العسكري الذي قضى على الثورة – قبل تنصيبه إمبراطورا – بالاشتراك مع ابنه تيتوس) تنظيم أمور المنطقة إداريا وانشأ ولاية جديدة (منفصلة عن ولاية سورية) عرفت باسم ولاية Palaestina. وتنطبق تخوم هذه الولاية على تخوم فلسطين الحالية تقريبا. وكانت قيسارية Caesarea التي بناها هيرود الكبير على ساحل البحر المتوسط (تقع إلى الجنوب من حيفا الحالية) هي عاصمة هذه الولاية الجديدة.

ومثل هذا الأمر انطبق كذلك على المنطقة في أعقاب القضاء على ثورة باركوخبا اليهودية سنة ١٣٥م عندما نظم الإمبراطور هادريان المنطقة في إطار ولاية أطلق عليها اسم "ولاية سوريا

البالستينية" Provincia Syria Palaestina، وقد توسعت حدود هذه الولاية حوالي العام ٢٩٠م. (في عهد الإمبراطور ديوقلتيان) عندما ضم الرومان إلى هذه الولاية التي تقع غرب نهر الأردن النقب وأقساما من الأراضي الواقعة إلى الشرق من النهر جنوبي وادي الحسا شاملة بذلك البتراء، وأطلق عليها اسم بالستينا الملكية. وفي جميع هذه الأحوال كانت قيسارية هي العاصمة، بينما كانت طبرية مدينة تابعة إداريا يرسل لها حاكم من هناك.

وفي نحو العام ٣٩٠م حدث تطور إداري جديد ظهرت فيه بيسان، وليس طبرية، كمركز حكم إقليمي. وتقع بيسان إلى الجنوب من طبرية، وهي قديمة اشتهرت زمن السيطرة المصرية المطلقة على فلسطين بين ١٥٥٠ ق.م. و١٢٠٠ ق.م. حيث عرفت باسم بيت شان، واستمرت أهميتها تحت حكم السلوقيين، وعرفت آنذاك باسم سيثوبوليس Scythopolis ، كما عرفها الرومان أيضا بهذا الاسم، وكانت إحدى المدن العشرة (الديكابوليس) ذات الصبغة اليونانية التي شكلت في العام ٦٣ ق.م. رابطة بينها ذات طبيعة اقتصادية استمرت قائمة في العصر الروماني. وبهذه الصفة سرقت بيسان الأضواء من طبرية في هذا التطور الإداري الجديد الذي أشرنا إليه عندما قسمت منطقة جنوب سورية إلى ثلاثة أقسام رئيسية (انظر الخريطة رقم ٣)، أعطيت الأسماء التالية:

(١) فلسطين الأولى Palaestina Prima وجعلت عاصمتها قيسارية، وكانت تضم حسب التسميات الحديثة مناطق نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح، بالإضافة إلى المنطقة الواقعة

على الضفة الشرقية من نهر الأردن ما بين نهر الزرقاء ونهر الموجب.

(٢) فلسطين الثانية Palaestina Secunda وجعلت عاصمتها بيسان، وشملت الجليل وأم قيس وقلعة الحصن والجولان وطبرية.

(٣) فلسطين الثالثة Palaestina Teirta وعاصمتها البتراء، وتشمل أيلة، أو العقبة الحالية، ومؤاب والشراة جنوب وادي الموجب والنقب وأجزاء من سيناء.

وهذه التقسيمات سوف يكون لها صدى في التقسيمات الإدارية بعد الفتح الإسلامي للمنطقة (وهو ما سوف نشير إليه لاحقا)، لكن التي أعيد فيها الاعتبار لطبرية كمركز حكم وإدارة.

وعلى الرغم من هذه الترتيبات الإدارية المتعاقبة كانت طبرية تتمتع بمكانة خاصة طوال العهد الروماني. فقد كانت أولا عاصمة حكم لمنطقة شملت الجليل والأراضي الواقعة إلى الجنوب من وادي الزرقاء وصولا إلى الموجب مدة زادت عن أربعين سنة. ومع فقدانها هذه الصفة بالترتيبات الإدارية المستحدثة بعد ذلك ظلت تحافظ على مكانتها المميزة كمدينة رئيسية تحت سلطة الحكم الروماني. فقد أضفى عليها الإمبراطور الروماني إلاجابالوس Elagabalus (حكم من ٢١٨ إلى ٢٢٢م) وضع المستعمرة الرومانية Roman Colony، وهو "شرف" روماني كانت تتمتع به بعض المدن المصطفاة، وتنال بموجبه امتيازات معينة مثل سن قوانين خاصة بها

للشؤون المحلية، والتخفيف من الضرائب المفروضة على سكانها، وأيضا حق حصولهم على صفة المواطنة الرومانية.

وإلى ذلك، فقد عملت ينابيع المياه المعدنية الساخنة فيها (حمامات طبرية) على تعزيز مكانتها في نظر الرومان. ففي المعتقدات الدينية الرومانية نشأت رابطة ما بين المعابد وينابيع الاستشفاء. وهذا واضح فيما كان يدعو إليه فتروفيوس Vitruvius أعظم المهندسين العسكريين في ظل أغسطس قيصر عن ضرورة بناء المعابد الدينية قرب ينابيع الاستشفاء، وخاصة تلك المعابد المخصصة لإله الشفاء الروماني أسكولابيوس Asculapius (الذي كان يرمز له بالثعبان)، إذ أن ذلك يخدم المرضى ويعجل بشفائهم. وتظهر بعض النقود التي ضربت في العهد الروماني هذا الارتباط ما بين حمامات طبرية والمعتقدات الدينية. فعلى نقد ضرب في عهد الامبراطور تراجان (١٠٠-١٠٩م) تظهر هايجيا Hygieia (وهي في الأساطير الدينية الرومانية ابنة أسكولابيوس المذكور وراعية المنتجعات الصحية) جالسة على صخرة تتدفق منها المياه، وبيدها ثعبان (رمز الشفاء) تطعمه من طاس، والصورة تمثل ينابيع حمامات طبرية[٢١]. وقد جذبت هذه "القداسة" الدينية التي تمتعت بها حمامات طبرية الامبراطور كاراكلا Caracalla (حكم من ٢١١-٢١٧م) إلى زيارتها لعلها تشفيه من أمراضه المزمنة.

وإلى جانب ذلك كله، ظهر اهتمام الرومان، ومن بعدهم البيزنطيين، بطبرية في حركة البناء الكبيرة التي شهدتها المدينة في

عهديهما، وهو ما سوف نشير إليه في فقرة لاحقة من هذا الفصل عند الحديث عن الآثار التي اكتشفت في طبرية وتعود إليهما.

(٤)
اليهود وطبرية

أشرنا قبل إلى أن اليهود اتخذوا موقفا سلبيا من طبرية عند بنائها، فقد اعتبروها "نجسة" لأن أقساما منها بنيت على أرض كانت مقبرة دارسة إذ نبشت منها عظام آدميين موتى والأموات في الشريعة اليهودية يعتبرون نجسين. وكان هذا سببا لامتناع اليهود من السكنى فيها بعد إنشائها عندما أخذ بانيها هيرود أنتيباس على عاتقه مهمة استقطاب السكان إليها.

وليس هناك في الحقيقة معلومات مؤكدة عن بدء استيطان اليهود المدينة. غير أن هناك ما يشير إلى وجود يهود في المدينة في أثناء الثورة اليهودية (٦٦-٧٠م). فوفقا لما أورده يوسيفوس[٢٢] أن أهل المدينة رفضوا التمرد على الرومان وخرج وفد منهم قابل فاسبسيان (الذي كان قد عسكر بقواته على مسافة قريبة إلى الجنوب من طبرية) وأبلغوه موقفهم ذلك، وطلبوا منه ألا يعامل المدينة بجريرة عدد قليل من المتمردين فيها. وقد كان هؤلاء كما وصفهم المؤرخ نفسه يقودهم "رئيس عصابة من اللصوص" يدعى يسوع بن شافاط Jesus the son of Shapat. وقد استجاب فاسبسيان لهذا الالتماس وأرسل خمسين فارسا إلى المدينة ليتأكد من صدق ما ادعاه

الوفد. وعندما وصل هؤلاء إلى أسوارها ترجلوا عن خيولهم ليجروا مفاوضات مع السكان، وقد استغل رئيس المتمردين هذه الفرصة فسطا على الخيول وقادها إلى داخل المدينة، ما اضطر فاسبسيان إلى حشد قواته حول المدينة تمهيدا لاقتحامها. غير أن ما منعه من ذلك كان تأكده من أن أهل المدينة كانوا ينشدون السلام، وكذلك مراضاة لحاكمها أغريبا الثاني الذي تحالف مع فاسبسيان في قمع الثورة اليهودية، وكان مرافقا للقائد الروماني عندما اقترب من أسوار المدينة. بالإضافة إلى ذلك فقد حدث آنذاك أن قائد المتمردين يسوع هرب من المدينة عندما اقترب الجيش الروماني منها والتحق بمدينة تاريشيا Tarichaea (والتي عرفت فيما بعد باسم المجدل على الشاطئ الغربي للبحيرة إلى الشمال من مدينة طبرية ـ انظر أدناه) وانضم إلى صفوف المتمردين فيها. وهكذا حسب وصف يوسيفوس نفسه: "فتح مواطنو المدينة أبوابها، واستقبلوا فاسبسيان بهتافات الفرح وقد وصفوه بأنه مخلصهم ومحسن إليهم". ولا يخبرنا هذا المؤرخ المعاصر للأحداث من هم هؤلاء المواطنون، غير أنه يستشف من القصة التي أوردها أنهم لم يكونوا يهودا، كما لا يخبرنا عن عدد أولئك المتمردين الذين كانوا بقيادة "رئيس عصابة اللصوص"، والذين يفهم منه أنهم كانوا من اليهود، إذ التحقوا بالمتمردين اليهود في تاريشيا، ولكن ما يبدو مؤكدا أن عددهم كان قليلا، أو بتعبير يوسيفوس مترجما إلى الإنجليزية ...a few. ونستدل على قلة العدد أيضا من واقعة نوعية الأسرى الذي سقطوا بيد فاسبسيان بعد قضائه على التمرد في تارشيا. فقد قاد آلافا منهم إلى طبرية ليتعامل معهم

قتلا أو استرقاقا أو عمالة في مشاريع البناء الرومانية، ويذكر يوسيفوس أن هؤلاء كانوا من الجولان والجليل وجدارا (أم قيس الحالية)[23]، لكن لا يذكر قط أن أحدا منهم كان من طبرية.

بعد هذه الحادثة لم نعد نسمع شيئا عن وجود يهود في المدينة. ويبدو أن النظرة السلبية لها (باعتبارها نجسة) أبقت اليهود بعيدا عنها خلال فترة طويلة إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، عندما أعاد اليهود الأتقياء النظر في هذا الموقف. كان ذلك في أعقاب الثورة اليهودية بقيادة بار كوخبا سنة ١٣٥م التي قضى عليها الإمبراطور هادريان، ثم ما تبع ذلك من تدميره أورشليم تدميرا كاملا وإقامة مدينة جديدة على أنقاضها سماها إيليا كابتولينا (Aelia Capitolina).

وفي هذا التطور الجديد اتخذ هادريان إجراءات منع بموجبها اليهود من السكنى في المدينة الجديدة وفي محيطها. وقد كان ذلك سببا في هروب علماء الدين اليهودي من المدينة والتجائهم إلى مناطق أخرى من فلسطين بعيدا عن إيليا كابتولينا، وكان منهم الرابي شمعون بار- يوخاي Rabbi Shimon Bar-Yochai الذي اختفى سنوات عديدة بعد القضاء على الثورة اليهودية. وتقول الروايات اليهودية إن هذا الرابي أصابه مرض شديد في أثناء ذلك ولم يشف منه إلا بعد اغتساله بحمامات طبرية ذات المياه المعدنية الساخنة. وهكذا اعترافا منه بهذا "الجميل" أقام احتفالا دينيا في طبرية برئاسته أعلن فيه "طهارة" المدينة وجعلها مكانا صالحا لسكنى اليهود فيها[24]، وكان ذلك سنة ١٤٩م[25].

غير أنه خلال ما يزيد عن سبعين سنة من هذا الحادث لا نجد في مصادرنا ما يدل على أن المدينة اجتذبت إليها اليهود بأعداد ملحوظة، حتى كانت سنة ٢٢٠ م عندما انتقل إليها مقر السنهدرين (المحكمة الدينية والمجمع الديني الأعلى لليهودية)، الذي كان قد انتقل من أورشليم بعد تدميرها على يدي هادريان إلى عدد من مدن الجليل كان آخرها صفورية، والآن من صفورية إلى طبرية في هذه السنة[٢٦]. وقد استمرت هذه المؤسسة قائمة في طبرية إلى سنة ٤٢٥م، عندما أصدر الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني Theodosius (حكم بين ٤٠٨ و ٤٥٠م) قرارا اعتبر هذا المجمع غير شرعي.

وبالتأكيد استتبع وجود هذا المجمع في طبرية قدوم أعداد من كهنة اليهود للسكنى في المدينة، وكان من أشهرهم في التراث اليهودي الرابي يهودا المقدس Juda Hakkodesh الذي أنجز في مطلع القرن الثالث الميلادي المشنا Mishna وهي مجموعة قوانين اليهود السياسية والدينية والاجتماعية، كما كان منهم الرابي يوحنان Jochanan الذي أنجز بين ٢٣٠ و ٢٧٠م الجمارا Gemara التي تتضمن شروحا وتفسيرات للمشنا[٢٧]. وهذان القسمان يعرفان عادة باسم التلمود الأورشليمي أو التلمود الفلسطيني، تمييزا له من التلمود البابلي. وغير هذين تذكر المراجع اليهودية أسماء حفنة من الكهنة أقاموا في طبرية في أزمنة تاريخية مختلفة، كما تشير إلى معابد يهودية ومدارس دينية أنشئت فيها.

ويمكن تصور أنه كان يحيط بالكهنة وبالمعابد والمدارس سكان من اليهود استوطنوا المدينة. غير أنه في مطلق الأحوال لا

يمكن التعرف إلى أعداد هؤلاء السكان ولا إلى نسبتهم من مجمل عدد السكان. غير أنا نعرف أن يهودا من طبرية، في سنة ٣٥٢م، أي في مطلع العهد البيزنطي، شاركوا يهودا آخرين من صفورية وبلدات أخرى من الجليل في فتنة واضطراب استهدفا السكان المسيحيين، ما اضطر الجيش البيزنطي إلى التدخل واجتياح صفورية وطبرية. وفي الحقيقة ليس هناك معلومات عن أعداد اليهود الذين شاركوا في هذه الفتنة حتى يمكن الاستنتاج بشأن عددهم الإجمالي في طبرية.

مرة أخرى نلتقي من جديد بمعلومات تربط ما بين اليهود وطبرية، لكن بعد مرور ما يزيد عن قرنين ونصف القرن من تلك الفتنة المشار إليها. كان ذلك في أثناء الحرب الفارسية – البيزنطية الكبرى بين ٦١٤ و٦٢٧م. التي اجتاح فيها الفرس في عهد ملكهم خسرو الثاني (كسرى أبرويز) المناطق الواقعة تحت حكم البيزنطيين في سورية وفلسطين ومصر واحتلوا أورشليم. غير أن البيزنطيين استعادوا زمام المبادرة بعد أن تولى هرقل عرش الإمبراطورية وتمكنوا من طرد الفرس من البلاد ولاحقوهم حتى عاصمتهم. وقد شارك اليهود في هذه الحرب إلى جانب الفرس خاصة عندما اقتحمت قواتهم فلسطين. وقد شكلوا فرقة من يهود طبرية والناصرة وبلدات الجليل، قادها يهودي من طبرية عرف باسم بنيامين، وكان ذا ثروة طائلة تمكن بها من تجنيد اليهود في صفوف هذه الفرقة وتسليحهم. وقد كان هؤلاء إلى جانب الفرس تحت قيادة قائد الحملة الفارسية شهربراز عندما احتلوا أورشليم سنة ٦١٥م، حيث نفذ الطرفان مذبحة بحق المسيحيين فيها كانت نتيجتها مقتل ٣٣ ألف شخص بحسب

بعض المصادر، و٩٠ ألفا وفقا لأخرى. وعندما غادر شهربراز أورشليم بقواته متجها إلى مصر أوكل إدراة المدينة لليهود، وكانت لول اعمالهم فيها أنهم استباحوها ثلاثة أيام نهبت فيها المدينة وأضرمت النار في كنائسها، وقد أتت الحرائق على ثلاث مئة دير وكنيسة ومنشأة دينية فيها بينها كنيسة القيامة. وقد دامت سيطرة اليهود على أورشليم ثلاث سنوات.

وفي غير أورشليم تشكلت عصابات من يهود طبرية وأورشليم وبعض بلدات الجليل، وشارك فيها يهود من دمشق، عاثت فسادا في أملاك المسيحيين وولغت في دمائهم ودمرت كثيرا من كنائسهم وأديرتهم. وقد انتهت هذه المأساة عندما تمكن الإمبراطور البيزنطي هرقل من إلحاق الهزيمة بالفرس، ثم إصداره قراره المشهور بمغادرة اليهود أورشليم، والذي قضى أيضا بمنع سكناهم في محيطها ضمن دائرة قطرها ثلاثة أميال. وإلى جانب ذلك تذكر بعض المصادر أنه تمت عمليات انتقام ضد اليهود إثر ذلك بما في ذلك يهود طبرية لدورهم في المذابح التي ارتكبت في فلسطين[٢٨].

كانت صلة اليهود بطبرية في تاريخها القديم إذن قد تراوحت ما بين اعتبارها مدينة "نجسة"، وعلى امتداد نحو من قرن ونصف قرن منذ إنشائها، وما بين استضافتها لعدد من كهنتهم وبعض هيئاتهم الدينية، وبين مشاركتهم بفتن ضد الرومان وأعمال عدوانية موجهة خصوصا نحو المسيحيين المقيمين في المنطقة.

(٥)
طبرية والمسيحية

تعود علاقة المسيحيين بطبرية، وشواطئ بحيرتها بشكل خاص، إلى عهد السيد المسيح. فقد عاصر المسيح هيرود انتيباس (باني المدينة) الذي جاء ذكره في الأناجيل الأربعة برسم هيرودس وبإسقاط أنتيباس من الاسم. كان في زمن المسيح إذن إنشاء مدينة طبرية. غير أنه ليس هناك من دليل يشير إلى أنه قد أقام في هذه المدينة أو زارها. وهو ربما تجنبها لكي لا يكون تحت سلطة أنتيباس مباشرة، وقد أوردت الأناجيل أن هذا نفسه (هيرودس كما جاء رسمه) هو الذي أعدم يوحنا المعمدان في القصة المشهورة في الكتاب المقدس.

وإذا صح أن السيد المسيح لم يدخل طبرية، فإن "العهد الجديد" يخبرنا عن صلة خاصة بينه ومنطقتها وبحيرتها. فما نعرفه من هذا الكتاب أنه بعد أن عمد يوحنا المعمدان السيد المسيح في نهر الأردن غادر إلى الناصرة، ومن هناك انتقل إلى كفر ناحوم (وهي معروفة عربيا باسم تل حوم، وتكتب أيضا تلحوم، وتقع إلى الشمال من طبرية على شاطئها قرب مدخل نهر الأردن الشمالي في البحيرة) ليتخذ من هذه البلدة سكنا، وليعلن منها دعوته الأولى[٢٩]. وفي هذه المنطقة استقطب السيد المسيح تلاميذه الأول الذي عرفوا فيما بعد بالرسل الإثني عشر، وكان خمسة منهم من أبناء المنطقة نفسها وهم سمعان الذي يقال له بطرس وأخوه أندراوس، ويعقوب ويوحنا ابنا زبدي. والأربعة هؤلاء كانوا صيادي سمك[٣٠]، بالإضافة إلى فليبُّس.

وقد جاؤوا جميعا من بلدة عرفت في التاريخ القديم باسم بيت صيدا (وهي تعني بيت الصيادين أو مكان الصيد) والتي قام على أنقاضها فيما بعد قرية "التل" التي تقع على الشاطئ الشمالي لبحيرة طبرية. ومن بلدة شمالي طبرية هي المجدل (على بعد نحو أربعة كيلومترات منها على الشاطئ) كانت مريم المجدلية، الخاطئة التي تابت على يدي المسيح، من ضمن الجماعة الأولى التي آمنت به.

ويفهم من "العهد الجديد" أن حركة المسيح في المنطقة لم تشمل فقط الساحل الشمالي من البحيرة حيث تلحوم أو كفر ناحوم وبيت صيدا، بل شملت أيضا جنوب البحيرة فقد عبرها إلى "كورة الجدريين"[٣١] (هي جدارا التي تعرف الآن باسم أم قيس إلى الشمال من أربد في الأردن وتطل على بحيرة طبرية في جزئها الجنوبي، وكانت آنذاك من "المدن العشرة" أو الديكابولس). كذلك شملت حركته سطح البحيرة نفسها إذ كان يعلّم وهو في سفينة فيها[٣٢].

وعلى شواطئ البحيرة ظهرت معجزاته الكبرى: إعادة الحياة للموتى، وشفاؤه المرضى، وإعادة البصر والسمع إلى من فقدوهما. ومنها كذلك خبر إطعامه نحوا من خمسة ألاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين بعد أن باركها فكثرت[٣٣] ، وأيضا خبر مشيه على سطح البحيرة ليلتحق بسفينة كان بها تلاميذه في عمقها[٣٤]. وغير ذلك أنه بعد وفاته على الصليب (وفق العقيدة المسيحية) ظهر ثلاث مرات كان آخرها على شاطئ البحيرة حيث رآه هناك عدد من تلاميذه وحدثوه وحدثهم[٣٥].

اكتسبت، إذن، منطقة طبرية أهميتها الدينية لدى المسيحيين من صلة المسيح بها ولكونها الأرض التي انطلقت منها دعوته الأولى، وأيضا باعتبارها موطنا لتلاميذه الأول الذين سوف يكون لهم شأن عظيم في نشر الدين المسيحي. غير أن المعلومات شحيحة، إن لم تكن غائبة تماما، عن بدايات صلة المسيحيين بالمدينة نفسها. وربما كانت هذه البدايات في زمن السيد المسيح وفي السنوات القليلة التي أعقبت غيابه. فليس مستبعدا أن يكون بعض سكان المدينة قد اعتنقوا الدين المسيحي الذي ظهر أول ما ظهر في منطقة المدينة. كذلك ليس مستبعدا أن يكون بعضهم قد تأثر بتلاميذ المسيح وخاصة الخمسة منهم الذين كانوا من أهل المنطقة. غير أن ذلك كله يظل تكهنا من غير دليل مادي يثبته. إلا أننا نجد معلومة تعود إلى زمن الثورة اليهودية (٦٧-٧٠م) قد تدل على وجود مسيحيين في المدينة في تلك الفترة. تقول المعلومة إن اليهود طلبوا من فاسبسيان بعد أن استسلمت له طبرية وفتحت له أبوابها ليدخلها سلما (أنظر أعلاه)، أن يسكنوا المدينة وحدهم دون الوثنيين والمسيحيين والسامريين[٣٦]، ما يشي بوجود مسيحيين في طبرية آنذاك.

وسوف يمر وقت طويل بعد ذلك لنتعرف أول مرة على وجود "رسمي" مسيحي في طبرية. كان ذلك في زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير الذي منح حرية العبادة للمسيحيين (٣١٢م) ونقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى بيزنطة وسماها القسطنطينية (٣٣٠م)، معلنا المسيحية دينا رسميا لإمبراطوريته. في زمنه نشأت أول كنيسة مسيحية في طبرية، وقد أنشأها أحد سكانها، ويدعى

جوزيف Joseph، وكان قد تحول من اليهودية إلى المسيحية، وقام بدور كبيرفي نشر هذا الدين في المنطقة. وقد أقام جوزيف هذه الكنيسة على موقع معبد روماني كان الإمبراطور هادريان (حكم من ١١٧ إلى ١٣٨م) قد أنشأه في المدينة تخليدا لاسمه. ونتيجة لجهود جوزيف في نشر المسيحية منحه الامبراطور قسطنطين لقب كونت[٣٧]. وفي زمن هذا الإمبراطور أيضا نسمع بوجود أسقف لمدينة طبرية، كما تتردد بعد هذا الزمن أسماء عدد من الأساقفة من طبرية، منهم يوحنا John الذي شارك في أعمال المجمع المسكوني في أفسس Ephesus سنة ٤٣١م، ومجمع خلقدونية Chalcedon سنة ٤٥١م، ويوحنا الثاني الذي شارك في مجمعين عقدا سنة ٥١٨ وسنة ٥٣٦، وجورج الذي شارك في مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣[٣٨].

وبذلك يمكن أن يكون الدين المسيحي قد ساد في طبرية في العهد البيزنطي، نتيجة تنصر الإمبراطورية التي كانت تحكم المنطقة، حتى قدوم المسلمين الفاتحين.

(٦)
بقايا أثرية
من زمن الرومان والبيزنطيين

قصر انتيباس: دلت التنقيبات الأثرية في طبرية على بقايا ما يعتقد أنه القصر الذي كان قد أقامه أنتيباس عند إنشائه المدينة. وتشمل هذه

البقايا أرضية مبلطة بالرخام وجدارا مجصصا باللون الأحمر وقطعا جصية حمراء وخضراء وزرقاء[٣٩].

المدرج الروماني: يعود هذا المدرج إلى زمن أنتيباس، وقد اكتشفت بقايا منه في العام ٢٠٠٥. وكان سكان طبرية يستمتعون فيه بمتابعة سباق العربات، كما كان يستخدم مكانا للاجتماعات في المناسبات العامة[٤٠].

المسرح: مبنى كبير يعود إلى ما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وظل يستخدم في العصر البيزنطي. وما اكتشف من هذا المبنى بقايا جدار بطول ٣٥ مترا، وقسم من منصة المسرح. ويقدر أن المبنى كان يستوعب نحوا من ٥٠٠٠ مشاهد[٤١].

البازليكا الرومانية: أقيم هذا المبنى الضخم على أنقاض قصر أنتيباس (المذكور أعلاه)، وقد أنشئ أول مرة في القرن الثاني الميلادي، وأعيد بناؤه في القرن الرابع، ثم حول في العصر البيزنطي (في القرن السادس) إلى كنيسة. وقبل أن يتحول إلى كنيسة كان المبنى يستخدم مكانا للاجتماعات العامة. وتدل بقايا هذا المبنى على أن مساحته كانت تبلغ نحوا من ألفي متر مربع، ويشمل بالإضافة إلى قاعته الرئيسية نحوا من ٢٥ غرفة، وساحة ذات أعمدة، وقاعة استقبال، ومدخلا ناتئا شبه دائري. كما اكتشف تحته خزان ماء كبير محمول سقفه على أقواس[٤٢].

السوق المسقوفة: تقع قرب البازليكا (المذكورة أعلاه)، وقد دل على موقعها اكتشاف قواعد أعمدة مصطفة على مساحة تبلغ نحوا من

٨٠٠ متر مربع. كذلك اكتشفت قواعد أعمدة ضخمة كانت تسند السقف الذي يغطي السوق. كما اكتشف في الموقع بقايا دكاكين كانت تصطف على ممر فيه. وقد بنيت هذه السوق في القرن السادس الميلادي[٤٣].

الكنيسة البيزنطية: اكتشفت هذه الكنيسة بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٣، وهي تقع على قمة الجبل المطل على طبرية من الجهة الغربية*. وكان عرب طبرية قبل ١٩٤٨ يطلقون على بقايا هذه الكنيسة اسم "قصر بنت الملك"، اعتقادا منهم أنها كانت قصرا أو قلعة ملكية في التاريخ القديم. وقد انتقل هذا الاعتقاد إلى المكتشف الألماني جوتليب شوماخر Guttlieb Schumacher الذي زارها وكتب عنها (١٨٨٧) وقال إنها بقايا قصر أنتيباس باني مدينة طبرية[٤٤]. غير إن الحفريات الأثارية الحديثة التي جرت في تسعينيات القرن الماضي أكدت حقيقة كونها بقايا كنيسة.

تبلغ مساحة الكنيسة ٤٨×٢٨ مترا، وتشمل بالإضافة إلى المبنى الرئيسي مدخلا ناتئا وغرفا عدة وقواعد أعمدة وممرات معمّدة تحيط بالمبنى مرصوفة بالفسيفساء التي تظهر فيها رسوم رمان وأعناب وطيور. وقد اكتشف تحت المبنى خزان ماء كبير كانت

---

* كان أهل طبرية العرب في العصر الحديث يسمون الجبل "جبل القعقعية" كما يسمى أحيانا "جبل اللوزات". وقد عرف أيضا باسم "جبل برنيك" Berenice نسبة إلى إحدى أميرات الأسرة الهيرودية التي كانت تحمل هذا الاسم.

تجمع فيه مياه الأمطار الهاطلة على سطح المبنى وساحاته الخارجية. وتطل الكنيسة من جهتها الشرقية على بحيرة طبرية وشواطئها التي كانت مسرحا لنشاطات السيد المسيح[45].

وقد أظهرت التنقيبات أن الكنيسة عمرت أكثر من مرة، أولاها كانت في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، إلا إنها أصابها خراب كبير، إلى حد الدمار، نتيجة زلزال ضرب المنطقة سنة ٧٤٩م (أواخر العصر الأموي). وقد أعيد بناؤها على أنقاض المبنى القديم في وقت مبكر من العصر العباسي، وأجريت تعديلات عليها في زمن الفاطميين. وقد ظلت قائمة إلى زمن الاحتلال الفرنجي (الصليبي) لطبرية. وقد أضاف إليها الفرنج برج جرس (جرسية) في مقدمتها، وأعمدة متوجة، كما عززوا جدرانها الخارجية. ويبدو أن الكنيسة فقدت وظيفتها بعد هزيمة الفرنج في حطين (١١٨٧م)، إذ نجد أنها أخذت تستخدم بعد ذلك كمكان سكني[46].

السور البيزنطي: أنشأ هذا السور الامبراطور البيزنطي جوستنيان في القرن السادس الميلادي، واستمر قائما طوال العهد الإسلامي إلى أن كان الفرنج الذين أجروا تعديلات جذرية في المدينة كما كانت في العهد الإسلامي وأنشأوا لها سورا جديدا. كان السور يمتد على طول ٢,٨ كم وهو يحيط بالمدينة من جنباتها الثلاث (باستثناء واجهتها على البحيرة) ويشمل داخله حمامات طبرية المعدنية (التي تقع إلى الجنوب من المدينة) ويتسلق الجبل (القعقعية) إلى أن يصل إلى موقع قرية ناصر الدين التي تقع إلى الغرب من طبرية الحالية. بقي من آثار هذا

السور، كما أظهرت التنقيبات الأثرية، قطعة بطول نحو من ٥٠ مترا تتجه من الغرب إلى الشرق ومتعامدة مع شاطئ البحيرة، وبقايا برج عند هذه القطعة من السور تظهر قاعدته المكتشفة أن أبعادها كانت ٥×٢,٥ أمتار. كما اكتشفت قطعة أخرى من السور على قمة الجبل بطول ١٠ أمتار وبسمك ٣,٢ م وعلى جانبي هذه القطعة برجان كل منهما كان بقاعدة تبلغ ٨×٧,٢ م[٤٧].

(٧)
محيط البحيرة

لم تحجب طبرية من حيث هي المدينة الرئيسية على بحر الجليل أهمية بلدات أخرى نشأت، في التاريخ القديم، على امتداد شواطئه بجهاتها جميعا، في الشمال والجنوب كما في الشرق والغرب. كانت الأرض الخصبة، ومصادر المياه الوفيرة، والثروة السمكية في البحيرة أسبابا جذبت السكان إلى المنطقة ليقيموا على الشواطئ تلك البلدات التي أحاطت بالبحيرة. وإلى ذلك، كانت القداسة التي أسبغتها حركة السيد المسيح في المنطقة مهمة جدا في تخليد تلك البلدات في ذاكرة التاريخ، وأيضا في جعلها مناطق جذب للقادمين إليها بقصد "الحج" وزيارة الأماكن التي ارتبط ذكرها بالدعوات المسيحية الأولى. ونعرض فيما يلي لأبرز تلك البلدات متجهين شمالا من مدينة طبرية وعلى امتداد شواطئ البحيرة الغربية والشمالية والشرقية (انظر الخريطة رقم ٤).

المجدل

تلتقي الكلمة العربية "مِجدل" (بكسر الميم) مع كلمة "مِجدلا" الآرامية بمعنى واحد تقريبا، فالعربية تعني "القصر المشرف"[48]، بينما تعني الآرامية "البرج". والكلمتان تشيران إلى هذه البلدة التي تقع على ساحل البحيرة على مسافة نحو من ستة كيلومترات إلى الشمال من طبرية. وقد أسست البلدة في العهد اليوناني، ما بين أواخر القرن الثالث وأوائل الثاني قبل الميلاد. وقد عرفت البلدة أيضا بالإضافة إلى هذه التسمية باسم تاريشيا Tarichea، وهي كلمة يونانية تعني إجمالا مكان السمك المملح[49]. وقد اشتهرت البلدة به، وكانت صادراتها منه في العصر الروماني تصل حتى إلى روما.

من الآثار التي اكتشفت في المجدل برج بارتفاع نحو من سبعة أمتار وبسمك نحو من ٢,٢ متر، وربما كان هذا البرج هو الذي أعطاها اسمها الآرامي. كذلك اكتشفت فيها بقايا ميناء كان رصيفه يمتد بطول نحو من مئة متر[50]. وتنسب إلى المجدل مريم المجدلية المرأة التي أخلصت للسيد المسيح، وسارت معه إلى أورشليم، وكانت هي أول من شاهده يبعث من قبره بعد صلبه، وكانت هي التي أخبرت تلاميذه بأنه حي، حسب المعتقدات المسيحية[51].

الطابغة

الكلمة تحريف للكلمة اليونانية هبتابغون Heptapegon التي تعني الينابيع السبعة، وهي كانت موجودة في التاريخ القديم للموقع

(وقد عرف منها حديثا ستة فقط) وكانت ذات مياه ساخنة. تقع الطابغة على ساحل البحيرة على مسافة ١٣ كيلومترا إلى الشمال من مدينة طبرية. من آثارها التي تدل على نشاطها الاقتصادي في العصر الروماني بقايا ميناء اكتشفت حديثا مع "كاسح أمواج" يقي الميناء من اضطرابات البحر"[٥٢].

جرى خلط في التراث المسيحي ما بين الطابغة وبيت صيدا (سندل عليها بعد قليل)، إذ كانت البلدة الأخيرة مجهولة المكان، فنسب كثير من المعجزات التي قام بها المسيح إلى الطابغة كالمشي على سطح البحيرة، وإطعام الخمسة آلاف من خمسة أرغفة وسمكتين. الآن بعد أن تحدد موقع بيت صيدا فقد عادت تلك الأحداث لتنسب إليها. وربما يعود سبب هذا الخلط إلى ما رواه الحجاج المسيحيون عن المنطقة في العصر البيزنطي، ومن ذلك ما كتبته الحاجة الإسبانية إيجيريا Egeria سنة ٣٨٣م عن رحلة قامت بها إلى المشرق، فقالت عن منطقة الطابغة: "في مكان غير بعيد عن كفرناحوم (تلحوم) مواجه لبحر الجليل هناك أرض مغطاة بالأعشاب الوافرة وأشجار النخيل. وقريب منها سبعة ينابيع ذات مياه وفيرة. وفي هذه الحديقة المثمرة أطعم المسيح خمسة آلف شخص من خمسة أرغفة وسمكتين. وقد تحول الحجر الذي وضع عليه المسيح الخبز إلى مذبح. ويقوم الحجاج الذين يزورون الموقع باقتطاع أجزاء من هذا الحجر لمعالجة مرضاهم". وتضيف إيجيريا وصفا لخمس درجات على شاطئ البحر حيث كان المسيح يقف، كما تشير إلى وجود معبد مسيحي صغير كان آنذاك يضم بين جنباته الحجر الذي أطعم عليه

المسيح الآلاف الخمسة[53]. وعلى أساس هذا التراث الشفوي، بنيت في الموقع نفسه كنيسة ضخمة في القرن الخامس أصابها الدمار غير مرة، إلى أن أعيد بناؤها في شكلها النهائي سنة ١٩٣٣م. وقد اكتشفت في الموقع القديم مجموعة من أجمل قطع الفسيفساء التي تعود إلى العصر البيزنطي.

عين أيوب

مياه كبريتية حارة تقع في حدود منطقة الطابغة وهي واحدة من الينابيع السبعة التي سميت الطابغة تبعا لها. وفي التراث الشعبي أن النبي أيوب كان استشفى من أمراضه بمياه هذه العين.

تلحوم

تعرف في "العهد الجديد" باسم كفر ناحوم، كما تكتب باللغة الإنجليزية برسم Capernaum. وهي تقع على شاطئ البحيرة على بعد نحو من ١٥ كم إلى الشمال من طبرية. وتاريخ البلدة قديم، إذ دلت التنقيبات على بقايا سور يعود إلى عصر البرونز القديم (الألف الثالثة قبل الميلاد)[54]. إلا أن البلدة، كما هي معروفة من آثارها المكتشفة، ومما كتب عنها في القديم، يعود إنشاؤها إلى القرن الثاني قبل الميلاد (في العصر اليوناني). وقد اشتهرت في العهد الروماني بمينائها الممتاز الذي اكتشفت بعض بقاياه حديثا، وهي تدل على أن رصيف الميناء كان يزيد عن ٨٥ مترا طولا[55]. كذلك تدل التنقيبات الآثارية على أن البلدة كانت قد شهدت ازدهارا اقتصاديا كبيرا في العصرين الروماني والبيزنطي، فقد كانت تقع على فرع من "طريق

البحر" المشهور في التاريخ القديم باعتبـاره الطريـق التجـاري الرئيـسي الذي يربط بلاد الشام بمـصر (راجـع عنـه أعـلاه)، كمـا يتبـين هـذا الازدهـار بوضـوح مـن عمائرهـا الـضخمة وحماماتهـا وشـوراعها المنظمة التي اكتشفت آثارها وتعود إلى نينك العصرين[٥٦].

غير أن أهمية البلدة ارتبطت أكثـر مـا يكـون بـصلتها بالـسيد المسيح الذي اتخذها موطنا له قادما إليهـا مـن الناصـرة بعـد أن تعمـد على يدي يوحنا المعمدان، ومنها أخـذ يبـشر برسـالته[٥٧]. وفيهـا أظهـر المسيح عددا من معجزاته كما وردت فـي الأناجيـل[٥٨]. وقـد نـشا منـذ وقت مبكر اعتقاد مسيحي بأن المـسيح كـان يقـيم، عنـدما اتخـذ كفـر ناحوم موطنا له، في بيت القديس بطـرس، أحـد تلاميـذه الكبـار. وقـد ثبت هذا الاعتقاد الحجـاج المـسيحيون والرحالـة الـذين زاروا الموقـع وقالوا إنهم تعرفوا على بيـت بطـرس فيـه. ومـنهم الحاجـة الإسـبانية إيجيريا (التي أشرنا إليها أعلاه) التي كتبـت تقـول (فـي القـرن الرابـع الميلادي) إنها شاهدت هذا البيت وإن ثمة كنيـسة صـغيرة بنيـت علـى موقعه. كذلك ذكر الرحالـة الإيطـالي المعـروف بـصفة "الحـاج مـن بياسـنزا" Pilgrim of Piacenza (فـي القـرن الـسادس المـيلادي) أنـه شاهد بيت بطرس وقد بنيت عليه كنيسة كبيرة[٥٩]. وقـد سـعى الآثـاريون المحدثون إلى التحقق من هذا المعتقـد، فـدلت التنقيبـات التـي أجروهـا في أوائل ثمانينيات القرن الماضي على وجود بقايـا مبنـى قـديم (تحـت موقع الكنيسة) يعود إلى القـرن الأول المـيلادي وعلـى مـا بقـي مـن جدرانه كتابات مسيحية (باليونانية والأراميـة)، أوصـلتهم إلـى تـرجيح أن يكون هذا المبنى هو بقايا بيت بطرس.

بيت صيدا

تكتب عادة بالإنجليزية برسم Bethsaida من الكلمة الآرامية التي تعني بيت الصيادين. وهي تقع ـ كما هي آثارها الآن ـ على مرتفع، يعرف باسم "التل"، على بعد نحو من كيلومترين من شاطئ بحيرة طبرية الشمالي وإلى الشرق من مجرى نهر الأردن. يعود تاريخ المدينة إلى زمن موغل في القدم، فقد ارتبط اسمها القديم زير Zer باسم مملكة جيشور (كانت تقع إلى الشرق والشمال من بحيرة طبرية) التي جاء ذكرها في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد وجدت الحفريات الحديثة بقايا أبنية تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وهي تدل على عظمة المدينة آنذاك، فقد كانت تشمل قصورا وأسوارا وبوابات ومباني ضخمة. وقد تعرضت المدينة للتدمير على أيدي الأشوريين في أثناء غزوهم البلاد السورية بقيادة ملكهم تغلات فلاصر الثالث. إلا أن المدينة أعيد بناؤها وعادت إلى الازدهار في العصرين اليوناني والروماني. وفي سنة ٣٠ للميلاد، جعلها فليب، ابن هيرود الكبير وأخو أنتيباس باني مدينة طبرية، على طراز المدن الرومانية، وسماها جولياس Julias على اسم أم الامبراطور تيبيريوس[٦٠]. إلا أن هذه التسمية لم تطغَ على اسمها الشائع (بيت صيدا) الذي ظل في التداول.

حظيت بيت صيدا في التراث المسيحي بمكانة مميزة لارتباطها بالمعجزات التي قام بها المسيح في منطقة الجليل، ولكونها

موطنا لعدد من تلاميذه. ففيها شفى أعمى بأن تفل في عينيه[٦١]، وأظهر معجزته بأن أطعم خمسة آلاف شخص من خمسة أرغفة وسمكتين[٦٢]، وعندها مشى على سطح البحر[٦٣]. وبيت صيدا هي موطن فيلبس وأندراوس وبطرس من تلاميذه[٦٤].

لكن على الرغم من شهرة هذه المدينة في التاريخ القديم، وخاصة في التراث المسيحي، فقد اختفت آثارها قرونا عديدة، وربما قد اندثرت معالمها بفعل الزلازل العنيفة التي كانت تضرب المنطقة، ولم ينجح الرحالة الأقدمون في تعيين موقعها بالتحديد. وقد بدأت جهود في البحث عن المدينة الضائعة في العام ١٨٣٩ عندما طرح الباحث الأميركي إدوارد روبنسون Edward Robison احتمالا بأن تكون بيت صيدا في موقع قرية التل (المذكورة أعلاه) على بعد كيلومترين من شاطئ البحيرة الشمالي. غير أنه بعد عقود من ذلك رأى الباحث الألماني جوتليب شوماخر Gottlieb Schumacher أنه من غير الممكن أن تكون قرية للصيادين، كما يدل اسمها، وهي على هذا البعد من البحيرة[٦٥]. وقد استغرق الأمر عقودا عديدة أخرى قبل أن تجري تنقيبات مكثفة في هذا الموقع من أجل التوصل إلى الحقيقة في هذا الشأن. وكان ذلك عندما تشكل في العام ١٩٩٠ فريق عمل من أركيولوجي إسرائيلي وآخرين من الولايات المتحدة للتنقيب في الموقع. وقد استضافت الفريق جامعة نبراسكا الأميركية. وفي العام ٢٠٠٠ م نشر الفريق تقريرا عن النتائج التي توصل إليها من خلال التنقيبات التي أجراها[٦٦]، الذي أكد أن موقع "التل" هو فعلا المكان الذي كانت تقام عليه مدينة بيت صيدا. وقد علل التقرير ابتعادها

الحالي عن شاطئ البحيرة بمقدار كيلومترين بأن البحيرة، كما تبين لفريق العمل من المسح الجيولوجي، كانت في التاريخ القديم أوسع مساحة من واقعها الحالي، وبأن شواطئها في الشمال كانت تصل إلى هذا الموقع.

كرسي

كتبها ياقوت كرسي دون أل التعريف[٦٧]. تقع على الساحل الشرقي لبحيرة طبرية قرب ولد معروف باسم وادي السمك. وقد كشفت التنقيبات عن وجود آثار تدل على أن البلدة كانت في زمن الرومان كثيرة البنيان وذات أسور تحيط بها، كما كان لها ميناء جيد يحميه كاسح لأمواج ما حول الميناء إلى "بحيرة" صغيرة هادئة في بحر الجليل. ويرتبط موقع كرسي في التراث المسيحي بمعجزة المسيح المعروفة بـ"معجزة الخنازير"، إذ تنص الأناجيل على أن المسيح قدم إلى المنطقة عابرا بحر الجليل بسفينة، فرأى شخصا تسكنه الأرواح الشريرة (الشياطين) فأمرها بأن تخرج من جسد هذا الرجل وتسكن أجساد قطيع من الخنازير، ثم أمر الخنازير بأن ترتمي في البحر حيث غرقت جميعا[٦٨]. وعلى الرغم من أن الأناجيل لم تحدد موقع كرسي ليكون مكانا لهذه المعجزة، إلا أنه نشأ في التراث المسيحي بدءا من القرن الثالث اعتقاد روجه الحجاج المسيحيون للأماكن المقدسة أن المعجزة حدثت في هذا الموقع[٦٩]. وتخليدا لهذه الذكرى بني في هذا الموقع في القرن الخامس الميلادي (في العصر البيزنطي) دير كبير اكتشفت آثاره حديثا، وقد استمر قائما إلى القرن السابع الميلادي عندما دمره الفرس في غزوتهم للمنطقة سنة

٦١٤م[٧٠]. وقد استمرت كرسي قائمة إلى أن دمرها زلزال ضرب المنطقة سنة ٧٤٩م.

هيبوس

تذكر في التاريخ بلفظ هيبوس Hippos التي تعني باليونانية الحصان، كما تعرف باسم سوسيتا Sossita وهي كلمة آرامية تعني الفرس، وكلتا اللفظتين تشيران إلى شكلها الطوبوغرافي الذي يرتسم على صورة متن الحصان. تقع على مرتفع يطل على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية، غير أنها كانت متصلة بالبحر من خلال مينائها عليه[٧١]. بناها اليونان حوالي سنة ٢٠٠ ق. م. وربما كان سبب بنائها أن تكون حصنا للسلوقيين متقدما في مواجهتهم للبطالمة في أثناء الصراع بين الدولتين (اللتين ورثتا الإسكندر الكبير) في السيطرة على سورية. كانت هيبوس أو سوسيتا إحدى المدن العشرة (الديكابوليس)، وهذا يدل على أنها كانت متقدمة عمرانيا ومزدهرة اقتصاديا. وقد كشفت التنقيبات الحديثة عن آثار تعود إلى العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية تشمل مباني عامة ضخمة، وساحات، وشوارع مبلطة، وبوابات، وأسوارا، وكنائس[٧٢]. وقد هجرت المدينة بعد زلزال سنة ٧٤٩م.

خربة الكرك

على تلة عند الزاوية الجنوبية الغربية للبحيرة، وهي عرفت بهذا الاسم في العصر الحديث لخرائب فيها تدل على وجود قلعة قديمة فيها. اسمها القديم بيت يراح، وهي كلمة كنعانية تعني بيت

القمر أو مدينة القمر. يعود تاريخ المدينة إلى عصر البرونز الأول (٣١٥٠-٢٣٠٠ ق.م) في زمن الكنعانيين، وهم الذين أعطوها اسمها الأول، وقد جرى تحصينها آنذاك بأسوار واشتهرت لوقوعها على الطرق التجارية بين امبراطوريات الشرق القديم في مصر ومنطقة ما بين النهرين. وقد دمرت المدينة في الألف الثانية قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها في العصر الفارسي (في القرن الخامس قبل الميلاد). وفي العهد الهلنستي بنيت مدينة جديدة على قواعد المدينة القديمة باسم فيلوتريا Philoteria حاملة بذلك اسم اخت ملك البطالسة في مصر بطليموس فيلادلفيوس الثاني Ptolemy Philadelphus II الذي حكم بين ٢٨١ و٢٤٦ ق.م. وقد بنى الرومان قلعة في المدينة عرفت باسم صنابري Sinnabry. وقد ازدهرت المدينة اقتصاديا خلال العصر الهلنستي وأوائل العصر الروماني إذ كانت بمثابة مفرق طرق منها إلى حاصور فدمشق في الشمال، وإلى بيسان فالقدس فمصر في الجنوب، وفي الغرب إلى جبل طابور فحطين فعكا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى دمشق في الشرق. وقد تراجعت أهمية المدينة اقتصاديا بعد إنشاء مدينة طبرية سنة ٢٠ ميلادية إذ استأثرت بالتجارة العابرة في المنطقة[٧٣].

وقد عرف العرب المسلمون بعد فتحهم بلاد الشام هذه المدينة باسمها الروماني مع تنويع لفظي فأطلقوا عليها اسم "الصنبرة"[٧٤]. وقد ورد لها ذكر متكرر في التاريخ العربي الإسلامي لموقعها الاستراتيجي المتميز في منطقة جنوب بلاد الشام، وهو ما سوف ترد

الإشارة إليه غير مرة في الفصل الثاني أدناه. وقـــد انـــدثرت أهميـــة هـــذه المدينة بدءا من العصر المملوكي.

حواشي الفصل الأول

(١) سفر التكوين، ٢٥: ٢٤-٣١.

(2) D.B. Redford, *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times* (Princeton: Princeton University Press, 1992), pp. 228, 318.

(3) Thomas E. levy and Mohammad Najjar, "Edom and Copper: The Emergence of Ancient Israel's Rival", *Biblical Archaeology Review*, 32:04 (Jul/Aug 2006).

(٤) انظر "The Petra Great Temple" من تحرير دائرة الأنثروبولوجيا في جامعة براون محفوظا على:

www. brown.edu/departments/Petra/excavations/history

(٥) انظر عن هذا الغزو:

Flavius Josephus, *The Antiquities of the Jews*, translated by William Whiston, Book XIII, Chapter 9, Section 1, as maintained on: Project Gutenberg .

(6) Josephus, Ant., Book XIV, Chapter 1, Section 3.

(7) *Ibid*, Book XIV, Chapter 8, Section 3.

(8) *Ibid*, Book XIV, Chapter 13, Section 3.

(٩) في: سفر التثنية ٢٣:٨ عن الأدوميين: "الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم جماعة الرب".

(10) Jewish Encyclopedia, art. "Idumea".

(11) Josephus, Ant., Book XVIII, Chapter 5, Section 2.

(12) *Ibid*, Book XVIII, Chapter 7, Section 2.

(13) "Surprising Finds were Discovered in the IAA Excavations", maintained 7/8/2007, on Israel Antiquities Authority's server israelantiquities.org.il

(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧)، م. ٣، ص. ٥٨.

(15) Pliny the Elder, *The Natural History*, edited by John Bostock and H.T. Riley (London: Taylor and Francis, 1855), Book V, Chapter 15, Section 16, as maintained on server: www. perseus.tufts.edu

(16) Yizhar Hirschfeld, *A Guide to Antiquity Sites in Tiberias* (Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 1992), p. 25.

(17) "Ancient Tiberias Reveals More of its Beauty", *Science Daily*, July 29, 2005, quoting: The Hebrew University of Jerusalem.

(18) Josephus, *Ant.*, Book XVIII, Chapter 2, Section 3.

(19) *The Geography of Strabo*, translated with notes by H.C. Hamilton and W. Falcnor (London: George Bell and sons, 1903, as maintained on www. perseus. tufts. edu,), Book 16, Chapter 2, Section 34.

(20) Josephus, *Ant*, Book XVIII, Chapter 2, Section 3.

(21) Estee Dvorjestski, "Healing Waters: The Social World of Springs in Roman Palestine', *Biblical Archaeology Review*, July/August 2004.

(22) Flavius Josephus, *The Wars of the Jews*, translated by William Whiston, as maintained on www. project Gutenberg.com, Book III, Chapter 9, Sections 7, 8.

(23) Josephus, *The Wars*, Book III, Chpter 10, Section 10.

(24) Jewish Encyclopedia, Art. Tiberias.

(25) Hirschfeld, *A Guide etc, op.cit*, p. 56.

(26) *Idem*, see also: www.thesanhedrin.org

(27) Catholic Encyclopedia, Art. Tiberias.

(٢٨) أوردنا تفصيلات هذه الحـوادث، مـع مـصادرها، فـي كتابنـا: **عهـد إيليـاء والـشروط العمريـة: نمـوذج تطبيقـي لاسـتخدام أدوات التفكيـك فـي تـصحيح التاريخ الإسلامي** (عمان: دار المناهج، ٢٠٠١)، ص ص. ٧٥-٧٩.

(٢٩) إنجيل متى، ١٢:٤-١٧.

(٣٠) نفسه، ٤: ١٨-٢٣.

(٣١) إنجيل مرقس، ١: ١٥ إنجيل لوقا، ٨: ٢٦.

(٣٢) إنجيل لوقا، ٥: ١- ٤.

(٣٣) إنجيل مرقس، ٦: ٣٨-٤٤.

(٣٤) نفسه، ٦: ٤٥-٥٣.

(٣٥) إنجيل يوحنا، ٢١: ١.

(36) Catholic Encyclopedia, Art. Tiberias.

(37) Fr. James Heinsch, "A Catholic views Zionism and the State of Israel", *The Holy Land*, A quarterly published by the Franciscan Custody of the Holy Land (1999), online version maintained on server: www.christusrex.org.

(38) Catholic Encyclopedia, Art. Tiberias.

(39) Yizhar Hirschfeld and Eran Meir, "Tiberias 2004", *Hadashot Arkheologiyot*, of the Israel Antiquities Authority – electronic English version: www. Hadashot-esi.org-il (118-2006).

(40) *Israel Today Magazine* (August 18, 2005), as maintained on server: www.israeltoday.co.il

(41) Hirschfeld, *A Guide etc, op.cit.*, pp. 23-24.

(42) *Science Daily* (July 29, 2005), quoting The Hebrew University of Jerusalem.

(43) Hirschfeld, *A Guide etc, op.cit.*, p. 16.

(44) Yizhar Hirchfeld, *Excavations at Tiberias 1989-1994* (Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 2004), p. 76.

(45) "Tiberias-The Anchor Church", as maintained on Israel Ministry of Foreign Affairs' server: www.mfa.gov.il

(46) Hirschfeld, *Excavations etc, op.cit*, pp. 77-78.

(47) Hirschfeld, *A Guide etc, op.cit.*, p. 10.

(٤٨) ياقوت الحموي، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٥٦.

(49) "Major New Excavation Planned for Mary Magdalene Hometown", *Biblical Archaeology Review*, September/October 2007.

(50) Mendel Nun, "Ports of Galilee", *Biblical Archaeology Review*, July/August 1999.

(٥١) **إنجيل مرقس**، ١٦: ٩-١١.

(52) Mendel Nun, *op.cit.*.

(53) Tabgha-Christian Site", as maintained on server: www.fectio.org.uk

(54) John C.H. Laughlin, "Capernaum: From Jesus' Time and After", *Biblical Archaeology Review*, September/ October 1993.

(55) Mendel Nun, *op. cit.*

(56) John C.H. Laughlin, *op. cit.*

(٥٧) **إنجيل متى**، ٤: ١٣-١٧.

(٥٨) **إنجيل متى**، ٨: ٥-١٣، ٢٣-٣٤؛ **إنجيل لوقا**، ٧: ١-١٠؛ **إنجيل يوحنا**، ٤: ٤٦-٥٣؛ **إنجيل مرقص**، ١: ٢١-٢٥، ٣: ٩.

(59) James F. Strange and Hershel Shanks, "Has the House Where Jesus Stayed in Capernaum Been Found?", *Biblical Archaeology Review*, November/ December 1982

(60) Flavius Josephus, *The Wars, op.cit.*, Book II, chapter 9, Section 1.

(٦١) إنجيل مرقس، ٨: ٢٢-٢٦،

(٦٢) إنجيل لوقا، ٩: ١٠-١٧.

(٦٣) إنجيل مرقس، ٦: ٤٥-٥٣.

(٦٤) إنجيل يوحنا، ١: ٤٤.

(65) "Bethsaida-Location", an article by the University of Nebraska at Omaha (USA) as maintained on its server: www.unomaha.edu.

(66) Rami Arav, Richard Freund and John Shorder, "Bethsaida Rediscovered: Long-lost City Found North of Galilee Shore", *Biblical Archaeology Review*, Jan/Feb 2000.

(٦٧) ياقوت الحموي، المصدر المذكور، المجلد الرابع، ص. ٤٥١.

(٦٨) تختلف روايات الأناجيل اختلافات ضئيلة حول هذه المعجزة، وإن كانت تلتقي في الجوهر. انظر: إنجيل مرقص، ٥: ١-٢٠؛ إنجيل لوقا ٨، ٢٦-٣٩؛ إنجيل متى، ٨؛ ٢٨-٣٤.

(69) Vassilios Tzaferis. "A Pilgrimage to the Site of the Swine Miracle", *Biblical Archaeology Review*, March/ April 1989.

(70) Charles R. Page, "Kursi Excavation Project", *The Bible and Interpretation*, as maintained on server www.bibleinterp.com.

(71) Mendel Nun, *op.cit.*

(٧٢) انظر تقريرا حديثا عن هذه التنقيبات (٢٠٠٣) كتبه المسؤولان عن التنقيب كما يلي:

Arthur Segal and Michael Eisenberg, "Hippos-Sussita Excavation Project – The Fourth Season (October 2003)", *The*

Bible and Interpretation, as maintained on server www.bibleinterp.com.

(٧٣) انظر عن تاريخ بيت يراح القـديم: "Tell Beit Yerah". As maintained on server:www. biblewalks. Com

(٧٤) ياقوت الحموي، المصدر المذكور، م. ٣، ص. ٤٢٥.

الفصل الثاني

من الفتح الإسلامي حتى الاحتلال الفرنجي

(١)
الفتح الإسلامي

جاء فتح العرب المسلمين طبرية في أثناء موجة الفتوح الكبرى التي ابتدأت في عهد الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق، واتسعت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وتختلف الروايات في مصادرنا العربية القديمة بشأن الترتيب الزمني لهذا الحدث في إطار سلسلة الفتوح والمعارك التي حدثت في الشام آنذاك. إلا أن ما تؤكده هذه المصادر أن موقعة أجنادين بين الرملة وبيت جبرين في فلسطين كانت أولى المواقع الكبرى في سلسلة هذه الفتوح وقد جرت في جمادى الأولى سنة ١٣هـ (تموز ٦٣٤م)[١] في آخر أيام أبي بكر الصديق. ويختلف الترتيب بعد ذلك بين مصدر وآخر من أجنادين إلى موقعة اليرموك وما كان بينهما في فحل ودمشق وطبرية إذ يتقدم بعضها في مصادر، ويتأخر في مصادر أخرى. غير أن التدقيق في هذه الروايات المختلفة يمكن أن يقود إلى نوع من الاطمئنان التاريخي إلى أن سلسلة الحوادث جرت كما يلي:

بعد موقعة أجنادين توجهت القوات الإسلامية باتجاه الشمال الشرقي وتجمعت في موقع فحل مقابل بيسان على الضفة الشرقية لنهر الأردن، وهي المعروفة في التاريخ القديم باسم بيلا Pella وكانت أحدى "المدن العشر" التي كنا أشرنا إليها في الفصل السابق. وقد واجه المسلمون في هذا الموقع قوة كبيرة حشدها الروم فكتبوا، وهم في هذا الموقع، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشرحون له الأمر، فأشار عليهم أن يبدأوا بدمشق أولا "فإنها حصن الشام وبيت

مملكتهم"، على أن يتركوا مقابل الروم في فحل قوة عسكرية تشاغلهم، فإن تمكنوا من دمشق فليتوجهوا بعدها إليها[٢]. وقد سار المسلمون من فحل إلى دمشق بقيادة خالد بن الوليد وابي عبيدة عامر ابن الجراح حيث فرضوا عليها حصارها المعروف الذي استمر سبعين يوما في بعض الروايات وأربعة أشهر في روايات أخرى، إلى أن تمكنوا منها في رجب سنة ١٤ هـ (آب ٦٣٥م)[٣]، وعقدوا مع أهلها صلحا (سوف نعود إليه بعد قليل).

بعد هذا عادت قوة من المسلمين إلى فحل بقيادة شرحبيل بن حسنة حيث فرضت حصارا عليها بينما انطلقت فئة منها بقيادة أبي الأعور عمرو بن سفيان السُلَمي لحصار طبرية. وقد سقطت فحل بيد المسلمين في ذي الحجة سنة ١٤ هـ (شباط ٦٣٦م) بعد حصار طويل ومقاومة شديدة، وكانت خسارة الروم (البيزنطيين) فيها فادحة، إذ روي أن عدد قتلاهم فيها كان نحوا من عشرة آلاف[٤]، وهو الأمر الذي مهد لاستسلام بيسان القريبة.

وقد مهدت هذه الخسارة أيضا لاستسلام طبرية صلحا بغير قتال في مطلع سنة ١٥ هـ (شباط أو آذار ٦٣٦م)، وقد استسلمت لأبي الأعور السلمي، غير أن أهلها طلبوا أن يمضي الصلح معهم شرحبيل بن حسنة فاستجاب لهم، وبذلك ينسب فتح طبرية لشرحبيل.

وقد اختلفت الروايات في شروط الصلح، فذكر بعضها أن من ذلك كان مشاطرة المسلمين لأهلها منازلهم[٥]. غير أن هذه الرواية لا يمكن التسليم بها باطمئنان. فما ذكر عن فتح طبرية أنه كان على غرار صلح دمشق. وكان عهد الصلح لأهل دمشق قد صاغه خالد بن

الوليد وأقره أبو عبيدة، وبه أعطاهم العهد "أمانا علــى أنفــسهم وأمــوالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يــسكن شــيء مــن دورهــم ... إذا أعطوا الجزية"[٦]. ويؤكد أبو عبد الله الواقدي أنـــه قــرأ كتــاب خالــد بــن الوليد لأهل دمشق فلم ير فيــه أنــصاف المنــازل والكنــائس، ويــضيف قائلا "لا أدري من أين جاء به من رواه، ولكن دمــشق لمــا فتحــت لحــق بشر كثير من أهلها بهرقــل وهــو بأنطاكيــة فكثــرت فــضول منازلهــا فنزلها المسلمون"[٧]. وإذا كان الأمر كــذلك فــإن الروايــة التــي أوردهــا البلاذري عن فتح طبرية هي الأرجح والتي نصت علــى مــا يلــي: "فــتح شرحبيل بن حسنة طبرية صلحا بعد حــصار أيــام علــى أن أمّــن أهلهــا على أنفسهم وأموالهم وكنائــسهم ومنــازلهم إلا مــا جلــوا عنــه وخلــوه واستثنى لمسجد المسلمين موضعا"[٨].

ومن الملاحظ أنه لم ترد في الروايــات المتــصلة بفــتح طبريــة اي إشارة إلى اليهود، بل يتضح مــن مفــردات عهــد الأمــان لأهلهــا أن هؤلاء كانوا من النصارى إذ أُمِنوا على كنائسهم. وفــي هــذا دليــل علــى عدم وجود سكان من اليهود آنــذاك فــي المدينــة. فمــا يبــدو مؤكــدا أن طبرية كانت قد تنصرت تماما تحت الحكــم البيزنطــي، وكانــت الأقليــة اليهودية التي أقامت فيها منذ أن ابتدأ اليهود ينجــذبون إليهــا فــي أواخــر القرن الثاني الميلادي، بعد أن اتخذ كهنتهم منهــا مقــرا للــسنهدرين، قــد تلاشت بالتدريج خاصة بعــد صــدور القــرار البيزنطــي بنــزع صــفة الشرعية عن هذه المؤسسة الدينية في العام ٤٢٥م، وربمــا كانــت البقيــة الباقية من هذه الأقليــة قــد خلــت منهــا المدينــة بعــد انتهــاء الحــرب البيزنطية ـــ الفارسية الكبرى (٦١٤-٦٢٧) التــي شــارك اليهــود فيهــا

إلى جانب الفرس، وما تبع ذلك من حملات تأديبية طالت اليهود (وشملت من كان يقيم منهم في طبرية) عندما تمكن الإمبراطور البيزنطي هرقل من دحر الفرس عن المناطق التي كانوا قد استولوا عليها في بداية هذه الحرب في سورية ومصر.

على كل حال مثل الفتح الإسلامي لطبرية بداية مرحلة جديدة في تاريخها بما لحق هذا الفتح من تثبيت هويتها العربية.

(٢)
التنظيم الإداري

بعد أن استكمل العرب المسلمون فتوح الشام نظموا المنطقة ضمن وحدات إدارية تسهل إدارتها. وقد عرفت هذه الوحدات الإدارية باسم الأجناد (واحدها جند) وقد استقرت مع الزمن لتشكل خمسة: جند دمشق، جند حمص، جند الأردن، وجند فلسطين، وأضيف إليها جند قنسرين في مطلع العصر الأموي. وقد نال جنوب الشام من هذا التنظيم جندين: فلسطين والأردن (انظر الخريطة رقم ٥).

شمل جند فلسطين ما كان يعرف بفلسطين الأولى وفق التنظيمات البيزنطية (انظر الفصل الأول أعلاه) فكان يمتد من رفح في الجنوب إلى اللجون في الشمال (إلى الجنوب الشرقي من حيفا). كما أضيف إلى هذا الجند أقسام من فلسطين الثالثة تشمل زغر الواقعة على شاطئ البحر الميت وجبال الشراة الواقعة إلى الشرق من

هذا البحر. أما جند الأردن فكانت نواتـه فلسطين الثانية. وفي كتب الجغرافيين العرب الأقدمين ترد أوصاف تفصل تخوم هذين الجنديين. فيذكر ابن حوقل (المتوفى بعد ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) أن جند فلسطين يمتد من رفح إلى اللجون ويدخل فيه نواحي زغر والشراة وأيلة (العقبة الحالية) ونابلس وبيت المقدس وغزة والرملة التي هي مدينته العظمى، كما يذكر أن مدينة الأردن الكبرى هي طبرية، وأن الغور بعضه من حد الأردن حتى بيسان وما بعدها كان حد فلسطين[٩]. أما الاصطخري الذي قام برحلة إلى فلسطين في العام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م فيكتب "أما الأردن فإن مدينتها الكبرى طبرية... وبعض الغور من حد الأردن إلى أن تجاوز بيسان، فإن جاوزته كان حد فلسطين"[١٠]. وأورد المقدسي (المتوفى سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠م) أن الأردن عاصمتها طبرية، ومن أعمالها عكا وصور وأذرعات (درعا) وبيسان، بينما كانت عاصمة فلسطين الرملة، وكان من أعمالها بيت المقدس وبيت جبرين وغزة وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان[١١].

في عهد عمر بن الخطاب تعاقب على ولاية طبرية وجند الأردن عامة عدد من الصحابة، وكان شرحبيل بن حسنة الذي كان فتح طبرية على يده أولهم. كما تولاها أبو عبيدة عامر بن الجراح، وقد استوطنها أبو عبيدة "لكونها في وسط البلاد وهي قريبة من الأردن والشام والسواحل"[١٢]. كذلك استعمل أمير المؤمنين عمر على طبرية أبا رويحة خالد بن رباح الحبشي، وهو أخو بلال بن رباح مؤذن الرسول[١٣]، ومعاوية بن أبي سفيان الذي تولاها بالإضافة إلى

فلسطين والسواحل[14]، بينما كان أخوه يزيد بن أبي سفيان عاملا لعمر على دمشق. وعندما توفي يزيد سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م عهد الخليفة بولاية الشام جميعا إلى معاوية.

ويبدو أنه طوال عهد الراشدين كان العامل على دمشق هو الذي يعين عمالا له على الأجناد في بلاد الشام. فكما يخبرنا الطبري كان العامل على الشام في زمن عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان (استمرارا لعمله في عهد عمر بن الخطاب) بينما كان لمعاوية عمال في مختلف الأجناد، فكان منهم على الأردن (طبرية) أبو الأعور بن سفيان السلمي الذي كان على رأس القوة التي حاصرت طبرية قبل فتحها (بينما كان على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني)[15].

وقد اختلف وضع تعيين العمال في زمن الأمويين، إذ نجد أن الخليفة نفسه كان يعين عمالا له على الأجناد. ففيما يتصل بطبرية نجد مثلا أن الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (استخلف رجب ٦٠ إلى ربيع الأول ٦٤هـ/ نيسان ٦٨٠ إلى تشرين الثاني ٦٨٣م) عين ابنه خالد بن يزيد عاملا على جند الأردن (طبرية)، كما أن عبد الملك بن مروان (استخلف رمضان ٦٥ إلى شوال ٨٦هـ/ نيسان ٦٤٨ إلى تشرين الأول ٧٠٥م) عين أخاه أبا عثمان أبان بن مروان في المنصب نفسه، كذلك عين الوليد بن عبد الملك (استخلف شوال ٨٦ إلى جمادى الثانية ٩٦هـ/ تشرين الأول ٧٠٥ إلى نيسان ٧١٥) ابنه عمر بن الوليد بن عبد الملك في هذا

المنصب. ومثل ذلك فعل عمر بن عبد العزيز (استخلف صفر ٩٩ إلى رجب ١٠١هـ/ تشرين الأول ٧١٧ إلى شباط ٧٢٠م) الذي عين في المنصب عبادة بن نسي الكندي[١٦]. كذلك عين يزيد بن الوليد بن عبد الملك (المعروف اختصارا بيزيد الثالث وقد استخلف مدة ستة أشهر من سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م) أخاه إبراهيم بن الوليد عاملا على طبرية[١٧]، وتبعه مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، فعين ابن عمه الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم في هذا المنصب[١٨].

ويلاحظ في هذه الأمثلة أن من تولوا حكم طبرية كانوا جميعا ــ باستثناء واحد ــ من الأسرة الأموية، بل من أكثر الناس قربى للخلفاء. ويعد ذلك دليلا على اهتمام الخلفاء الأمويين بهذه المدينة، لقربها من دمشق من جهة، ولوقوعها على الطريق الرئيسي الذي يصل الداخل الشامي بسواحله على البحر الأبيض المتوسط، وأيضا الطريق الرئيسي الآخر الذي يربط الشام عموما بمصر، فكان تعيين أحد أمراء الأسرة الأموية لحكم طبرية ضرورة استراتيجية لضمان أمن الخلافة في دمشق باعتبار المدينة خطا دفاعيا متقدما عن العاصمة.

(٣)
التطورات السياسية

إن الارتباط الإداري ما بين طبرية ودمشق الذي استمر على مدى طويل من التاريخ الإسلامي، وهو ما أشرنا إليه، بالإضافة الى

عامل الجغرافيا، جعلا تاريخ طبرية يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ دمشق وبالتطورات في جنوب الشام عامة. كذلك كان لوقوع المدينة على مفصل أساسي من شبكات الطرق التي تربط داخل الشام بالمدن الرئيسية بفلسطين، الرملة وبيت المقدس خصوصا، ومن هناك باتجاه الساحل الجنوبي، وتحديدا غزة، ثم ذهابا إلى مصر، تأثيره الكبير في هذا الالتحام التاريخي بين طبرية ومنطقة جنوب بلاد الشام. وهكذا فإن ما شهدته هذه المنطقة عموما من استقرار نسبي طوال عهد الأمويين*، إلا في أواخره، وفي العصر العباسي الأول** عندما كانت الخلافة العباسية في أوج قوتها وتماسكها وقدرتها على أن تفرض سلطة المركز على الأطراف، كان ينعكس استقرارا مماثلا في أوضاع طبرية السياسية. في هذه الحقبة التاريخية كان ولاء المنطقة، شأنها شأن سائر مناطق دولة الخلافة، للخلفاء الأمويين أولا ومن بعدهم خلفاء بني العباس. وكان أي اضطراب يمكن أن يكسر هذا الاستقرار السياسي يعالج بشكل مباشر من جانب مركز الخلافة، أكان المركز في دمشق كما هي الحال مع الأمويين، أم كان في بغداد كما كان الشأن مع الخلافة العباسية.

---

* استمر عهد الأمويين من سنة ٤٠هـ/ حين تولى معاوية ابن أبي سفيان الخلافة بعد استشهاد آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب إلى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، وانتهى هذا بمقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد على يد قوات الثورة العباسية المنتصرة.

** يبدأ العصر العباسي الأول بتولي أبي العباس السفاح الخلافة سنة ١٣٢/ ٧٤٩م ويمتد نحوا من ١٥٢ سنة وينتهي بمقتل المتوكل الخليفة العباسي العاشر سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م.

إلا أن هذا الاستقرار، في النظام السياسي عامة، أخذ بالانهيار مع دخول العباسيين عصرهم الثاني الذي اصطلح على تسميته بعصر الفوضى العسكرية. كانت أبرز خصائص هذا العصر انكماش دور الخلفاء العباسيين في الحكم إلى درجة التلاشي أمام بروز قادة عسكريين، على الأغلب من أصول تركية، حجروا فعليا على الخلفاء، وهم ضعاف في الأصل، واستبدوا دونهم بالسلطة، وما نجم عن ذلك من صراعات بين هؤلاء القادة على مغانم الحكم أفقدت المركز هيبته وقدرته على مد نفوذه إلى الإطراف. وكان من الطبيعي ان تنشأ في مثل هذا الأوضاع كيانات سياسية منفصلة عن المركز شكلت دولا مستقلة من ناحية واقعية وإن كانت تدين بولاء شكلي للخليفة العباسي القابع في بغداد مجردا من جميع سلطاته السياسية والإدارية. وما كان يفاقم الأوضاع سوءا أن هذه الكيانات المستقلة (أو ما اصطلح على تسميتها بالدول المنقطعة) كانت على صراع بيني دائم على مناطق النفوذ والمساحة الجغرافية التي تريد إضافتها إلى حكمها، بما كان ينتج عن هذا الصراع من مآس وكوارث تعانيه المناطق التابعة لها، أو التي تطمع بامتلاكها. ولم تختلف حال هذه "الدول المنقطعة" التي نشأت في عصر التسلط البويهي* على مقدرات

---

* البويهيون أسرة من الديلم (الفرس)، وقد تشيعت، سيطرت على مقدرات الخلافة العباسية وتحكمت بالخلفاء بدءا من سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م إلى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م وكان بدء تحكمهم قد حدث عندما استدعى الخليفة العباسي المستكفي زعيمهم أحمد بن بويه إلى بغداد لينهي حال الفوضى التي كان أمراء العسكر في العصر العباسي السابق يتسببون بها. وقد اتصف زمن التسلط البويهي بأن الحكم الفعلي فيه كان بيد البويهيين، بينما لم يكن للعباسيين من الخلافة شيء غير لقبها.

الخلافة العباسية، أو تلك التي قامت في عصر السلاطين السلاجقة*، عنها كما كانت في عصر الفوضى العسكرية، إذ كانت صراعاتها البينية هي هي لم تتغير، والمآسي والكوارث التي نتج عنها شبيهة بتلك التي شهدها العصر السابق. وقد أضيف عامل جديد إلى عوامل الصراع منذ زمن مبكر من عصر التسلط البويهي هو دخول الفاطميين** إلى حلبة الصراع منذ أن استولوا على مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٧م، ثم توسعهم في بلاد الشام بعد ذلك مباشرة. غير أن

* السلاجقة، أو السلجوقيون، ينسبون إلى سلجوق، وهو لقب زعيم عشيرة تركية في أواسط آسيا، وقد سيطروا على مناطق شاسعة من شرق العالم الإسلامي إلى أن كانت سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م عندما استنجد القائم الخليفة العباسي في بغداد بزعيمهم طغرلبك للتخلص من البويهيين، فدخل هذا الزعيم السلجوقي بغداد وأنهى الوجود البويهي فيها. وقد تمكن السلاجقة من السيطرة على المشرق الإسلامي بأجمعه تقريبا، وانفردوا بالحكم مبقين على المكانة الرمزية والروحية للخليفة العباسي. وقد انتهى عهد السلاجقة سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م عندما استغل الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله نشوب نزاعات بين أمرائهم فأنهى وجودهم.

** الفاطميون أسرة انتسبت إلى السيدة فاطمة بنت النبي (ص) وزوج علي بن أبي طالب. وقد أسسوا لهم دولة في بلاد المغرب، وكان أول خلفائهم عبيد الله الملقب بالمهدي الذي اتخذ لقب أمير مؤمنين سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م. وبنى مدينة جديدة اتخذها عاسمة له دعاها المهدية. وقد سيطر الفاطميون على شمال أفريقيا باجمعه، قبل أن تنتقل قواتهم بقيادة جوهر الصقلي في عهد خليفتهم المعز لدين الله سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٧م لفتح مصر، حيث بنى جوهر مدينة القاهرة لتكون العاصمة الجديدة لدولة الخلافة الفاطمية. واستمرت الخلافة الفاطمية قائمة إلى ٥٦٧هـ/ ١١٧١م عندما خلع صلاح الدين الأيوبي آخر خلفائها، العاضد، وأعاد مصر إلى الولاء للعباسيين في بغداد.

حكم للفاطميين لبلاد الشام كانت تتنابه حـالات مـد وجزرمتعاقبـة نتيجـة تصارع القوى المحلية والإقليمية في المنطقة فتتسع رقعـة سـلطتهم فيهـا أو تتقلص وفقا لمعطيات ذلك الـصراع، إلـى أن انتهـى وجـودهم فـي بلاد الشام سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م إثـر هزيمـة قـواتهم أمـام الفـرنج (الصليبيين) في عسقلان آخر معاقلهم هناك.

وربما كانت طبرية فـي ظـل هـذه الأوضـاع هـي مـن أقـل الجهات تأثرا بنتائج تلك الـصراعات، غيـر أنهـا فـي جميـع الأحـوال انطبق عليها ما انطبق على جنـوب بـلاد الـشام عامـة مـن تغيـرات متعاقبة في الولاء الـسياسي نتيجـة لتبـدل القـوى الـسياسية المـسيطرة عليها والمتحكمة فيهـا. وسـنحاول فيمـا يلـي رسـم صـورة لتطـور الأوضاع السياسية على امتداد نحو مـن خمـسة قـرون وموقـع طبريـة فيها.

سنوات الاستقرار السياسي

٦٣٦-٨٧٨م/ ١٥-٢٦٤هـ

على امتداد نحو من قرنين وثلـث قـرن مـن الـزمن المـيلادي (قرنين ونصف قرن من الزمن الهجـري)، مـن تـاريخ فتحهـا إسـلاميا سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م إلى توسيع سـلطة دولـة أحمـد بـن طولـون فـي مصر لتشمل بلاد الـشام سـنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م (سـوف نفـصل ذلـك لاحقا)، نعمت طبرية باستقرار سياسي قلما نجـد لـه مثـيلا فـي غيرهـا من مناطق دولة الخلافة الإسـلامية. وقـد تمثـل هـذا الاسـتقرار فـي استمرار تبعية المدينة، وجند الأردن عامـة، لـسيادة الـسلطة المركزيـة

لدولة الخلافة (الخلافة الراشدة، فالأموية، فالعباسية في عصرها الأول وفي شطر من عصرها الثاني). وفي ذلك كان العمال على طبرية يعينون من جانب السلطة المركزية ويدينون بالولاء لها.

وقد انكسر هذا الاستقرار، بشكل استثنائي وقصير الأجل، مرتين فقط خلال هذه المدة الطويلة، وكان ذلك أواخر العصر الأموي عندما اضطربت أمور الخلافة وسادت الفوضى وعم الاقتتال بين أمراء الأسرة الحالكمة. كانت المرة الأولى في أثناء "الانقلاب" الدموي على الخليفة الأموي الوليد بين يزيد بن عبد الملك (المعروف اختصارا باسم الوليد الثاني) الذي قاده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (المعروف اختصارا باسم يزيد الثالث) والذي أسفر عن مقتل الأول وصعود الثاني إلى كرسي الخلافة (١٢٦هـ/ ٧٤٤م)*. وفي ظل الاضطراب الذي ساد هذا الحدث رفض أهل طبرية، وجند الأردن عامة، البيعة ليزيد الثالث، وولوا عليهم محمد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم، وهو أحد الأمراء الأمويين وكان آنذاك مقيما في قرية قرب طبرية. إلا إن يزيد الثالث تدارك الأمر فأرسل من لدنه قوة بقيادة سليمان بن هشام (وهو ابن الخليفة هشام بن عبد الملك)، انتشرت في القرى القريبة من طبرية، فلما رأى المتمردون

---

* استخلف الوليد الثاني، وهو من أواخر الخلفاء الأمويين، نحوا من سنة وشهرين ابتداء من ربيع الثاني ١٢٥هـ/ شباط ٧٤٣م، واتهم بالفسق والفجور وبتقتيل الناس قتلا ذريعا، فثار عليه ابن عمه يزيد الثالث وقتله. وقد وعد يزيد الثالث الناس بتطبيق العدل والمساواة والشورى، إلا أن الأجل لم يمهله إذ توفي بالطاعون بعد نحو من ستة أشهر من تسلمه الخلافة.

ضعفهم إزاءها تخلوا عن مرشحهم للخلافة (محمد بن عبد الملك) وانفضوا من حوله، وقدموا إلى سليمان بن هشام (وكان قد اتخذ من الصنبرة جنوب بحيرة طبرية مركزا له) وبايعوا للخليفة الجديد في دمشق. وتثبيتا لهذا العهد ركب سليمان في مركب في البحيرة واتجه به إلى طبرية، حيث صلى فيها الجمعة وجدد الناس البيعة للخليفة. وقد عين يزيد الثالث بعد هذه الحادثة أخاه إبراهيم بن الوليد عاملا على طبرية والأردن[١٩].

مرة أخرى ألمَّ اضطراب بطبرية في مطلع عهد مروان بن محمد (أخر الخلفاء الأمويين ويعرف اختصارا بمروان الثاني) ولم يكن قد استقرت له أمور الخلافة بعد. فقد رفض ثابت بن نُعيم، الوالي على فلسطين، البيعة لمروان وقام على رأس حملة من أهل فلسطين بمهاجمة طبرية وحصارها (وكان العامل عليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، من الأمراء الأمويين)، إلا أن أهل طبرية تصدوا للهجوم، وبدعم قوة أرسلها لهم مروان الثاني تمكنوا من رد نعيم وقواته بعيدا عن المدينة ومتابعته حتى فلسطين[٢٠].

باستثناء هاتين الحادثتين لا نجد في مصادرنا ما يدل على أن حالة الاستقرار السياسي التي نعمت بها طبرية خلال ما يقارب قرنين ونصف القرن من الزمان قد أصابها ما ينتهكها. وكان لذلك بالتأكيد نتائجه الإيجابية في الوضع الاقتصادي الجيد الذي تمتعت به المدينة في تلك الحقبة من تاريخها وهو ما سنعرض له لاحقا في هذا الفصل.

تحت سلطة الطولونيين والإخشيديين

أعقبت تلك الفترة التي اتصفت بالاستقرار السياسي على مدى قرنين ونصف قرن فترة أخرى مضطربة امتدت تسعين سنة تعاقبت فيها على حكم بلاد الشام، ومنها طبرية، قوى إقليمية كان ولاؤها الاسمي للخلافة العباسية لكنها كانت في حقيقتها سلطات مستقلة في ممارساتها العملية.

بدأت هذه الفترة بالدولة الطولونية* التي مدت سلطتها من مصر إلى بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م، فخضعت لها بالتالي طبرية. وقد استمر حكم الطولونيين إلى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م عندما استعادت الخلافة العباسية سيادتها على مصر وبلاد الشام بعد أن قضي على آخر الحكام الطولونيين. شهدت طبرية في زمن الطولونيين ازدهارا اقتصاديا سوف نشير إليه تفصيلا عند التعرض لاحقا لأوضاع المدينة الاقتصادية.

كان الطولونيون في أثناء سيادتهم على الشام يعينون هم الولاة على دمشق، وكان هؤلاء ينيبون عنهم من يحكم طبرية. وقد ظهر من هؤلاء الحكام رجل سوف يكون له ذكر في التاريخ باعتباره مؤسسا لإحدى "الدول المنقطعة". ذلكم هو محمد بن طغج المعروف

---

* تنسب هذه الدولة إلى أحمد بن طولون، وهو ضابط عسكري من أصل تركي كان في خدمة الخلافة العباسية، وقد عين في العام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م نائبا عن والي مصر للعباسيين، إلا أنه استقل بحكمها من سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م. وبعد نحو من ست سنوات وسع من منطقة حكمه فضم إليه بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م، وعين نوابا له في مناطقها المختلفة.

فيما بعد بالإخشيد[21]، الذي تولى طبرية نيابة عن أبيه طغج بن جف حوالي سنة ٢٨٥هـ./ ٨٩٨م.

عادت الشام (ومعها طبرية) إلى السيادة العباسية مع انقراض الدولة الطولونية. وقد عين الخليفة المكتفي أحمد بن كيغلغ واليا عليها، فأناب هذا عنه جعفر بن ناعم لحكم طبرية، وحكمها من بعده يوسف بن إبراهيم بن بغامردي. وقد تعرضت طبرية في عهد يوسف هذا لنكبة شنيعة على أيدي القرامطة* سقط فيها عدد كبير من أهلها قتلى وأسرى. كان القرامطة قد تجمعوا في منطقة الفرات، ومن هناك اتجهوا إلى بلاد الشام وارتكبوا مجازر في بصرى وأذرعات (درعا الحالية) والبثنية (المنطقة التي تقع إلى جنوب دمشق)، ثم قصدوا دمشق إلا أنهم لم يتمكنوا منها، فساروا إلى طبرية (في جمادى الأولى ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) فتصدى لهم يوسف بن إبراهيم حاكمها، فهزموه، ثم أمنوه وغدروا به وقتلوه، ودخلوا طبرية وأعملوا في أهلها السيف، وسبوا النساء، وقتلوا الشيوخ والأطفال ونهبوا المدينة، قبل أن يرتدوا عنها عائدين إلى البادية، بعد أن علموا أن الخليفة

---

* القرامطة فرقة انبثقت من الشيعة الإسماعيلية أقام بعض شعبها سلطة لها في اليمن، ثم ظهرت في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية (ساحل البحرين) حيث أقامت لها دولة هناك، وحاولت في مناسبات مختلفة أن تستولي على بلاد الشام. وقد انتشر دعاتها في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي. وقد اتصفت أعمالهم الحربية ضد المسلمين بكثير من العنف والتدمير والتخريب. وفي إحدى غزواتهم إلى مكة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م سلبوا الحجر الأسود من بناء الكعبة وحملوه معهم إلى عاصمتهم هجر حيث بقي في حوزتهم اثنتين وعشرين سنة، قبل أن يعيدوه إلى مكانه بتوسط من الخلافة الفاطمية.

العباسي قد أرسل لهم من يحاربهم[٢٢]. باستثناء هذه الحادثة لم يسجل تاريخ طبرية خلال فترة السيادة العباسية على بلاد الشام ما يمكن استنكاره وتسجيله.

إلا أن الأمور عادت إلى الاضطراب مع قيام الدولة الإخشيدية* في مصر وبلاد الشام التي استمرت قائمة إلى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٩م باستثناء نحو من سنتين فقد الإخشيديون فيهما سلطتهم على بلاد الشام.

حدث هذا الاستثناء بعد أربع سنوات من حكم الإخشيديين. ففي عام ٣٢٨هـ/ ٨٤٠م قام محمد بن رائق، وهو أحد أبرز صقور الفتن الداخلية والاقتتال البيني في عصر الفوضى العسكرية العباسي، بالاستيلاء على دمشق وطرد عاملها من جانب الإخشيد، ثم ليتجه جنوبا فيأخذ بطريقه طبرية والرملة ومنها إلى عريش مصر، حيث أوقفه الإخشيديون دون دخول مصر. وبعد مواجهات عسكرية أخرى انعقد صلح بين الطرفين تقاسما به بلاد الشام بحيث تكون الرملة وما وراءها إلى مصر للإخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق، على أن يدفع الإخشيد لابن رائق إتاوة مقدارها مئة وأربعون ألف دينار كل سنة[٢٣]. وبموجب ذلك كانت طبرية من نصيب ابن رائق. وقد عين ابن رائق نائبا له في طبرية بدر بن عمار الأسدي، وهو الذي زاره

---

* مؤسس الدولة هو محمد بن طغج الذي حمل لقب الإخشيد. وقد ظهر نجم محمد عندما تولى عددا من الولايات في أيلة (العقبة الحالية) وعمان وجبل الشراة وطبرية. وفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م عينه الخليفة العباسي (الراضي) واليا على الشام ثم ضم إليه ولاية مصر فانتقل إليها سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م واتخذها مقرا لحكمه.

المتنبي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م ومدحه بعدد من قصائده. وقد وسع بدر بتعليمات من ابن رائق مساحة ولايته حتى بلغت صور على ساحل البحر المتوسط.

غير أن هذا الترتيب لم يستمر طويلا، إذ غادر ابن رائق دمشق إلى بغداد لينغمس في فتن جديدة هناك انتهت بمقتله ٣٣٠هـ/ ٩٤١م. وقد استغل الإخشيد موت منافسه ابن رائق فزحف على دمشق واستعادها لسيطرته، ليبسط سلطته من هناك على الشام جميعا، وبذلك عادت طبرية إلى السيادة الإخشيدية إلى العام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م عندما اجتاحت قوات الخلافة الفاطمية مصر وأنهت حكم الإخشيديين فيها. وخلال هذا المدى الزمني (الممتد حتى نهاية حكم الإخشيديين) لم تشهد المنطقة أية أضطرابات خطيرة.

كان الإخشيديون في مصر يعينون نوابا لهم في دمشق. وتحتفظ مصادرنا باسماء عدد كبير من هؤلاء[٢٤] إلا أننا لا نجد في أي من هذه المصادر لأسماء من تولوا حكم طبرية في هذه الفترة، إلا واحدا منهم هو من كان يعرف بفاتك غلام ابن ملهم، آخر حكام طبرية في عصرها الإخشيدي.

الفاطميون

انقرضت الدولة الإخشيدية في مصر على يدي جوهر الصقلي الذي أرسله الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من المهدية، عاصمة الخلافة الفاطمية آنذاك في بلاد المغرب، للاستيلاء على مصر، وكان ذلك في شعبان ٣٥٨هـ/ حزيران ٩٦٩م. ولم يمض

غير أشهر حتى سارت قوة فاطمية من مصر باتجاه الشام بقيادة جعفر بن فلاح (وهو من كتامة من البربر) الذي تمكن من الاستيلاء على الرملة في ذي الحجة من السنة نفسها، بعد أن قضى على القوة الإخشيدية فيها، ومنها توجه إلى طبرية. كان العامل على المدينة آنذاك من قبل الإخشيديين فاتك غلام ابن ملهم، ومع اقتراب جعفر منه أقام الدعوة للخليفة الفاطمي المعز لدين لله، لتجنيب المدينة ما كان قد لحق بالرملة من دمار عندما استولى عليها جعفر. وقد وصل القائد الفاطمي إلى الجنوب من طبرية وشرع في بناء قصر له عند جسر الصنبرة[٢٥]، على نهر الأردن عند مخرجه من بحيرة طبرية. ثم ما لبث أن دخل المدينة من جنوبها وقد استسلمت له دون قتال، ومع هذا فقد أقدم على قتل فاتك، ليكون آخر وال على طبرية من جانب الدولة الإخشيدية.

استقبل جعفر بن فلاح وهو في طبرية وفدا من وجوه دمشق قدموا للتفاوض معه. غير أن أعضاء الوفد قوبلوا مقابلة مسيئة من جانب جماعة جعفر. فقد صدف أنهم دخلوا طبرية يوم قتل فاتك وقد ثارت فتنة إذ هجم المغاربة* على الناس، والحقوا بهم أعضاء الوفد الدمشقي فـ"أخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم... فصاروا في أسوأ حال قد أخذت أثقالهم وثيابهم، فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا إلى دمشق، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد، ولأنهم

---

* أطلق لفظ مغاربة على الجند الفاطميين عامة إذ كان منشأ الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، فنسبوا لها.

لقوا قوما جفاة قباح المنظر والزي والكلام ناقصين العقول، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة". ومع فشل مهمة الوفد الدمشقي سير جعفر بن فلاح قواته باتجاه دمشق فعاثت أولا فسادا في حوران والمناطق المحيطة بدمشق. ثم سار جعفر وحاصر بقواته دمشق التي قاومته ورفضت الاستسلام له أياما عديدة إلى أن تمكن منها أخيرا (في المحرم ٣٥٩هـ/ تشرين الثاني ٩٦٩م) وقتل العديد من أعيانها وقادتها وأحرق كثيرا من دورها.

بهذا الحدث بدأ عهد جديد في المنطقة إذ أبطل جعفر بن فلاح الخطبة للخليفة العباسي (كان آنذاك المطيع لله) وخطب للمعز لدين الله خليفة الفاطميين. وقد استطال عهد الفاطميين في بلاد الشام، على اختلاف المساحة التي حكموها زيادة ونقصانا، مئة وأربع وثمانين سنة (بالتقويم الميلادي - مئة وثمان وثمانين سنة بالتقويم الهجري)، ما بين استيلائهم على دمشق (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) وهزيمتهم في عسقلان سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م أمام الفرنج (الصليبيين) وهي التي كانت آخر جيب تحت سلطتهم في بلاد الشام.

وخلال هذه المدة الطويلة نسبيا كان نصيب طبرية من حكم الفاطميين مئة وأربع سنوات (ما بين استيلائهم عليها سنة ٩٦٩م وانسحابهم من مناطق الشام الداخلية أمام أحد القادة السلاجقة وانحسار سلطتهم إلى مناطق الساحل الشامي سنة ١٠٧٣). وخلال هذا العهد لم تنقطع للمشكلات التي واجهها الفاطميون في بلاد الشام التي لم تسلم لهم القياد كليا فكانت تتمرد على السيادة الفاطمية كلما

لاحت لها الفرصة لذلك، كما كانت من جهة أخرى مسرحا لقوى خارجية (غير محلية) واجهت الفاطميين على أرضها.

ولم تكن طبرية بمنجى من هذه المشكلات. فقد واجهت أولاها في هذا العهد عندما هاجمها القرامطة من جديد. كان القرامطة آنذاك (وهم بالإحساء على الساحل الشرقي للجزيرة العربية) تحت قيادة الحسن بن أحمد الجنابي المعروف بالحسن الأعصم. ومن هناك اتجهوا إلى الشام وهزموا جيش الفاطميين وقتلوا قائده جعفر بن فلاح واستولوا على دمشق (ذي القعدة ٣٦٠هـ/ آب ٩٧١م) وقطع زعيمهم الخطبة للخليفة الفاطمي وخطب للخليفة العباسي. ثم مشوا إلى الرملة بعد أن أخذوا جميع المناطق بين دمشق وبينها (بما فيها طبرية) ثم قصدوا مصر إلا انهم ارتدوا عنها بعد أن هزمهم جيش بقيادة جوهر الصقلي. غير أن الفاطميين لم يتمكنوا من تطهير بلاد الشام من القرامطة واستعادة سلطتهم عليها إلا بعد ثلاث سنوات عندما أرسل المعز لدين الله قوة من مصر بقيادة أبي محمود بن جعفر بن فلاح الذي تمكن من إبعادهم عن الشام وسيطر على دمشق في ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م، وأعاد الخطبة فيها للخليفة الفاطمي.

وقد تعرضت طبرية لمحنة أخرى بعد سنة من هذه التطورات ظلت الشام خلالها في حالة اضطراب وفوضى على الرغم من الوجود الفاطمي فيها، بل كان الفاطميون سببا فيها بما قاموا به من أعمال قمع وسلب ونهب في البلاد. وقد استغل مغامر تركي من رؤوس الفتن في بغداد هذا الوضع المضطرب ليجرب حظه في الشام بعيدا عن مسرح الفتن الرئيسية في العراق. ذلكم هو ألفتكين (أو

ألبتكين أو أفتكين حسب المصادر المختلفة) الذي انفصل عن بغداد على رأس قوة كانت تحت قيادته متوجها إلى الشام، فاقترب من دمشق التي رأى فيه أهلوها منقذا لهم من حالة الفوضى والاضطراب وفقدان الأمن التي كانت عليها المدينة، فعرضوا عليه أن يتولى حكمها. وهذا ما حدث فعلا إذ سيطر، بالاتفاق مع الأهالي وبدعم منهم، على دمشق وطرد والي الفاطميين منها في شعبان ٣٦٤هـ/ نيسان ٩٧٥م.

وقد أتاحت هذه الأوضاع المضطربة في الشام الفرصة لظهور البيزنطيين على مسرح الأحداث فيها. وكان ذلك عندما قام الإمبراطور البيزنطي يوحنا زمسكيس بحملة على بلاد الشام والتوغل في داخلها حتى وصل إلى طبرية. فبعد قليل من تولي ألفتكين الحكم في دمشق قاد زمسكيس جيشا (في ربيع ٩٧٥م) اتجه به إلى إقليم الجزيرة فاستولى على نصيبين واعترفت الموصل بالتبعية له، ثم توجه إلى حمص التي خضعت له دون قتال، بينما استولى على بعلبك بالقوة، ثم نفذ إلى دمشق التي بادر حاكمها ألفتكين إلى إرضائه بدفع إتاوة قدرها ثلاثون ألف دينار مقابل أن يكف عن اقتحام المدينة، ومن دمشق توجه إلى الجليل واجتاح طبرية والناصرة، ومن هناك إلى قيسارية، ثم إلى الساحل اللبناني حيث أخضع مدنه باستثناء قلعة طرابلس، قبل أن يتوجه بقواته إلى أنطاكية في طريقه عائدا إلى القسطنطينية[٢٦].

وقد أظهرت هذه الحملة التي قادها الإمبراطور البيزنطي هشاشة الوضع السياسي في المدن التي اجتاحها، وكان هذا باعثا

لألفتكين لأن يجرب هو أيضا حظه في توسيع منطقة حكمه متجاوزا دمشق. وهكذا ما أن انتهت الحملة البيزنطية حتى قام بحملة مشابهة فعمد إلى صيدا فاستولى عليها بعد أن قتل من سكانها أربعة آلاف نسمة، ثم أخذ عكا، وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثلما فعل في صيدا، وعاد إلى دمشق[٢٧]. عند ذلك تحركت الدولة الفاطمية فأرسلت جيشا بقيادة جوهر الصقلي حاصر دمشق نحوا من سبعة أشهر دون أن يتمكن منها. في تلك الأثناء استعان ألفتكين بالحسن الأعصم القرمطي ما جعل جوهرا ينسحب إلى عسقلان ليتابعه هناك ألفتكين والحسن الأعصم بقواتهما. وقد استمرت المواجهات متقطعة بين الطرفين إلى المحرم من سنة ٣٦٧هـ/ آب ٩٧٧م عندما تمكنت القوات الفاطمية من الإيقاع بقوات ألفتكين وأسره، بينما هرب الحسن الأعصم مع قرامطته إلى طبرية حيث أرسل إليه الخليفة الفاطمي (وكان آنذاك العزيز الذي ورث الخلافة عن المعز لدين الله) رسولا حمل إليه عشرين ألف دينار ووعدا بأن يحمل له مثلها كل سنة، إن انسحب من الشام، وهذا ما فعله الحسن إذ عاد إلى الإحساء[٢٨].

كانت تلك التطورات قد وقعت، كما هو واضح أعلاه، خلال السنوات الثماني التي أعقبت استيلاء الفاطميين على بلاد الشام (ومنها طبرية). غير أن الفاطمين بعدها أحكموا سيطرتهم على المدينة (بالإضافة إلى مناطق أخرى في بلاد الشام) مدة ست وتسعين سنة ما بين استعادتهم طبرية سنة ٩٧٧م من قبضة القرامطة وحليفهم ألتفكين، وفقدانهم لها سنة ١٠٧٣م.

طبرية ظلت في مختلف الأحوال تحت السيطرة الفاطمية منذ أن غادرها الحسن الأعصم القرمطي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧ متوجها إلى الاحساء.

تحت حكم السلاجقة

ظهر السلاجقة على المسرح الشامي بالحملة التي قادها سلطانهم ألب أرسلان باتجاه حلب سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، وما نجم عن هذه الحملة من بقاء قوة فيها بقيادة أتسز بن أوق الذي أوكلت إليه مهمة التوجه إلى دمشق لتخليصها من حكم الفاطميين. غير أن أتسز توجه بدلا من ذلك إلى الرملة فطرد منها القوات الفاطمية، ومنها إلى عسقلان واستولى عليها ثم أخذ طبرية وبيت المقدس (وكانت جميعا تحت السيادة الفاطمية) ووسع سلطته حتى شملت جنوب بلاد الشام جميعا. وفي بيت المقدس أعلن أتسز (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) الخطبة للخليفة العباسي وأرسل إليه يبشره بهذا الحدث[٢٩]. أما دمشق التي كانت تحت سلطة الفاطميين فقد استعصت على أتسز على مدى خمسة أعوام إلى أن تمكن منها سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، فدخلها وقطع الخطبة للفاطميين فيها واستبدل بها الخطبة لخليفة بغداد العباسي[٣٠].

أقام أتسز في بلاد الشام الجنوبية مملكة مستقلة نسبيا عن حكم سلاطين السلاجقة في بغداد، حيث تسمى بالملك المعظم، معلنا ولاءه للخليفة العباسي، وهو ولاء كان شكليا انحصر في إقامة الخطبة له. وكانت طبرية تدخل في إطار هذه "المملكة" التي أقامها. وقد تميز حكمه الذي استمر نحوا من سبع سنوات (من ٤٦٣ إلى ٤٧١هـ/

١٠٧١ إلى ١٠٧٧م) بالقسوة والعنف وبكثير من أعمال النهب والسلب والخراب.

وقد انتهى هذا العهد عندما أوكل السلطان السلجوقي ملكشاه (الذي كان قد ورث السلطنة عن أبيه ألب ارسلان في العام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) إلى أخيه تتش بأمرة الشام. وقد تمكن هذا من السيطرة أولا على بعض المناطق المحيطة بحلب، ثم توجه إلى دمشق فدخلها (سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٧م) بعد أن استسلم له اتسز الذي ما لبث أن قتله منهيا بذلك حكمه وفارضا سلطة جديدة في المنطقة[٣١]، التي شملت معظم مناطق جنوبي الشام، وحلب التي استولى عليها تتش في مرحلة لاحقة.

دام حكم تتش في بلاد الشام (ومنها طبرية) مستقرا إجمالا حتى شوال ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وهو في ذلك ينوب عن أخيه السلطان ملكشاه في المنطقة. وفي هذا الشهر توفي السلطان عن ثمانية وثلاثين عاما ليفتح موته حرب وراثة كان قطباها الرئيسيان بركيارق ابن السلطان الراحل وتتش الذي طمع بوراثة أخيه ملكشاه. وقد استمرت هذه الحرب نحوا من سنتين ونصف السنة أصاب الشام خلالها، كغيرها من المناطق التي تعرضت للقتال في هذه الحرب الدموية، كوارث عدة[٣٢]. وقد انتهت هذه الحرب بمقتل تتش في آخر معاركه مع ابن أخيه بركيارق (قرب الري في صفر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م).

بمقتل تتش بدأت مرحلة جديدة من تاريخ الشام، إذ انقسمت مملكته بين اثنين من أبنائه: رضوان في حلب ودقاق في دمشق وكانت طبرية من جملة المناطق التابعة له. وقد تولى دقاق مملكة

دمشق وهو صبي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وشاركه الحكم أتابكه ظهير الدين طغتكين*، الذي كان هو الرجل القوي وراء العرش إلى وفاة دقاق سنة ١١٠٤ (٤٩٧هـ) لينفرد طغتكين بالحكم ويؤسس في دمشق سلالة حاكمة.

وفي مطلع هذا العهد الجديد كانت الحملة الفرنجية (الصليبية) الأولى التي غيرت من خارطة المنطقة السياسية وأعادت ترتيب النظام الإقليمي فيها. والفصل التالي نفرده لهذا الشأن ووضع طبرية في هذا التكوين الجيوسياسي المستحدث.

(٤)
وصف طبرية في تاريخها الإسلامي

ترك لنا الجغرافيون العرب الأقدمون وصفا لطبرية كما كانت في عهودها الإسلامية المتعاقبة. فالمقدسي (ت. ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) يصفها بأنها "قصبة الأردن وبلد وادي كنعان" ويقول إنها موضوعة

---

* أتابك لفظة تركية منحوتة من كلمتين: "أتا" بمعنى الأب، و"بك" (بكاف فارسية تساوي الجيم المصرية الدارجة) بمعنى يتضمن منزلة رفيعة كرئيس أو زعيم أو أمير. وكان هذا اللقب يطلق على شخص يعهد إليه السلطان السلجوقي تربية ابنه وتدريبه، وكثيرا ما جرت العادة على أن يتزوج هذا الأتابك والدة ربيبه والتي تكون على الأغلب من جواري السلطان. وقد كان طغتكين أحد أمراء الحرب تحت إمرة تتش الذي كان ينافس على السلطنة السلجوقية، فعهد إليه هذا بتربية ابنه دقاق وتدريبه، بحث يكون بمثابة وصي عليه. وقد تزوج طغتكين الخاتون صفوة الملك أم ربيبه دقاق.

بين الجبل والبحيرة وطولها نحو من فرسخ والمقابر علــى الجبــل، وبهــا ثمانية حمامات بلا وقيد. والجامع فيها في الـسوق الكبيــر وقــد فرشــت أرضه بالحصى على أساطين حجــارة موصــولة. وفــي أســفل البحيــرة جسر عظيم عليه طريق دمشق. ويقول عــن بحيرتهــا إن حولهــا قــرى ونخيلا، والسفن فيها تذهب وتجــيء، وهــي كثيــرة الأســماك. ويــصف حماماتها بأن هناك نهرا (قناة) يحمّي بخاره البيــوت فــلا يحتــاجون إلــى وقيد. ويذكر عنها أن "من اغتسل في مياه حماماتها الــساخنة ثلاثــة أيــام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قــروح أو ناســور أو أي علــة تكون برأ بإذن الله".[٣٣]

ويقول عنها ابن حوقل (في القرن الرابــع الهجــري) إنهــا مدينــة الأردن الكبرى.[٣٤]

وقــد زار الرحالــة ناصــر خــسرو المدينــة فــي ســنة ٣٣٨/ ١٠٣٧م وقال عنها إن لها سورا حصينا يبدأ مــن شــاطئ البحــر ويمتــد حول المدينة باستثناء الطرف الذي يقع علــى البحيــرة فــلا حــائط لــه. وذكر إن في وسط البحيرة مبان كثيرة شيدت هنــاك علــى شــكل منــاظر على رؤوس أعمدة رخامية وأساسها في المــاء. ويــصف المــسجد فيهــا بأنه كان يقوم في وسط المدينة وعند بابه عــين مــاء بنــي عنــد رأســه حمام ماؤه ساخن. كذلك هناك مسجد آخــر فــي الجانــب الغربــي منهــا اسمه مسجد الياسمين، وهو مسجد جميل في وســطه ســاحة كبيــرة وبهــا محاريب وحولها الياسمين الذي سمي به المسجد.[٣٥]

ويقول عنهــا الــشريف الإدريــسي (تــوفي ٥٦٠هــــ/ ١١٦٦م) إنها كانت "مدينــة الأردن الكبــرى وقــصبتها"، وكانــت "مدينــة جليلــة

طويلة في ذاتها قليلة العرض وطولها نحـو مـن ميلـين... ولهـا سـور حصين". ويقول عـن حماماتهـا إن حمامـا فيهـا كـان يعـرف بحمـام الدماقر وهو كبيرعظيم وماؤه فـي أول خروجـه حـار ملـح، وحمامـا آخر يعرف بحمام اللؤلؤ وهو أصغر مـن حمـام الـدماقر ومـاؤه حـار عذب، وهذا الماء الحار يختـرق الـدور المجـاورة لـه وبـه يغتـسلون ويتصرفون. ومن حماماتها حمـام المنجـدة ومـاؤه حـار. ويـذكر أنـه "يقصد إلى هذه الحمامات من جميع النـواحي أهـل البلايـا مـن النـاس مثل المقعـدين والمفلـوجين والمريـاحين وأصـحاب القـروح والجـرب فيقيمون بها في الماء ثلاثة أيام فيبرؤون بإذن الله".[٣٦]

ويشير ياقوت الحموي (توفي ٦٢٦هـــ/ ١٢٢٩م) إلـى المبـاني المقامة في وسط البحيرة (التي مـر ذكرهـا أعـلاه) فيقـول عنهـا إنهـا صخرة منقورة قد طبقت بـصخرة أخـرى تظهـر للنـاظر مـن بعيـد. وغير ذلك يقول إن فيها عين مـاء تنـسب إلـى عيـسى عليـه الـسلام وكنيسة الشجرة، كما أن في ظاهرها قبرا يزعمون أنه قبر سكينة.[٣٧]

كانت طبرية تـرتبط بالحواضـر العربيـة بـشبكة مـن الطـرق تذهب في الاتجاهات الأربعة جميعا. فمـن دمـشق تـسير الطريـق إلـى الكسوة ثم إلى جاسم ثم إلى فيق ثـم إلـى طبريـة. ومـن بعلبـك تمتـد طريق إلى عين الجر فإلى القرعون فإلى قرية يقـال لهـا العيـون فـإلى كفر ليلى فإلى طبرية. ومنها طريق إلى اللجـون فالرملـة. وآخـر يتجـه منها إلى بيسان ثم إلى اللجـون فقلنـسوة فالرملـة[٣٨]. ويـصف ناصـر خسرو طريقا مشى فيه من عكا إلى طبرية، فقد خـرج مـن عكـا وحـط

في البروة، ومنها إل دامون فإعبلين ثم اتجه جنوبا إلى قرية تسمى حظيرة، ثم إلى قرية تسمى إربل ومنها اتجه إلى طبرية[٣٩].

(٥)
الأوضاع الاقتصادية

نجنح إلى القول بأن طبرية شهدت على مدى زمني يزيد عن أربعة قرون ونصف قرن منذ فتحها في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سنة ٦٣٦م إلى سقوطها بيد الفرنج (الصليبيين) سنة ١٠٩٩م أوضاعا اقتصادية جيدة باستثناء فترات من الاضطراب مبعثرة على مدى هذا الزمن كانت تتعرض فيها لبعض المحن الناجمة عن صراع القوى في العالم الإسلامي المحيط بها، وما كان يُلحق بهما ذلك من خراب وخسائر في الأرواح والأموال.

لكن على الرغم من هذه المحن الطارئة فإن هناك ما يشير إلى أن السكان عموما كانوا يتمتعون بأوضاع معيشية جيدة. ومن أبرز الدلائل على ذلك أن زلزالا ضرب المدينة، بالإضافة إلى مدن أخرى في منطقة غور الأردن، سنة ٧٤٩م (أواخر العصر الأموي) دمر نسبة عالية من مساكنها. إلا أن التنقيبات الآثارية الحديثة بينت أن أهالي طبرية سرعان ما أعادوا بناء مدينتهم وتمكنوا من استئناف حياتهم كما كانت عليه قبل الزلزال. وربما يدل ذلك على ما كان يتمتع به الأهالي من وفرة مالية مكنتهم من تجاوز آثار الخراب الذي لحق بمدينتهم.

كذلك أظهرت هذه التنقيبات الآثارية بقايا لمنازل فخمة، تعود إلى مطالع الزمن الإسلامي، ومنها دارة (فيلا) ذات طابقين وساحة داخلية وحديقة خاصة بها. كما كشفت عن بقايا بناء سكني يعود إلى مطالع العصر العباسي مبلطة أرضه بالفسيفساء الجميلة. ويقول رئيس فريق علماء الاثار الذي أجرى عملية التنقيب في تسعينيات القرن الماضي إن وجود أرضيات فسيفساء بأشكال جميلة في مباني سكنية في طبرية في العصر العباسي يشير إلى معدل فوق المتوسط لخصائص مستويات الحياة عند الطبقة الوسطى من الناس، وهي الطبقة التي كان ينتمي إليها أهالي المدينة عموما، ذلك أن وجود أرضيات الفسيفساء كانت آنذاك مقتصرة على المباني العامة والحمامات والكنائس"[٤٠].

وقد قام اقتصاد طبرية على عدد من الدعائم تجمعت فيها وأتاحت لها تلك الأوضاع الجيدة. ونشير إلى هذه الدعائم كما يلي:

مثلما كانت طبرية في تاريخها القديم (الروماني والبيزطي) تقع عند أحد مفاصل الطرق الرئيسية في بلاد الشام (طريق البحر والطريق السلطاني اللذين أشرنا إليهما في الفصل السابق) استمرت كذلك لتكون في تاريخها الإسلامي محطة مهمة على طرق القوافل التجارية الرئيسية المتجهة من الداخل الشامي في الشرق إلى الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض المتوسط. ويستدل من كلام الجغرافيين العرب الأقدمين على أن التجارة القادمة من الداخل الشامي المارة من طبرية كانت تتجه إلى حيفا، إذ "حيفا هي فرضة [= ميناء] لطبرية"[٤١]. كذلك كانت طبرية تقع عند مفصل الطرق القادمة من

الداخل الشامي أيضا المتجهة إلى الرملة ومن هناك إلى مصر. ويخبرنا ابن حوقل أن الطريق كان متصلا من منبج في الشمال إلى حلب فحمص فدمشق فطبرية فالرملة فرفح[42] أقصى جنوب فلسطين، ومن هناك يستمر الطريق على الساحل إلى مصر. وقد كان لوقوع طبرية على مفرق الطرق هذا تأثيره الكبير في تحولها إلى مركز مهم في عالم التجارة العابرة بما يقدمه ذلك من عوائد مباشرة على سكانها وأيضا مدخولات مالية مقابل الخدمات التي تقدم للقوافل التجارية التي تمر بها.

ويُدلل على أهمية المدينة التجارية في التاريخ الإسلامي بما كشفت عنه التنقيبات الأثارية الحديثة في طبرية حيث تم العثور على بقايا شارع يمتد من شمالها إلى جنوبها تصطف على جانبيه دكاكين كانت بالتأكيد محلات تجارية، وكانت تمثل السوق التجارية الرئيسية في المدينة[43].

ولم تكن طبرية مركزا للتجارة العابرة فحسب، بل كانت نشأت فيها صناعات مختلفة (سنشير إليها بعد قليل) كانت تصدر إلى خارج المدينة ما أكسب الحركة التجارية فيها قوة دفع جيدة أتاحت لأهاليها وفرة مالية وانتعاشا في أوضاعهم المعيشية.

كذلك اسهمت الزراعة في تنمية اقتصاد طبرية. فعلى الرغم من وقوع المدينة في سهل ضيق ما بين البحيرة في الشرق وسلسلة الجبال والهضاب في الغرب فإن وفرة المياه فيها وخصوبة أرضها أتاحا نشوء زراعة كثيفة. كذلك لعب مناخ طبرية الحار دورا كبيرا في انتشار مزارع النخيل فيها[44]. وفي بعض مراحل التاريخ

الإسلامي كانت بعض المنتوجات الزراعية تصدر من طبرية لتصل إلى مصر، وخاصة في أثناء مرحلة الحكم الطولوني لمصر وبلاد الشام. وقد اهتم أحمد بن طولون بميناء عكا (وكان تحت سلطته) فكانت المنتوجات الزراعية من الشام عامة ومن طبرية تشحن إلى مصر عبر هذا الميناء. كذلك انتعشت حركة الصادرات الزراعية من طبرية إلى مصر في زمن الفاطميين الذين وحدوا مصر والشام تحت سلطتهم. وقد حدث أن مصر تعرضت لموجات من الجفاف نتج عنها مجاعات متكررة في أواخر القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر الميلادي (في الأعوام ٩٥٠ و١٠٠٥ و١٠٥٤ و١٠٦٥-١٠٧٢م) برزت خلالها طبرية كمصدر للمنتوجات الزراعية إلى مصر، وهي تجارة عادت بأرباح جزيلة على سكانها. وقد أغرت هذه التجارة الرابحة كثيرا من التجار بالاستقرار في طبرية واتخاذها موطنا لهم، إذ يتضح من خلال التنقيبات الآثارية فيها أن المدينة شهدت حركة عمران فخمة فيها خلال تلك الفترة، كانت تلبي بالتأكيد حاجات أولئك التجار الأثرياء الذين قدموا إليها[٤٥].

وإلى ذلك وفرت الثروة السمكية الكبيرة في البحيرة مصدر رزق مهما لقطاعات كبيرة من سكانها. كما وجدت دلائل من خلال الحفريات الحديثة على وجود صناعة فيها لتمليح الأسماك وحفظها، ومن ثم تصديرها إلى مختلف المناطق.

وقد قامت في طبرية بعض الصناعات ساهمت هي الأخرى في ازدهارها الاقتصادي. من ذلك صناعة المنسوجات القطنية، وصناعة الكاغد (الورق)[٤٦]، كما اشتهرت بصناعة الحصير، ومنه

حصر الصلاة من النوع الثمين[٤٧]، وقد وصفت هذه الحصر بأنها "عجيبة وقليلا ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة"[٤٨].

ومن الصناعات التي اشتهرت بها طبرية صناعة الفخار والخزف، وهي صناعة عريقة فيها تعود إلى العصر البيزنطي. وقد اكتشف حديثا في طبرية آثار تنور كان يستخدم في هذه الصناعة. وقد أظهرت التنقيبات الآثارية في المدينة صناعة متقدمة في هذا الميدان حيث كانت تستخدم تقنيات مختلفة في هذه الصناعة ما وفر تنوعا في الإنتاج من حيث الشكل واللون والاستخدام. وقد لفت نظر المنقبين عن الآثار وجود بعض القطع الفخارية المستوردة من مصر والتي تمكن الصانع في طبرية من تقليدها وإنتاج نسخ عنها ما وفر قاعدة إضافية لترويج القطع المصنعة محليا. ولم تلبّ هذه الصناعة حاجات السوق المحلية فحسب بل كانت تتجه أيضا نحو التصدير إلى الأسواق المجاورة، فقد وجدت قطع من السيراميك والفخار المصنوعة في طبرية في أثناء التنقيب عن الآثار في بعض المدن الفلسطينية وفي عمان والعقبة[٤٩].

ومن الصناعات العريقة في طبرية صناعة الزجاج التي تعود أيضا إلى العصر البيزنطي وتطورت في العصور الإسلامية اللاحقة. وقد تميز الزجاج المصنع فيها بنوعيته وبرقة الأواني المصنعة منه[٥٠]. وكان معظم الإنتاج بالتأكيد لتلبية السوق المحلية، لكن هناك دلائل تشير إلى أن جزءا من الانتاج كان معدا للتصدير إلى الأسواق العالمية. ومن أهم هذه الدلائل قصة السفينة البيزنطية التي غرقت في إحدى سنوات العقد الثالث من القرن الحادي عشر قرب مرفأ سيرجي

ليماني Serce Limani على الساحل جنوب غرب تركيا قرب مرمريس. وقد اكتشف حطام السفينة الغارقة (في صيف ١٩٧٩) فريق مشترك من معهد الآثار البحرية التركي وجامعة تكساس الأميركية خلال التنقيب عن السفينة على عمق ٣٣ مترا تحت سطح الماء. وقد انتشل الفريق بقايا السفينة المنكوبة ومحتوياتها التي كانت تضم أصنافا متعددة من البضائع والسلع، ومنها كمية ضخمة من الأواني الزجاجية المختلفة[٥١]. وما لفت نظر علماء الآثار أن هناك تماثلا بين محتويات هذه السفينة من الأواني الزجاجية وتلك التي اكتشفت في طبرية وصنعت فيها من حيث النوعية والتقنيات المستخدمة في صناعتها والمادة الخام المصنوعة منها[٥٢]. وذلك يدل بالتأكيد على المصدر الطبراني لحمولة تلك السفينة من الأواني الزجاجية والتي كانت معدة للتصدير إما إلى الإمبراطورية البيزنطية أو غيرها من دول أقطار أوروبا.

وبالإضافة إلى التجارة والزراعة والصناعة شكلت حمامات طبرية المعدنية الساخنة مصدر دخل مهما لطبرية. فقد كانت خصائصها العلاجية تجذب إليها الناس من "جميع النواحي"، كما يخبرنا الإدريسي[٥٣]، للاستشفاء بها. ويمثل هذا ما يعرف بلغة اليوم "السياحة العلاجية" بكل مضامينها الاقتصادية والمالية ذات القيمة العالية.

وقد ينبغي أن نزيد على ذلك أن طبرية والمناطق المحيطة بها والقريبة منها كانت بؤرة جذب ديني إسلامي ومسيحي لكثرة ما فيها من مشاهد تخص الديانتين. ونجد ذلك واضحا في الرحلة التي

قام بها ناصر خسرو سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٣٧م مبتدئا بعكا ومنتهيا في طبرية إذ مر بطريقه بعدد كبير من المشاهد الدينية كان يعتقد أنها قبور أنبياء سابقين وأولياء وصالحين بالإضافة إلى عدد من مساجد أقيمت في البلدات والقرى التي اجتازها في طريقه[٥٤]. كذلك تحتفظ ذاكرة التاريخ بعدد من المقامات التي أنشئت في المدينة وما حولها، منها مقام للسيدة سكينة بنت الحسين في ظاهر طبرية، ومقام للصحابي أبي هريرة كان يعتقد أنه قبره، وقبر في الشجرة القريبة من طبرية لدحية بن خليفة الكلبي رسول النبي (ص) إلى هرقل امبراطور الروم، ومقام في طبرية نفسها لأبي عبيدة عامر بن الجراح الصحابي الجليل وكان يعتقد كذلك أنه مدفون فيه، وفي ظاهر طبرية قبر لعبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب.

وبالنسبة للمسيحيين كانت شواطئ البحيرة قد دخلت في تراثهم الديني منذ ايام السيد المسيح، ما جعلها محجا لهم. كما أقيم في المدينة نفسها عدد من الكنائس في العهد البيزنطي. كذلك اشتهرت بعض الأديرة القريبة من المدينة وشكلت مركز استقطاب لوافدين إليها من مختلف المناطق. ومن هذه الأديرة المشهورة دير فيق الذي يقع عبر البحيرة إلى الشرق منها وهو منقور في الحجر وقد وصف بأنه كان دائما عامرا بمن فيه وبمن يرد إليه، "فالنصارى تقصده وتعظمه" ويقولون إنه أول دير عمل وأن السيد المسيح عليه السلام كان يأوي إلى ذلك الموقع الذي بني عليه هذا الدير. وهناك دير آخر هو دير الطور الذي يقع بين طبرية واللجون وهو يعرف بدير التجلي لأنهم يقولون إن عيسى عليه السلام تجلى فيه لتلامذته.[٥٥] ويخبرنا

الشابشتي (المتوفى سنة ٣٣٨هـ/ ٩٩٨م) أن دير فيق عامر بمن فيه ومن يطرقه من النصارى لجلالة قدره عندهم، وغيرهم يقصده للتنزه"[٥٦]. كما يخبرنا بما يماثل ذلك عن دير الطور إذ "الناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به... فموقعه حسن وهو من المواضع الطيبة"[٥٧]. وبالإضافة إلى كل ذلك، ما كنا قد ذكرناه قبل (في الفصل الأول) عن الذكريات الدينية التي استقرت في الوجدان المسيحي عن حركة السيد المسيح في البلدات والقرى على شاطئ البحيرة (المجدل وتلحوم وبيت صيدا وغيرها) التي عمرت فيها كنائس وأديرة تجسيدا لتلك الذكريات. ومثل هذه المشاهد الدينية كانت تجذب إليها بالتأكيد زوارا من مختلف المناطق كانوا يشكلون موردا ماليا لسكان المدينة لا يقلل من شأنه.

وبالإضافة إلى ذلك نالت طبرية ومنطقتها عناية خاصة من جانب بعض الخلفاء الأمويين الذي جذبهم طقسها الدافئ في فصل الشتاء لكي يتخذوا منها منتجعا لهم. وكان قربها النسبي من دمشق، عاصمة الخلافة الأموية، يساعدهم على ذلك. ونستذكر هنا ما كنا ذكرناه في الفصل الأول عن معاوية بن سفيان، أول الخلفاء الأمويين، الذي كثيرا ما كان يشتو في الصنبرة القريبة من المدينة. ويذكر عن معاوية نفسه أنه قام في السنة الثانية بإعادة إعمار حمامات الحمة المشهورة التي تقع على نهر اليرموك على بعد نحو من ١٠ كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية بعد أن دمرها زلزال شديد في وقت سابق. والحمة هذه كانت مشهورة بمياهها المعدنية وحماماتها الساخنة في العصر الروماني، وقد وجد في أثناء

التنقيب علن آثارها في العام ١٩٧٩ لوحة من الرخام بطول ٧٥ سم وعرض٤٥ سم نقش عليها باللغة اليونانية أنه تم في أيام أمير المؤمنين معاوية إعادة بناء الحمامات الساخنة وصيانتها "من أجل معالجة المرضى"، وقد أرخت هذه اللوحة بسنة ٤٢ للهجرة[٥٨].

وغير معاوية، اهتم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (حكم ٧٠٥-٧١٤م) بالمنطقة أيضا، وقد بني له قصر في منطقة الطابغة على شاطئ البحيرة إلى الشمال من مدينة طبرية ، عرف بالمنية، كان يؤمه في فصل الشتاء. وقد دلت الآثار المكتشفة في الموقع على أنه كان قصرا عظيما على شكل مستطيل (٧٣×٦٦م). وقد دمر القصر في زلزال سنة ٧٤٩م أواخر العصر الأموي، ويعرف موقعه الآن بخربة المنية. وبالقرب من هذا الموقع هناك بقايا خان (خان المنية) وكان محطة مهمة للقوافل التجارية التي كانت تسلك الطريق الذي يصل دمشق بالقاهرة في عهد المماليك والدولة العثمانية[٥٩].

مثل هذا الاهتمام من جانب الخلفاء بالمنطقة كان يجلب بالتأكيد كثيرا من المنافع على سكانها، ويوفر قاعدة إضافية للانتعاش الاقتصادي فيها.

جانب آخر يحسن إضافته إلى ما سبق عن الأوضاع الاقتصادية هو أن طبرية كانت قد اتخذت مركزا ـ إلى جانب مراكز أخرى بالطبع ـ لضرب العملة الإسلامية. وقد ضربت هذه العملة فيها منذ الأيام الأولى لاستقرار العرب في بلاد الشام بعد موجة الفتوح الأولى، وذلك استمرارا لما كان عليه الوضع في العهد الروماني حيث كانت طبرية تتمتع بحق ضرب النقود فيها. وفي

البداية حافظت المسكوكات المعدنية على اللغة اليونانية المستخدمة فيها مع إضافة بعض الكلمات العربية إليها. إلا أنها منذ أن عربت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٣م) أصبحت اللغة العربية هي وحدها المستخدمة في سك العملة، كما حلت العبارات الإسلامية مكان الشعارات المسيحية والرموز البيزنطية عليها.

ومن النقود الأولى التي ضربت في طبرية في عهدها الإسلامي مسكوكات تظهر أباطرة بيزنطيين مع كتابات باللغة اليونانية، بالإضافة إلى كلمة طبرية بالعربية[٦٠]. غير أن هذه المسكوكات عربت تماما منذ عهد الخليفة عبد الملك، ومثالها فلس من النحاس يعود إلى العصر الأموي حمل على وجهه عبارة التوحيد (لا إله ألا الله) وصورة نسر، وعلى ظهره عبارة محمد رسول الله وفي الطوق "بسم الله ضرب هذا الفلس بطبرية"[٦١]. وفلس آخر حمل بالإضافة إلى عبارتي الشهادة تعبير "بطبرية عشرين قيراطا"، وثالث "بطبرية ستة عشر قيراطا"[٦٢].

وقد استمرت طبرية مركزا لضرب العملة طوال العصر الأموي، فقد وجد المنقبون فلوسا ضربت فيها تعود إلى ٩١هـ/ ٧٠٩م، و١١٦هـ/ ٧٣٤م، و١٢٠هـ/ ٧٣٧م[٦٣]. وامتدادا إلى العصر العباسي، فقد وجدت فلوس نحاسية ضربت فيها تعود إلى عهد هرون الرشيد في سنتي ١٨١/ ٧٩٧م، ١٩٠/ ٨٠٦ وإلى عهد المأمون سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦م[٦٤]، وسنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م[٦٥].

واستكمالا لأوضاع طبرية الاقتصادية نشير إلى ما كان يجبى منها من ضرائب. وفي الحقيقة، لا تحتفظ مصادرنا القديمة بأرقام تبين حجم هذه الضرائب للمدينة نفسها، غير أن بعضها يوفر لنا أرقاما عنها لمجمل جند الأردن الذي كانت طبرية عاصمته. من ذلك أنه كان يرفع من هذا الجند في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (استخلف من ١٧٠ إلى ١٩٤هـ/ ٧٨٦ إلى ٨٠٨م) إلى خزينة الخليفة ٩٦ ألف دينار، وهي تمثل نسبة نحو من ١٠ بالمئة من إجمالي ما كان يرفع آنذاك من أجناد الشام الأربعة (دمشق وحمص والأردن وفلسطين) التي كانت تبلغ ٩٥٦ ألف دينار[٦٦]. وفي زمن المأمون (استخلف من ١٩٨ إلى ٢١٨هـ/ ٨١٣ إاى ٨٣٢م) كان يحمل من جند الأردن إلى بيت المال ٩٧ ألف دينار، وبنسبة ٨,١ بالمئة مما كان يرفع من أجناد الشام (بلغ مليونا و١٩٧ ألف درهم)[٦٧]. وقد ارتفعت هذه النسبة في أواسط القرن الثالث الهجري (أواسط القرن التاسع الميلادي) لتصل إلى ٢٠,٤ بالمئة (١٠٩ آلاف دينار من جند الأردن من إجمالي ٥٣٢ ألف دينار ما كان يرفع من أجناد الشام الأربعة)[٦٨]. ولدينا رقم أخير هنا يعود إلى أواسط القرن الرابع الهجري، حينما كان جند الأردن يزود خزينة الخلافة بمئتي ألف دينار سنويا[٦٩]. وإذا أخذنا الأرقام مطلقة فقد كان ما يرفع من جند الأردن هو الأقل بين أجناد الشام الأربعة. فبالمقارنة مع جند فلسطين مثلا، وهو توأم جند الأردن الجغرافي، كان جند الأردن يزود الخزينة في زمن الرشيد بمبلغ ٩٦ ألف دينار، بينما كان جند فلسطين يزودها بـ ٣٢٠ ألف دينار. وقريب من هذا التفاوت ما كان

في زمن المأمون (٩٧ ألف دينار من جند الأردن مقابل ٣٠٠ ألف دينار من جند فلسطين)، بينما كان الوضع في أواسط القرن الثالث الهجري ١٠٩ آلاف من جند الأردن مقابل ١٩٥ ألفا من جند فلسطين[٧٠]. ويعلل الجغرافي ابن حوقل انخفاض النسبة بأن "الأردن أصغر أجناد الشام"[٧١].

(٦)
الحياة الثقافية والعلمية

اختار الخليفة الراشد عثمان بن عفان مدينة طبرية لتكون أحد الأمصار الستة التي أرسل إليها في السنة الثلاثين للهجرة نسخة من المصحف الذي كان قد أمر بتوحيد قراءته[*]. وقد ظلت هذه النسخة هناك إلى أن نقلها إلى دمشق سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م الأتابك طغتكين حاكم دمشق بعد أن احتل الفرنج بيت المقدس فخشي عليها من أن ينالها مكروه إن مد الفرنج عدوانهم فشمل المدينة[٧٢]. ويمكن تصور أن تلك النسخة من المصحف الشريف كانت باعثا لنشاط علمي انصب على تدارس القرآن وعلومه.

وإلى ذلك، احتل الحديث النبوي الشريف وروايته مكانة ملحوظة في الحياة العلمية لمدينة طبرية في تاريخها الإسلامي. وقد

---

[*] كان عدد النسخ سبعا، أرسل واحدة لكل من مكة، الشام، اليمن، البحرين، البصرة، الكوفة واستبقى نسخة في المدينة المنورة.

تمكنا من جمع أسماء عدد كبير من علماء الحديث وروايته (انظر قائمة الأعلام فيما يلي من هذه الدراسة) اشتهروا إما في طبرية نفسها أو كان لهم مساهمات في هذا الشأن في أمصار أخرى ارتحلوا إليها. وفي الحقيقة، لم تكن طبرية في تاريخها الإسلامي بمعزل عن التفاعل مع محيطها العربي في شؤون الثقافة عامة، خاصة ما كان منها في مجال العلوم الدينية. فقراءة مُنقبة في كتب التراجم تضع الباحث أمام قائمة طويلة من أسماء أعلام منسوبين إلى المدينة اشتهروا بهذه العلوم بخاصة، وكان لهم إما مكانة من يُرحل إليهم في مدينتهم طلبا لعلمهم، أو كان لهم وجود ملحوظ في غيرها من مدن العلم المشهورة في زمنهم على امتداد العالم الإسلامي يحملون إليها علمهم لشداته فيها.

فمن الجهة الأولى تحتفظ مصادرنا العربية القديمة بأسماء أعلام كثر تُلحق هذه المصادر أسماءهم بتعبير من مثل "كان يحدث في طبرية"، وتورد في الوقت نفسه أسماء رواة حديث ومحدثين عديدين رووا عن هذا الطبراني أو ذاك. وفي مثل هذه الحالة يمكن للباحث أن يتصور أنه ما أن يشتهر طبراني ما في علم الحديث خاصة حتى يصبح منزله في طبرية محجا يرد إليه طلاب علم من مختلف الأرجاء ينشدون الاستماع إليه. ويشير بعض المصادر إلى وجود "مجالس سماع" كانت تعقد في المدينة[٧٣] يقصدها طلاب رواية الحديث. وقد لاحظنا في غير حالة (انظر قائمة الأعلام التالية) أن هناك علماء من غير أصول طبرانية اشتهروا أولا في مدن أخرى

غير طبرية، ثم ما لبثوا أن اتخذوا هذه المدينة سكنا لهم ومكان تعليم حتّى أصبحوا ينسبون إليها فتعرّف كتب التّراجم أحدهم بالطبراني.

ومن جهة أخرى تعرفنا مصادرنا بأسماء علماء منسوبين إلى طبرية (باعتبارهم منها مولدا ونشأة) إلا أن نشاطهم العلمي كان موزعا في أقاليم العالم الإسلامي المختلفة، فنقرأ عنهم أنهم كانوا يحدثون في دمشق ومصر وخراسان والعراق، ويشتهرون فيها لكن دون أن يفقد أحدهم النسبة التي تلحق باسمه ـ الطبراني.

وغير العلوم الدينية، تدل قائمة الأعلام أدناه على رجال اشتهروا بعلوم اللغة العربية والتصنيف فيها، كما تدل على أسماء شعراء نسبوا إلى طبرية.

ويمكن أن يستكمل المشهد الثقافي لطبرية في تاريخها الإسلامي بأن المدينة كانت محط زيارة لعدد وافر من المثقفين وكان منهم المؤرخ الجليل أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (توفي سنة ٣٤٦م/ ٩٥٧م) صاحب المصنفات العظيمة في التاريخ والتي يعد أشهرها "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وناصر خسرو (ت. سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) الرحالة الذي ترك لنا كتابا جليل الفائدة عن أوضاع العالم الإسلامي الجغرافية في زمنه (بعنوان سفر نامة) وقد زار طبرية سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، وابن بطوطة الرحالة والجغرافي الكبير (توفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، وقد كانت طبرية (سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) محطة من محطات رحلته المشهورة التي سجلها في كتابه ذائع الصيت "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروف اختصارا برحلة ابن بطوطة.

وغير هؤلاء، فقد حظيت طبرية بقدوم أبي الطيب المتنبي، أحد أعظم شعراء العربية، إليها عندما استضافه واليها بدر بن عمار (مر ذكره أعلاه) بدءا من سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م.

ويمكن تصور أن قدوم مثل هؤلاء الأعلام إلى طبرية كان مناسبة لتحريك الجو الثقافي فيها، ولدينا دليل على ذلك من حالة المتنبي نفسه، إذ كان مقر الوالي في طبرية يتحول بوجود الشاعر فيه إلى ما يشبه المنتدى الأدبي، الذي يكون نجمه بالتأكيد المتنبي نفسه، لكنه لا يخلو من مطارحات شعرية أخرى.

(٧)
أعلام من طبرية في تاريخها الإسلامي

لا تبخل علينا مصادرنا العربية القديمة في تزويدنا بأسماء أعلام نسبوا إلى طبرية وكانت لهم شهرتهم في الحياة الثقافية، خاصة في مجال رواية الحديث والتحديث عامة، وبشكل أقل في الأدب وعلوم اللغة العربية.

وبالإضافة إلى هؤلاء، تفصح هذه المصادر عن أسماء عدد من الشخصيات المنتسبة إلى طبرية تولت مناصب مهمة في الإدارة والحكم، أكان ذلك في إدارات الخلفاء أم في الإدارات الإقليمية. وربما كان عدد من عمل في هذه المناصب، وهؤلاء كانوا يعرفون بالكتاب عامة، كان كبيرا، إذ يبدو لنا من شهادة المقدسي (توفي سنة

٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) أن أعداد من ظهروا منهم من طبرية كانت ملفتة للنظر، فهو يقول إن "طبرية ما زالت تخرّج الكُتّاب"[٧٤].

وإلى جانب هؤلاء جميعا، تعرفنا على عدد من الشخصيات الطبرانية التي تولت منصب القضاء فيها في مختلف أزمنتها الإسلامية. وما يلفت الانتباه في هؤلاء الكتاب والقضاة الذين تعرفنا على أسمائهم أنهم جميعا كانوا من أصحاب الثقافة الرفيعة، فهم إما فقهاء أو رجال حديث أو أدباء.

وقد اخترنا أن ندرج أسماء هؤلاء الأعلام في القائمة أدناه وفقا للترتيب الألفبائي. وسوف يلاحظ القارئ أن من بين هؤلاء شخصيات عرّفنا بها بتراجم موجزة، بينما لم نتمكن من العثور على تراجم لآخرين منهم، وهم من الذين وجدنا أسماءهم في بعض سلاسل أسانيد الحديث النبوي الشريف حيث ترد الأسماء خالية من التعريف بأصحابها، فكان جهدنا أن نقدر، من خلال قرائن معينة، الزمن التقريبي الذي عاش فيه الراوي. ولا نزعم أن هذه القائمة كاملة، فقد تكون هناك أسماء أخرى فاتتنا، أو لم نتمكن من الاهتداء إليها. وفيما يلي من توصلنا إلى معرفته من هؤلاء الأعلام:

١ـ **إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبراني أبو إسحاق المقرئ** الشاهد، فقيه مالكي وكان يعد من شيوخ القراءات، خرج له الدارقطني ٥٠٠ جزء حديث، وكان كريما مفضلا على أهل العلم. توفي في بغداد سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م.[٧٥]

٢- **إبراهيم بن سلمة الأشقر الطبراني**، من الرواة في القرن الرابع الهجري.[٧٦]

٣- **إبراهيم بن عيسى بن القاسم أبو إسحاق البغدادي الكافوري العطار** من رجال الحديث في القرن الثالث الهجري، مسكنه طبرية قدم دمشق وحدث بها.[٧٧]

٤- **إبراهيم بن الوليد بن سلمة الطبراني**، راو ومحدث وكان معاصرا للأوزاعي ووصف بأنه ثقة، من رجال القرن الثاني الهجري.[٧٨]

٥- **أحمد بن إبراهيم بن رد الطبراني**، الخطيب ومن رواة الحديث في أواسط القرن الرابع الهجري[٧٩].

٦- **أبو أحمد بن سكر الطبراني**، من رواة الحديث في القرن الثالث الهجري.[٨٠]

٧ـ **أحمد بن أبي عتاب أبو الحسن الطبراني**، من رواة الحديث في القرن الثالث الهجري[٨١].

٨ـ **أحمد بن علي بن الحسن بن شعيب بن زياد المدائني الطبراني** كان يحدث بمصر، من القرن الرابع الهجري[٨٢].

٩ـ **أحمد بن الفضل بن صالح الطبراني**، من رجال الحديث في القرن الثالث الهجري[٨٣].

١٠ ـ **أحمد بن القاسم بن خديش الطبراني**، محدث وله شعر، منه:

سأحذر ما يخاف علي منه   وأترك ما هويت لما خشيت

لسان المرء يخبر عن حجاه   وعي المرء يستره السكوت[84]

١١ــ **أحمد بن محمد بن أحمد الطبراني** من رجال الحديث[85].

١٢ــ **أحمد بن الوليد بن سلمة الطبراني**، من رجال الحديث في القرن الثالث الهجري[86].

١٣ــ **أسد بن سليمان بن حبيب بن محمد الطبراني يعرف بابن الحافي** كان يحدث بطبرية توفي ٣٥٨هـ / ٩٦٩م.[87]

١٤ــ **بدر الدين حسن بن علي الطبراني** من طبرية نزل دمشق واشتغل بالنحو توفي ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م.[88]

١٥ــ **بشير الطبراني** عاش في دمشق وكان من مشايخ الصوفية[89].

١٦ــ **أبو بكر الطبراني** من فقهاء الحنابلة، من القرن الثاني الهجري، نقل عن الإمام أحمد بن حنبل[90].

١٧ــ **الحسن بن حجاج بن غالب بن عيسى بن جرير بن حيدرة الطبراني أبو علي الزيات** نزيل أنطاكية قدم دمشق وحدث فيها سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، كما حدث في مصر.[91]

١٨ــ **الحسن بن علي بن زياد الطبراني** كان يحدث في دمشق أواخر القرن الرابع الهجري[92] .

١٩ـ الحسن بن علي بن يحيى بن زياد بن حيان أبو علي البجلي الشعراني الطبراني المقرئ الإمام، من أهل طبرية قدم دمشق وحدث بها سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م.[٩٣]

٢٠ـ الحسين بن الأشعث أبو المجد الكندي الطبراني سكن دمشق كان محدثا وشاعرا. من شعره:

أقطع الدهر بوعد كاذب   وأملي غصصا ما تنجلي

وأرى الأيام لا تدني الذي   أرتجي منكم وتدني أجلي[٩٤]

٢١ـ الحسين بن المبارك الطبراني، محدث وراو[٩٥].

٢٢ـ الحكم بن عبد الله بن خطاف الأردني من أهل طبرية حدث عن عدد كبير من العلماء[٩٦].

٢٣ـ زرعة بن موسى أبو العلاء الكاتب الطبراني النصراني شاعر مجيد وكاتب بليغ له شعر حسن وله حظ وافر من الأدب. مسكنه طبرية، وقد غادرها بصحبة مكين الدولة الحسن بن ملهم الذي كان حاكما فيها للفاطميين متجها إلى حلب التي عين ابن ملهم حاكما عليها من قبل الفاطميين (٤٤٩-٤٥٠هـ/ ١٠٥٦-١٠٥٧م). وقد اتخذ ابن ملهم زرعة كاتبا له. وعندما تسلم محمود بن نصر المرداسي حكم حلب (سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م) حظي زرعة عنده وصار لديه في محل الوزراة.

من شعره من أبيات له يخاطب صديقا:

وكنت على الأيام دوني طليعة   وردءا إذا كرت على جيوشها

فما أنا إلا كالطـــريدة غـــرها   الفرار فأضحت كل كف تتوشها

ومن شعره أيضا:

وإن امرءا أمسى ودون حبيبه   عريض فوادي الرس فالسبعان

لمعترف بالنأي ممـــن يحـــبه   ومعذورة عينـــاه في الهملان[97]

٢٤ــ **سعيد بن عقبة الطبراني** كـــان كاتـــب الخليفـــة الأمـــوي يزيـــد ابن عبد الملك (اســـتخلف ســـنة ١٠١هــــ/ ٧٣٠م)، كمـــا عمـــل واليـــا لديوان العرب. وبعد وفاة يزيد استمر سعيد في هـــذا المنـــصب فـــي عهـــد الخليفة هشام بن عبـــد الملـــك (اســـتخلف ١٠٥هــــ/ ٧٢٤م) إلـــى وفـــاة هشام (١٢٥هــ/ ٧٤٣م) فعاد إلى بلـــده طبريـــة بعـــد أن اســـتخلف ابنـــه محمدا في منصبه.[98]

٢٥ــ **سعيد بن هاشم بن مرثـــد الطبرانـــي**، مـــن رجـــال الحـــديث، توفي بتنيس منصرفا إلى بلده طبرية سنة ٣١٣هــ/ ٩٢٥م.[99]

٢٦ــ **سليمان بن أحمد بن أيـــوب اللخمـــي أبـــو القاســـم الطبرانـــي**، أحد الحفاظ المكثـــرين والرحـــالين. ولـــد فـــي طبريـــة ســـنة ٢٠٦هـــــ/ ٨٢١م، وتلقى علومه الأولـــى فيهـــا، ورحـــل طلبـــا للعلـــم إلـــى القـــدس فقيسارية فحمص، وحـــج ودخـــل الـــيمن وورد مـــصر ثـــم رحـــل إلـــى العراق وأصبهان حيـــث تـــوفي فيهـــا فـــي ذي القعـــدة ســـنة ٣٦٠هـــــ/ ٩٧١م. كان أبو القاسم حافظ عصره، وسمع الكثيـــر وبلـــغ عـــدد شـــيوخه ألف شيخ. ولأبي القاسم عدد مـــن المـــصنفات منهـــا ثلاثـــة معـــاجم فـــي الحديث، وكتاب في التفسير وآخر فـــي دلائـــل النبـــوة وغيرهـــا.[100] مـــن مصنفاته:

١ـ المعجم الكبير في اسماء الصحابة .

٢ـ المعجم الاوسط في غرائب شيوخه في ست مجلدات.

٣ـ المعجم الصغير في اسامي شيوخه.

وهي اشهر كتبه .

٤ـ كتاب الدعاء في مجلد كبير.

٥ـ كتاب حديث الشاميين.

٦ـ كتاب التفسير.

٧ـ مسند ابي هريرة.

٨ـ كتاب دلائل النبوة.

١٠ـ كتاب المناسك.

٢٧ـ **صالح بن بشر بن سلمة أبو الفضل القرشي الطبراني** سمع بدمشق وكان يحدث في طبرية توفي سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م.[١٠١]

٢٨ـ **صالح بن جبير الطبراني**، من أهل طبرية، كان محدثا ثقة، وقد عينه الخليفة عمر بن عبد العزيز على الخراج والجند، كما كتب أيضا للخليفة يزيد بن عبد الملك[١٠٢].

٢٩ـ **أبو الطيب العلوي**: اسمه محمد بن حمزة ويعود بنسبه إلى العباس بن علي بن أبي طالب، وكان "وجه طبرية شرفا وملكا وقوة وعفافا"، كما كتب صاحب سيرة الإخشيد[١٠٣] (انظر عنه فيما

سبق في هذا الفصل). وكان يتولى طبرية آنذاك محمد بن طغج (المعروف فيما بعد بالإخشيد) نيابة عن أبيه طغج الذي كان يلي دمشق وطبرية نيابة عن الطولونيين. ويبدو أن محمد بن طغج خشي من نفوذ أبي الطيب العلوي في طبرية لعلو مكانته فيها فبعث إليه من قتله حوالي سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م.

٣٠ــ **الضحاك بن عبد الرحمن بن عزرب**، وقيل عزرم، أبو عبد الرحمن الأشعري، من أهل طبرية، وهو تابعي ثقة. عندما استخلف عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ/ ٧١٧م) عينه واليا على دمشق، وتوفي الخليفة والضحاك وال عليها. وقد وصف بأنه كان من خير الولاة[١٠٤].

٣١ــ **طاهر بن علي بن عبدوس أبو الطيب الطبراني القطان** تولى القضاء في طبرية وكان محدثا توفي ٣١٧هـ/ ٩٢٩م.[١٠٥]

٣٢ــ **عبد الله بن أحمد أبو الحارث الطبراني** تولى القضاء في طبرية.[١٠٦]

٣٣ــ **عبد الله بن بكر بن محمد بن الحسين أبو أحمد الطبراني** الزاهد ساكن أكواخ بانياس حدث وسمع العلم في بغداد ومكة ودمشق وعاش في أكواخ بانياس إلى وفاته ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م. كان ثقة مكثرا.[١٠٧]

٣٤ــ **عبد الله بن عبد الملك الطبراني أبو الحارث** محدث وراو.[١٠٨]

٣٥ـ عبد الملك بن عبد الكريم أبو الأصبغ الطبراني سمع بدمشق وكان يحدث بطبرية.[١٠٩]

٣٦ـ عبيد الله بن بكر أبو بكر الطبراني، من رجال الحديث[١١٠].

٣٧ـ عتبة بن أبي حكيم أبو العباس الأردني الطبراني سمع بدمشق وغيرها وروى عنه أهل دمشق كان ينزل بطبرية مات سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م وهو ثقة وكان في الطبقة الخامسة.[١١١]

٣٨ـ علي بن إسحاق بن رداء أبو الحسين الغساني الطبراني، قاضي طبرية (أواسط القرن الرابع) كان أحد الثقات الظرفاء.[١١٢]

٣٩ـ علي بن فريج بن المظفر بن فلفل الطبراني راو ومحدث، كان حيا سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.[١١٣]

٤٠ـ علي بن محمد بن طوق أبو الحسن الطبراني، راو ومحدث.[١١٤]

٤١ـ علي بن أبي هاشم الطبراني، راو.[١١٥]

٤٢ـ علي بن يحيى الشعراني الطبراني، راو ومحدث.[١١٦]

٤٣ـ عمرو بن أحمد بن رشيد الطبراني حدث بدمشق.[١١٧]

٤٤ـ الفضل بن صالح بن بشير الطبراني حدث بطبرية.[١١٨]

٤٥ـ محمد بن إبراهيم بن الحسن الطبراني قاض في طبرية[١١٩].

٤٦ـ **محمد بن أحمد بن الحسين بن بكر**، راو.[١٢٠]

٤٧ـ **محمد بن أحمد بن يحيى الطبراني** قاض في طبرية.[١٢١]

٤٨ـ **محمد بن الحسين بن أحمد بن بكر أبو علي الطبراني**، راو[١٢٢].

٤٩ـ **محمد بن حماد الطبراني**، راو.[١٢٣]

٥٠ـ **محمد بن خُزر الطبراني الخُزري** له كتاب تاريخ كبير كتبه في طبرية.[١٢٤]

٥١ـ **محمد بن سعيد بن عقبة الطبراني** عمل أبوه من قبله في إدارتي الخليفتين يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك. أما هو فكان من كبار أمراء دمشق في ولاية الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك (استخلف ١٢٥هـ/ ٧٢٤م) وقد عينه الخليفة عاملا على ديوان المغرب وعلى خراج مصر. وكان إلى جانب مناصبه الإدارية راويا للحديث. توفي ١٥٨هـ/ ٧٧٥م.[١٢٥]

٥٢ـ **محمد بن عبد الله بن إسحاق بن غالب أبو العباس الطبراني** سكن دمشق وحدث بها ومات فيها ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م[١٢٦].

٥٣ـ **محمد بن عبد الله بن الغمر الطبراني أبو بكر**، محدث وراو.[١٢٧]

٥٤ـ **محمد بن عثمان بن سعيد بن هاشم بن مرثد الطبراني**، سمع بدمشق وحدث فيها.[١٢٨]

٥٥ـ محمد بن علي بن الحسين بن حرب قاضي طبرية، وكان محدثا وقد حدث في طبرية ودمشق والرقة توفي ٣١٤هـ/ ٩٢٦م.[١٢٩]

٥٦ـ محمد بن عمر الطبراني، راو.[١٣٠]

٥٧ـ محمد بن محمد بن محمد بن عمر الشمس العجلوني الأصل الطبراني الشافعي من رجال الحديث في القرن التاسع الهجري.[١٣١]

٥٨ـ محمد بن معمر أبو بكر الهلالي محدث من أهل طبرية.[١٣٢]

٥٩ـ المظفر الصويفي من أهل طبرية قدم دمشق وكان يعلم بها مماليك أتابك طغتكين الخط. وكان رجلا ذكيا وله شعر صالح.[١٣٣]

٦٠ـ معاوية بن عبد الله بن يسار أبو عبيد الله الأشعري، من أهل طبرية انتقل إلى بغداد وكتب الحديث وطلب العلم وروى عن عدد من المحدثين. بدأ نجمه في الظهور في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور الذي جعله كاتبا لابنه وولي عهده محمد المهدي، وكان المهدي يعظمه ولا يخالفه في شيء يشير به عليه. وعندما تولى المهدي الخلافة اتخذه كاتبا ووزيرا سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م وفوض إليه أمور الدولة. وقد استمر في هذا المنصب إلى ١٦٣هـ/ ٧٨٠م حيث عزل عنه نتيجة مكائد في قصر الخلافة، وعهد إليه المهدي بديوان الرسائل إلى سنة

١٦٧هـ/ ٧٨٣م. ولم يشغل معاوية بعد ذلك أي منصب في الإدارة إلا أنه ظل على صلة طيبة بالخليفة إلى وفاته سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. اتصف معاوية بالتقوى، وأدخل إصلاحات مهمة على أنظمة الخراج لمصلحة المكلفين، كما كثرت صدقاته على الفقراء. وقد ذكر عنه أنه لما مات امتلأت جسور بغداد فلم يعبر عليها إلا من تبع جنازته من اليتامى والأرامل والمساكين. من كلامه: "التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بطر الغنى، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة، وذل الفقر قاهر لعز الصبر، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف، إلا لمن كان في غريزته فضل كرم وفي أعراقه مناسبة لعلو الهمة".[١٣٤]

٦١ـ الميمون الطبراني (٣٥٨-٤٢٦هـ/ ٩٦٩-١٠٣٥م):

سرور بن القاسم الطبراني أبو سعيد الملقب بالميمون. شيخ العلويين في اللاذقية ورئيس الطائفة المعروفة عندهم بالجنبلانية. ولد في طبرية وإليها نسبته، وانتقل إلى حلب فتفقه بفقه العلويين، وصنف كتابا في مذهبهم، ثم رحل إلى اللاذقية والتفت حوله من فيها منهم، واستمر إلى أن توفي ودفن بها على شاطئ البحر في مسجد الشعراني.

٦٢ـ نصر بن عبد الله أبو محمد الطبراني، راو.[١٣٥]

٦٣ـ نعمة بن الوليشي الطبراني من أهل طبرية حافظ للأشعار وراو للأخبار القديمة والحديثة وشاعر، قيل عنه إنه لا يتسلط عليه شيء من النقص.[١٣٦]

٦٤ـ **نُعيم بن سلامة السباني وقيل الشيباني** روى عن جملة كما روى عنه رجاء بن حيوة والأوزاعي، كان على خاتم سليمان ابن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.[١٣٧]

٦٥ـ **هاشم بن مرثد الطبراني** روى عن يحيى بن معين توفي ٢٧٨هـ/ ٨٩١م.[١٣٨]

٦٦ـ **الوليد بن سلمة الطبراني أبو العباس**، قاض في طبرية وكان يحدث فيها[١٣٩].

٦٧ـ **يحيى بن الحسين الطبراني** ولي ديوان المظالم بدمشق في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (استخلف ٢١٨هـ/ ٨١٩م.)[١٤٠].

٦٨ـ **يعلى بن الوليد الطبراني**، راو.[١٤١]

(٨)
أعلام لهم ذكر في تاريخ طبرية الإسلامي

غير أولئك الأعلام السابق ذكرهم في القائمة أعلاه، اقترن اسم طبرية بأسماء شخصيات لعبت أدوارا مختلفة في تاريخ المدينة الإسلامي، تراوحت ما بين كونهم فاتحين، أو ولاة، أو قضاة، أو محدثين، أو شعراء كان للمدينة نصيب في شعرهم، أو أصحاب مقامات ومزارات مجدها سكان طبرية، أو مشاركين في الصراعات الداخلية التي كانت تعصف بالمنطقة عامة. بعض هؤلاء مروا بتاريخ

طبرية مرورا عابرا، بينما اتخذ آخرون منهم المدينة موطنا لهم وسكنا. والقائمة التالية تضم أسماء من تمكنا من تتبع أخبارهم في مصادرنا القديمة دون أن يعني ذلك أن هذه القائمة شمولية. فما يلاحظ أننا نفتقد في مصادرنا القديمة أسماء من عهد إليهم الحكم (او الولاية) في طبرية، إلا قلة منهم، إذ كانت أنظار المؤرخين القدماء مشدودة إلى العواصم الكبرى، كدمشق وحلب والقاهرة وبغداد. وفي الشام خاصة، يمكن التعرف بسهولة على من ولي الحكم في دمشق، بينما غيب أولئك المؤرخون، على الأغلب، أسماء من ولي الإدارة في الأجناد التابعة لها. على كل حال، ندرج من تعرفنا عليهم فيما يلي وفق تسلسلهم في التاريخ:

١ـ **شرحبيل بن حسنة**: صحابي من القادة. كان على رأس أحد الجيوش التي أوفدها الخليفة الراشد أبو بكر الصديق لفتح بلاد الشام. استسلمت له طبرية صلحا (١٥هـ/ ٦٣٦م)، وأصبح واليا عليها. عندما قدم الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب إلى الشام، عزل شرحبيل عن طبرية واستعمل معاوية بن أبي سفيان مكانه، فقال شرحبيل لعمر: عن سخط عزلتني يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لا، إنك لكما أحب، لكن أريد رجلا أقوى من رجل. فقال: قم فاعذرني في الناس، فقام عمر في الناس فقال: إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلا أقوى من رجل. توفي شرحبيل في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م عن خمس وستين سنة[١٤٢].

٢ـ **أبو عبيدة ابن الجراح**: الصحابي وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمين الأمة. ولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيوش في بلاد

الشام بعد خالد بن الوليد، فتم لـه فـتح الـديار الـشامية. اسـتوطن أبـو عبيدة طبرية "لكونها في وسط الـبلاد وهـي قريبـة مـن الأردن والـشام والسواحل"[143]. توفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، ودفـن فـي غور بيسان على الجانب الشرقي من نهر الأردن.

٣ـ **معاوية بن أبـي سـفيان**: أول الخلفـاء الأمـويين، كـان أميـر المؤمنين عمر بن الخطـاب قـد عينـه عـاملا علـى الأردن (طبريـة) وفلسطين والسواحل، قبل أن يعينه عاملا على دمـشق بعـد وفـاة أخيـه يزيد بن أبي سفيان. وقد ظلت لمعاوية صلة بطبرية بعـد توليـه الخلافـة إذ كان يتردد على منطقتها فيشتو فـي مدينـة الـصنبرة[144] (بيـت يـراح القديمة ـ انظر عنها الفصل الأول) التـي تقـع علـى الزاويـة الجنوبيـة الغربية من بحيرة طبرية.

٤ـ **أبو الأعور السلمي**: اسمه عمـرو بـن سـفيان ويعـرف أكثـر بكنيته. وفق بعض رجال الحـديث كانـت لأبـي الأعـور صـحبة (مـن صحابة النبي)[145]، غير إن شهرته ابتدأت في عهـد عمـر بـن الخطـاب عندما كان علـى رأس القـوة التـي استـسلمت لهـا طبريـة (١٥هـ/ ٦٣٦م). وفي زمن عثمان بن عفـان عينـه معاويـة بـن أبـي سـفيان، وكان عاملا لعثمان على الشام، عاملا على طبرية.

٥ـ **خالد بن رباح**، يكنى أبا رويحة، أخـو بـلال بـن ربـاح مـؤذن الرسول (ص). له صـحبة. اسـتعمله عمـر بـن الخطـاب مـدة علـى طبرية، ثم سـكن داريـا قـرب دمـشق، ويقـال إن وفاتـه كانـت فـي حلب[146].

٦ــ **أبو هريرة:** صاحب رسول الله (ص) ومن أكثر الناس رواية عنه. بعد وفاة النبي (ص) كان أكثر مقام أبي هريرة في المدينة وقد توفي فيها سنة ٥٩هـ/ ٦٧٩م ودفن في البقيع. وقد ارتبط اسمه بطبرية من خلال اعتقاد بأنه مدفون فيها. وقد أشار إلى هذا الاعتقاد الرحالة ناصر خسرو الذي زار طبرية سنة ٢٢٨هـ/ ١٠٣٧م فأكد وجود قبر أبي هريرة في الجزء الجنوبي من طبرية[١٤٧]. كذلك اكتشف الرحالة شوماخر عام ١٨٨٧م شاهد قبر جنوب طبرية مصنوعا من الرخام بطول قدمين وسبعة بوصات وعرض قدمين وهو يحمل نقشا لسورة الإخلاص وتحتها عبارة "هذا ضريح أبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم". كما اكتشف في موقع هذا الشاهد بقايا مسجد قديم[١٤٨]. وربما يعود هذا الاعتقاد إلى أن أبا هريرة كان قد أقام في الشام مدة، في أثناء الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان[١٤٩]، وليس بمستبعد أن يكون أثناء إقامته تلك قد أقام مدة في طبرية، فشيد له بعض الأتقياء بعد وفاته مقاما ومسجدا هناك تخليدا لذكراه، فنشأ اعتقاد فيما بعد بأن ذلك ضريحه.

٧ــ **خالد بن يزيد بن معاوية:** عينه أبوه الخليفة يزيد بن معاوية عاملا على الأردن (طبرية)[١٥٠]. وكان خالد يعرف بحكيم قريش وعالمها في عصره، وقد اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأتقنها وألف فيها رسائل. توفي في دمشق سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م[١٥١].

٨ــ **أبو عثمان أبان بن مروان بن الحكم:** عينه أخوه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على طبرية[١٥٢].

٩ـ سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب: كانت سيدة نساء عصرها، وكان لها مطارحات مع شعراء زمنها. كانت إقامتها ووفاتها في المدينة، وإن كانت قدمت الشام وزارت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق. توفيت سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥م.[١٥٣] ارتبط ذكرها بطبرية من خلال ما كان يعتقد أنه قبرها فيها[١٥٤]، وكان الطبرانيون حتى نهاية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين في العام ١٩٤٨ يجعلون من هذا "القبر" الذي يقع في الجزء الجنوبي من المدينة مزارا لهم ويطلقون عليه اسم "قبر الست سكينة" بتسكين السين. وربما كان هذا المكان مقاما شيد تكريما لها في البداية ثم ما لبثت المعتقدات الشعبية أن جعلت منه ضريحا. وفي العصر المملوكي أقيم شاهد على هذا "الضريح" خلد مع الزمن وقد نُصَّ فيه على أن الذي أقامه هو الأمير فارس الدين ألبكي نائب السلطنة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[١٥٥].

١٠ـ عبادة بن نسي الكندي أبو عمر. ولاه الخليفة الإموي عبد الملك بن مروان على قضاء طبرية ووفد على عمر بن عبد العزيز فولاه جند الأردن كان شريفا جليل القدر موصوفا بالصلاح. وقالوا عنه: "في كندة ثلاثة إن الله بهم ينزل الغيث وينصرنا: رجاء بن حيوة وعبادة بن نسي وعدي بن عدي" توفي ، ١١٧ أو ١١٨هـ/ ٧٣٦م.[١٥٦]

١١ـ الوليد بن عبد الملك: من كبار خلفاء بني أمية الأوائل (استخلف من ٨٦ إلى ٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م). بنى قصرا له قرب طبرية على شاطئ البحيرة، وقد اكتشفت آثاره فيما يعرف الآن

بخربة المنية إلى الجنوب الغربي من البحيرة. وكان شكل القصر مربعا تقريبا يتفرع منه أبراج مستديرة على أبعاد متساوية على غرار القصور الأموية في بلاد الشام. وقد وجد بداخله نقش يذكر فيه اسم هذا الخليفة[157].

١٢ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك: عينه أخوه يزيد بن الوليد (يزيد الثالث) عاملا على طبرية[158]، ثم وليا لعهده. وبعد وفاة يزيد تولى الخلافة لأيام وقد أجبره على التنازل عنها مروان بن محمد (مروان الثاني) الذي اغتصب الخلافة ليكون آخر الخلفاء الأمويين.

١٣ـ الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم: أمير أموي، جده الخليفة مروان بن الحكم. ظهر الوليد على مسرح التاريخ في عهد مروان بن محمد (مروان الثاني) آخر الخلفاء الأمويين. فقد عين آنذاك عاملا على طبرية، وتمكن هو وسكانها سنة ١٢٧هـ من أن يدافع عنها في وجه منشق عن الدولة الأموية عندما اضطرب الأمر على الخليفة مروان وتكاثرت الفتن والثورات عليه. بعد ذلك نراه إلى جانب خليفته في معركة الزاب التي انهزم فيها الجيش الأموي أمام قوات الثورة العباسية (جمادى الآخرة ١٣٢هـ/ شباط ٧٥٠م) والتي أسفرت عن هروب الخليفة مروان من بلاد الشام إلى مصر. وقد أوكل مروان أمر دمشق بعد الهزيمة إلى الوليد بن معاوية، غير أن المدينة ما لبثت، بعد حصار، أن سقطت بيد الجيش العباسي في رمضان ١٣٢هـ/ أيار ٧٥٠م، بعد قتل الوليد فيها[159].

١٤ـ محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم: أبوه وجده من الخلفاء الأمويين، ولي الديار المصرية لأخيه الخليفة هشام بن عبد

الملك. في أثناء الفتنة التي أعقبت مقتل الوليد الثاني (انظر أعلاه) غلب محمد على الأردن وطبرية. وهزم عندما تغلبت الجيوش الموالية للعباسيين على الشام، وقتل في معركة نهر أبي فطرس (في فلسطين) على يدي عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي أبي العباس السفاح سنة ١٣٢هـ. كان محمد بن عبد الملك روايا للحديث وقد وثقه عدد من علمائه[١٦٠].

١٥ـ عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو بن ميمون يعرف بدحيم ولي قضاء مدينة طبرية وقضاء الرملة ولد سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وتوفي في بغداد ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. حدث عن خلق كثير بالحجاز والشام ومصر والكوفة والبصرة وفاق الأقران وجمع وصنف وجرح وعدل وصحح. وصف بأنه ثقة مأمون وقد حدث عنه البخاري وأبو داوود والنسائي[١٦١].

١٦ـ عبد الله بن محمد العمري كان قاضيا بطبرية سنة ٢٧٧هـ/٩٠٠م.[١٦٢]

١٧ـ يوسف بن إبراهيم بن بغامردي: كان عاملا على طبرية عندما هاجمها القرامطة (انظر عن القرامطة أعلاه) سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م. وقد تصدى لهم يوسف وواقعهم فكسروه، وبذلوا له الأمان، إلا إنهم غدروا به فقتلوه ونهبوا طبرية وقتلوا طائفة من أهلها قبل أن يرتدوا عن المدينة[١٦٣].

١٨ـ أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة، قاض رفيع القدر من أهل دمشق، ولي القضاء بمصر سنة ٢٨٤هـ/

٨٩٧م، وضمت إليه فلسطين والأردن وحمص وقنسرين، وعزل بعد ثماني سنوات فعاد إلى دمشق، فولي قضاءها وأقام إلى أن توفي ٣٠٢هـ/ ٩١٤م[١٦٤].

١٩ـ يموت بن المزرع بن يموت أبو بكر العبدي من عبد القيس، ابن أخت كاتب العربية الكبير الجاحظ. كان من البصرة ورحل عنها ونزل بغداد ثم قدم دمشق واستقر في طبرية ومات فيها سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م. وكان من أهل العلم والنظر والمعرفة والجدل وكان حافظا ثقة محدثا أخباريا، كما كان شاعرا. ومن شعره يخاطب ابنا له يقال له مهلهل، وكان شاعرا أيضا:

مهلهل قد حلبت شطور دهر فكافحني بها الزمن العنوت

وجاريت الرجال بكل ربع فأذعن لي الحثالة والرتوت

فأوجع ما أجن عليه قلبي كريم عضه زمن عتوت

كفى حزنا بضيعة ذي قديم وأبناء العبيد لها التخوت

وقد أسهرت عيني بعد غمض مخافة أن تضيع إذا فنيت

وفي لطف المهيمن لي عزاء بمثلك إن فنيت وإن بقيت

وإن يشتد عظمك بعد موتي فلا تقطعك جائحة سنوت

وقل بالعلم كان أبي جوادا يقال ومن أبوك فقل: يموت

تقر لك الأباعد والأداني بعلم ليس يجحده البهوت[١٦٥]

٢٠- بشر بن مقاتل بن إسماعيل بن مقاتل أبو القاسم السمرقندي الحمصي، من رجال القرن الرابع الهجري، أصله من حمص قدم دمشق وحدث بها ثم استقر في طبرية[١٦٦].

٢١- عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجي ولد في نهاوند، ونزل بغداد فأخذ علوم العربية عن أعلامها، ثم سكن طبرية وتوفي فيها ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م. وكان الزجاجي إماما في علم النحو، وألف كتابا فيه بعنوان "الجمل الكبرى"، وقيل عن هذا الكتاب إنه من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به."[١٦٧]

٢٢- الإخشيد: اسمه محمد بن طغج، والإخشيد لقبه، وهو يعني ملك الملوك، منحه هذا اللقب أحد الخلفاء العباسيين إذ كان هو لقب ملوك فرغانة التي ينتمي إليها محمد بأصوله. لمع نجم أبيه طغج في عهد الدولة الطولونية، فعين عاملا لها على دمشق وطبرية حوالي سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، فأوكل إلى ابنه محمد الحكم في طبرية، واستمر في هذا المنصب إلى انقراض الدولة الطولونية في ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م[١٦٨]. وقد اضطربت أحوال الإخشيد بعد ذلك إلى أن عينه الخليفة العباسي الراضي بالله على مصر وبلاد الشام سنة ٣٢٣هـ/ ٩٥٣م ليؤسس بذلك ما عرف بالدولة الإخشيدية. وقد توفي الإخشيد في مصر سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، ونقل جثمانه إلى بيت المقدس فدفن فيه[١٦٩].

٢٣- المتنبي وممدوحه بدر بن عمار: بدر بن عمار كان عاملا على طبرية منذ ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م، نيابة عن محمد بن رائق الذي كانت له دمشق. أما المتنبي فهو شاعر العربية الكبير الذي عده بعض

النقاد أعظم شعراء العصور الإسلامية. عاش من ٣٠٣ إلى ٣٤٥هـ/ ٩١٥-٩٦٥م، ولمضى مرحلة من حياته في طبرية في ضيافة أميرها بدر بن عمار. وقد تميزت إقامة المتنبي في طبرية بالخصوبة الشعرية وبوفرة الإنتاج، إذ يضم ديوانه إحدى وثلاثين قطعة شعرية ما بين قصائد طويلة ومقطعات شملت ٣٤١ بيتا من الشعر قالها في أثناء إقامته في طبرية، وكثير من شعره هنا جاء في مدح بدر بن عمار[١٧٠]. ومن أشهر قصائده في هذا الصدد تلك التي قالها في مدح بدر وقد رآه يصرع أسدا بسوطه، وجاء في بعض أبياتها التي بلغت ستة وأربعين بيتا:

أمعفرَ الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

وقعت على الأردن منه بلية نُضدت بها هام الرفاق تلولا

ورد إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفراتَ زئيرُه والنيلا

٢٤ـ محمد بن سعيد بن عبدان بن سهلان بن مهران أبو الفرج البغدادي ولد في بغداد ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م وقدم دمشق وحدث فيها كما حدث في مصر واستقر في طبرية وكان حيا في ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م.[١٧١]

٢٥ـ مكين الدولة: هو أبو علي الحسن بن علي بن ملهم، ومكين الدولة لقبه. من رجال الدولة الفاطمية في بلاد الشام، وقد احتفظ له التاريخ بذكرين، الأول عندما عينه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عاملا له على حلب سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م[١٧٢]، ثم

عندما عينه الخليفة نفسه عـاملا لـه علـى طبريـة وثغـر عكـا سـنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م[١٧٣].

٢٦- فرج بن عبد الله المغربـي الـصفدي الزاهـد الفقيـه الـشافعي نشأ بصفد ثم دخل العراق وتعلم فيهـا وطـاف فـي الـشرق ثـم اسـتقر بطبرية وأقام فيهـا وصـار لـه أصـحاب وأتبـاع ، تـوفي ٧٥١هــ/ ١٣٥٠م.[١٧٤]

(٩)
التعايش الديني

ليس في مصادرنا ما يدل على التركيبـة الدينيـة لـسكان طبريـة ما بين الفتح العربي الإسلامي فـي زمـن أميـر المـؤمنين عمـر بـن الخطاب والاحتلال الفرنجي لها. غير إن هناك مـن القـرائن مـا يعـزز الاعتقاد بأن المدينة كانت تغلب عليها المسيحية عنـد فتحهـا. مـن ذلـك ما ذكرنا سابقا في هـذا الفـصل عـن أن عهـد الـصلح الـذي منحـه الفاتحون المسلمون للسكان يدل بوضوح على أن المخـاطبين فيـه كـانوا نصارى إذ ضمن العهد حماية الكنائس فـي المدينـة. أمـا اليهـود فلـيس هناك من إشارة واحدة تدل على وجـودهم، مـا يجعـل الاحتمـال قويـا بأنهم كانوا أقلية غير ملحوظة. وما يعزز هذا الاحتمـال ويجعلـه يـرجح نحو اليقين ما ذكرناه قبل (فـي الفـصل الأول مـن هـذا الكتـاب) عـن عمليات الانتقام التي وجهها البيزنطيـون بعـد انتـصارهم النهـائي فـي الحرب الفارسـية - البيزنطيـة الكبـرى (٦١٤-٦٢٧م) نحـو اليهـود،

ومنهم من كان مقيما في طبرية، بسبب مشاركتهم الفرس في هذه الحرب وما قاموا به من فظائع ضد المسيحيين في المنطقة إجمالا، ما كان ينعكس بالتأكيد في تقليص أعدادهم.

أما بعد الفتح، ففي مصادر التاريخ الإسلامي ما يؤكد أن أعدادا كبيرة من مختلف القبائل العربية قد انتشرت انتشارا واسعا في المناطق التي افتتحها المسلمون خارج شبه جزيرة العرب، بحيث يصح وصف الفتوحات التي جرت في عهد الراشدين بما يشبه هجرة سكانية واسعة انطلقت من شبه الجزيرة واستقرت في تلك المناطق المفتتحة. وفيما يتعلق الأمر بطبرية، وجند الأردن عامة، نجد أن هذا التوطن العربي الجديد قد تحقق بشكل كثيف في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي. ولدينا معلومة عن التكوين القبلي الذي شارك في معركة صفين (سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م، بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان) تكشف عن القبائل العربية التي كانت قد توطنت في الأردن آنذاك، إذ شارك في هذه المعركة "مذحج الأردن وغسان الأردن وهمدان الأردن"[١٧٥]. كذلك تؤكد لنا معلومة أخرى تعود إلى أواخر القرن الثالث الهجري أن الغالبية العظمى من سكان طبرية كانت من العرب. ففي شهادة لليعقوبي (المتوفى حوالي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)، وهو من هو في معرفته بجغرافية المنطقة، يقول: "أهل طبرية قوم من الأشعريين، وهم الغالبون عليها"[١٧٦].

وفي ضوء هذه المعطيات، ليس ثمة وجه للادعاء بأن طبرية كانت مدينة يهودية، حتى وهي تحت حكم المسلمين. ومن نماذج هذا الادعاء ما كتبه موشيه جيل حديثا: "بالنسبة لسكان طبرية، فنحن نعلم

أنها كانت المدينة اليهودية الأعظم ومركز السنهدرين [المجلس اليهودي الأعلى]... وعلى الرغم من كثير من التطورات السياسية والعسكرية، يبدو أن طبرية ظلت مدينة يهودية إلى حد كبير، ولزمن لاحق وصولا إلى القرن الحادي عشر"[١٧٧]. وتتضح هزالة هذا الادعاء في كونه لا يستند إلى أي معلومة تاريخية موثقة، كما إن استخدام كلمة "يبدو" (it seems كما هي في الأصل الإنجليزي) ينفي اليقين عنه بشكل قاطع.

غير إنا لا نزعم عدم وجود يهود في طبرية في الحقبة مدار البحث هنا، فلدينا من الشواهد التاريخية والآثارية، سنبينها بعد قليل، ما يدل على وجودهم فيها، وإن كنا نجزم، استنادا إلى ما سبق عرضه من بينات عن الغالبية العربية بين سكانها، أن اليهود كانوا أقلية، وعلى الأغلب مجموعة من الكهنة وعلماء الدين الذين ظلوا أوفياء لذكرى وجود السنهدرين في المدينة الذي استمر قائما فيها من ٢٢٠م إلى ٤٢٥م عندما حظر الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني Theodosius (حكم ٤٠٨-٤٥٠) هذه المؤسسة واعتبرها غير شرعية.

أما المسيحيون في المدينة فليس هناك في مصادرنا ما يشير إلى نسبتهم من السكان، لكن نفترض أنهم، في المرحلة مدار البحث هنا، لم يعودوا يمثلون أغلبية. فإذا كانت مصادرنا لا تفصح عن مصير السكان المسيحيين في المدينة بعد فتحها فهناك قرائن تدل على أن نسبة منهم، لا نعرف حجمها، غادروها بعد هذا الحدث. ومن هذه القرائن أن عهد الصلح الذي منح للسكان ينص على أن شرحبيل بن

حسنة، فاتح المدينة، "أمّن أهلها على أنفسهم ولموالهم ولولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلوه"[١٧٨]. وتلك إشارة واضحة إلى عملية جلاء عن المدينة حدثت مع دخول المسلمين. ويترافق ذلك مع قرينة أخرى نعلمها مما حدث في بعض مدن الشام عند فتحها عندما كان بعض سكانها يجلون عنها ويلتحقون بالبيزنطيين (الروم). ومن أمثلة ذلك دمشق التي "لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل [الإمبراطور البيزنطي] وهو بأنطاكية، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون"[١٧٩]. كذلك كان الأمر مع "نصارى اللاذقية" إذ هرب قوم منهم عند فتحها[١٨٠]. وقياسا على ذلك، فليس بمستبعد أن يكون بعض نصارى طبرية قد جلوا عن المدينة كما فعل غيرهم في مدن الشام الأخرى. وإلى جانب ذلك، بيّنا قبل أن بعض القبائل العربية (المسلمة) توطنت في طبرية، وفي جند الأردن عامة، بعد الفتح، وهذا هو ما جعل العرب المسلمين غالبية السكان فيها. ويضاف إلى ذلك أن طبرية اجتذبت إليها مسلمين غير عرب، إذا كنا لا نعرف نسبتهم من إجمالي السكان فإن وجودهم مؤكد فيها بشهادة المؤرخ الكبير أبي الحسن المسعودي الذي يخبرنا أنه عندما زار طبرية في ٣٢٤ هـ/ ٩٣٦م التقى فيها ببعض "موالي بني أمية ممن ينتحل العلم والأدب"[١٨١].

إن وجود غالبية مسلمة في طبرية، في هذه الحقبة الزمنية التي نعالجها هنا، لا يعني أن الأقليات الدينة الأخرى (المسيحية واليهودية) كانت محرومة من ممارسة حقوقها وشعائرها الدينية. بل إن المدقق في تاريخ المدينة آنذاك سوف يخرج باستنتاج على غاية

من الأهمية هو أن المدينة كانت تنعم على امتداد تلك القرون العديدة بجو نموذجي من التسامح والتعايش الديني. فاليهود فيها عاشوا في حالة من الاطمئنان والسلام تحت الحكم الإسلامي كما لم يختبروها ربما في تاريخهم كله. وأعظم دليل على ذلك وضع علماء اليهود في المدينة الذين أتاحت لهم هذه الحالة فرصة ذهبية لتطوير كثير من علومهم. فوفقا للمصادر اليهودية نفسها فإن "العلوم اليهودية استمرت في الانتعاش طوال الحقبة الإسلامية، كما إن نظام الحركات وحروف العلة في اللغة العبرية، والذي لا يزال مستعملا حتى اليوم، وضعت صياغته هناك في نهاية القرن الثامن الميلادي"[١٨٢]، وهو النظام الذي يطلق عليه The Tiberian Vocalization. كذلك انتعش الشعر الديني (المتعلق بالطقوس الدينية) وتفسيرات الكتاب المقدس في المدينة في تلك الحقبة الإسلامية[١٨٣]. ونحن نعرف أيضا أن إحدى الترجمات الأولى للتوراة من العبرية إلى العربية قد تمت في طبرية، وقد قام بها العالم اليهودي أبو كثير يحيى بن زكريا (المتوفى حوالي سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، وهو الذي يصفه المسعودي بالكاتب الطبراني[١٨٤].

ومن هذه الدلائل على ذلك التسامح الذي اشرنا إليه المكتشفات الآثارية الحديثة في طبرية التي أظهرت بقايا كنيس يهودي في القسم الشمالي من المدينة يعود بناؤه إلى القرن السادس الميلادي، إلا إنه جدد بناؤه بعد أن أصابه الدمار في زلزال سنة ٧٤٩م (أواخر العصر الأموي)، وأضيفت إليه قناطر في القرن الثاني عشر الميلادي. كذلك كشفت التنقيبات عن وجود بقايا كنيس آخر في

منطقة حمامات طبرية المشهورة، ويعود بناؤه الأصلي إلى القرن الثالث الميلادي، وجدد إعماره غير مرة في العصر الإسلامي وبقي مستخدما إلى القرن الحادي عشر الميلادي[١٨٥].

أما بالنسبة للمسيحية فقد أوردنا في الفصل الأول عددا من الشواهد عن الكنائس التي أقيمت في طبرية والقرى القريبة منها على شاطئ بحيرتها، والتي كانت قائمة في العصر الإسلامي. ومن أعظم تلك الكنائس تلك التي أقيمت على جبل القعقعية المطل على المدينة والتي يعلق أحد علماء الآثار الذين اكتشفوا آثارها على أهميتها بالقول: "يمكن تقدير أهمية كنيسة جبل برنيك [جبل القعقعية] من المصير الذي آلت إليه بعد زلزال ٧٤٩م الكبير الذي تسبب في تدمير مدن بكاملها، وأحال كثيرا من المباني التذكارية إلى خرائب، لم تنهض قط منها ثانية. وفي هذا الاعتبار فإن هذه الكنيسة كانت حالة استثنائية تماما. فعلى الرغم من أن الزلزال دمرها حتى أساساتها، فقد أعيد بناؤها وتجديدها بعد وقت قصير من ذلك، كما تثبت ذلك المكتشفات الآثارية. ويظهر هذا أهمية الكنيسة بالنسبة للطائفة المسيحية. كذلك يمكن التوصل إلى استنتاج آخر من ذلك هو مكانة الطائفة المسيحية في العصر العباسي. فإعادة إعمار الكنيسة يدل على الإمكانات الاقتصادية لهذه الطائفة، ويدل أيضا على علاقات الطائفة الجيدة مع ممثلي الإدارة الإسلامية. وهذا يفسر التشابه بين الملامح المادية للكنيسة وبين تلك التي كانت عليها المساجد المعاصرة لها، وهو ما يشير إلى وجود درجة عالية من التماثل الحضاري/ الثقافي"[١٨٦].

ويتيح لنا الأسقف الإنجليزي ويليبالد Willibald فرصة أخرى للتعرف على احتضان طبرية للطائفة المسيحية. وقد قام ويليبالد برحلة إلى الأرض المقدسة زار فيها طبرية حوالي سنة ٧٢٤م (في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك) وقد سجلت أخبار رحلته راهبة إنجليزية معاصرة له، وكما سمعتها من الأسقف نفسه. وفي هذه المدينة شاهد الأسقف عددا من الكنائس، ولمس كيف أن السيد المسيح ينظر له بتشريف كبير، كما تعرف على كنائس أخرى عديدة كانت قائمة في البلدات المحيطة بطبرية، خاصة على شاطئ بحيرتها[١٨٧].

وبعد نحو من اربع وثمانين سنة من هذه الشهادة نتعرف على أخرى، مسيحية أيضا، تبين وضع الطائفة المسيحية في طبرية. ففي حوالي العام ٨٠٨ م طلب شارلمان، إمبراطور الفرنجة الكبير في الغرب (حكم بين ٧٧١ و٨١٤م)، والذي كان معاصرا للخليفة العباسي هرون الرشيد، إعداد مسح بالمنشآت الدينية المسيحية في الأرض المقدسة، وقد سجل ذلك المسح بكتاب عرف تاريخيا باسم Commemoratrium de Casis Dei. وفي الجزء المتصل منه بطبرية يتبين وجود خمس كنائس فيها ودير للراهبات، كما كان فيها آنذاك أسقف وثلاثون رجل دين آخرون[١٨٨].

إن وجود أسقفية في طبرية يعد دليلا قاطعا على ما كانت تتمتع به الطائفة المسيحية فيها من مكانة محترمة من جانب السكان، والذين غالبيتهم من المسلمين، ومن السلطات الإدارية أيضا. وفي هذا الصدد توضح القوائم التي اشتملتها المصادر الكنسية عن أعداد

الأساقفة في المنطقة أنه خلافا لمدن أخرى فيها خلت من وجود أساقفة فيها، أمكن إحصاء ثلاثة عشر أسقفا في طبرية في الفترة من ٧٩٣ إلى ١٠٣٢م[١٨٩]، أي على امتداد نحو من ٢٤٠ سنة من العصر العباسي.

وبإجمال، تعايشت الغالبية المسلمة في طبرية مع الأقليات الدينية فيها بدرجة عالية من التسامح أتاحت لها ليس فقط أن تمارس طقوسها الدينية بحرية، بل أيضا أن تطور مؤسساتها الروحية والمادية ولأن تعمل على الارتقاء بعلومها الدينية.

حواشي الفصل الثاني

(١) **تاريخ خليفة بن خياط**، ط. ٢، تحقيق أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧)، ص. ١١٩؛ أبو الحسن البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٨٣)، ص. ١١٧؛ محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٩٨٥)، م. ٢، ص. ٢٠٩.

(٢) الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٢، ص. ٢١٩. وتشير الرواية التي اعتمدها البلاذري، **المصدر المذكور**، ص. ١١٨ إلى أن المسلمين تغلبوا على الروم في فحل بعد أجنادين وقبل فتح دمشق، وتضطرب الرواية لدى خليفة فيذكر مرة (ص. ١٢٠) أن موقعة فحل كانت قبل دمشق، ومرة (ص. ١٢٦) أنها كانت بعد فتح دمشق.

(٣) أجمع على هذا التاريخ كل من خليفة، **المصدر المذكور**، ص. ١١٦؛ الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٣، ص. ٢٢١؛ البلاذري، **المصدر المذكور**، ص. ١٢٦؛ علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، ط. ٢، تهذيب عبد القادر بدران (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩)، ج. ١، ص. ١٤٧.

(٤) البلاذري، **المصدر المذكور**، ص. ١١٨. وفي رواية لدى ياقوت بن عبدالله الحموي، م. ٤، ص. ٢٣٧ أن عدد قتلى الروم كان ثمانين ألفا.

(٥) الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٢، ص. ٢٢٢، عن رواية لابن إسحاق.

(٦) البلاذري، **المصدر المذكور**، ص ص. ١٢٤-١٢٥.

(٧) **نفسه**، ص. ٢٥.

(٨) **نفسه**، ص. ١١٩.

(٩) أبو القاسم ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩)، ص ص. ١٥٧-١٦٠.

(١٠) الاصطخري، **المسالك والممالك** (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١)، ص ص. ٤٤-٤٥.

(١١) محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (النسخة الألكترونية المحفوظة لدى www.alwaraq . net. وسوف يشار هنا وفيما بعد إلى هذا الموقع كما يلي: نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ٥٦.

(١٢) أبو عبد الله بن عمر الواقدي، **فتوح الشام** (بيروت: دار الجيل)، ج. ٢، ص. ٧٥.

(١٣) كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار (بيروت: دار الفكر)، ج. ٧، ص. ٣٠٢٧. وسوف يشار هنا وفيما بعد إلى هذا المصدر كما يلي: **بغية الطلب**.

(١٤) علي بن محمد الشيباني ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق كارلوس يوهانس تورنبرغ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩)، م. ٣، ص ص. ٢٠-٢١.

(١٥) الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٢، ص. ٥٢١.

(١٦) للتعيينات الثلاثة انظر: خليفة بن خياط، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٩٨، ٣١١، ٣٢٣ على التوالي.

(١٧) الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٤، ص. ١٣٥.

(١٨) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٣٣٠.

(١٩) انظر الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٤، ص ص. ١٣٤-١٣٥.

(٢٠) انظر ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٣٣٠.

(٢١) انظر ترجمته لدى أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، تاريخ مقدمة المحقق ١٩٦٨)، م. ٥، ص ص. ٥٦-٦٣.

(٢٢) ثابت بن سنان بن قرة الصابي، **تاريخ أخبار القرامطة**، كما جاء لدى: سهيل زكار، **أخبار القرامطة في الإحساء والشام والعراق واليمن**، ط. ٢ (دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٢)، ص. ٢٧؛ كذلك الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٣٩٣.

(٢٣) **نفسه**، م. ٨، ص ص. ٣٦٣-٣٦٤.

(٢٤) انظر قائمة بأسماء ولاة دمشق للإخشيديين لدى: شاكر مصطفى، **موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣)، ج، ٢. ص ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٢٥) وفقا لرواية المقريزي في ترجمته لجعفر بن فلاح في كتاب المقفى، أوردها: سهيل زكار، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: دراسة تتناول قيام الإمبراطورية السلجوقية وأحوال الشام والجزيرة عشية الغزو الصليبي**، ط. ٤ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١)، ص. ٣١٤.

(٢٦) ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، م. ١، ص ص. ٥٢-٥٣؛ أمينة بيطار، **موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري** (دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص. ٦٩.

(٢٧) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ٨، ٦٥٧.

(٢٨) **نفسه**، م. ٨، ص ص ٦٦٠-٦٦١.

(٢٩) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، **المنتظم في تواريخ الملوك والأمم**، تحقيق سهيل زكار (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

١٩٩٥)، ج. ٩، ص. ٥١٣؛ حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار (دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٣)، ص. ١٦٦.

(٣٠) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **البداية والنهاية**، تحقيق محمد عبد العزيز النجار (القاهرة: دار الغد العربي، ١٩٩١)، م. ٦، ص. ٥٩٦؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٩٩.

(٣١) تفاصيل هذه التطورات لدى: ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ١١١، ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ١٨٢؛ ابن خلكان، **المصدر المذكور**، م. ١، ص. ٢٩٥.

(٣٢) انظر تطورات هذا الصراع مفصلة لدى: عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ط. ٣ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠)، ص ص. ٨١-٨٦؛ صدر الدين علي بن ناصر الحسيني، **زبدة التواريخ: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية**، تحقيق محمد نور الدين (بيروت: دار إقرأ، ١٩٨٥)، ص ص. ١٦٠-١٦١؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص ص. ٢١٩-٢٢٢.

(٣٣) المقدسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٦٠، ٦٩.

(٣٤) ابن حوقل، **المصدر المذكور**، ص. ١٦٠.

(٣٥) ناصر خسرو، **سفرنامة** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ٨.

(٣٦) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ١١٦.

(٣٧) ياقوت الحموي، **المصدر المذكور**، م. ٤: ١٨-١٩.

(٣٨) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص ص. ١٨، ٥٨.

(٣٩) ناصر خسرو، المصدر المذكور، ص. ٨.

(40) Hirschfeld, *Excavations, etc, op. cit*, p. 18.

(٤١) الإدريسي، المصدر المذكور، ص. ١٧.

(٤٢) ابن حوقل، المصدر المذكور، ص. ١٧٠.

(43) David Stacy, *Excavations at Tiberias, 1973-1974: The Early Islamic Periods* (Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 2004), p. 3.

(٤٤) المقدسي، المصدر المذكور، ص. ٦٠.

(٤٥) انظر عن هذه التنقيبات: Stacey, *op.cit*, p. 5.

(٤٦) المقدسي، المصدر المذكور، ٦٧.

(٤٧) ناصر خسرو، المصدر المذكور، ص. ٩.

(٤٨) الإدريسي، المصدر المذكور، ص. ١١٦.

(٤٩) انظر عن صناعة الفخار في طبرية في عصرها الإسلامي الفصل الخامس من: Stacey, op.cit, pp. 89-147.

(٥٠) المرجع نفسه، ص. ٢١٦.

(٥١) خصص معهد الآثار البحرية التركي Institute of Nautical Archaeology, Bodrum, Turkey تقارير ضافية عن هذه السفينة، وحطامها، وعملية انتشالها، ومحتوياتها على موقع المعهد على الإنترنت كما يلي:

www.diveturkey.com/inaturkey/serce.htm

(52) Stacey, *op.cit*, p.216, and Hirschfeld, *Excavations etc, op. cit*, p. 61.

(٥٣) الإدريسي، المصدر المذكور، ص. ١١٦

(٥٤) ناصر خسرو، **المصدر المذكور**، ص. ٨

(٥٥) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص ص. ١٠٩-١١٠.

(٥٦) أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، **الديارات**، الطبعة الثالثة، تحقيق كوركيس عواد (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٦)، ص. ٢٠٤.

(٥٧) **نفسه**، ص. ٢٠٧.

(58) Yitzhar Hirschfeld and Giora Solar, "Sumptuous Roman Baths Uncovered Near Sea of Galilee", *Biblical Archaeology Review*, 10:06 (December 1984).

(٥٩) مصلح كناعنة، "خربة المنية"، كما هي محفوظة على: www. jalili48. com

(٦٠) ناهض عبد الرزاق القيسي، **الفلس العربي الإسلامي منذ صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي** (عمان: دار المناهج، ٢٠٠٦)، ص. ٣٧.

(٦١) **نفسه**، ص. ١٨.

(٦٢) **نفسه**، ٢١-٢٢.

(63) Stacey, *op.cit*, p231.

(٦٤) القيسي، **المرجع المذكور**، ص. ١١٩.

(65) Stacey, *op.cit*, p. 216.

(٦٦) محمد بن عبد القدوس الجهشياري، **كتاب الوزراء والكتاب**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، تاريخ مقدمة المحققين ١٩٣٨)، ص ص. ٢٨٦-٢٨٧.

(٦٧) **مقدمة ابن خلدون** (بيروت: دار الكتاب ومكتبة المدرسة، ١٩٨٢)، ص. ٣٢١.

(٦٨) ابن خردذابة، **المصدر المذكور**، ص. ٦٧.

(٦٩) ابن حوقل، **المصدر المذكور**، ص. ١٧١.

(٧٠) الأرقام كما هي في المصادر المذكورة في الحواشي ٥٤، ٥٥، ٥٦ أعلاه.

(٧١) ابن حوقل، **المصدر المذكور**، ص. ١٧١.

(٧٢) وهو ما حدث فعلا كما سنوضح في الفصل التالي. وانظر في ذلك الفصل أيضا عن الأتابك طغتكين

(٧٣) السراج القارئ، **مصارع العشاق** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص ١١٧.

(٧٤) المقدسي، **المصدر المذكور**، ص. ٦٧.

(٧٥) **بغية الطلب**، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٩٦٧، ابن كثير، **المصدر المذكور**، ج. ١١: ٢٢٢.

(٧٦) أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله بن عبد الله الشافعي، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمري (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥)، ج. ٤٤، ص. ١٠٠. هنا فيما بعد سيشار إليه كما يلي: **تاريخ مدينة دمشق**.

(٧٧) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٧، ص. ٩١؛ ابن كثير، **المصدر المذكور**، ج. ٩، ص. ٣٧٣.

(٧٨) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢٤، ص. ٤٥٣.

(٧٩) أبو سعد عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني، **الأنساب**، تحقيق عبد الله عمر البارودي (بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨)، ج. ٤، ص. ٤٤.

(٨٠) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢٢، ص. ٣١٦

(٨١) **نفسه**، ج. ٦٠، ص. ٢٨٠.

(٨٢) **نفسه**، ج. ١٣، ص. ٣٣٢.

(٨٣) **نفسه**، ج. ٥، ص. ١٥٩.

(٨٤) **نفسه**، ج. ٧، ص. ٣٧١.

(٨٥) **نفسه**، ج. ١٦، ص. ١٥٠؛ **بغية الطلب**، ج. ٢، ص. ٨٢٠.

(٨٦) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ١٣، ص. ٣٢٦.

(٨٧) **نفسه**، ج. ٨، ج. ٣١١.

(٨٨) عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي [المعروف بابن العماد الحنبلي]، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦)، ج. ٨، ص. ٢٧٧.

(٨٩) الصفدي، **الوافي بالوفيات** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ١٣٨١.

(٩٠) محمد بن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، تحقيق محمد حامد الفقي (بيروت: دار المعرفة، د ت)، ج. ١، ص. ٤٢٤.

(٩١) **بغية الطلب**، ج. ٥، ص. ٢٣١٤.

(٩٢) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢٤، ص ص. ٢٥، ٣٢.

(٩٣) **نفسه**، ج. ١٣، ص. ٣٢٦.

(٩٤) **نفسه**، ج. ١٤، ص. ٤٤.

(٩٥) ابن حجر، **لسان الميزان** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ٣٣٥.

(٩٦) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ١، ص. ١٠٩.

(٩٧) **بغية الطلب**، ج. ٨، ص. ٣٧٩٠.

(٩٨) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢١، ص. ٢٣٦.

(٩٩) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٤، ص. ٤٢.

(١٠٠) ابن خلكان، المصدر المذكور، م. ٢، ص. ٤٠٧.

(١٠١) تاريخ مدينة دمشق، ج. ٢٣، ص. ٣١٥.

(١٠٢) الصفدي، المصدر المذكور، ص. ٢٢٣١.

(١٠٣) ابن زولاق، سيرة محمد بن طغج الإخشيد، في: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨)، ج. ١، ص. ٢٦٦.

(١٠٤) تاريخ مدينة دمشق، ج. ٢٤، ص. ٢٧٤.

(١٠٥) نفسه، ج. ٢٤، ص. ٤٥٤.

(١٠٦) نفسه، ج. ٥١، ص. ١٩٩.

(١٠٧) نفسه، ج. ٢٧، ص. ١٧٣.

(١٠٨) نفسه، ج. ٤٨، ص. ٣٤.

(١٠٩) نفسه، ج. ٣٧، ص. ٣٧.

(١١٠) نفسه، ج. ٥١، ص. ٣٥.

(١١١) نفسه، ج. ٣٨، ص. ٢٣٨.

(١١٢) السمعاني، المصدر المذكور، ج. ٤، ص. ٤٤.

(١١٣) تاريخ مدينة دمشق، ج. ٣١، ص. ٧٢.

(١١٤) بغية الطلب، ج. ٧، ص. ٣٠٢٧.

(١١٥) الذهبي، المصدر المذكور، ص. ١٤٢٣.

(١١٦) تاريخ مدينة دمشق، ج. ٥٢، ص. ٣٩٤.

(١١٧) نفسه، ج. ٣٥، ص. ٣٢٥.

(١١٨) **نفسه**، ج. ٦، ص. ١٠٣.

(١١٩) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٤، ص. ٤٣.

(١٢٠) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ١٧، ص. ٤٠٧.

(١٢١) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٤، ص. ٤٣.

(١٢٢) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢٧، ص. ١٧٣.

(١٢٣) **نفسه**، ج. ١٩، ص. ٥١.

(١٢٤) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٣٦١.

(١٢٥) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٥٣، ص. ٨٩.

(١٢٦) **نفسه**، ج. ٥٣، ص. ٣٢٩.

(١٢٧) **نفسه**، ج. ٣٥، ص. ٢٠.

(١٢٨) **نفسه**، ج. ٥٤، ص. ٢٠٠.

(١٢٩) **نفسه**، ج. ٥٤، ص. ٢٦٠.

(١٣٠) **نفسه**، ج. ٢٢، ص. ٣١٦.

(١٣١) محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ١٩٤٥.

(١٣٢) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٥٦، ص. ١٦.

(١٣٣) **نفسه**، ج. ٥٨، ص. ٣٨١.

(١٣٤) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** (بيروت: دار الكتاب العربي، دت)، المجلد ، ١٣: ص ص. ١٩٦-١٩٩؛ الجهشياري، **المصدر المذكور**، ص. ١٤١ وما بعدها.

(١٣٥) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٦٢، ص. ٣٦.

(١٣٦) **نفسه**، ج. ٦٢، ص. ١٣٩.

(١٣٧) ياقوت الحموي، **المصدر المذكور**، م. ١، ص. ١٤٩.

(١٣٨) الصفدي، **المصدر المذكور**، ص. ٣٣٧١.

(١٣٩) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٤، ص. ٤٢.

(١٤٠) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٦٤، ص. ١١٧.

(١٤١) **نفسه**، ج. ٥٤، ص. ١٩٨.

(١٤٢) انظر ترجمته لدى: علي بن الحسين الشافعي المعروف بابن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، ط. ٢ (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩)، ج. ٦، ص ص. ٣٠١-٣٠٤.

(١٤٣) الواقدي، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٧٥.

(١٤٤) ياقوت الحموي، **المصدر المذكور**، م. ٣، ص. ٤٢٥.

(١٤٥) ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** (نسخة الوراق الألكترونية)، ج. ٢، ص. ٣٥١.

(١٤٦) ترجمته لدى ابن عسكر، **المصدر المذكور**، ج. ٥، ص ص. ٣٥-٣٦.

(١٤٧) ناصر خسرو، **المصدر المذكور**، ص. ٩.

(148) Guy Le Strange, *Palestine under the Moslems* (Beirut: Khayats, 1965, reprinted from the original edition of 1890), p. 338.

(١٤٩) البلاذري، **أنساب الأشراف** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ٣٦٤.

(١٥٠) خليفة بن خياط، **المصدر المذكور**، ص. ٢٩٨.

(١٥١) ترجمته لدى: الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط. ٤ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩)، م. ٢، ص ص. ٣٠٠-٣٠١،

(١٥٢) خليفة بن خياط، **المصدر المذكور**، ص. ٣١١.

(١٥٣) ترجمتها وبعض أخبارها لدى: ابن خلكان، **المصدر المذكور**، م. ٢، ص ص. ٣٩٤-٣٩٧.

(١٥٤) انظر: ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ١١٠.

(١٥٥) **الموسوعة الفلسطينية** (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، م. ٤، ص. ٢٦٩.

(١٥٦) ابن العماد الحنبلي، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٩١؛ **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٢٦، ص. ٢٠٩؛ محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ط. ٩، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ج. ٥، ص. ٣٢٣.

(١٥٧) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد ٢، ص. ٣١٤.

(١٥٨) خليفة بن خياط، **المصدر المذكور**، ص. ٣٢٣.

(١٥٩) أخبار الوليد بن معاوية لدى: ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م، ٥، ص ص. ٣٣٠، ٤١٨، ٤٢٥.

(١٦٠) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧)، مجلد حوادث ١٢١-١٤٠هـ، ص. ٥٣٠.

(١٦١) الذهبي، **المصدر المذكور**، ج. ١١، ص. ٢٤٥.

(١٦٢) **تاريخ مدينة دمشق**، ج. ٣٨، ص. ١٠٣.

(١٦٣) الطبري، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص ص. ٣٩٣-٣٩٤.

(١٦٤) خير الدين الزركلي، **المرجع المذكور**، م. ٦، ص ص. ٢٦٠-٢٦١.

(١٦٥) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة** (القاهرة: وزارة الثقافة، دت)، ج. ٣، ص. ١٩١؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ط. ٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣)، ج. ٤، ص ص. ١٩٦-١٩٧.

(١٦٦) **نفسه**، ج. ١٠، ص. ١٦٥.

(١٦٧) ابن تغري بردي، **المصدر المذكور**، ج. ٣، ص. ٣٠٢؛ ابن خلكان، **المصدر المذكور**، م. ٣، ص. ١٣٦.

(١٦٨) انظر سيرة محمد بن طغج الإخشيد في: **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ**، المصدر المذكور، ج. ١، ص. ٢٢٦.

(١٦٩) انظر ترجمة الإخشيد لدى: ابن خلكان، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص ص. ٥٦-٦٣.

(١٧٠) انظر شعر المتنبي الذي قاله في طبرية في: ناصيف اليازجي، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب** (بيروت: دار القلم، دت)، ص ص. ١٣٢-١٧١.

(١٧١) السمعاني، **المصدر المذكور**، ج. ٤، ص. ٤٣؛ الخطيب البغدادي، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٣١٢.

(١٧٢) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ٩، ص. ٢٣٢.

(١٧٣) **تاريخ أبي يعلى** (نسخة الوراق الألكترونية) ص. ٦١.

(١٧٤) الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، مراقبة محمد عبد المعين خان(حيدر أباد: مجلس إدارة المعارف الإسلامية، ١٩٧٢)، ج. ٤، ص. ٢٦٨.

(١٧٥) انظر: صالح أحمد العلي، **امتداد العرب في صدر الإسلام**، ط. ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣)، ص. ٧٧.

(١٧٦) اليعقوبي، **كتاب البلدان** (النسخة الأكترونية المحفوظة لدى: www.4shared .com)، ص. ٥٥.

(177) Moshe Gil, *A History of Palestine 634-1099*, translated by Ethel Broido (Cambridge University Press, 1992), p. 175.

(١٧٨) البلاذري، **الفتوح**، **المصدر المذكور**، ص، ١١٩.

(١٧٩) **المصدر نفسه**، ص. ١٢٥.

(١٨٠) **المصدر نفسه**، ص. ١٣٤.

(١٨١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص. ٣٠٧.

(182) Stacey, *op.cit*, p. 3.

(183) Hirschfeld, *A Guide etc, op.cit*, p. 8.

(١٨٤) المسعودي، **التنبيه... المصدر المذكور**، ص. ١١٤.

(185) Herschfeld, *A Guide, op.cit*, pp. 35-36, 45-49.

(186) Hirschfeld, *Excavations, op.cit*, p. 222.

(١٨٧) سجلت أخبار الرحلة الراهبة هونبرك من هيدنهايم Huneberc of Heidenheim في كتاب يعرف بـ"أخبار رحلة القديس ويليبالد"، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية الحديثة بعنوان: The Hodoeporican of St. Willibald، ونسخة ألكترونية منه محفوظة على الموقع:

www. fordham.edu/ halsal/willibald.htm

(188) Stacey, *op. cit*, p. 2.

(189) Hirschfeld, *Excavations, op.cit,* p. 132.

الفصل الثالث

طبرية
في حروب الفرنج وعواقبها

(١)

طريق الفرنج إلى طبرية

خضعت طبرية لحكم الفرنج (الصليبيين) نحوا من ثمانية وثمانين عاما منذ أن احتلوها لأول مرة في أواخر ١٠٩٩م إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبي من تحريرها في تموز ١١٨٧م. وكان من سوء طالعها أن أعاد الفرنج احتلالها مرتين واحدة بعد نحو من سبع وخمسين سنة من تحريرها وأخرى بعد ستين سنة عندما بذلها لهم ورثة صلاح الدين من الأيوبيين المتأخرين الذين أصابهم طاعون الاقتتال البيني وتقديم التنازلات المذلة للفرنج لعلهم بذلك يتفرغون لاقتناص مكاسب بعضهم على حساب بعض.

وكانت طبرية سقطت بيد الفرنج لأول مرة في أثناء الحملة الفرنجية الأولى التي امتدت ما بين سنة ١٠٩٧م(٤٨٩هـ) وسنة ١٠٩٩م (٤٩٢هـ). والطريق إلى طبرية (وهي ما يعنينا هنا في هذا الكتاب) بدأ من قونية، عاصمة سلاجقة الروم (كان ملكها قليج أرسلان) التي اجتاحها الفرنج، وأعقبوا ذلك بالاستيلاء على طرسوس، وهي من الثغور الشامية وكانت تابعة أيضا لسلاجقة الروم. ومن هناك اتجهت فئة من الفرنج شرقا فاستولت على الرها (وشكلوا فيها إمارة فرنجية برئاسة بلدوين الألماني)، بينما اتجهت فئة أخرى باتجاه الجنوب نحو أنطاكية التي صمدت أمام حصار الفرنج تسعة أشهر إلى أن تمكنوا منها في نيسان ١٠٩٨ (جمادى الأولى

٤٩١هـ) ليرتكبوا فيها إحدى مجازرهم الفظيعة، وليشكلوا فيها إمارة فرنجية برئاسة بوهمند، وهو من نورمان صقلية. ومن أنطاكية استمرت الرحلة نحو الجنوب مارة بمعرة النعمان التي سقطت بأيدي الفرنج الذين أحرقوها أولا عن آخر، وكذلك هم فعلوا بكفر طاب. ومن هناك توجهت الرحلة إلى الساحل، فمرت بطرابلس، فبيروت، فصيدا حيث نهب الفرنج مزارعها، فصور، فعكا، فأرسوف، فقيسارية، ثم إلى الداخل حيث استولى الفرنج على الرملة (٣ تموز ١٠٩٩) التي كان سكانها قد هجروها هربا من الفرنج، ومنها إلى بيت لحم التي استسلم أهلها لهم دون قتال.

وقد أثارت الحملة بما ارتكبه الفرنج من مجازر الذعر والهلع في نفوس أمراء المنطقة التي كانت تعبر منها الرحلة المشؤومة. ومن ذلك أن سلطان بن منقذ، صاحب قلعة شيزر، أجرى اتصالات مع قادة الفرنج تعهد فيها بألا يعترض طريقهم عند اختراقهم الإقليم التابع له، وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة، وقد أرسل إليهم دليلين يرشدانهم في عبورهم إقليم العاصي. كذلك عندما سقط حصن الأكراد المطل على البقاع بيد الفرنج، قام جناح الدولة، أمير حمص، بإيفاد رسل إليهم محملين بالهدايا ليخطب ودهم، لكي لا يتعرضوا لبلاده بسوء. وأيضا عندما أخذ الفرنج بحصار عرقة، وهي مدينة تقع شمال طرابلس وتتبعها، أسرع أميرها بإرسال الرسل إليهم متعهدا بدفع أموال لهم، كما أسرع برفع أعلامهم على سور مدينته، وغيرها من المواضع التابعة له، إشارة إلى ولائه لهم. وعندما هاجم الفرنج طرابلس وألحقوا هزيمة بالمسلمين هناك، ركن أميرها ابن

عمار إلى مسالمتهم، وتعهد بدفع الإتاوة لهم، كما دفع غرامة حربية باهظة. وعندما مر الفرنج ببيروت وأحس أهلها باقترابهم منهم، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين، فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال مقابل تعهد الفرنج بعدم الاعتداء على بساتينهم وغلالهم، مع وعد أخذه الفرنج منهم بالدخول في طاعتهم والاعتراف بالتبعية لهم إذا هم نجحوا في احتلال بيت المقدس. كذلك تعهد حاكم عكا عندما مر الفرنج بها بتموينهم، ووعد بالدخول في طاعتهم إن استولوا على بيت المقدس[1].

وكانت بيت المقدس هي المحطة الرئيسية التي قصدها الفرنج في هذه الرحلة، وكانت آنذاك تحت حكم الفاطميين، فوصلوا إلى أسوارها في ٧ حزيران ١٠٩٩ (١٤ رجب ٤٩٢) وفرضوا عليها حصارا استمر نحوا من أربعين يوما، دافع خلاله أهل المدينة عنها جهد ما استطاعوا. غير أن القدس، التي كانت قد تناوب على استبحاتها التركمان وجيوش الفاطميين، كانت منذورة للهزيمة شأنها شأن مدن الشام جميعا التي كان الحكام والمتسلطون قد أعملوا فيها أيدي التخريب والقتل والنهب والفساد، وأعدوها لهذا المصير الذي جاء حصيلة حتمية لما كانوا قد ارتكبوه. وقد لاقت القدس مصيرها هذا يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩(٢٣ شعبان ٤٩٢) عندما استباحها الفرنج وارتكبوا فيها مجزرتهم المشهورة التي ذكرت المصادر العربية أن سبعين ألف إنسان قد قتلوا فيها[2]، بينما ذكر فوشيه الشارتري أنه قطعت رؤوس ما يقارب من عشرة آلاف شخص في الحرم القدسي الذي يسميه "الهيكل"، ويعلق بالقول "لو كنتَ هناك

لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلا"[٣].

وهكذا تحقق هدف الحملة الفرنجية الأولى بتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين. وكانت الخطوة التالية هي تشكيل سلطة تتولى إدارة شؤون البلاد التي استولى عليها الفرنج، وايضا مسؤولية مواصلة الغزو. وبعد مؤامرات عديدة شارك فيها قواد الحملة الفرنجية ورجال الدين المشاركون فيها وقع الاختيار على الألماني جودفري دوق اللورين الأدنى ليعهد إليه بهذه المهمات. وقد قبل جودفري (الذي تسميه مصادرنا العربية كندفري) بشرط ألا يتوج ملكا، إذ يرفض التاج في المدينة التي اتخذ فيها السيد المسيح تاجا من الشوك. وبدلا من التاج أراد جودفري أن يعرف باسم "حامي القبر المقدس".

وسع جودفري حدود مملكته نحو الجنوب بالاستيلاء على الخليل، وباتجاه الشمال إلى سهل زرعين (إلى الغرب من بيسان) لتصبح الطريق بذلك ممهدة أمامه نحو طبرية والجليل عامة. وكانت طبرية في هذه الفترة التي نتحدث عنها تتبع دمشق التي كان متملكا فيها منذ عام ١٠٩٥ (٤٨٨هـ) دقاق بن تتش السلجوقي الذي استقر ملكا في دمشق بعد مقتل أبيه تتش في أحد معاركه مع السلطان السلجوقي بركيارق، في صراعهما على السلطنة، بينما استقر أخوه رضوان بن تتش ملكا في حلب.

(٢)
تانكرد النورماني يحكم طبرية

اتجهت قوات الفرنج لتستولي على طبرية بقيادة تانكرد Tancred الذي تسميه مصادرنا العربية طنكري. وتانكرد هذا نورماني من صقلية*، رافق خاله بوهمند (الذي استقر أميرا على أنطاكية كما سبق أن ذكرنا) في الحملة الفرنجية الأولى. وكان من عتاة القادة الفرنج، وشارك في احتلال بيت المقدس، وهو أول من اقتحم أسوارها. وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى ليتخذوه ملجأ لهم انقض عليهم تانكرد في أثناء احتشادهم بداخله لتبدأ المجزرة فيه، كما قام بنهب ما كان في مسجد الصخرة من موجودات بما فيها القناديل الضخمة من الفضة، وحاز بذلك ثروة عظيمة[4]. وقد انغمس تانكرد حتى أذنيه في المؤامرات التي دارت بين قادة الحملة لتعيين ملك على بيت المقدس وكان يطمح إلى تولي هذا المنصب، إلا أن الأمر لم يمل لصالحه إذ كان المُلك من نصيب الألماني جودفري. غير ان تانكرد لم ييأس من تولي منصب يتناسب مع إسهاماته في الانتصارات التي حققها الفرنج. وقد جاءت الفرصة له بالتوجه إلى طبرية والجليل ليؤسس هناك إمارة بموافقة جودفري، على أن يعلن تبعيته لـ"حامي القبر المقدس".

---

* النورمان (ويعرفون أيضا بالنورمنديين) من شعوب الشمال الأوروبي، كانت لهم مغامرات بحرية طويلة إلى أن استولوا بين سنتي ١٠٦١ و١٠٩١، وهم تحت حكم ملكهم روجر الأول، على صقلية التي كانت حتى ذاك تحت الحكم العربي.

انطلق تانكرد من القدس وبصحبته (وفق المصادر الفرنجية) أربعة وعشرون فارسا فقط ومعهم أتباعهم. وعلى الرغم من صغر هذه القوة فهو لم يلقَ مقاومة شديدة من المسلمين في الجليل، فقد كان الإحساس بالهزيمة هو السمة المسيطرة عليهم آنذاك. وهذا ما حدث كذلك بالنسبة لطبرية. فما أن اقترب تانكرد منها حتى هرب سكانها إلى بلاد الشام فدخلها دون قتال في أواخر سنة ١٠٩٩م.

استقر تانكرد في طبرية مدة كانت كافية لتحصينها لتصبح صالحة لاتخاذها مركزا لأمارته، ثم توجه إلى مدينة الناصرة، ومنها إلى جبل الطور (جبل طابور)، ثم عطف على بيسان واستولى عليها وعلى استحكاماتها. وكانت هذه مدينة حصينة ذات موقع مهم يمكن الإشراف منه على الضفة الشرقية لنهر الأردن. وبعدها استكمل أعماله في الجليل الذي بادر أهلوه إلى الهرب والرحيل عنه. وكانت تلك الحملة قد أتاحت لتانكرد الحصول على ثروة وافرة تكونت لديه من أعمال النهب التي مارسها هو وأتباعه*.

أصبح تانكرد إذن أول سيد فرنجي على طبرية والجليل وبتبعية اسمية لجودفري في بيت المقدس، وإن كانت هذه التبعية لم تمنعه من التصرف على أهوائه وكأنه أمير مستقل. وكانت أولى أعمال تانكرد وهو في منصبه سيدا على طبرية أن مد ناظريه إلى المناطق الخصبة التي تقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية، وهي التي تعرف باسم سواد طبرية، أوباسم السواد اختصارا. وكانت هذه المنطقة تتبع الملك دقاق في دمشق ويحكمها أمير غاب عن مصادرنا العربية اسمه، وإن كانت المصادر الفرنجية تسميه "الفلاح

السمين". وقد تمكن تانكرد من أن يجتاح المنطقة ويفرض سلطته على هذا الأمير وأن يجبره على الاعتراف بسيادة الفرنج عليه. إلا أن أمير السواد هذا ما لبث أن تمرد على تانكرد وطلب مساعدة دقاق في دمشق، فأمده هذا بخمس مئة فارس. فما كان من تانكرد إلا أن استنجد بجودفري في بيت المقدس، وشكل الاثنان قوة توغلت في أراضي "الفلاح السمين" حتى بلغت الجولان. غير أنه حدث في أثناء عودة هذه القوة (في ١٨ حزيران ١١٠٠) أن انقض دقاق على مؤخرة الجيش الفرنجي التي كان تانكرد يتولى حمايتها دون أن يعلم جودفري الذي كان يقود طليعة الجيش بما حصل فمضى في سيره باتجاه القدس. ولم يستطع تانكرد أن يخلص نفسه إلا بصعوبة وبعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله، وأضاع كل نصيبه في الغارة من الغنيمة.

وما يثير الدهشة في تصرف دقاق أنه بعد هذا النصر الذي حققه على غريمه الفرنجي، لم يواصل الهجوم بل تراجع منكفئا إلى دمشق. أما تانكرد فقد أشعلت الهزيمة التي لحقت به روح الانتقام. فلم يكد جيشه يستريح فترة قصيرة في طبرية، ويحشد أمدادا، حتى قام بغارة جديدة على أراضي دمشق، بلغت من العنف والشدة أن طلب دقاق منه عقد هدنة. إلا أن تانكرد رد بعنجهية وصلف على ذلك، إذ بعث إلى دمشق بستة فرسان يحملون رسالة تتضمن أنه ينبغي على دقاق إما أن يتنصر أو أن يغادر دمشق. وقد هاج دقاق على هذه الإهانة فطلب من الرسل الستة إما أن يعتنقوا الإسلام أو يقتلوا. وقد استجاب أحدهم بأن أعلن إسلامه بينما لقي الخمسة

الاخرون مصرعهم. وكانت ردة فعل تانكرد على ذلك أكثر عنفا مما سبق، إذ طلب من جودفري في القدس أن ينحاز إليه للقيام بغارة شديدة تفوق الغارة السابقة شدة واتساعا. وبالفعل، فقد قام الاثنان بغارتهما وأخذا يعيثان فسادا في المنطقة على امتداد أسبوعين، دون أن يحاول دقاق مواجهتهم. وقد انعكست هذه النتائج على أمير سواد طبرية المسلم، إذ بعد أن أدرك أن ملك دمشق قد تخلى عنه، ورأى ما قام به الفرنج في بلاده من خراب، وافق مرة أخرى على أن يقبل بتانكرد سيدا له، وأن يؤدي له الإتاوة التي فرضها بانتظام[٦].

في الوقت الذي كان تانكرد مشغولا بفرض سلطته على سواد طبرية ومهاجمة الأراضي التابعة لدقاق، ملك دمشق، قدمت قوة فرنجية جديدة إلى السواحل الفلسطينية مكونة من أسطول بندقي (من مدينة البندقية الإيطالية) ورست في قيسارية، وظهر من تحركها ومن المفاوضات التي أجرتها مع جودفري في بيت المقدس أنها كانت قد وضعت هدفا لها الاستيلاء على عكا وحيفا. وكانت تضع في برنامجها أنها على استعداد لمد يد العون للفرنج في فلسطين بشرط أن يطلق للبنادقة حرية التجارة في سائر مملكة الفرنج، وأن يكون لهم بكل مدينة فيها كنيسة وسوق، وأن يكون لهم ثلث كل مدينة يسهمون في الاستيلاء عليها.

وفي هذه الأثناء توفي جودفري في القدس (في ١٨ تموز ١١٠٠م) وظهرت الخلافات من جديد في صفوف قادة الفرنج والكهنة حول من يخلفه في المنصب. وقد استغل تانكرد هذه المرحلة الانتقالية، فاتفق مع البنادقة على مهاجمة حيفا، وزحف بجيشه من

طبرية إليها بينما تولى البنادقة مهاجمتها من البحر. وفي ٢٥ تموز ١١٠٠ سقطت المدينة (التي كانت حتى ذلك تحت سيادة الفاطميين الاسمية) بيد تانكرد بعد مقاومة شديدة أظهرها أهلوها، فكان أن انتقم بتنفيذ مذبحة جديدة من مذابحه، إذ تمكن عدد من الأهلين من الهروب إلى عكا المجاورة بينما كان القتل مصير أغلبية السكان.

وبالاستيلاء على حيفا ضمن تانكرد ميناء له على البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت إمارته تمتد بذلك من بحيرة طبرية في الشرق إلى ساحل المتوسط في الغرب شاملة بالإضافة إلى طبرية التي اتخذها مركزا لحكمه كلا من بيسان حتى نهر الأردن والناصرة والأراضي المتاخمة لها إلى بحيرة الحولة والجليل بأجمعه بما فيه مرج ابن عامر ثم وصولا إلى حيفا.

غير أن أمد حكم تانكرد لطبرية وإقطاع الجليل لم يمتد طويلا، إذ حدثت مستجدات بعد تلك التطورات التي ذكرناها استوجبت تخليه عنها. فبعد وفاة جودفري، "حامي القبر المقدس" في بيت المقدس (١٨ تموز ١١٠٠) استدعي أخوه الأصغر بلدوين الذي كان قد أسس، منذ بدء الحملة الفرنجية الأولى، إمارة في الرها، ليتوج ملكا على القدس. ولم يكن تانكرد على علاقة ودية مع هذا المرشح الجديد، إذ كانت قد نشبت خلافات بينهما منذ كانا بعد في آسيا الصغرى قبل أن تتجه الحملة الفرنجية إلى بلاد الشام. وبالإضافة إلى ذلك لم يكن تانكرد يخفي آنذاك طموحه إلى السلطة الأولى في المناطق التي خضعت للفرنج. وقد ذكرنا قبل شيئا عن طموحه ذاك عندما كانت المؤامرات تدور في أوساط قادة الفرنج

والكهنة حول من يتولى السلطة في القدس بعد أن استولوا عليها، وكان تانكرد بالفعل أحد المرشحين الأقوياء لتولي ذلك المركز قبل أن يقع الاختيار على جودفري. الآن وبعد وفاة جودفري اتجه طموح تانكرد باتجاه آخر بأن يكسب المنصب لخاله بوهمند الذي كان قد أسس إمارة في انطاكية كانت بعيدة نسبيا عن سلطة "حامي القبر المقدس" في بيت المقدس. إلا أن آماله تبددت عندما وقع الاختيار في النهاية على غريمه بولدوين (تسميه مصادرنا العربية بردويل أو بغدوين) ليكون الملك الجديد.

تطور آخر كان مثيرا بالنسبة لتانكرد حدث عندما وقع خاله بوهمند أمير أنطاكية في أسر المسلمين. كان ذلك، وفق المصادر العربية في ذي القعدة من سنة ٤٩٣هـ (أيلول ١١٠٠م)، عندما تصدى كمشتكين (جمشتكين) بن الدانشماند (ويعرف كذلك باسم غازي الدانشماند وهومن الترك المسلمين) صاحب سيواس، لبوهمند الذي كان متوجها على رأس حملة عسكرية من عاصمته أنطاكية إلى ملطية، وتمكن من هزيمته وتشتيت قوته، وبالتالي أسره هو نفسه[٧]. وبهذا التطور خلا عرش الإمارة في أنطاكية، لتنشأ بذلك مصلحة مشتركة بين تانكرد وبلدوين الذي توج ملكا على القدس في تشرين الثاني ١١٠٠. كانت مصلحة تانكرد أن يحل محل خاله في إمارة أنطاكية التي كانت لها مكانة سياسية واقتصادية ومعنوية تفوق مكانة إمارة طبرية وإقطاع الجليل. اما مصلحة بلدوين فكانت إبعاد هذا المشاكس الصلب (تانكرد) ما استطاع عن منطقة نفوذه المباشر. وعلى أرض هذه المصلحة المتبادلة التقى الرجلان في حيفا في أوائل

آذار ١١٠١، حيث أحيط اللقاء بجو من المصالحة والمودة، وأسفر عن تنازل تانكرد عن إقطاعه في الجليل وإمارة طبرية على أن يعوض عن ذلك بإمارة أنطاكية إلى أن يفرج عن خاله بوهمند[٨]. وهكذا غادر تانكرد، أول حاكم فرنجي لطبرية والجليل، إلى موقعه الجديد بعد أن استمر في حكم المدينة نحوا من سنة وثلاثة اشهر (من أواخر ١٠٩٩ إلى أوائل آذار ١١٠١).

(٣)
هيو سانت أومر
وظهور طغتكين في واجهة الصراع

كان تانكرد من نورمان صقلية، غير أن الحاكم الفرنجي الثاني لطبرية كان فرنسيا. فما أن تخلى تانكرد عن طبرية متوجها إلى إمارته الجديدة في أنطاكيا حتى عهد الملك بولدوين إلى الفارس الفرنسي هيو سانت أومر مهمة حكم طبرية والجليل، وشجعه على أن يتبع سياسية عدوانية مع المسلمين[٩]. وقد سعى هيو إلى توسيع إمارته على حساب المسلمين شمالا، باتجاه صور، فشيد لهذا الغرض قلعة ثورون، المعروفة حاليا باسم تبنين، لتتحكم بالطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق. كما اتجه من جهة أخرى إلى التوسع في اتجاه المناطق التي تقع إلى الجنوب من بحيرة طبرية (منطقة سواد طبرية) على حساب مملكة دمشق. وفي هذه المنطقة بنى قلعة على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية، أطلق عليها

العرب حصن علمال. وقد انتهى من بناء هذه القلعة في خريف ١١٠٥م (لجميع المواقع في هذا الفصل انظر الخريطة رقم ٦).

في هذه الأثناء كانت دمشق قد شهدت تطورات مهمة بوفاة ملكها دقاق (في ايار ١١٠٤م/ رمضان ٤٩٧هـ) في ظروف لا يمكن الجزم بها لتضارب الروايات عنها. فقد ذكر أن دقاق أصابه مرض تطاول به، فلما وقع اليأس من برئه، تقدمت إليه والدته الخاتون صفوة الملوك (وهي زوج أتابكه طغتكين) بأن لا يترك أمر الدولة سدى من بعده، فكان أن نص على طغتكين في الولاية بدمشق وأن تسند إليه حضانة ولده الطفل تتش إلى حين أن يكبر، وأن يحسن تربيته.[١٠] غير أن رواية أخرى تذهب إلى أن الخاتون صفوة الملوك هي التي قتلت ابنها دقاق بالسم.[١١] ولا تذكر هذه الرواية سببا لهذا الفعل الشنيع الذي قامت به صفوة الملوك، ولا يستبعد إن صحت الرواية أن يكون لطغتكين يد في مقتل دقاق لينفرد بالحكم. ومهما كان الأمر، فإن طغتكين جعل اسم المملكة باسم الطفل تتش بن دقاق، الذي كان في السنة الأولى من عمره، ثم ما لبث أن خطب بالملك لأخ من أخوة دقاق هو أرتاش ذوالاثنتي عشرة سنة، وبعد أيام نزعه من الملك وأعاده للطفل تتش، إلا أن هذا ما أسرع أن توفي لينفرد طغتكين بالحكم أميرا على دمشق والمناطق الجنوبية من بلاد الشام[١٢] اعتبارا من آب ١١٠٤ (أي بعد نحو من ثلاثة أشهر من وفاة دقاق).

كانت ولاية طغتكين الإمرة في دمشق بداية صفحة جديدة في تاريخ الشام، وأيضا في تاريخ الصراع مع الفرنج[١٣]. فخلال زمن امتد على نحو من أربع وعشرين سنة، منذ أن تولى الحكم منفردا إلى

وفاته في شباط ١١٢٨م، ظهر طغتكين في هيئة المحور الذي كانت تدور من حوله جميع جهود المنطقة في التصدي للفرنج. وعلى الرغم من بعض الإخفاقات التي مني به، وأيضا بعض التنازلات التي قدمها لهم، فإنه استطاع في المقابل أن يمنع التوسع الفرنجي في اتجاه الشرق، وأن يحمي دمشق من مصير آلت إليه غيرها من مدن الشام. وهو في الوقت نفسه، نزه نفسه والدولة التي كان يحكمها عن الخضوع المذل للفرنج الذي لحق بغيره من بعض حكام المنطقة. وهذا ما دفع أحد المؤرخين المسلمين القدامى إلى وصفه بأنه "كان من خيار الملوك... وأكثرهم جهادا للفرنج".[١٤]

وقد ابتدأ طغتكين عهده، وهو منفرد بالحكم، بمواجهة عسكرية ضمن قوة مشتركة شامية مصرية ضد الملك بلدوين شمال عسقلان (في آب ١١٠٥م/ ذي الحجة ٤٩٨هـ). وتختلف المصادر في نتائج هذه المعركة، إذ يذكر بعضها أن النصر فيها كان للفرنج، بينما يميل بعضها الآخر إلى تأكيد أنه حدث تكافؤ في الخسائر انسحب المصريون إثره إلى مصر والشاميون إلى دمشق.[١٥]

كان لا بد من ذكر هذه التطورات لنصل إلى ما حدث على جبهة طبرية. لقد كان بناء هيو، حاكم طبرية الفرنجي، حصن علعال بمثابة إنذار لطغتكين بما يمكن أن يقوم به الفرنج من اعتداءات على المناطق التابعة لإمارته. وهكذا استغل فصيل من الجيش الدمشقي عودة هيو من بعض غاراته فانقض عليه وأصاب هيو نفسه بجراح أودت بحياته، فتشتت رجاله.[١٦] وقد كان ذلك النصر الذي توج بمقتل هيو، مقدمة لاستيلاء الجيش الدمشقي على حصن علعال. إذ نهض

طغتكين بعسكره، فقصد الحصن وأوقع بمن فيه من الفرنج قتلا واسرا، وملك الحصن، (في تشرين الثاني ١١٠٥م/ ربيع الثاني ٤٩٩هـ). وقد زينت دمشق لهذا النصر على مدى أربعة ايام.[١٧]

(٤)
معركة طبرية

بعد مقتل هيو سانت أومر بالطريقة التي كان عليها، عين الملك بلدوين حاكما على طبرية والجليل فرنسيا آخر هو جيرفاس باسوك (تسميه مصادرنا العربية جيرفاش). وكانت القوات الفرنجية في طبرية تمثل راس الحربة للتوسع الفرنجي في الشرق باتجاه دمشق، وأيضا في المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن. ولا يتسع البحث في هذا الكتاب لتتبع المواجهات بين طغتكين والفرنج في هذه المناطق، بما كان فيها من انتصارات وإخفاقات، فنحصر البحث في موضوعنا المتصل بطبرية. ومما ينبغي ملاحظته هنا أن دمشق تركت وحدها لتقاتل معركتها مع الفرنج. فقد حاول طغتكين أن يستنجد بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية في بغداد. إلا أنه فشل في تلقي أي دعم يأتيه من هناك في مواجهته المباشرة مع الفرنج. كذلك وقفت الخلافة الفاطمية في مصر موقفا ران عليه الشلل في هذه المواجهة. لكن على الرغم من ذلك، فإن ما ينبغي أن يسجل لطغتكين أنه تمكن بقواته الشامية منفردة أن يوقع خسائر جسيمة بالفرنج، في معركة احتفى بها المسلمون آنذاك، واضافوها إلى سجله المشرف.

كان ذلك في ربيع ١١٠٨م (٥٠٢هـ) عندما قام طغتكين على رأس قواته بمهاجمة طبرية في ألفي فارس وكثير من الرجالة، والتقى بالقرب من المدينة بالقوة الفرنجية التي قادها جيرفاس نفسه وكانت مكونة من أربع مئة فارس وألفي راجل. وقد دارت معركة عنيفة كان النصر فيها لطغتكين، الذي تمكن من إيقاع خسائر جسيمة بالفرنج، والأهم من ذلك أن جيرفاس وعددا كبيرا من أمراء حربه وقعوا أسرى بيد القوات الشامية. وقد أعقب المعركة مفاوضات بين طغتكين وأسيره حاكم طبرية الفرنجي الذي عرض أن يبذل ثلاثين ألف دينار لأمير دمشق مع إطلاق خمس مئة أسير من أسرى المسلمين فداء نفسه. إلا أن طغتكين رفض هذا العرض، وذكرت المصادر العربية بأنه عرض الإسلام على جيرفاس مقابل إطلاق سراحه. بينما ذكرت مصادر أخرى أن طغتكين أرسل إلى بلدوين الملك الفرنجي في بيت المقدس يخطره بأن ما يبتغيه من ثمن لإطلاق جيرفاس وقادة عسكره الذين أسروا معه هو أن يتنازل عن المدن الثلاث، طبرية وحيفا وعكا، ولما رفض بلدوين هذا الطلب أمر طغتكين بقتل جيرفاس.[١٨]

اكتفى طغتكين بهذا النصر العسكري الذي حققه في طبرية دون أن يراكم عليه مكتسبات سياسية. وكان ذلك متفقا مع الطريقة التي أدار بها صراعه مع الفرنج. إذ يلاحظ أن مواجهاته معهم لم تضع لها هدفا بعيد المدى للتعامل معهم، عسكريا وسياسيا، على أنهم قوة اغتصبت ديار المسلمين واستباحتها فينبغي بالتالي إزالتها واجتثاثها؛ بل كانت المواجهات تدور في إطار لا يتعدى مهمة إلحاق

الأذى بالفرنج وتكبيدهم الخسارة حيث تيسر ذلك، دون أن تمتد هذه المهمة إلى التعرض لهذا الوجود الأجنبي من جذوره أو التصدي لأهدافه الكبرى. ويتضح ذلك جليا في أن معركة طبرية كانت مقدمة لعقد هدنة مع الفرنج (في نهاية ١١٠٨م/ سنة ٥٠٢ هـ، في شهر لم تحدده مصادرنا العربية وربما كان جمادى الآخرة) قدم طغتكين بموجبها تنازلات لهم تمثلت بحصولهم على نسبة من خراج مناطق كانت رسميا تابعة لإمارة دمشق. ويخبرنا ابن القلانسي أن المبادرة لعقد الهدنة جاءت من الملك بلدوين الذي ترددت رسله إلى طغتكين في "التماس المهادنة والموادعة".[١٩] وليس من شك في أن هزيمة الفرنج في طبرية كانت أحد اسباب هذه المبادرة التي تقدم بها بلدوين، غير أنه ينبغي أن يضاف إلى ذلك سبب آخر يتصل بمشروعات الملك الفرنجي في التوسع على الساحل باتجاه صيدا وصور وطرابلس، فكانت المهادنة مع طغتكين مسعى منه لتحييده.

وهكذا بناء على هذه المبادرة أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين لعقد الهدنة،[٢٠] التي اتفق فيها الطرفان على اقتسام خراج سواد طبرية وجبل عوف (أي القسم الشمالي من منطقة شرق الأردن) بحيث يكون ثلث لطغتيكن وثلث للفرنج وثلث للفلاحين سكان المنطقة.[٢١] ويذكر ابن الأثير أن هذه المهادنة كانت لأربع سنوات، وقد اعتبرها كسبا للمسلمين، إذ كان ذلك حسب تعبيره "من لطف الله تعالى بالمسلمين، ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين... أمرا عظيما".[٢٢]

(٥)
عودة تانكرد
ومن بعده جوسلين

غابت طبرية بعد هـذه الواقعـة كـساحة مواجهـة بـين الفـرنج والمسلمين مدة تزيد عن أربع سنوات. وقد أعيـدت إدارتهـا بعـد مقتـل حاكمها السابق جيرفاس، بـأمر مـن طغتكـين، إلـى تـانكرد أول أميـر فرنجي لطبرية والجليل. وكان تانكرد قـد خـسر إمـارة أنطاكيـة التـي كان تولاها نيابة عن خاله بوهمند وهو في الأسر (انظـر أعـلاه) عنـدما أطلق سراح هذا الأخير (سنة ١١٠٣) وعاد إلـى إمارتـه فـي أنطاكيـة. وخلال نحو من خمس سنوات لاحقة انغمس تانكرد فـي الـصراع الـذي كان يدور بين الأمراء الفرنج على الاسـتفراد بحكـم كونتيـة الرهـا، إلا انه لم يتمكن من اكتساب منصب ذي قيمـة يحقـق طموحـه. وفـي هـذه الأثناء سعى إلى أن يوصـل لنفـسه قاعـدة أرسـتوقراطية تتـيح لـه أن يضمن لنفسه مكانة خاصة بين أمراء الفرنج فـي الـشرق الـذين اتـسمت علاقاتهم دائما بالتنافس، فكـان أن تـزوج صـغرى بنـات فيليـب ملـك فرنسا، المسماة سيليـسيا، وهـي علـى كـل حـال كانـت ابنـة غيـر شرعية.[٢٣] وقد جاء مقتل جيرفـاس فرصـة لـه للعـودة إلـى الجليـل، إقطاعه القديم وإلى إمرة طبرية. وقد عينه الملك بلـدوين فعـلا فـي هـذا المنصب لكنه كان على الأغلب يدير شؤون هذه المنطقة مـن مقـره فـي بيت المقدس. وقد استمر تـانكرد فـي موقعـه هـذا إلـى وفاتـه سـنة ١١١٢م، فكان أن استدعى الملك بلدوين ابن عمتـه جوسـلين كورتينـاي

الذي كان حتى ذلك أميرا على منطقة غربـي الفـرات، وحاضـرتها تـل باشر، ومنحه الجليل إقطاعا له. وقد طـال عهـد جوسـلين فـي طبريـة والجليل فبلغ نحوا من سبع سنوات (ما بـين مطلـع سـنة ١١١٣ ونهايـة ١١١٩).

على الجبهة الإسـلامية كانـت الخـسائر تتواصـل تباعـا، وإن كان يتخللها انتصارات جزئية حققها المـسلمون. ومـن المواقـع المهمـة التي خسرها المسلمون حصن عرقـة مـن أعمـال طـرابلس، فطـرابلس نفسها التي سقطت في تموز ١١٠٩ بعد حصار خمـسة أشـهر، وجبيـل، وبيروت في أيار ١١١٠، وصيدا فـي كـانون الأول مـن العـام نفـسه. وانتقل الفرنج بعد ذلـك إلـى محاصـرة صـور التـي أمـدها طغتكـين بالمساعدة وأشرف هو بنفـسه علـى مواجهـة الفـرنج عنـد أسـوارها. وكانت الغلبة في النهاية لأهل صور المحاصـرين داخلهـا وللقـوة التـي حشدها طغتكين لحمايتها، إذ كانت هزيمة الفـرنج، وكـانوا بقيـادة الملـك بلدوين، فادحة بعد أن قتل من رجالهم نحـو مـن ألفـي شـخص، بينمـا سقط من رجال طغتكين عـشرون رجـلا فقـط، وكانـت خـسائر أهـل صور نحوا من أربع مئة مفقود.[٢٤]

كان لهذه الهزيمة التي مني بلدوين فـي صـور، بفـضل الـدور الكبير الذي قام به طغتكين في الـدفاع عنهـا، بنتائجهـا المباشـرة فيمـا تعرضت له المناطق المحيطة بطبرية مـن تخريـب. فقـد وجـه بلـدوين بعد أن انسحب من صـور سـهامه إلـى طغتكـين فـي محاولـة منـه لإضعافه ووضعه في حالة الدفاع عن الـنفس. وفـي هـذا الـصدد اكثـر الملك الفرنجي مـن غاراتـه علـى المنـاطق التابعـة لدمـشق ونهبهـا

وتخريبها. وقد تركزت غاراته أكثر ما يكون في حوران وسواد طبرية حيث كثر فيهما فساده. وزاد الأمر تفاقما أن بلدوين أخذ يتصدى للقوافل التجارية الدمشقية العابرة في هذه المناطق والمتجهة إلى مصر، وفي أحداها نهب ما يزيد عن خمسين ألف دينار، مع أخذ ثلاث مئة اسير.[٢٥] وقد انتجت أعمال التخريب والنهب هذه وما رافقها من إجراءات عدوانية تشبه الحصار الاقتصادي على دمشق وجنوب الشام وضعا اقتصاديا صعبا بالنسبة للمناطق التابعة لإمارة دمشق، وهو ما عبر عنه أحد مصادرنا العربية القديمة بوصفه دمشق آنذاك بأنها قد "غلت فيها الأسعار وقلت الأقوات".[٢٦]

(٦)
موقعة الصنبرة جنوب طبرية

كانت هذه التهديدات المحدقة بدمشق وبالشام عامة أكبر من استطاعة طغتكين على مواجهتها وحده، في وقت فشلت كل المساعي والجهود لتحريك الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وأيضا الخلافة الفاطمية، في اتجاه القيام بعمل جاد لمواجهة الفرنج. وفي ضوء هذه الحقيقة نشأ نوع من التحالف بين طغتكين وأمير الموصل شرف الدين مودود لتسخير مواردهما البشرية والعسكرية لمحاولة التصدي للعدوان الفرنجي. وكانت للرجلين تجربة سابقة في هذا المجال عندما اشتركا في عام ١١١٠ في "تحالف إسلامي" موسع انضم إليه أمراء شمال الشام والجزيرة، بالإضافة إلى دمشق،

لمواجهة الفرنج أولا في كونتية الرهـا، وبعدها حول حلب. وعلى الرغم من انفضاض هذا "التحالف" دون أن يحقق نتائج إيجابية ملموسة في مواجهة الفرنج، بسبب النزاعات التي نشأت بين أطرافه، فقد كان من إيجابياته أن وطد علاقة صداقة بين مودود وطغتكين، كما أظهر أن مودودا كان رجلا يمكن الاعتماد عليه في أي مواجهة قادمة.

وعلى هذه الأرضية، لجأ طغتكين إلى صديقه وحليفه السابق مودود يستنجد به، وتتابعت كتبه إليه بحثه على "الفوز بفضيلة الجهاد".[٢٧] وقد استجاب مودود لهذه الدعوات، فتحرك على رأس قواته من الموصل، وعبر الفرات في اتجاه الشام (أيار ١١١٣م/ ذي القعدة ٥٠٦هـ). وقد تبعه أمراء آخرون من الجزيرة (منهم صاحب سنجار وصاحب ماردين). ويبدو أن هذا التحرك أثار خوف الفرنج من هذه القوة الكبيرة القادمة من الشرق، وكان ذلك واضحا في أن جوسلين، حاكم طبرية، سعى باتفاق مع الملك بلدوين إلى تحييد طغتكين بإغرائه ببعض التنازلات يقدمها له، وبعقد هدنة جديدة بين الطرفين (وكانت الهدنة السابقة بين بلدوين وطغتكين التي أشرنا إليها أعلاه قد انتهكها الملك الفرنجي قبل انقضاء مدتها بهجمات متكررة على الأراضي التابعة لدمشق). فقد راسل جوسلين طغتكين يعرض "بذل المصافاة والمودة، ويرغبه في الموادعة والمسالمة، وأن يسلم إليه حصن تبنين المجاور لحصن هونين وجبل عاملة، ويتعوض عن ذلك بحصن الحبيس الذي في السواد، ونصف السواد، ويضمن عن بغدوين [بلدوين] الوفاء بذلك، والثبات على المودة والمصافاة وترك

التعرض لشيء من أعمال دمشق، ولا يعرض هو لشيء من أعمال الإفرنج".[28]

غير أن طغتكين رفض هذا العرض، وخرج من دمشق على راس قوة كبيرة للقاء صديقه مودود، صاحب الموصل، حيث انضمت إليه أيضا قوات أخرى من حمص وحماة ورفنية، واجتمع الطرفان في سلمية، ومنها انطلقت قوات هذا التحالف باتجاه الغرب، فنزلت عند قدس (بحيرة قطينة جنوب حمص)، واتجهت من هناك نحو الجنوب إلى بانياس، ثم استقرت عند الأقحوانة إلى الجنوب من بحيرة طبرية.[29]

كان بلدوين آنذاك في عكا، فما لبث أن قرر التصدي لهذه القوة التي اقتربت من مواقعه. فاتجه على راس قواته واستقر رأيه على أن ينزل عند جسر الصِّنَّبْرة على نهر الأردن على بعد ثلاثة أميال من مخرجه من بحيرة طبرية،[30] ليكون في مواجهة المسلمين. وفي الوقت نفسه، طلب المساعدة من أمير أنطاكية وأمير طرابلس. ويبدو أن الفرنج قد أصابهم الغرور بسبب هذا الحشد الكبير الذي جمعوه، وكانوا واثقين من النصر، فوضعوا نصب أعينهم الاستيلاء على دمشق نفسها. وفي هذا الصدد يذكر أسامة بن منقذ الذي عاصر هذه التطورات أن "الإفرنج – خذلهم الله – أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها، فاجتمع منهم خلق كثير... وقد تبايعوا بينهم

دور دمشق وحماماتها وقياسيرها، واشتراها البرجاسية*، ووزنوا لها أثمانها، وما عندهم شك في فتحها وملكها".[31]

غير أن ظنهم كان في غير محله، فقد تمكنت قوات التحالف الإسلامي، بقيادة طغتكين، من أن توقع بلدوين وقواته في كمين على شاطئ البحيرة،[32] وكان بلدوين قد أسرع إلى خوض المواجهة دون أن ينتظر قدوم حلفائه من أنطاكية وطرابلس. وكانت نتائج المعركة (في ١١ محرم ٥٠٧هـ/ حزيران ١١١٣م) انتصارا ساحقا أحرزه المسلمون، وقد خسر فيه الفرنج نحوا من ألفين من رجالهم، وغرق كثير منهم في بحيرة طبرية، كما وقع بلدوين نفسه في الأسر، إلا أن آسريه لم يتعرفوا عليه فأفلت. وقد التجأ الفرنج بعد هزيمتهم إلى طبرية نفسها. وكان بعد هذا الانكسار أن وصلت قوات فرنج أنطاكية وطرابلس، إلا أن وصولهم لم يضف جديدا لنتائج الحرب، فقد حاصرهم المسلمون على جبل يقع إلى الغرب من طبرية، وأخذوا يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم، كما منعوا الميرة والماء عنهم.

وقد طال أمد الحصار ستة وعشرين يوما يئس المسلمون خلالها من أن يستدرجوا الفرنج إلى معركة مواجهة مكشوفة، فاتجهوا إلى بيسان، ثم انتشروا من هناك في إقليم الجليل حيث هاجموا مراكز الفرنج فيه، وخربوا العديد منها، كما أغاروا على الضياع ما بين

---

* البرجاسية تعريب bourgeoisie التي كانت تشير إلى التجار.

القدس وعكا، ووصلت غاراتهم قريبا من بيت المقدس نفسها ومن يافا. ووفقا للمصادر الفرنجية دمر المسلمون في هذه الملاحقات نابلس، كما خرجت قوات من عسقلان ووصلت إلى اسوار القدس وأشعلوا هناك محاصيل الفرنج الزراعية.[٣٣]

وقد استمرت هذه المواجهات نحوا من سبعين يوما أخذت خلالها مصادر التموين تشح لدى قوات التحالف الإسلامي، كما ضاقت صدور أصحاب مودود لبعد ديارهم وتأخر عودتهم من حيث أتوا في إقليم الجزيرة، فأذن لهم مودود بالعودة إلى بلادهم بينما قرر هو البقاء في دمشق لترتيب حملة جديدة بعد انقضاء فصل الشتاء. وهكذا في ٢١ ربيع الأول ٥٠٧هـ/ أيلول ١١١٣ م، اصطحب طغتكين حليفه مودودا ودخلا دمشق ليحتفلا معا بالنصر الذي حققاه.

وقد توسعت المصادر الفرنجية في وصف هذه المواجهات، وكتب فوشيه الشارتري عنها بأسى: "يا للتعاسة الكبرى! لقد جلبت خطايانا في ذلك اليوم خزيا عظيما، وفر الملك [بلدوين] فاقدا رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا من المفروشات والأوعية الفضية، كما فر البطريرك الذي كان هناك".[٣٤] وقد حمل وليم الصوري مسؤولية هذه الهزيمة النكراء التي لحقت بالفرنج الملك بلدوين الذي وصف تصرفه في هذه المعركة بالهوج والطيش والتهور.[٣٥]

حقق طغتكين بانتصاره في طبرية مكانة معنوية عالية في الأوساط الإسلامية، وظهر في أعين المسلمين الذين كانوا في المناطق التي يسيطر عليها الفرنج في إهاب المنقذ لهم مما يعانونه

في أوضاعهم تلك. ووفق تعبير ابن القلانسي فإنه "لم يبق في بلاد الفرنج مسلم إلا وأنفذ يلتمس الأمان من أتابك [طغتكين] وتقرير حاله".[36] إلا أنه كما في سائر حالاته، لم يستفد من هذا الانتصار ومن المكانة المعنوية السامية التي حازها نتيجة ذلك لتطوير صراعه مع الفرنج والدفع به إلى غايات أبعد من تحقيق النصر العسكري. ويتّضح ذلك جليا في قبوله مهادنة الفرنج والصلح معهم وهو ما كان يفرغ النصر الذي أحرزه من كل مضمون سياسي له. وهذا ما حدث بالفعل بعد نحو من سبعة أشهر من انتصاراته الكبرى في طبرية والجليل، إذ عقد معاهدة صلح مع بلدوين (في شوال ٥٠٧هـ/ آذار ١١١٤م) قضت بأن "تعمر الأعمال بعد الإخراب، وتأمن السوابل من شر المفسدين والخُرّاب"، كما استحلف كل منهما صاحبه على "الثبات والوفاء وإخلاص المودة والصفاء".[37]

ونجنح إلى القول بأن الأسباب الاقتصادية لم تكن غائبة عن هذه المهادنة مع الفرنج. فالمواجهات العسكرية كانت تسبب بالتأكيد خرابا كبيرا للقطاع الزراعي، كما كانت تعيق حركة التجارة إن لم توقفها كليا. وفي وصف مصادرنا لما كان قد أسفرت عنه الهدنة تأكيد لذلك، إذ "استقامت الأمور، وأمنت الطرق، ودب التجار من جميع الأقطار"[38]؛ كذلك "أمنت المسالك، وصلحت الأحوال، وتوفر الاستغلال".[39]

(٧)
مناوشات أخرى

ليس من شان هذا الكتاب أن يؤرخ لحروب الفرنج، باستثناء تلك التي لها علاقة بطبرية وهي التي جعلناها موضوعا لبحثنا. وما دمنا بعد في عهد طغتكين نذكر أنه بعد معركة طبرية ومعاهدته مع بلدوين الأول انتقل بنشاطه إلى الاهتمام بشمال بلاد الشام والانغماس في المواجهات مع الفرنج هناك أو في المنافسات والصراعات اتي كانت تدور بين أمراء المسلمين. وقد أتاح ذلك لبلدوين، على الرغم من الهدنة التي كانت قائمة بينه وطغتكين، أن يمد حدود مملكته على حساب إمارة دمشق، فيستولي على أيلة (العقبة فيما بعد على رأس الخليج المسمى باسمها)، وأن يتجه في الوقت نفسه إلى الشرق حتى يصل إلى منطقة الشوبك ليسيطر بذلك على طرق التجارة والقوافل بين بلاد الشام من جهة ومصر والحجاز من جهة أخرى.

والتطور الرئيسي الذي حدث بعد ذلك كان وفاة الملك بلدوين الأول (في نيسان ١١١٨م) وارتقاء بلدوين دي بورعرش المملكة اللاتينية في بيت المقدس، ويعرف في التاريخ باسم بلدوين الثاني، وهو ابن عم الملك الراحل وكان قبل أمير الرها. وكان أول أعمال بلدوين الثاني أنه سعى إلى تجديد الهدنة مع طغتكين الذي كان آنذاك يقود حملة لمحاربة الفرنج عند نهر اليرموك، فأرسل إليه الملك الفرنجي يطلب منه المهادنة. غير أن طغتكين اشترط مقابل ذلك أن يتخلى بلدوين الثاني عما كان يناله مناصفة من مغل المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن (جبل عوف والحنانة والصلت (السلط) والغور) بموجب شروط هدنة سابقة بين طغتكين وبلدوين الأول. إلا

أن بلدوين الثاني رفض التنازل عن نصيبه من هذا المغل، فما كان من طغتكين إلا أن سار من اليرموك، حيث كان ينزل، إلى طبرية ونهبها وما حولها.[40]

بعد اشهر قليلة (في خريف ١١١٨) واجهت قوات دمشق هزيمة قاسية أمام الفرنج عندما قام جوسلين، أمير طبرية، بالاشتراك مع بلدوين الثاني بشن غارة على أذرعات (درعا الحالية)، فكان ان نهض بوري بن طغتكين لمقابلتهما، غير أنه تعرض للانكسار بسبب تهوره.[41]

في مقابل ذلك، لاقى جوسلين (في ربيع ١١١٩) هزيمة منكرة لكن هذه المرة على يدي قبيلة عربية من طيئ يعرفون ببني خالد كانت تتجمع بقطعانها قرب نهر اليرموك. وقد نهض جوسلين من طبرية على رأس قوة من نحو من مئتي فارس وبصحبته اثنان من كبار بارونات الجليل هما الأخوان جودفري بور ووليم بور، لنهب القبيلة. غير أن القبيلة كانت له بالمرصاد، فأوقعت جودفري ووليم في كمين، قتل فيه جودفري ووقع وليم ومعظم أتباعه في الأسر، بينما ضل قائد الحملة جوسلين طريقه بين التلال قبل أن يعود منهزما إلى طبرية. وكانت خسائر الفرنج في هذه الموقعة سبعين قتيلا وعددا كبيرا من الأسرى. وأرسل جوسلين إلى بلدوين الثاني بأخبار الهزيمة، فأقبل عليه في جيش، وخوّف القبيلة العربية فأعادوا الأسرى مقابل فدية.[42]

وسوف ننتظر بعد هذه الحادثة سنة وأشهرا قبل أن تعود طبرية من جديد إلى ساحة المواجهة. ففي صيف ١١٢٠ أغار

طغتكين على منطقة طبرية، بالتحالف مع أحد شيوخ العرب المقيمين هناك، إلا أنه ما لبث أن انسحب من المنطقة عندما حشد بلدوين الثاني قوات زحفت باتجاهه. وقد استغل بلدوين هذه المناسبة فاتجه بقواته جنوبا إلى جرش، وكانت تابعة لطغتكين وكان قد عمر فيها قلعة منيعة وزودها بالسلاح والرجال، فاستولى على القلعة التي استسلم رجالها، وكانوا أربعين، على أن يسمح لهم بمغادرتها سالمين. وقام بلدوين إثر ذلك بهدم القلعة وتسوية اسوارها بالأرض.[٤٣]

وبعد عام (في تموز ١١٢١/ جمادى الأولى ٥١٥هـ) دارت اشتباكات أخرى بين طغتكين وبلدوين الثاني، امتدت لتشمل مناطق في الجليل والجولان وجبل عجلون. وقد سجل ابن الأثير أن طغتكين سجل انتصارا في بعض هذه الاشتباكات إذ "أوقع... بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر وأرسل من الأسرى والغنيمة للسلطان والخليفة"[٤٤]. كما يشير سبط ابن الجوزي إلى أن هزيمة الفرنج في تلك المواقع كانت"كسرة عظيمة"[٤٥].

(٨)
نور الدين وصلاح الدين

وخلال أكثر من أربعين سنة أعقبت هذه المناوشات تغيب طبرية غيابا كاملا عن ساحة الصراع مع الفرنج. لكنها تظهر من

جديد في حالة استثنائية في عهد نور الـدين محمـود بـن زنكـي*. كـان نور الدين قد تمكن فـي آب ١١٦٤ (رمـضان ٥٥٩هـ) مـن تحطـيم جيش فرنجي ضخم في منطقة أرتاح – حـارم قـرب أنطاكيـة، مـستغلا بذلك فرصة غياب أملريك، ملك الفرنجة في بيـت المقـدس، عـن الـبلاد في محاولته غزو مصر. وقد سقط في هذه الموقعة عدد مـن كبـار قـادة الفرنج أسرى بيد نور الدين كان منهم بوهمنـد أميـر أنطاكيـة وريمونـد كونـت طـرابلس وقـسطنطين كولومـان أحـد أبرز القـادة العـسكريين البيزنطيين. وقد أتاحت هذه الهزيمة التي لحقـت بـالفرنج الفرصـة أمـام نور الدين لأن يتجه إلى أنطاكية نفسها التي كانـت مجـردة مـن أسـباب الدفاع ليصفي حـسابه معهـا. إلا أنـه خـشي أن تمتنـع عليـه قلعتهـا المنيعة، فما كان منـه إلا أن توجـه فجـأة صـوب الجنـوب مـشيعا أن هدفه طبرية. غير أن قصده في الحقيقة كان قلعـة بانيـاس التـي شـكلت أرقا للمسلمين في الشام منذ أن تنازل عنها للفـرنج فـي عـام ٥٣٤هـ معين الدين أنر الذي كان قد سيطر على الحكـم فـي دمـشق فـي عهـد ملكها مجير الدين أبق آخر ملوكها مـن نـسل طغتكـين. وقـد كـان مـا أشاعه نور الدين عن قصده طبرية قد دفع بـالفرنج إلـى تركيـز قـواتهم

---

* نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م) ورث حكـم حلب عن أبيه عماد الدين زنكي، ثم ضم دمشق إلى ملكه، وامتدت سلطته فشملت جميـع سورية الشرقية وقسما من سورية الجنوبية والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر (وكان صلاح الدين الأيوبي في مطلع نجمه نائبا له فيها) وبعض بلاد المغرب وجانبا من اليمن. وقد نهج نهج أبيه في مجالدة الفرنج أيام زحفهم على بلاد الشام، وله معهم وقائع مشهورة.

هناك، دون أن يولوا اهتماما لبانياس. وهكـذا ظهـر نـور الـدين فجـأة أمام القلعة في تـشرين الأول ١١٦٤ (ذي الحجـة ٥٥٩) وفـرض عليهـا حصارا لم يستمر طويلا وتمكـن مـن فتحهـا، ليتّجـه بعـد ذلـك إلـى المناطق المحيطة بها ويطهرها مـن بقايـا الفـرنج. ومـن هنـاك هـدد بالزحف على الجليل، ما جعل بارونـات المنطقـة يخـضعون لـشروطه بأن يشاطر الفرنج في أعمال طبرية (أن يـؤول إليـه نـصف خراجهـا)، وأن يدفعوا له إتاوة عن تلك الأعمال فـي المنطقـة التـي لـم يـشاطرهم عليها[٦].

وبعد نحو من خمسة عشر سنة ظهـرت طبريـة ومحيطهـا مـن جديد على مسرح الصراع، لكن هذه المرة كان صـلاح الـدين الأيـوبي* هو من أدار الصراع. ففـي ربيـع ١١٧٩ نهـض ملـك بيـت المقـدس بلدوين الرابع بغزوة استهدفت قطعان غـنم فـي الـسهول الواقعـة بـين

---

* صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٣٢-٥٨٩هـ/ ١١٢٧-١١٩٢م) دخل هو وأبوه وعمه أسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن زنكي. رافق عمه أسد الدين بتكليف من نور الدين إلى مصر لقمع الفتن فيها في عهد العاضد آخر خلفائها الفاطميين. وبعد تأديـة المهمة بنجاح استوزر العاضدُ أسد الدين الذي ما لبث أن توفي، فعهد الخليفـة الفـاطمي بالمهمة لصلاح الدين، فشغل بذلك منصبين: منصب نائب نور الدين في مصر ومنـصب الوزارة للخليفة الفاطمي. وعندما مرض العاضد مرض الموت، قطع صلاح الدين الخطبة له وخطب للخلفاء العباسيين في بغداد. بعد وفاة نور الدين محمود أخذ صلاح الدين دمشق وسائر بلاد الشام، وكون دولة تحت سلطته امتدت من آخر بلاد النوبة جنوبا وبرقة غربا إلى بلاد الأرمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقا. أمضى صلاح الدين حياتـه فـي محاربة الفرنج، وكانت جائزته العظمى تحرير بيت المقدس من أيديهم.

دمشق وبانياس، فكان أن أرسل صلاح الدين ابن أخيه فروخشاه ليتصدى للملك المعتدي، فتمكن من إلحاق هزيمة ملكرة بجيش بلدوين الذي نجا من الموت باعجوبة، ولئن كانت المعركة قد أسفرت عن مقتل أحد زعماء الفرنج الكبار وهو همفري سيد تبنين الذي عد مقتله ضربة بالغة العنف أصابت مملكة بيت المقدس. ولم يكتف صلاح الدين بهذا بل أعقب ذلك بأن تقدم وفرض حصارا على قلعة مخاضة يعقوب. وقد أنشأ هذه القلعة منظمة الفرسان الداوية*، وكانت تقع على نهر الأردن إلى الشمال من بحيرة طبرية، وقد سمى الفرنج هذه القلعة قلعة مخاضة الأحزان عند موقع زعمت الأسطورة التوراتية أن النبي يعقوب التقى فيه الرب حيث تصارعا، وعندما أدرك الرب قوة يعقوب وبأسه سماه "إسرائيل". وقد مثلت القلعة، باستحكاماتها وما حشد فيها من مقاتلين وأسلحة، تهديدا مباشرا على المناطق الإسلامية التي تقع إلى الشرق منها، وقد حلت محل بانياس (التي كانت قد

---

* إحدى منظمات الفرنج، وقد تأسست سنة ١١١٩م/ ٥١٣هـ، وعرفت بين الفرنج باسم فرسان الهيكل، knights templar بينما سماها المسلمون "الداوية". كانت من أكثر القوى الفرنجية شراسة وتعصبا. وقد استمرت قائمة في فلسطين إلى انهيار المملكة اللاتينية فيها وتحرير عكا سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، إذ غادر أعضاؤها بعد ذلك إلى فرنسا. وقد تعرضت المنظمة في مراحل لاحقة إلى كوارث في أوروبا، إذ قاتلهم الملك الفرنسي فيليب (سنة ١٣٠٢) وأحالهم إلى محاكم التفتيش الرهيبة، التي اعترفوا أمامها بجرائم كانوا قد اقترفوها، واستولى على حصونهم وكنوزهم طمعا بثرواتهم التي كان بحاجة إليها. وفي عام ١٣١٢ أصدر البابا كليمان الخامس، بتحريض من الملك فيليب، مرسوما بابويا بإلغاء المنظمة في جميع أنحاء أوروبا وبإحراق رئيسها الأعلى حيا.

خسرها الفرنج في عهد نور الدين كما بينا أعلاه) كمركز استراتيجي متقدم في اعتداءات للفرنج على المناطق الجنوبية من بلاد الشام.

لم يتمكن صلاح الدين، في هذه الجولة من الحصار، من اقتحام القلعة بسبب استحكاماتها الدفاعية القوية، فانسحب منها ليعسكر أمام بانياس، ومن هناك أرسل بعض جنوده باتجاه الجليل ومناطق من لبنان لتدمير محصولات للفرنج فيها. وكانت ردة فعل بلدوين الرابع أن جمع قوة التقت في طبرية شارك فيها عدد من كبار أمراء الفرنج. وزحفت هذه القوة في اتجاه الشمال إلى موقع تل القاضي (في أقصى شمال فلسطين الحالية)، حيث دارت معركة عنيفة، تشتت فيها الجيش الفرنجي الذي تكبد خسائر جسيمة في الأرواح، كما أسر الكثير من مقاتلته. وكان ممن وقع في أسر صلاح الدين مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية*، وسيد بينه، وسيد الجليل، وأخ لصاحب جبيل. بعد هذا النصر، استدار صلاح الدين إلى قلعة مخاضة يعقوب وتمكن منها بعد حصار شديد استمر خمسة أيام، ودخلها في أحد أيام آب من

---

* الاسبتارية أحدى المنظمات التي أنشأها الفرنج بعد أن استولوا على القدس سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ. وقد عرفت باسم منظمة فرسان القديس يوحنا أو فرسان بيت المقدس وتسمى أيضا Hospitallers of Saint John ومنها أخذ العرب لفظ "الاسبتارية". كان الأصل في إنشائها خدمة المستشفيات التي أقامها الفرنج في فلسطين، لكنها مالبثت أن تحولت إلى منظمة عسكرية مقاتلة فاقتنت العقارات وأنشأت الحصون والقلاع، وكان لها دور كبير في العمليات القتالية في المناطق التي كانت تحت حكم الفرنج.

عام ١١٧٩، حيث أبيدت الحامية فيها جميعا، ثم قام بتدمير القلعة وتسوية أسوارها بالأرض.[٤٧]

وقد شهدت منطقة طبرية بعد ثلاث سنوات مواجهات أخرى حقق فيه صلاح الدين إنجازات عسكرية مهمة. لم يشارك صلاح الدين في أولى هذه المواجهات بل قاد الحملة ابن أخيه فرخشاه الذي توجه إلى اليرموك وتمكن من أخذ حصن عليه كان على غاية من الأهمية، وهو الذي يعرف بحبيس جلدك، وقد أقامه الفرنج هناك ليكون قاعدة لهم للسيطرة على سواد طبرية. وتوجه فروخشاه بعد استيلائه على هذا الحصن إلى دبورية (على السفح الغربي لجبل طابور وإلى الشرق من الناصرة) وما جاورها من القرى ونهبها، قبل إن يعود أدراجه إلى شرق نهر الأردن. وقد جرى ذلك في صفر ٥٧٨هـ/ حزيران ١١٨٢م.[٤٨]

في صيف العام نفسه (١١٨٢) قاد صلاح الدين بنفسه حملة أخرى عبرت نهر الأردن قاصدا طبرية، وخيم عند الأقحوانة عند الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، ومن هناك سير قوات دخلت بيسان التي فر جميع سكانها منها ولاذوا بأسوار طبرية طلبا للأمان. كذلك أغار على بعض مواقع الفرنج في الغور، ووجه سراياه للاستيلاء على دير اللاتين على جبل الطور إلا أنها فشلت في هذه المهمة إذ لم تستطع اقتحام أسواره المنيعة على قمة الجبل. وكان ذلك بمثابة إنذار لأمراء الفرنج الذين تداعوا لمواجهة هذه الهجمة المباغتة، فكان أن احتشدت قوات ضخمة، قال مؤرخو الفرنج عنها إنها كانت كل قوات مملكتهم. وكان ممن شارك في هذه القوات جاي لوزيجنان على رأس

القوات القادمة من بيت المقدس، وكونت طرابلس، ومقدم الاسبتارية، ورينالد شاتيون (الذي تسميه المصادر العربية أرناط) سيد الكرك، وسيد تبنين، وسيد صيدا، وسيد قيسارية. وقد توجه الحشد الفرنجي إلى صفورية أولا، ومنها إلى سهل زرعين (إلى الغرب من طبرية) حيث منيت القوات الفرنجية بهزيمة، فاتخذت عين جالوت موقعا لها في مواجهة صلاح الدين. هناك فرض صلاح الدين عليها حصارا مشددا ومنع الإمدادات الغذائية عنها، فلم تجد إلا السمك تقتاته وهو ما كان متوفرا في مياه عين جالوت. حاول صلاح الدين من خلال مناوشات عديدة مع الفرنج أن يخرجهم إلى مواجهة مكشوفة. إلا أن الفرنج اتخذوا موقفا دفاعيا، فلما رأى صلاح الدين أنه قد أثخن فيهم وفي المناطق التي تحت سيطرتهم، فك الحصار وعاد ليعبر نهر الأردن إلى الشرق.[٤٩]

(٩)

ريموند الثالث

آخر حكام طبرية الفرنج

كان الكونت ريموند الثالث (الذي تسميه مصادرنا العربية القديمة القمص ريمند) هو آخر من تولى حكم طبرية من الفرنج. فهو قد شهد تحرير المدينة على يدي السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما كان هو الذي قاد قوات الفرنج في موقعة حطين. وقد أثار ريموند لغطا بين معاصريه من الفرنج الذين اتهموه بالخيانة، وأحيانا بالعمالة لصلاح الدين، كما قال عنه بعض المؤرخين المسلمين إنه أوشك على اعتناق الإسلام. وتستحق مثل هذه الشخصية التوقف عندها قليلا.

كان ظهور ريموند على مسرح التاريخ لأول مرة بعد اغتيال أبيه ريموند الثاني، كونت طرابلس، على أيدي الباطنية (الحشيشية)* سنة ١١٥٢ لأسباب ظلت غامضة على المؤرخين، وإن كان لا يستبعد أن يكون ذلك عملا من أعمال تصفية الحساب بين الفرنج أنفسهم، إذ عرف عن هذه الفرقة من الباطنية أنها كانت تؤجر نفسها في عمليات اغتيال لمن يدفع. وقد ورث ريموند كونتية طرابلس عن أبيه الراحل، لكنه لحداثة سنه (كان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة) وضع تحت وصاية بلدوين ملك بيت المقدس الفرنجي. وعندما بلغ سن الرشد استقل بحكم طرابلس مع ولاء اسمي لمملكة بيت المقدس اللاتينية.

ومن موقعه في طرابلس خاض ريموند حروب الفرنج في شمال بلاد الشام، إلى أن وقع أسيرا بيد نور الدين في موقعة أرتاح سنة ١١٦٤ (انظر عنها أعلاه) حيث ظل في الأسر ثماني سنوات

---

* يعرفون أيضا بالحشاشين. وهم فرقة اسماعيلية سرية أسسها الحسن بن الصباح (توفي سنة ١١٢٤م) الذي كان قد انضم إلى الدعوة الفاطمية في مصر، وما لبث أن انشق عنها في خلافات على من يلي الحكم الفاطمي، والتف حوله عدد كبير من المؤيدين، وتوجه إلى إيران حيث استولى على قلعة ألَموت الحصينة، ومن هناك أخذ ينشر دعاته وأنصاره. وقد اتبعت الحشيشية أسلوب الاغتيال للتخلص من أعدائها وحصدت بذلك أرواح عدد كبير من الزعامات السياسية في العالم الإسلامي. وقد استمرت هذه الفرقة قائمة نحوا من قرن ونصف القرن، إلى أن استولى هولاكو (الزعيم التتري) على قلعة ألموت سنة ١٢٥٦م، كما تمكن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس من تشتيت قواتها وتنظيماتها في بلاد الشام سنة ١٢٧٢م.

إلى أن أطلق سراحه سنة ١١٧٢ بفدية بلغت ثمانين ألف دينار. وفي الأسر، تعلم اللغة العربية وأتقنها، واطلع على العادات والتقاليد العربية، كما تكونت لديه فكرة معمقة عن أساليب المسلمين في الحروب.

في عام ١١٧٤ سجل ريموند ظهورا ملحوظا على المسرح السياسي بعد وفاة ملك بيت المقدس أملريك، إذ انخرط في المنافسات الحادة بين قادة الفرنج وكهنتهم حول الوصاية على وريث العرش الذي كان عمره آنذاك اثني عشر عاما. وقد خرج ريموند منتصرا من هذا السباق، إذ عين وصيا على الطفل بلدوين (الذي عرف ببلدوين الرابع) الذي كان مصابا بالجذام (فعرف ببلدوين الأبرص)، وربما بطموح داعبه بأن يرث هو نفسه العرش في حال وفاة الملك الطفل المريض في أجل سريع. غير إن القدر لم يعمل لمصلحته، إذ امتد العمر ببلدوين الأبرص سنوات إلى أن بلغ من العمر ما يجعله يستقل بالحكم دون وصاية.

أما صلة ريموند بطبرية فكانت من خلال زواجه من إيشيفا بور، سيدة طبرية وأميرة الجليل، وهي تنتمي للأسرة الحاكمة في بيت المقدس، وقد ورثت منصبها هذا عن زوجها والتر سانت أومر. وبهذا الزواج أضيفت هذه المنطقة إلى سلطة ريموند إلى جانب كونتية طرابلس.

ومرة أخرى وضعت الظروف ريموند في حلبة المنافسة على عرش بيت المقدس. فقد توفي ملكها بلدوين الرابع (بلدوين الأبرص) عن اربعة وعشرين عاما في آذار ١١٨٥ دون أن يكون له ولد يرثه

على العرش. وكان قبل وفاته قد أوصى بالملك لابن اخته سبيلا الذي عرف ببلدوين الخامس، والذي كان طفلا في الثامنة من عمره، على أن يكون الكونت ريموند وصيا على العرش إلى أن يبلغ الملك الطفل سن الرشد، كما أوصى بأن يمنح بلدوين إقطاع بيروت مكافأة له على هذه "الخدمة".

بلغ ريموند في هذا التطور الجديد أوج قوته، إذ وضع تحت سلطته كلا من كونتية طرابلس والجليل وطبرية وإقطاع بيروت، بالإضافة إلى تاج المملكة في بيت المقدس. لكن على الرغم من هذه القوة الظاهرة كانت المناطق التي تخضع لحكم الفرنج تتعرض آنذاك لخطر المجاعة بسبب انحباس المطر من جانب وتوقف الإمدادات الأوروبية للفرنج في المنطقة من جانب آخر. وهذا ما أقنع زعماء الفرنج بالموافقة على اقتراح قدمه لهم ريموند بأن يلتمس من صلاح الدين هدنة لمدة أربع سنوات، وقد وافق صلاح الدين على هذا الطالب فهو كان بحاجة إلى هذه الهدنة لكي يتفرغ لبعض المشكلات التي ظهرت بين بعض أقربائه في مصر، أيضا لخلافات نشأت بين حكامه في الجزيرة.

لم يهنأ ريموند بهذا الوضع الذي حققه طويلا. إذ مات الملك الطفل (بلدوين الخامس) بعد سنة من تتويجه ملكا، لتدور من جديد جولة أخرى من الصراع على وراثة التاج. وكان ريموند هو المرشح الأقوى للخلافة، وهو سعى لها بالفعل، إلا إنه خسر الجولة هذه المرة أيضا في مؤامرة شاركت فيها سبيلا أم الملك الراحل، وزوجها جاي لوزيجنان (وهو ليس والد الملك الطفل إذ كان من زوج سابق لسبيلا)

وعدد من زعماء الفرنج، وعلى الأخص منهم رينالد شاتيون (أرناط) سيد الكرك، ومقدمي الداوية والاسبتارية، وبدعم من بطريرك بيت المقدس (هرقل) الذي كان عشيقا لأم سبيلا في حياتها. وقد نجح هذا التحالف، بالمكيدة، في استبعاد ريموند وتنصيب سبيلا ملكة على عرش بيت المقدس (سنة ١١٨٦م) التي قامت فور تتويجها بإشراك زوجها جاي لوزينجان بالعرش. وأكثر من ذلك طالبت ريموند بأن يعيد جميع المبالغ التي كان قد حصل عليها مقابل وصايته على الملك الطفل الراحل.

كانت ردة فعل ريموند على هذا الإذلال أنه اعتصم في أملاك زوجته بطبرية وأقسم أنه لن يبذل الولاء للملك الجديد. وغير ذلك جدد الهدنة مع صلاح الدين لتشمل كونتيته في طرابلس بالإضافة إلى الجليل وطبرية. وتذكر مصادرنا العربية أن ريموند "راسل صلاح الدين، وانتمى إليه، واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة، والسعي في كل ما يريد، وضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة".[٥٠] وتذهب مصادر أخرى إلى أبعد من ذلك بالقول إن ريموند "التجأ إلى ظل السلطان [صلاح الدين] فصار له من جملة الأتباع، فقبله السلطان وقواه وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم".[٥١]

غير أن هذه العلاقة التي نشأت بين صلاح الدين والكونت ريموند أصابتها انتكاسة أودت إلى ارتداد الكونت إلى صفوف

الفرنج. كان ذلك عندما قرر صلاح الدين أن يرسل قوة استطلاعية إلى فلسطين كان عليها أن تمر بالأراضي الواقعة تحت سلطة ريموند، فقام بإرسال وفد من لدنه يطلب من الكونت أن يسمح لهذه القوة باجتياز أراضيه، وتحديدا طبرية، وهي في طريقها إلى غايتها. وقد وافق ريموند على ذلك مشترطا أن تدخل القوة أراضيه في الصباح الباكر على أن تعود إلى مواقعها قبل حلول ظلام اليوم نفسه. وبالفعل مرت القوة التي قدرت بسبعة آلاف مقاتل بطبرية، متجهة إلى منطقة عكا. غير أنها واجهت عند وصولها قريبا من صفورية قوات فرنجية كانت غالبيتها مكونة من الداوية والاسبتارية. وكان قادة هاتين الجمعيتين قد قرروا الاستيلاء على الجليل وانتزاعه من ريموند الذي اعتبر خائنا، فحشدوا قواتهم هناك استعدادا لتصفية الحساب معه. وبالتأكيد فوجئ الطرفان، المسلمون والفرنج، بهذا اللقاء غير المتوقع، فكانت المواجهة المسلحة بين الطرفين. وقعت المواجهة حسب المصادر العربية في صفورية، بينما تذكر المصادر الفرنجية أن الموقعة كانت في عين كريسون، بين صفورية وكفر كنة وقريبا من حطين. وقد دارت الدائرة في هذا اليوم (الأول من أيار ١١٨٧) على الفرنج إذ قتل معظم فرسان الداوية والاسبتارية، وكان من بين قتلاهم مقدم الداوية ومارشال الاسبتارية، كما وقعت أعداد كبيرة من الفرنج الآخرين في أسر المسلمين. وقد عادت هذه القوة من حيث أتت مارة بطبرية من جديد لتعبر نهر الأردن نحو الشرق.[٥٢]

زادت هذه الحادثة من نقمة قادة الفرنج على ريموند، إذ اعتبروها دليلا دامغا على خيانته وتواطئه مع صلاح الدين. فما كان

منه إلا أن غادر طبرية إلى بيت المقدس حيث أعلن نقض المعاهدة التي كان قد أبرمها مع صلاح الدين، كما أعلن في الوقت نفسه خضوعه للملك جاي، غريمه السابق.

(١٠)
تحرير طبرية من الفرنج

كانت تلك الحادثة مقدمة لمشروع صلاح الدين باقتحام فلسطين. ففي ذلك الوقت كان قد استكمل سيطرته على بلاد الشام والجزيرة جميعا، بالإضافة إلى مصر، وصار بذلك في إمكانه أن يحشد القوات التي يمكن بها أن يحقق هذا المشروع. وهو هكذا فعل. فمنذ أيار ١١٨٧ أخذت قوات من مختلف مناطق الشام والجزيرة تتدفق على منطقة حوران التي اتخذها صلاح الدين مركزا للتجمع الذي استمر إلى أواخر شهر حزيران من العام نفسه. وفي اليوم الأول من تموز عبر على رأس قواته نهر الأردن عند جسر الصنبرة[٥٣]، ومن هناك اتجه إلى كفر سبت (على بعد نحو من عشرين كيلومترا إلى الجنوب الغربي من طبرية) حيث أبقى نصف قواته هناك، وسار بالنصف الآخر لمهاجمة طبرية نفسها، فنقبت قواته أسوارها، وما لبثت دفاعات المدينة أن تهاوت بعد حصار لم يستغرق غير ليلة، ودخلت قواته طبرية في الثاني من تموز ١١٨٧م. في ذلك الوقت لم يكن الكونت ريموند في المدينة، فما كان من

زوجته ايشيفا إلا أن التجأت إلى قلعة طبرية* التي تحصنت بها هي ومن لحق بها من فرنج المدينة، فتركها صلاح الدين هناك، بعد أن أبقى جزءا من قواته محاصرا لها، ليواجه قوات الفرنج الأخرى التي كانت قد تجمعت في صفورية.

على الجانب الآخر، عقد الملك لوزينجان مؤتمرا في عكا، بعد أن وصلت إليه أنباء اجتياز صلاح الدين نهر الأردن، لتدارس الوضع واتخاذ الإجراء الملائم. وكان موقف الكونت ريموند أن على الفرنج أن يتخذوا موقف الدفاع، مراهنا على أن صلاح الدين لن يستطيع في هذا الجو اللافح الإبقاء على قواته في منطقة الأغوار شديدة الحرارة، وأنه سوف ينسحب بعد فترة وجيزة. غير أن الكونت اتهم بالجبن، وبأنه باع نفسه لصلاح الدين، وأصر المجتمعون على التحرك نحو طبرية، لتستقر قواتهم عند صفورية.[٥٤] وهناك وصلتهم الأنباء باقتحام صلاح الدين مدينة طبرية، فعقد الملك جاي مؤتمرا آخر، اتخذ فيه الكونت ريموند موقفا مماثلا لما كان عليه في مؤتمر

---

* اكتشفت حديثا (في العام ٢٠٠٣) آثار تدل على هذه القلعة التي بناها الفرنج. وكانت تقع على شاطئ البحيرة وقد وجدت آثارها تحت ما كان يعرف في عهد الانتداب البريطاني بـ"حارة اليهود". وتدل المكتشفات على أن القلعة كانت مساحتها ٧٠×٥٠ مترا، وكانت مبنية بحجر البازلت (الأسود) ويحيط بها سور بسماكة ثلاثة أمتار ونصف المتر. وكان يحيط بالقلعة من جهاتها البرية خندق مملوء بالماء (يغذى من البحيرة)، تنتصب فوقه جسور خشبية متحركة، ما كان يجعل القلعة أشبه بالجزيرة الصغيرة التي تحيطها المياه من جهاتها كافة.

عكا. وتلتقي المصادر العربية والفرنجية على القول بأن ريموند قبل بأن يأخذ صلاح الدين طبرية وزوجته، غير أنه لن يستطيع المقام في المدينة إذ سوف يضطر إلى تركها، وعند ذلك يمكن افتكاك الأسرى الذين بيده.[٥٥] ومرة أخرى ووجه ريموند بتهم الخيانة، وكان القرار أن تتجه القوات الفرنجية إلى طبرية لتخليصها بالقوة من يد صلاح الدين.

ووفقا للعرف الإقطاعي، تولى ريموند قيادة مقدمة الجيش، باعتباره سيد إقطاع طبرية. والتقى الجانبان، المسلم والفرنجي، على ارض حطين، حيث دارت أعنف المعارك التي شهدتها فترة حروب الفرنج (٤ تموز ١١٨٧) حيث تحطم جيش الفرنج بشكل ذريع، وأسر عدد من قادته منهم الملك جي نفسه. أما ريموند فقد هرب من المعركة عند بدئها، ووفق المصادر العربية فأن جانبا من جيش صلاح الدين هو الذي سهل له هذا الهروب.[٥٦]

في اليوم التالي لمعركة حطين عاد صلاح الدين إلى طبرية، حيث تسلم قلعتها صلحا من الكونتيسة إيشيفا، التي أمنها هي وأولادها واصحابها ومالها، فخرجت من طبرية لتلتحق بزوجها الذي هرب إلى طرابلس. وقد توفي الكونت هناك بعد فترة وجيزة من هروبه في حطين بعد ان أصيب بالالتهاب الرئوي، وإن كان بعض المصادر تقول إنه مات هناك كمدا وحزنا على ما أصابه.

تحررت طبرية إذن من حكم الفرنج الذي استمر نحوا من ثمان وثمانين سنة (من أواخر ١٠٩٩ حتى الخامس من تموز ١١٨٧). وكان فتحها على يد صلاح الدين مقدمة لتحرير معظم

الأراضي التي كانت قد خضعت للفرنج. فكان أن تمكن بعدها من تحرير عكا، فنابلس، فتبنين، فيافا، فصيدا، فبيروت، فجبيل، فعسقلان، فغزة إلى أن تمكن في الثاني من تشرين الأول ١١٨٧، أي بعد نحو من ثلاثة اشهر من تحرير طبرية، من دخول بيت المقدس فاتحا ومنهيا الوجود الفرنجي فيها. وقد استمرت فتوحاته بعد بيت المقدس، فكان أن حرر الكرك والشوبك وصفد وكوكب وجبلة واللاذقية وعددا من القلاع في شمال الشام التي كانت تحت سلطة الفرنج.

غير أن هذه الفتوحات شابتها نكسة خطيرة بقدوم حملة فرنجية جديدة (هي التي تعرف بالحملة الفرنجية الثالثة) والتي كانت بقيادة رتشارد ملك الإنجليز (الملقب رتشارد قلب الأسد)، وفليب ملك فرنسا، وفردريك بربروسه إمبراطور ألمانيا. وكانت هذه الحملة الجديدة ردا على استيلاء المسلمين على بيت المقدس. وقد اعتمدت هذه الحملة على أن بعض المدن التي كانت تحت حكم الفرنج لم تقع بيد صلاح الدين (أنطاكية وصور) فكانوا أن اتخذوا من صور مكانا لانطلاقهم لمجالدة صلاح الدين وللتوسع في فلسطين. حقق الفرنج في هذه الحملة مكسبا بأن استعادوا عكا إلى سلطتهم، وكذلك عسقلان، إلا أنهم فشلوا في تحقيق هدفهم النهائي في استعادة بيت المقدس من أيدي صلاح الدين.

وقد انتهت هذه المرحلة من الحرب بهدنة عرفت في التاريخ بصلح الرملة بين صلاح الدين ورتشارد في الثاني من أيلول ١١٩٢ (وكان الإمبراطور الألماني قد توفي في أثناء الحملة بينما كان ملك

فرنسا قد عاد إلى بلاده)، والتي نصت على أن يغادر رتشارد فلسطين إلى بلاده، مقابل أن يسمح صلاح الدين للحجاج المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس، بشرط أن يأتوا فرادى ومجردين من الأسلحة. ولم يمض على هذه الهدنة غير ستة أشهر حتى توفي صلاح الدين في الثالث من آذار ١١٩٣.

(١١)
ورثة صلاح الدين

سوف يمر نحو من ربع قرن على تحرير طبرية من الفرنج، نجت فيه المدينة من مطامعهم، قبل أن تظهر من جديد على مسرح الصراع. ونجمل فيما يلي التطورات التي أدت إلى ذلك:

بعد وفاة صلاح الدين تقسمت الدولة الواحدة والمتماسكة التي أقامها بين أبنائه وأخوته فاستقل كل واحد منهم في جزء من المنطقة الممتدة من الجزيرة في الشمال الشرقي وعبورا ببلاد الشام وانتهاء بمصر في الغرب واليمن في الجنوب. وقد رافق طاعون التفتت هذا داء التنافس والصراعات الذي كان يفتك بورثة صلاح الدين، إلى أن تمكن أخوه المعروف بالعادل في عام ١٢٠١ (أي بعد وفاة صلاح الدين بنحو من ثماني سنوات) من لم شعث الدولة وبسط سلطته على أقسامها المتنازعة. وقد شهدت نهاية عهد العادل قدوم الحملة الفرنجية الخامسة بدءا من صيف ١٢١٧. وبعد أن عاث الفرنج في هذه الحملة تدميرا في بعض مناطق فلسطين (الجليل ومنطقة بيسان وقرب عكا)

قرر قادتها غزو مصر من البر والبحر. واتخذ قادة الحملة من دمياط هدفا لهم فوصلوا أطرافها في أيار ١٢١٨، وتمكنوا من الاستيلاء على حصنها في آب من العام نفسه. كان العادل آنذاك في دمشق، بينما كان ابنه الكامل نائبه في مصر، وهو الذي كان يتولى مهمة الدفاع عن دمياط. ويبدو أن العادل، الذي كان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، لم يتمكن من تحمل صدمة سقوط حصن دمياط، فتوفي بعد أسبوع واحد من هذا الحادث الأليم.

مرة أخرى انشقت المملكة الأيوبية، وهذه المرة بين أولاد العادل، فاستقل الكامل محمد في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في الجزيرة. وقد استغل الفرنج فرصة وفاة العادل فشددوا حصارهم على دمياط وكانوا تحت قيادة كاردينال إسباني قدم حديثا من أوروبا، يدعى بيلاجيوس.

(١٢)
المساومة على بيت المقدس وطبرية

سعى الكامل إلى إجراء مفاوضات مع الفرنج هدفها ترحيلهم عن مصر. وفي مقابل ذلك عرض عليهم تسليمهم بيت المقدس والجليل وفلسطين غرب النهر بكاملها على أن يستثنى من ذلك القلاع الواقعة شرق نهر الأردن، ومنها الكرك. وقد رفض بيلاجيوس هذا العرض لأنه دون الكرك والمناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن تظل بيت المقدس عرضة للخطر. في هذه الأثناء، قام المعظم عيسى صاحب دمشق بتخريب تحصينات

بيت المقدس وحصون الجليل وصفد وبانياس، حتى إذا تسلمها الفرنج تسلموها دون دفاعات.

على أي حال، سقطت مدينة دمياط بيد الفرنج في الخامس من تشرين الثاني ١٢١٩، بعد حصار، تخللته معارك متقطعة، استطال حتى بلغ نحوا من ستة عشر شهرا. وقد جدد سقوط دمياط المفاوضات بين الكامل والفرنج، فعرض عليهم من جديد الانسحاب من مصر مقابل أن يتسلموا بيت المقدس، وطبرية، وعسقلان، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين بالساحل، وأن يعوضهم عن هدم أسوار بيت المقدس[٥٧]، إلا أن بيلاجيوس رفض العرض من جديد، مطالبا بالإضافة إلى كل ذلك بالكرك والشوبك.

في هذه الأثناء وصلت إلى مصر إمدادات عسكرية يقودها المعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب الجزيرة، في وقت كانت جبهة الفرنج تتعرض للتخلخل نتيجة اختلافات بين بيلاجيوس وبعض قادة الحملة الفرنجية، ما جعل الكثيرين منهم يعودون إلى بلادهم هم ورجالهم. وفي ظل هذا الاختلال بموازين القوى، وفشل المفاوضات، قام الأيوبيون بهجمة مشددة على دمياط سجلوا فيها انتصارا حاسما على الفرنج، لم يجد قادتهم إزاءه إلا التفاوض على التسليم. وكانت شروط الكامل أن يغادر الفرنج مصر، وأن يلتزموا بمراعاة هدنة لمدة ثماني سنوات. وإلى أن ينفذوا ذلك عليهم تسليمه رهائن لكي يضمن انسحابهم من مصر، كان منهم الكاردينال بيلاجيوس نفسه، والملك يوحنا (كان يدعى ملك بيت المقدس وإن كان مقره في عكا)،

ومقدمو الطوائف الدينية العسكرية وثمانية عشر من الكونتات والأساقفة[٥٨]. وقد استجاب قادة الفرنج لهذه الشروط المذلة، فجرى رحيلهم عن دمياط ودخول الكامل إليها في الثامن من أيلول ١٢٢١.

لقد أنقذ بيت المقدس وطبرية وفلسطين عامة من السقوط بيد الفرنج الانتصار الذي حققه الكامل عليهم في دمياط بالتحالف مع أخويه المعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب الجزيرة. غير أن هذا السقوط تحقق بعد نحو من ثماني سنوات عندما حاز الفرنج ما يبتغون من فلسطين دون أن يشهروا سيفا. كان ذلك عندما قاد فردريك الثاني ملك ألمانيا وإمبراطور الغرب حملة فرنجية جديدة هبطت عكا في خريف ١٢٢٨. في هذا الوقت كانت الأسرة الأيوبية قد ابتليت من جديد بطاعون الانقسام والتصارع بعد ان توفي المعظم، صاحب دمشق وخلف أملاكه لابنه الناصر داوود الذي كان شابا اشتهر بالضعف والافتقار إلى الخبرة والتجربة. وقد فتحت هذه الحادثة شهية الكامل، سلطان مصر الأيوبي، لضم الشام إلى أملاكه، فكان أن غادر مصر إلى فلسطين واستولى على بيت المقدس ونابلس (وكانتا تتبعان دمشق)، ثم اتجه إلى دمشق ليفرض عليها حصاره وعلى ابن أخيه فيها الشاب الناصر داوود.

وقد استغل الإمبراطور فردريك هذه الخلافات في الأسرة الأيوبية، فقام باستعراض قوة على الساحل الفلسطيني، ما جعل الكامل يلجأ إلى مفاوضته لإقامة سلام معه كان لازما له لكي يستكمل مشروعه في الاستيلاء على دمشق من ابن أخيه. وقد أسفرت المفاوضات عن اتفاقية مذلة، لكن هذه المرة للكامل نفسه، عندما وقع

الطرفان معاهدة هدنة (في ١٨ شباط ١٢٢٩) يحصل فردريك بموجبها على بيت المقدس باستثناء الحرم الشريف (المسجد الأقصى والصخرة المشرفة) وبيت لحم وشريط من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهي عند يافا على البحر، بالإضافة إلى الناصرة وغرب الجليل بما اشتمل عليه من حصون، فضلا عما تبقى من المناطق الإسلامية حول صيدا.[٥٩] وقد دخل فردريك بيت المقدس بالفعل بعد نحو من شهر من توقيع هذه الاتفاقية ليتوج نفسه ملكا على بيت المقدس. ولم يستقر الإمبراطور بعد ذلك طويلا في فلسطين إذ غادرها بعد نحو من خمسين يوما متوجها إلى بلاده بعد أن ترك فيها نائبا له. وقد استمر الفرنج في بيت المقدس نحوا من عشر سنوات إلى كانون الأول ١٢٣٩ عندما هاجمها أمير الكرك الأيوبي الناصر داوود، وطرد الفرنج منها، وكانت الهدنة ما بين الكامل وفردريك قد انتهى أجلها.

(١٣)
تسليم طبرية للفرنج

ظلت طبرية خلال الفترة السابقة (التي أشرنا إليها أعلاه) بمنجى من الفرنج، وإن كانوا قد اقتربوا منها عندما تنازل الكامل عن الجليل الغربي للإمبراطور فردريك. واقتربوا منها أكثر عندما أخذوا صفد (إلى الشمال منها)، وكان ذلك في أثناء موجة جديدة من الصراع بين الأمراء الأيوبيين. فقد توفي الكامل في دمشق (في آذار ١٢٣٨) لينشب الصراع من جديد على وراثته، وليسفر مرحليا عن

استيلاء الصالح إسماعيل (أخي الكامل) على دمشق، والصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) على مصر. ولكي يحمي إسماعيل نفسه من الصالح أيوب قام بعقد اتفاق مع أحد قادة الفرنج (تيبالد الذي قدم حديثا للمنطقة على رأس حملة ضمت نخبة من نبلاء فرنسا) بأن يسلم له صفد وقلعة هونين، مقابل أن يحمي تيبالد حدود مملكة إسماعيل من الجنوب، إن حدث أن هاجمه الصالح ايوب من مصر. وقد سلم الصالح إسماعيل صفد بموجب هذا الاتفاق إلى فرسان الداوية كما سلمت هونين إلى سيد صيدا الفرنجي في صيف ١٢٤٠.

وقد حدث بعد نحو من أربع سنوات من قيام هذا التحالف بين الصالح إسماعيل وقادة الفرنج تحالف مماثل بين بعض الأمراء الأيوبيين والفرنج، لكن كان هذه المرة على حساب بيت المقدس وطبرية. ففي ظل الصراع الذي كان سمة العلاقة بين هؤلاء الأمراء نشأ تحالف بين أربعة من أمراء الشام الأيوبيين: الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، والناصر يوسف صاحب حلب وجدته الوصية عليه ضيفة خاتون، وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، والناصر داوود صاحب الكرك، ليقف في وجه الصالح أيوب سلطان مصر الأيوبي.[٦٠] وقد أجرى هذا التحالف مفاوضات مع الفرنج لضمان تأييدهم في مواجهة صاحب مصر، تنازل بموجبها الصالح إسماعيل لهم عن بيت المقدس وطبرية وعسقلان وقلعة شقيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد ومناصفة صيدا وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل.[٦١] كما وعدهم الصالح إسماعيل بأن يعطيهم جزءا من مصر عندما يتمكن من امتلاكها.[٦٢] وقد احتل الفرنج، بالفعل، بموجب هذا الاتفاق، طبرية

وعمروا قلعتها وحصنوها، كما تسلموا بيت المقدس، بالإضافة إلى عسقلان، والمناطق الأخرى التي نص عليها الاتفاق.

في مقابل ذلك، استنجد الصالح أيوب، صاحب مصر، بالخوارزمية*، الذين كانوا آنذاك يشنون غاراتهم على المناطق المحيطة بحلب. وبناء على هذا الاستدعاء، انطلق الخوارزمية، كعادتهم في هجماتهم التي كانت على شكل إعصار مدمر، واتجهوا جنوبا (في تموز ١٢٤٤) فاجتاحوا طبرية، ومنها انطلقوا إلى نابلس فدمروها، ثم قصدوا بيت المقدس واقتحموها، وطردوا الفرنج منها، واستقروا أخيرا في غزة حيث انضموا إلى قوة عسكرية كان الصالح أيوب قد بعث بها من مصر.

وكانت ردة فعل أمراء الشام الأيوبيين على هذه الحركة أن توجهوا إلى الفرنج يطلبون منهم النصرة وتنفيذ الاتفاق الذي كان قد تم بينهم.[٦٣] وعلى هذه القاعدة تشكلت قوة عسكرية كبيرة ساهم بها الفرنج بأضخم جيش قذفوا به في ساحة القتال منذ يوم حطين، وقد

---

* كانت دولة خوارزم قد بلغت أوج قوتها في عهد سلطانها الأخير خوارزمشاه جلال الدين منكبرتي، وهو الذي كان في عهده أيضا نهاية هذه الدولة التي امتدت من بخارى وسمرقند إلى أذربيجان فالهضبة الفارسية وأجزاء من العراق وإقليم الجزيرة. ففي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) انهارت الدولة الخوارزمية أمام هجمات التتار الذين لاحقوا جلال الدين إلى منطقة ديار بكر حيث اختفى هناك ومات في ظروف غامضة. وبموته تفرق أتباعه على شكل عصابات مسلحة في منطقة الجزيرة وشمال الشام نشرت الخراب والدمار فيها، كما شاركت الخوارزمية في الصراع الذي كان ينشأ بين الأمراء الأيوبيين المتصارعين على السلطة فكانوا يقدمون خدماتهم لمن يشتريها منهم.

شمل قوات من مختلف المناطق التي كانت تحت سيطرتهم بقيادة إمرائهم في يافا وأنطاكية وصور والبترون وطرابلس وعكا.[٦٤] أما حلفاؤهم من الأيوبيين فكانت قواتهم تضم عساكر من حمص ودمشق والكرك، وكانت جميعا بقيادة إبراهيم بن شيركوه، صاحب حمص، بينما لم يشارك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، بشخصه في هذا الحشد العسكري، كما اكتفى الناصر داوود بمد التحالف بقوة من الكرك وبقي مقيما فيها.[٦٥]

وقد التقى الطرفان، الخوارزمية وعسكر مصر من جهة، وقوات الفرنج وعساكر الأيوبيين من الجهة المقابلة، في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤ (١٤ جمادى الأولى ٦٤٢) في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة، حيث حاقت بالفرنج هزيمة ساحقة تحطم فيها كل جيشهم. وقد قدرت مصادر الفرنج عدد قتلاهم في هذه المعركة بما لا يقل عن خمسة آلاف قتيل[٦٦]، بينما ذكرت المصادر العربية أن عدد القتلى زاد عن ثلاثين ألفا[٦٧]. أما القوات الشامية (الأيوبية) فقد أصابتها هزيمة مماثلة، إذ انكسر إبراهيم بن شيركوه "شر كسرة"[٦٨]، وهرب من المعركة في اتجاه دمشق، فما وصلها "إلا في نفر يسير، وقد نهبت خزائنه وخيله وسلاحه وقتل أصحابه"[٦٩].

أتاح هذا النصر الفرصة للصالح نجم الدين أيوب لمد سلطته إلى بلاد الشام، فاستولى على غزة وبيت المقدس (التي أعاد الفرنج تحكمهم بها بعد أن اجتاحها الخوارزمية)، ثم بعث قوة فحاصرت دمشق وبها صاحبها إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه، ودام الحصار

خمسة أشهر قبل أن يستسلم المحاصرون فيها (في تشرين الأول ١٢٤٥)، ويخرج منها الأميران الأيوبيان إبراهيم وإسماعيل، على شرط أن يبقى الأول أميرا على حمص، بينما تنزع إمارة دمشق من الثاني ويسلمها للصالح أيوب، ويعطى بدلا منها بعلبك.[٧٠]

أما طبرية فعلى الرغم من اجتياح الخوارزمية لها (كما بينا قبل) فقد عاد الفرنج إليها بعد أن مر بها الإعصار الخوارزمي وظلت تحت سيطرتهم أكثر من سنة ونصف السنة منذ أن تمكن الصالح أيوب من دمشق. وقد جرى تحريرها عندما أرسل هذا جيشا من دمشق وحاصرها مدة قبل أن تسقط بيده في السابع عشر من حزيران ١٢٤٧، لتعود بذلك إلى السيادة الأيوبية.

غير أن هذه السيادة انتهكت بعد نحو من سبع سنوات في عهد الملك الأيوبي الناصر (الثاني) صلاح الدين يوسف. وكان هذا قد تملك حلب ودمشق، ودخل في صراع مع المماليك في مصر (انظر أدناه عن سلطنة المماليك)، فلجأ إلى طلب ود الفرنج بأن اتفق معهم (سنة ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ) على مقاسمة طبرية، بأن يكون نصفها (بمعنى نصف مغلها) له ونصفها للفرنج[٧١]. وكان ذلك خاتمة تنازلات الأيوبيين المتأخرين، إذ جاء بعدها طوفان جديد قادم هذه المرة من الشرق.

(١٤)
الاجتياح المغولي

كان ذلك الطوفان ماثلا في اجتياح المغول لبلاد الشام بعد أن قضوا على الخلافة العباسية في بغداد وقتلوا آخر خلفائها المستعصم بالله (١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ). وكانت الشام آنذاك لا تزال تحت حكم بقايا الملوك الأيوبيين الذين أنهكتهم صراعاتهم البينية وخلافاتهم على الحكم. فكانت الأرض بذلك ممهدة ليقود هولاكو، الذي قضى على الخلافة العباسية في بغداد، جيشه متجها غربا ليضيف الشام إلى مناطق سيطرته. وهكذا حل في حلب أولا (١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ)، وتوجه منها جنوبا فأخذ دمشق، إلا إنه عاد منها إلى البلاد الشرقية، تاركا قائده كتبغا ليستكمل اجتياح بقية بلاد الشام: فلسطين بأكملها حتى غزة والاردن جميعا حتى شمال الكرك. وقد ارتكب المغول في المناطق التي احتلوها (ومنها طبرية وهي المعنية بدراستنا) فظائع لا تقل بشاعة عما ارتكبوه في بغداد، قتلا وانتهاك أعراض وتدمير مدن. وباجتياح المغول بلاد الشام انتهى عمليا حكم الأيوبيين فيها.

(١٥)
المماليك

كان انقراض الحكم الأيوبي في مصر أسبق مما كان في الشام. فقد انتهى هذا العهد عمليا بوفاة الصالح نجم الدين أيوب سنة

١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ، ورسميا بمصرع ابنه تورانشاه في السنة التالية، في موجة خلافات مع مماليكه، وتولي شجر الدر، أرملة نجم الدين أيوب، السلطنة في مصر، ليبدأ بها عمليا عهد السلطنة المملوكية* .

ولم يمض وقت طويل على قيام السلطنة المملوكية حتى كانت بلاد الشام تتعرض للاجتياح المغولي الذي سبق أن اشرنا إليه. وقد ظهر المماليك في اثناء ذلك أنهم هم القوة الرئيسية في العالم الإسلامي المؤهلة للتصدي لهذا الاجتياح وعواقبه (بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وانهيار حكم الأيوبيين في الشام تحت وطأة الغزو المغولي). وقد تمكن المماليك بالفعل من دحر المغول في الشام، وكان ذلك إثر معركة عين جالوت (إلى الجنوب الغربي من طبرية) عندما تمكن السلطان المملوكي قطز (في ٣ أيلول ١٢٦٠م/ ٢٦ رمضان

---

* المماليك كما يستدل على ذلك من اسمهم كانوا يبدأون حياتهم عبيدا، وقد جلبوا من مناطق آسيا الوسطى، في خدمة الملوك الأيوبيين في مصر. وكانوا يشكلون عصب الجيش، وقوته المركزية، ويرتقي بعضهم في سلم الخدمة ليتسلموا مناصب عالية في الجيش والإدارة. وقد بدأت الدولة المملوكية، في نظر بعض المؤرخين بتسلم شجر الدر كرسي السلطنة (وهي نفسها كانت "مملوكة")، بينما يرى آخرون أن الدولة المملوكية بدأت بعز الدين أيبك الذي تنازلت له شجر الدر عن السلطنة. ويقسم المؤرخون العهد المملوكي إلى دولتين: عهد المماليك البحرية (الترك) الذي يمتد من سنة ١٢٥٠م ابتداء بشجر الدر (أو أيبك) إلى سنة ١٣٩٠م بوفاة السلطان حاجي آخر سلاطين هذه الدولة، وعهد المماليك البرجية (الجراكسة) ابتداء من تلك السنة بتولي السلطان سيف الدين برقوق، وانتهاء بسنة ١٥١٧ عندما قتل السلطان العثماني سليم الأول السلطان الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك.

٦٥٨هـ) من إلحاق هزيمة فادحة بالجيش المغولي وتدميره تدميرا شبه كامل وقتل قائده كتبغا، ما جعل فلول المغول تغادر بلاد الشام نهائيا. وقد توجه السلطان قطز بعد هذه المعركة إلى طبرية، ومنها إلى دمشق التي دخلها دخول الفاتحين، ليبدأ عهد جديد فيها من خلال توحيد القطرين الشامي والمصري تحت حكم السلطنة المملوكية.

لم يكتب للسلطان قطز أن يعيش طويلا ليستمتع بهذا النصر الذي حققه في معركة عين جالوت. إذ لم يمض إلا أشهر بعدها حتى لاقى السلطان مصرعه نتيجة خلافات نشبت بين قادته، ومنهم بيبرس البندقداري الذي كان له الدور الأعظم في الانتصار الذي تحقق في عين جالوت. وقد تولى بيبرس السلطنة، متخذا لقب الملك الظاهر، ليكرس وحدة القطرين الشامي والمصري، ولينهض بمهمة التصدي لبقايا الفرنج في الشام، وأيضا لدرء خطر المغول عنها. وقد حقق في هاتين المهمتين نجاحات باهرة إذ استأصل شأفة الفرنج من معظم ما كانوا يتملكونه من الديار الشامية، وتمكن من أن يقلص إلى حد بعيد من التهديدات التي كانت تواجهها الشام من جانب المغول. وتدل إحصائية على نشاطاته في هذا الصدد أنه قام بثمان وثلاثين حملة في الشام وخاض تسع معارك ضد المغول، وأنه لم يقض في عاصمته في القاهرة في أثناء سلطنته التي امتدت سبعة عشر عاما سوى نصف هذه المدة، فقد غادرها ستا وعشرين مرة، وقطع في رحلاته ما يزيد عن أربعين ألف كيلومتر[٧٢].

وما يهمنا من أمر هذه الحملات جميعا فتح صفد لما لها من علاقة بطبرية، وهي موضوع بحثنا. كان الفرنج قد احتلوا صفد سنة

١١٤٠م/ ٥٣٦هـ وبنوا فيها حصنا لصد هجمات أمراء دمشق. وقد حرر السلطان صلاح الدين المدينة في سنة ١١٨٩م/ ٥٨٦هـ بعد معركة حطين (١١٨٧م/ ٥٨٣هـ). وفي سنة ١٢٢٠م/ ٦١٨هـ دمر المسلمون حصنها خشية استيلاء الفرنج عليه مرة أخرى. وبعد عشرين سنة من هذا عادت صفد للفرنج عندما تنازل لهم عنها الملك الأيوبي الصالح إسماعيل (١٢٤٠م/ ٦٣٩هـ)، من جملة ما تنازل لهم من مناطق كسبا لتأييدهم في مواجهة أقرانه من الملوك الأيوبيين (انظر أعلاه). وكانت جماعة الفرسان الداوية من الفرنج هم من تسلم المدينة، فأعادوا تحصينها وبنوا قلعتها من جديد. وكانت المدينة إحدى الجوائز الثمينة التي حصدها الظاهر بيبرس في مواجهاته مع الفرنج في بلاد الشام. فبعد حصار مشدد استمر نحوا من أربعين يوما، وقد شاركت فيه قوات من الشام ومصر، استولى بيبرس على صفد وقلعتها (٢١ تموز ١٢٦٦م/ ١٨ شوال ٦٦٤هـ) ودخلها دخول الفاتحين. وكان ذلك بداية لنشوء "نيابة صفد" التي أصبحت طبرية بموجبه تابعة إداريا لهذه المدينة.

(١٦)
طبرية في نيابة صفد

بعد النجاحات التي حققها الظاهر بيبرس في تحرير معظم مناطق الشام من الاحتلال الفرنجي، قام بإعادة تنظيم المنطقة إداريا بأن جعلها وحدات إدارية عرفت الواحدة منها باسم "نيابة" إذ كان يحكمها حاكم إداري ينوب عن السلطان المملوكي الذي كانت القاهرة

عاصمته. وكانت كل نيابة منها تتكون من عدد من "الولايات" وأحيانا من نيابات صغرى، وفق حجمها وأهميتها. وقد أطلق بعض الكتابات التاريخية القديمة على كل واحدة من هذه النيابات الكبرى اسم المملكة لأهميتها، إذ كانت "مضاهية للمملكة المستقلة" وفق تعبير القلقشندي، وهو يبين لنا أن النيابات وصلت في زمنه إلى ستة كما يلي: (١) نيابة دمشق، (٢) نيابة حلب، (٣) نيابة طرابلس، (٤) نيابة حماة، (٥) نيابة الكرك، و(٦) نيابة صفد.

كانت نيابة صفد تضم إحدى عشرة ولاية، منها ولاية طبرية (الولايات الأخرى كانت ولاية بر صفد، الناصرة، تبنين وهونين، عثليث، عكا، صور، الشاغور، ولاية الأقاليم، الشقيف، جينين).[٧٣] ولم تظهر هذه النيابات دفعة واحدة، إذ كان أولها في الظهور نيابتي دمشق وحلب عقب هزيمة التتار في عين جالوت، وبعدها نيابة حماة سنة ١٣٤١، فنيابة الكرك سنة١٢٦٣، فنيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦، أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد السلطان المملوكي قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الفرنج سنة ١٢٨٩.[٧٤]

وقد اهتم الظاهر بيبرس بمدينة صفد بعد أن جعلها مركزا للنيابة، فرمم قلعتها التي كانت قد تعرضت للدمار في أثناء حصاره المدينة، وبنى فيها جامعين أحدهما في المدينة نفسها والآخر في قلعتها، وجلب إليها السكان من دمشق ليقيموا فيها وفرض لهم جرايات تقيم أودهم.

ولكن لماذا صفد وليست طبرية هي التي كان لها النصيب بأن تكون مركزا للنيابة أو المملكة؟ كانت صفد تتمتع بمزايا استراتيجية تفوق تلك التي كانت لطبرية. فهي بموقعها المرتفع تشرف على الجليل بأكمله ومن ضمنه طبرية. كذلك كانت قريبة نسبيا من الساحل الشامي على البحر الأبيض المتوسط حيث كانت بقايا الفرنج ما تزال تتحكم ببعض مناطقه، فكانت صفد بذلك موقعا متقدما تنطلق منه العساكر لمواجهة الفرنج هناك. وذلك ما لم يكن يتوفر لطبرية.

(١٧)
تقهقر المدينة

تضافر عاملان لفرض حالة من التقهقر على طبرية منذ أن عادت إلى السيادة الإسلامية عند تحريرها على يدي صلاح الدين الأيوبي من الفرنج (في تموز ١١٨٧م). الأول ما لحق بها من خراب وتدمير نتيجة تداول الأيدي عليها خلال فترة من التاريخ قصيرة، والثاني فقدانها مكانتها المتميزة بتحول مركز الثقل السياسي والإداري منها إلى صفد.

ويبدو أن الظاهر بيبرس أجرى بعض إصلاحات في طبرية بعد أن هزم المغول في عين جالوت وانتزع المدينة من أيديهم، إذ يذكر ابن شداد المعاصر لتلك الحوادث أن بيبرس "أمر بعمارتها فعمرت، وجمع إليها أهلها"[٧٥]، غير أن حجم الدمار الذي كان قد لحق

بها قبل كان أفدح من أن يعوض بما قام به بيبرس، فابن شداد نفسه يصف المدينة بعد أن حررها الصالح نجم الدين أيوب (انظر أعلاه) بأنها "بقيت خرابا"، كما يؤكد أن المدينة كانت خرابا عندما كانت في حوزة الناصر (الثاني) صلاح الدين يوسف الذي اتفق مع الفرنج على مقاسمة طبرية.

وفي مراحل لاحقة لفت هذا التقهقر الذي أصاب المدينة من جاء على ذكرها من كتاب عصر المماليك. فالرحالة المشهور ابن بطوطة (توفي ١٣٧٧م/ ٧٧٩هـ) يصف المدينة كما رآها عندما حل بها في رحلته (سنة ١٣٥٥م) بانها "كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها"، ولم يلفت نظره فيها إلا "مسجد يعرف بمسجد الأنبياء"[٧٦]. كذلك يكتب عنها القلقشندي (توفي ١٤١٨م/ ٨٢١هـ) أنها "مدينة خراب"[٧٧].

لكن مع هذا، يبدو أن حماماتها المعدنية ظلت تحتفظ بمكانتها وسمعتها الحسنة التي كانت عليها على امتداد تاريخ المدينة القديم والإسلامي. إذ يكتب شمس الدين الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، الذي كان قد انتقل من موطنه الأصلي في دمشق وسكن صفد في أواخر حياته وتوفي فيها سنة ١٣٢٧م/ ٧٢٧هـ، يكتب واصفا المدينة بأنها من أعمال صفد، وبأنها مدينة مستطيلة على شاطئ بحيرتها، وبأن على هذا الشاطئ "منابع حارة شديدة الحرارة تسمى الحمامات، وماء هذه المنابع ملحي كبريتي نافع من ترهل البدن ومن الجرب الرطب ومن غلبة البلغام"[٧٨].

وهكذا غاب عن طبرية في عصر السلطنة المملوكية ما كانت تتمتع به في عصرها الإسلامي قبل الاحتلال الفرنجي من ألق ثقافي وأوضاع اقتصادية جيدة ومكانة إدارية متميزة.

حواشي الفصل الثالث

(١) أوردت المصادر العربية تقارير عديدة عن خنوع حكام المدن الشامية أمـام زحـف الفرنج، انظر ما ورد عن ذلك لدى: ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ١٦٥؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٢٧٨. كذلك توسعت المصادر الفرنجية في الحديث عن وعود حكام هذه المدن بالمهادنة وتقديمهم "الهدايا" لهم، انظر في ذلك الروايات التي أوردها Raymond d'Aguilier كما يلي في ترجمته العربية: ريموندانجيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، نقله إلى العربية حسين محمد عطية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)، ص ص. ١٨٥، ١٨٩، ٢٢٤. كذلك انظر رواية William of Tyre في ترجمته العربية كما يلي: وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن حبشي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢)، ج. ٢، ص. ٦٥. وتفاصيل هذه الأمثلة لدى: سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى** (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦٣)، م. ١، ص ص. ٢٢٣-٢٣٩.

(٢) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٢٨٣، كذلك غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، صححه وفهرسه أنطون صالحاني اليسوعي (بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٠٨٣)، ص. ٣٤٢.

(٣) فوشيه الشارتري، ص. ٧٥.

(٤) انظر عن أعمال تانكرد في بيت المقدس: ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، نقله إلى العربية السيد الباز العريني (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، م. ١، ص ص. ٤٠٣، ٤٠٨.

(٥) عن سقوط طبرية والجليل في يدي تانكرد انظر: رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ١، ص. ٤٢٩؛ عاشور، **المرجع المذكور**، ج. ١، ص ص. ٢٥٩-٢٦٠.

(٦) انظر عن تطورات هذه الحوادث: رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ١، ص ص. ٤٣٧-٤٣٨.

(٧) انظر عن هذه الموقعة ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٣٠٠. ويرد اسم بوهمند لديه برسم "بيملد".

(٨) انظر اللقاء وما أسفر عنه: رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ١، ص. ٤٦٠.

(٩) **نفسه**، م. ٢، ص. ١٥٥.

(١٠) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٢٩. وانظر كذلك شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** (حيدر أباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥١)، القسم الأول من الجزء الثامن، ص. ٤، هنا فيما بعد: سبط ابن الجوزي (الدكن). وأيضا: أبو الفداء، م. ٢، ص. ٣٤.

(١١) ابن عساكر، **المصدر المذكور**، م. ٥، ص. ٢٥٠؛ كذلك ابن خلكان، **المصدر المذكور**، م. ١، ص. ٢٩٦.

(١٢) انظر هذه التطورات لدى: ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٣٣-٢٣٥، ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص ص. ٣٧٥-٣٧٦؛ ابن عساكر، **المصدر المذكور**، م. ٢، ص. ٣٦٨؛ سبط ابن الجوزي (الدكن)، **المصدر المذكور**، ص. ١١.

(١٣) توسعنا في سيرة طغتكين وفي تاريخ الدولة التي أنشأها في كتابنا: **طغتكين أتابك دمشق ٤٨٨-٥٢٢هـ/ ١٠٩٥-١١٢٨م: صفحة من تاريخ الصراع مع الفرنج** (عمان: منشورات عمادة البحث العلمي بجامعة البترا، ٢٠٠٣).

(١٤) ابن كثير، **المصدر المذكور**، م. ٦، ص. ٧٠٤.

(١٥) انظر أخبار هذه المواجهة كما جاءت في المصادر العربية لدى: ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٤٠-٢٤١؛ ابن الأثير. م. ١٠، ص ص. ٣٩٤-٢٩٥. وقد بالغت المصادر الفرنجية في الحديث عن الانتصار الذي حققه الفرنج في هذه المعركة،

انظر في ذلك: فوشيه الشارتري، **المرجع المذكور**، ص ص. ١٣٥-١٣٩؛ وليم الصوري، **المرجع المذكور**، ص. ٣٦٤.

(١٦) انظر تفاصيل المعركة لدى: رنسيمان، **المرجع المذكور**، ج. ٢، ص. ١٥٥؛ عاشور، **المرجع المذكور**، ج. ١، ص. ٣٠٦.

(١٧) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٤١.

(١٨) التفاصيل لدى: سبط ابن الجوزي (الذكن)، **المصدر المذكور**، ص. ٢٥؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٤٦٧؛ ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٥٨-٢٥٩؛ رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ١٥٦؛ عاشور، **المرجع المذكور**، ج. ١، ص ص. ٣٠٧-٣٠٨.

(١٩) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٦٣.

(٢٠) عاشور، **المرجع المذكور**، ج. ١، ص. ٣٠٨.

(٢١) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٦٣.

(٢٢) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٤٦٧.

(٢٣) رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٨٢.

(٢٤) من المصادر العربية التي تحدثت عن المواجهات في صور: ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٨٤-٢٨٨؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص ص. ٤٨٨؛ سبط ابن الجوزي (الذكن)، **المصدر المذكور**، ص ص.٣٨-٣٩. ومن المصادر الفرنجية: فوشيه الشارتري، **المرجع المذكور**، ص. ١٥٠؛ ووليم الصوري، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٣٩٨.

(٢٥) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص ص. ٢٩١-٢٩٣.

(٢٦) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٤٩٥.

(٢٧) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٩٣.

(٢٨) **نفسه**، ص ص. ٢٩٣-٢٩٤.

(٢٩) لتحديد موقع الأقحوانة، انظر: ياقوت الحموي، **المصدر المذكور**، م. ١، ص. ٢٣٤.

(٣٠) لتحديد موقع الصنبرة، انظر: ياقوت، **المصدر المذكور**، م. ٣، ص. ٤٢٥. وقد ضبطها بصاد مكسورة ونون ساكنة وباء مفتوحة.

(٣١) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار** (مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، ١٩٣٠، طبعة مصورة: بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٨١)، ص. ١٤٧.

(٣٢) وصف هذه المعركة وما تبعها من مواجهات، كما تأتي في المتن أعلاه، لدى كل من: ابن القلانسي، المصدر المذكور، ص ص. ٢٩٤-٢٩٦؛ أبو الفداء، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ١٤٦؛ سبط ابن الجوزي (الدكن)، **المصدر المذكور**، ص. ١٤١؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص ص. ٤٩٥-٤٩٦.

(٣٣) فوشيه الشارتري، **المرجع المذكور**، ص ص. ١٥٢-١٥٣.

(٣٤) **نفسه**، ص. ١٥٢.

(٣٥) وليم الصوري، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص ص. ٣٠٠-٣٠١.

(٣٦) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٢٩٧.

(٣٧) **نفسه**، ص. ٣٠٣.

(٣٨) سبط ابن الجوزي (الدكن)، **المصدر المذكور**، ص. ٤٥.

(٣٩) ابن القلانسي، **المصدر المذكور**، ص. ٣٠٣.

(٤٠) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٥٤٣.

(٤١) رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٢٣٣.

(٤٢) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص ص. ٥٥٥-٥٥٦؛ ورنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٢٣٤.

(٤٣) وليم الصوري، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص ص. ٣٦١-٣٦٢؛ فوشيه الشارتري، **المرجع المذكور**، ص ص. ١٩٠-١٩١.

(٤٤) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٠، ص. ٥٩٤.

(٤٥) سبط ابن الجوزي (الدكن)، **المصدر المذكور**، ص. ٩٨.

(٤٦) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١، ص. ٣٠٤؛ رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٥٩٩.

(٤٧) عن مواجهات هذا العام انظر: ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م.١١، ص ص. ٤٥٥-٤٥٨؛ عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، تحقيق فالح حسين (عمان، ١٩٨٧)، ج. ٣، ص. ١٧٠

(٤٨) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١، ص. ٤٧٩.

(٤٩) الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧)، ج. ١٢، ص ص.٢١٠-٢١١،؛ ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١، ص. ٤٨١؛ رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص ص. ٧٠٧-٧٠٩.

(٥٠) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١، ص. ٥٢٧.

(٥١) [أبو شامة] شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي الشافعي، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** (بيروت: دار الجيل، دت)، ج. ٢، ص. ٧٥.

(٥٢) من المصادر العربية التي تحدثت عن هذه الموقعة: ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١، ص ص. ٥٣٠-٥٣١؛ أبو شامة، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص ص. ٧٥-٧٦. وبالنسبة للمصادر الفرنجية، وهي تتفق مع المصادر العربية في التفصيل، ينظر: رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص ص. ٧٣١-٧٣٢.

(٥٣) ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمـــال الـــدين الـــشيال (القاهرة١٩٦٤)، ص. ٧٦.

(٥٤) رنسيمان، **المرجع المكذور**، ص ص. ٧٣٥-٧٣٦.

(٥٥) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١١ن ص. ٥٣٣؛ رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٢، ص. ٧٣٢.

(٥٦) أبو شامة، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٧٧؛ ابن الأثير، **المصدر المـــذكور**، م. ١١، ٥٣٥.

(٥٧) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٢، ص. ٣٢٩.

(٥٨) رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٣، ص ص. ٣٠٠-٣٠١، ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٢، ص. ٣٣٠.

(٥٩) ابن الأثير، **المصدر المذكور**، م. ١٢، ص ص. ٤٨٢-٤٨٣؛ رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٣، ص ص. ٣٣٠-٣٣١.

(٦٠) أبو الفداء إسماعيل بن علي، **تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر**، تحقيق محمود ديوب (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ج. ٢، ص. ٢٧٣؛ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تعليق محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ج. ٦، ص. ٢٨٣.

(٦١) الحافظ ابن كثير، **البداية والنهاية**، الطبعة الثانية (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧)، ج. ١٣، ص. ١٥٥؛ ابن تغري بردي، **المصدر المذكور**، ج. ٦، ص. ٢٨٣.

(٦٢) ابن تغري بردي، **المصدر المذكور**، ج. ٦، ص. ٣٢٢. أبو الفدا، **المصدر المذكور**، ج. ٢، ص. ٢٧٧.

(٦٣) سبط ابن الجوزي، **المصدر المذكور**، ص. ٧٤٥.

(٦٤) رنسيمان، **المرجع المذكور**، م. ٣، ص. ٣٩٤.

(٦٥) أبو الفداء، المصدر المذكور، ج. ٢، ص. ٢٧٦.

(٦٦) رنسيمان، المرجع المذكور، م. ٣، ص. ٣٩٦.

(٦٧) ابن كثير، المصدر المذكور، ج. ١٣، ص. ١٦٥؛ سبط ابن الجوزي، المصدر المذكور، ص. ٧٤٦.

(٦٨) ابن تغري بردي، المصدر المذكور، ج. ٦، ص. ٢٨٦.

(٦٩) سبط ابن الجوزي، المصدر المذكور، ص. ٧٤٧.

(٧٠) أبو الفداء، المصدر المذكور، ج. ٢، ص. ٢٧٨؛ سبط ابن الجوزي، المصدر المذكور، ص. ٧٥٢.

(٧١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (نسخة الوراق الألكترونية)، ص. ٨٤.

(٧٢) إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م (منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/ الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، ١٩٩٨)، ص. ٢٣٧ ومصدره هناك.

(٧٣) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧)، ج. ٤، ص ص. ٢٢٣-٢٤٧.

(٧٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥)، ص. ١٩٨.

(٧٥) ابن شداد، المصدر المذكور، ص. ٨٥.

(٧٦) رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه محمد عبد المنعم العريان (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٧)، ص. ٨٠.

(٧٧) القلقشندي، المصدر المذكور، ج. ٤، ص. ٨٦.

(٧٨) أورد النص نقلا عن كتاب شيخ الربوة الموسوم **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**: عبد الرحمن حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب**، الطبعة الثانية (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٠)، ص ص. ٤١٩-٤٢٠.

الفصل الرابع

طبرية
في العهد العثماني

(١)
سجل تاريخي

كانت معركة مرج دابق قرب حلب (٢٣ آب ١٥١٦) التي انتصر فيها العثمانيون بقيادة السلطان سليم على المماليك نقطة تحول رئيسية في تاريخ البلاد العربية، إذ حلت السلطة العثمانية فيها، ولمدى أربعة قرون لاحقة، محل السلطة المملوكية التي كانت قد امتد أجلها حتى ذلك على مدى قرنين ونصف قرن من الزمان. وما نحن معنيون به هنا، ضمن موضوع هذا الكتاب، هو وضع طبرية في إطار هذه السلطة الجديدة من الناحيتين الإدارية والسياسية. وسوف نعرض لهذا الوضع ضمن عدد من الفقرات في إطار تاريخي يتسلسل منذ بدء السيطرة العثمانية وينتهي باحتلال بريطانيا لفلسطين في الحرب العالمية الأولى.

طبرية في التقسيمات الإدارية الأولى

عندما فتح السلطان سليم بلاد الشام (١٥١٦) أبقى التقسيمات الإدارية فيها كما كانت في زمن المماليك (ست وحدات إدارية تعرف الواحدة منها بالنيابة: نيابة الشام ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماة ونيابة الكرك ونيابة صفد). وكانت طبرية تقع ضمن نيابة صفد. وقد عين السلطان جان بردي الغزالي الذي كان نائبا على حماة في عهد المماليك وتخلى عنهم وانتقل إلى صفوف العثمانيين، واليا على دمشق[١].

غير أن هذا الترتيب لم يستمر طويلا، فقد أعيد النظر فيه بعد القضاء على تمرد جان بردي الغزالي إثر وفاة السلطان سليم (٢٢ أيلول ١٥٢٠)، إذ أعلن الغزالي نفسه سلطانا في دمشق متحديا

السلطة العثمانية، ما جعل السلطان سليمان الملقب بالقانوني، خليفة السلطان سليم، يعيد التشكيلات الإدارية في بلاد الشام بما يضمن سيطرة السلطة المركزية عليها. وبموجب ذلك قسمت بلاد الشام إلى ثلاث إيالات أو ولايات هي ولاية دمشق (وتضم عشرة ألوية أو سناجق)، وولاية حلب (وشملت تسعة ألوية)، وولاية طرابلس (وتشمل خمسة ألوية)[٢]. وبموجب هذا التقسيم اشتملت ولاية دمشق على لواء صفد (سنجق صفد)،[٣] وكانت طبرية ضمن هذا السنجق أو اللواء.

وقد بقي هذا التنظيم قائما إلى عام ١٦٦٠ عندما سلخ سنجق صفد وسنجق صيدا (مع بيروت) عن ولاية دمشق وتأسست منهما ولاية رابعة، في بلاد الشام، هي ولاية صيدا[٤]. وبذلك دخلت طبرية ضمن هذه الولاية الجديدة. وقد بقي هذا التقسيم قائما، مع تعديلات شملت إضافة سناجق إلى بعض الولايات، أو سلخها عنها إلى أن كان الاحتلال المصري لبلاد الشام (١٨٣١). وهو ما نعرض له في فقرة لاحقة.

الأمير منصور بن فريخ

اعتمد العثمانيون، بعد احتلالهم بلاد الشام، على بعض الزعامات المحلية (العائلية) التي كان لها نفوذ وسلطة في مناطق معينة لضمان سيطرتهم على المناطق التي دخلت تحت حكمهم. ومن هذه الزعامات آل فريخ الذين كان لهم نفوذ واسع في منطقة البقاع في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وقد عزز العثمانيون من نفوذ هذه الأسرة واستعانوا بها لتثبيت سلطتهم على المنطقة. وقد اشتهر منهم الأمير منصور بن فريخ الذي حكم البقاع، ثم ما لبث أن

مد سلطته على سناجق صفد (بما فيها مدينة طبرية) وعجلون ونابلس. وقد وطد الأمير منصور الأمن في المناطق التي تحت سلطته، فاعترف به العثمانيون أميرا عليها وملتزما لأموالها الأميرية (جباية الضرائب المستحقة عليها لمصلحة خزينة السلطة العثمانية). كما نال تكريما من السلطنة بأن عين أميرا على قافلة الحج الشامي في سنة ١٥٩٠. إلا إن ولاة الشام من العثمانيين خشوا من ازدياد قوة الأمير منصور، فحاولوا التخلص منه، وتم لهم ذلك في كانون الأول ١٥٩٣، وتتبعوا أفراد أسرته، وقضوا عليهم[٥].

تأجير طبرية لليهود

أصدر السلطان العثماني سليمان (المعروف بسليمان القانوني) فرمانا في العام ١٥٦١ بتأجير طبرية لجوزيف ناسي، وهويهودي ثري من أصل برتغالي كان قد التجأ للسلطنة العثمانية واكتسب جنسيتها وأقام صلات وثيقة مع السلطة الحاكمة، بهدف تحويل المدينة إلى مستوطنة يهودية تستقطب إليها اليهود المضطهدين في أوروبا. وقد أنفق يوسف ناسي الأموال لتحقيق هذا الغرض الذي قوبل بمقاومة من جانب سكان المدينة والمنطقة. وقد فشل المشروع، نتيجة عوامل شتى، إلا أنه تم أحياؤه من جديد في عهد السلطان العثماني محمد الثالث (حكم من ١٥٩٥ إلى ١٦٠٣) على يد يهودي آخر من اليهود المهجرين من البرتغال والملتجئين للدولة العثمانية، هو سلومون أبيناس. إلا إن المشروع أصابه الفشل مرة أخرى ولم ير النور. وقد خصصنا في هذا الفصل أدناه صفحات لاستعراض المشروعين بالتفصيل.

ظاهر العمر الزيداني

ظاهر العمر الزيداني شيخ عربي بدأ نجمه يلمع حوالي سنة ١٧٠٣ وتمكن من أن يؤسس إمارة عربية في الجليل تمتعت بنوع من الاستقلال عن السلطة العثمانية، إلى ان تمكن العثمانيون من القضاء عليه سنة ١٧٧٥. وقد اتخذ الشيخ ظاهر مدينة طبرية عاصمة لإمارته على مدى واحد وعشرين عاما (١٧٢٥ إلى ١٧٤٦) قبل أن ينقل مركز حكمه إلى عكا ويستمر فيها إلى مقتله. ازدهرت طبرية تحت حكم الشيخ ظاهر وشهدت نهضة عمرانية مميزة. وسوف نعرض بتفصيل لهذه الإمارة التي أسسها الشيخ ظاهر في جزء آخر من هذا الفصل.

أحمد باشا الجزار

أحمد باشا الجزار من أصل بوشناقي، التجأ إلى اسطنبول في مطلع حياته لكي ينجو من انتقام أسرته بعد أن اعتدى على زوجة أخيه. وهناك باع نفسه من أحد تجار الرقيق الذي انتقل به إلى مصر ليدخل في خدمة أحد بكواتها من المماليك[٦]. وقد ارتقت به الأحوال بعد ذلك، وخدم غير سيد إلى أن عينه السلطان العثماني بعد القضاء على الشيخ ظاهر العمر حاكما على عكا (كانون الأول ١٧٧٠)، ثم ما لبث أن عين واليا على إيالة صيدا، واعطي رتبة وزير (آذار ١٧٧٦)[٧]. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت عكا معقله المفضل إذ كان يقضي فيها عشرة أشهر من العام بينما يمضي المدة الباقية في صيدا التي كانت هي مركز الولاية.

دخلت طبرية إذن منذ ذاك تحت حكم الجزار بحكم تبعيتها لولاية صيدا. وفي مطلع حكمه لاحق أبناء الشيخ ظاهر العمر، الذين

اعتصم بعضهم بعد وفاة والدهم في طبرية وتمكن من القضاء عليهم (انظر ادناه في القسم المخصص للشيخ ظاهر من هذا الفصل). وقد عين الجزار غير مرة واليا على الشام دون أن يتخلى عن ولايته على صيدا، واستمر في الحكم إلى وفاته سنة ١٨٠٤. وقد تعرضت المناطق التي تحت حكمه إلى كثير من ظلمه وبطشه واشتهر باهتمامه بجمع المال وابتزازه، كما شهدت انحطاطا في حركة التجارة. ويمكن توقع أن يكون كل ذلك قد انسحب على طبرية نفسها، مثلها مثل باقي المناطق التي كان يحكمها.

الاحتلال الفرنسي لطبرية ـ نيسان ١٧٩٩

شهدت فترة ولاية أحمد باشا الجزار على صيدا الحملة العسكرية الفرنسية على مصر والشام بقيادة نابليون بونابرت. فقد هبطت القوات الفرنسية في الإسكندرية في اليوم الأول من تموز ١٧٩٨، وبعد شهر من هذا التاريخ تقريبا تصدت قوات إنجليزية بحرية بقيادة نيلسون للأسطول الذي حمل نابليون من فرنسا وحطمه كاملا في معركة أبوقير البحرية المشهورة مما جعل القوات الفرنسية في مصر، وكان عديدها نحوا من ٣٠ ألفا، تفقد اتصالها مع فرنسا. وعلى الرغم من هذا قرر نابليون المضي في حملته على الشرق متجها إلى بلاد الشام. وقد أدركت الدولة العثمانية نوايا القائد الفرنسي فاتجهت إلى تعزيز إدارتها في الشام بأن وسعت من نفوذ أحمد باشا الجزار فعُهد إليه بحكم طرابلس ويافا وغزة، كما ولي على دمشق بالإضافة إلى وظيفته في ولاية صيدا[٨].

بدأت حملة نابليون على الشام باحتلال العريش (شباط ١٧٩٩)، ووصلت إلى غزة (٢٥ شباط ١٧٩٩)، وبعدها أسدود (١

آذار)، ومنها إلى يبنة فالرملة، فيافا (٦ آذار)، ووصلت إلى حيفا (١٦ آذار)، واتجهت منها إلى حصار عكا بدءا من ١٨ آذار.

في أثناء حصار عكا، أرسل نابليون جزءا من جيشه إلى الجليل برئاسة عدد من قادته كان أشهرهم الجنرال كليبر، وكان ذلك ليمنع وصول نجدات عثمانية من دمشق إلى عكا. وقد وسعت القوات الفرنسية عملها في الجليل ودارت معارك كبيرة عند كل من صفد، التي احتلها الفرنسيون، وقرية الفولة في مرج ابن عامر، كما ارتكبت مجازر وأعمال نهب واسعة في هذه المناطق. وعلى الرغم من ذلك فقد تحرج موقف كليبر إزاء تكاثر أعداد القوات العثمانية، وكاد يهزم في أثناء وجود قواته عند جبل طابور (الطور)، فقرر نابليون أن يتدخل مباشرة في القتال، فتوجه بنفسه إلى ميدان المعركة على رأس تعزيزات عسكرية إضافية، فتمكن من التغلب على القوات العثمانية، التي قدرت خسائرها في المعركة بنحو ثلاثة آلاف مقاتل، بينما كانت خسائر نابليون نحوا من ثلاث مئة مقاتل بين قتيل وجريح، وكان هذا النصر يعود إلى تفوق المدفعية الفرنسية. وبعد هذه الموقعة توجهت القوات الفرنسية إلى طبرية فاحتلتها في ١٨ نيسان ١٧٩٩.

وبخلاف ما حققته القوات الفرنسية في الجليل، فقد عجزت عن اقتحام أسوار عكا التي كانت قد تحصن خلفها أحمد باشا الجزار، وكانت تتلقى المعونة والمساندة من الأسطول الإنجليزي بقيادة سدني سميث. وقد طال حصار عكا نحوا من شهرين، تكبد الفرنسيون في أثنائه خسائر لا يستهان بها، كما أخذ الطاعون والأمراض السارية تنتشر بينهم بقوة. وهذا ما أصاب نابليون باليأس من تنفيذ مشروعه في السيطرة على بلاد الشام، فبدأ بالانسحاب منها.

وفيما يتصل الأمر بطبرية فقد طلب نابليون من الحامية الفرنسية المرابطة على نهر الأردن أن تتلف أسلحتها الثقيلة في طبرية وتنسحب لملاقاة باقي الحملة في الطريق بين عكا ويافا. وقد اكتمل انسحاب نابليون بوصوله إلى القاهرة في ١٠ حزيران ١٧٩٩. ولم يمكث هناك إلا أقل من شهرين ونصف الشهر إذا غادرها سرا إلى فرنسا (٢٢ آب ١٧٩٩) تاركا خلفه الجنرال كليبر ليتدبر أمر القوات الفرنسية في مصر. إلا إن شابا من حلب (سليمان الحلبي) فاجأه في مقر القيادة الفرنسية في القاهرة (١٤ حزيران ١٨٠٠) بتوجيه طعنة من خنجر مسموم أردته قتيلا، ليكون ذلك بداية النهاية للوجود العسكري الفرنسي في مصر التي أعادت الدولة العثمانية سلطتها عليه في العام ١٨٠١.

تحت الحكم المصري/ محمد علي باشا

محمد علي ألباني قدم مع الفرقة الألبانية، ضمن الجيش العثماني المكلف بإخراج الفرنسيين من مصر (١٨٠١). وخلال الأربع سنوات اللاحقة التي أعقبت خروج الفرنسيين، وقعت مصر في فوضى شاملة نتيجة صراع المتنفذين فيها على السلطة. وفي هذا الصراع ظهرت قوة محمد علي وكفاءته، ما جعل العلماء، في العام ١٨٠٥، يطلبون منه أن يتسلم الحكم في مصر. وخلال السنوات اللاحقة وطد محمد علي باشا سلطته، وأعاد بناء الدولة على أسس جديدة شملت الجوانب المالية والاقتصادية والإدارية والعسكرية، كما أدخل إصلاحات جذرية على أنظمة التعليم، ما شكل بداية عملية لنهضة حضارية شاملة.

وسع محمد علي باشا من إطار الدولة التي أنشأها في مصر فضم إليها السودان، كما أغرته حالة الاضطرابات السياسية التي كانت تعصف بالشام[9]، بالاستيلاء عليها عنوة بعد أن كان قد فشل في الحصول عليها من خلال مفاوضاته مع السلطنة العثمانية. وهكذا أوكل لابنه إبراهيم باشا قيادة الجيوش المصرية التي اتجهت إلى بلاد الشام، فأخذت خان يونس فغزة في أواخر تشرين الأول ١٨٣١، ومن هناك اتجهت إلى يافا فاحتلتها، كما أخذ إبراهيم باشا حيفا دون قتال، ثم سارت قواته باتجاه عكا وفرضت عليها حصارا استمر ستة أشهر، وخلال ذلك أرسل إبراهيم باشا بعض قواته إلى القدس فدخلتها في كانون الأول ١٨٣١، كذلك وسع من مناطق سيطرته فاحتل المناطق المجاورة لعكا حتى صيدا. واخيرا سقطت مدينة عكا بيد قوات إبراهيم باشا في أيار ١٨٣٢.

بسقوط عكا أمنت القوات المصرية خلفيتها، فاتجه إبراهيم باشا على رأس قواته صوب دمشق التي دخلها في ١٦ حزيران ١٨٣٢. واستمر إبراهيم باشا في زحفه نحو الشمال فأخذ حمص وبعدها حلب حتى دخل الأناضول وأصبحت الطريق أمامه مفتوحة إلى اسطنبول. عند هذا المفصل، تدخلت روسيا لدعم العثمانيين، مما أخاف بريطانيا وفرنسا فضغطتا على السلطان ومحمد علي باشا لوقف الحرب، وكانت النتيجة توقيع معاهدة كوتاهية بين الطرفين (١٨٣٣) التي انسحبت بموجبها قوات إبراهيم باشا إلى جبال طوروس، وأعطي محمد علي باشا حكم بلاد الشام مقابل ضريبة سنوية يدفعها للسلطنة العثمانية إقرارا منه بالسيادة العثمانية على المنطقة. وقد دام الحكم المصري لبلاد الشام إلى سنة ١٨٤١ عندما اضطر محمد علي باشا إلى الانسحاب منها نتيجة ضغط عسكري

شارك فيه العثمانيون والدول الأوروبية (بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا) التي ساءها استفراد الباشا المصري بحكم الشام مما يعيق تدخلاتها هناك في ظل الوهن الذي كان قد دب في أوصال الدولة العثمانية.

في ظل الحكم المصري لبلاد الشام، يمكن الإشارة إلى الأمور التالية في تاريخ طبرية:

ـ لم تتعرض المدينة لأية أضرار مادية في أثناء زحف إبراهيم باشا من عكا بعد احتلالها صوب دمشق، إذ مرت قولته من شمالها فعبرت نهر الأردن من على جسر بنات يعقوب بين بحيرة طبرية وبحيرة الحولة[١٠].

ـ ألغى إبراهيم باشا التقسيمات الإدارية التي سادت في بلاد الشام في العهد العثماني وأعاد تقسيمها إلى أربع وحدات إدارية هي دمشق وحلب وطرابلس وصيدا[١١]، وكانت طبرية تتبع ادارة صيدا. وقد طرأت بعد ذلك تغييرات مختلفة شملت هذه التقسيمات، وكانت بلاد الشام في أواخر العهد المصري مقسمة إلى الإيالات التالية: الشام، حلب، طرابلس الشام، يافا، أدنة، وصيدا[١٢]، وبقيت طبرية أيضا تتبع إيالة صيدا.

ـ شهدت مدن فلسطين سنة ١٨٣٤ ثورات متزامنة على الحكم المصري تراوحت اسبابها بين رفض فرض ضرائب غير معروفة سابقا على السكان، وقرارات السلطة جمع الأسلحة من أيدي المدنيين، وقرارات التجنيد التي فرضت على الأهلين. وقد شملت الثورة، بالإضافة إلى القدس ونابلس والخليل وصفد، طبرية التي سيطر الثوار عليها[١٣]. وقد فشل إبراهيم باشا في القضاء على هذه

الثورات ما جعل محمد علي باشا يقوم بنفسه بإمداد ابنه على رأس قوة بلغت خمسة عشر ألف مقاتل، تمكن بها من القضاء عليها وإعادة الأمن إلى المنطقة.

ـ نالت طبرية نصيبا من حركة الإعمار التي شهدتها بلاد الشام تحت الحكم المصري، وكان من ذلك ترميم أسوارها التي كانت قد تشعثت خلال حرب القضاء على الشيخ ظاهر العمر، وتجديد بناء حاماتها المعدنية.

ـ على الرغم من ذلك أصيبت حركة الإعمار في طبرية بكارثة رهيبة عندما تعرضت لزلزال مدمر، سنة ١٨٣٧، حصد ما لا يقل عن خمس مئة شخص من سكانها، ودمر معظم منازلها، وهدم أجزاء كبيرة من سورها.

ـ عندما تقدمت الجيوش العثمانية لاستخلاص بلاد الشام من حكم محمد علي باشا، وبعد أن تمكنت من أخذ عكا بمساعدة الأساطيل الأوروبية التي سببت مدافعها أضرارا بالغة في المدينة وسكانها، أخذت الزعامات المحلية في كثير من المدن الفلسطينية تعلن ولاءها للسلطة العثمانية حتى قبل أن تصلها جيوشها. وقد سارع بعض هؤلاء الزعماء إلى فرض سلطتهم على هذه المدن، ومنهم الشيخ سعيد عبد العال الذي احتل طبرية باسم السلطان ، بالإضافة إلى الناصرة وصفد، ثم تمركز مع قوات حشدها من السكان المحليين عند جسر بنات يعقوب على نهر الأردن بين بحيرة طبرية وبحيرة الحولة[١٤]. وقد استمر الوضع كذلك إلى أن تمكن الجيش العثماني من دخول المدن الثلاث لفرض سيطرته عليها.

(٢)
طبرية في التقسيمات الإدارية
حتى الحرب العالمية الأولى

أعادت السلطة العثمانية بعد أن استعادت الشام من حكم محمد علي باشا التقسيمات الإدارية إليها كما كانت قبل ذلك. غير أنه خلال السنوات اللاحقة أجرى العثمانيون تعديلات عديدة على هذه التقسيمات بضم أجزاء من ولاية إلى أخرى، أو استحداث ولايات جديدة وإلغاء بعضها. وفي جميع هذه التغيرات ظلت طبرية تتبع ولاية صيدا. غير إنه طرأت تعديلات جذرية على هذه التقسيمات عندما أنشأ العثمانيون في العام ١٨٨٧ ولاية جديدة في بلاد الشام باسم ولاية بيروت ضمت خمسة ألوية (كان بعضها يتبع قبل ولاية الشام) هي: لواء بيروت، لواء عكا، لواء طرابلس الشام، لواء اللاذقية، ولواء البلقاء[١٥]. وفي هذا التقسيم كانت طبرية من ضمن لواء عكا الذي يتبع ولاية بيروت. وقد استمر الوضع كذلك، مع تعديلات طفيفة، إلى نهاية العهد العثماني في الحرب العالمية الأولى.

(٣)
سليمان القانوني يؤجر المدينة لليهود[١٦]

بعد نحو من خمس وأربعين سنة من دخول طبرية في حوزة السلطنة العثمانية (باستيلاء السلطان سليم الأول على الشام ومصر في العام ١٥١٦) وقعت المدينة فريسة بيد متمول يهودي استصدر من السلطان سليمان المعروف بالقانوني فرمانا بتأجيره طبرية بغرض إنشاء مستوطنة يهودية فيها. عرف هذا المتمول باسمه

اليهودي جوزيف ناسي Joseph Nassi، غير إنه قبل أن يحمل هذا الاسم عرف باسم جون ميجويز Joao Miguez منذ ولادته في البرتغال في تاريخ لم يجر التأكد منه في الربع الأول من القرن السادس عشر. وينتمي هذا الرجل إلى من عرفوا في التاريخ الأوروبي باسم المرانوز Marranos وهم يهود تنصروا، فعلا أو تظاهرا، بعد أن سقطت شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) بيد الملوك المسيحيين، وما نجم عن ذلك من قيام حملات اضطهاد عنيفة ضد اليهود (والمسلمين كذلك، وإن كانوا هنا ليسوا محل بحثنا) توجت بمحاكم التفتيش الرهيبة سيئة الصيت.

نشأ جوزيف يتيما فرعته عمته التي عرفت باسمين: بياتريس دي لونا Beatrice de Luna وجراسيا منديس Gracia Mendes، وفق ما تقلبت بها الأحوال من التظاهر بالمسيحية أو العودة إلى إشهار اليهودية. وكانت جراسيا قد ورثت ثروة طائلة من زوجها المنتمي إلى أسرة منديس الثرية، فاستقطبت جوزيف ابن أخيها الشاب ليعمل معها في التجارة. وقد توسعت تجارة جراسيا لتشمل مناطق مختلفة في أوروبا، غير إن الاضطهاد الذي تعرض له المرانوز في البرتغال أجبرها على الهجرة إلى أنتورب في بلجيكا لتتضخم فيها ثروتها التي جاءتها عن طريق المتاجرة بالماس، والأحجار الكريمة عموما، والتوابل والأعمال المصرفية. وفي عام ١٥٤٧ لحق جوزيف بعمته في أنتورب واندمج في أعمالها. ولم تمض غير سنوات قليلة بعد ذلك حتى أصبح احد أكبر رجال المال في أوروبا.

في أثناء ذلك غادرت جراسيا أنتورب إلى البندقية (سنة ١٥٤٥)، غير إنها بوشاية من إحدى قريباتها التي كشفت لسلطات البندقية عن يهودية جراسيا وأن مسيحيتها كانت زائفة، اعتقلت

جراسيا هناك وصودرت أموالها. وقد استمرت رهينة الاعتقال مدة سنتين إلى أن تدخل السلطان العثماني سليمان القانوني، بتأثير من طبيبه اليهودي موسى هامون الذي كان على علاقة وثيقة بأسرة جراسيا، فأطلق سراحها وأعيدت لها ممتلكاتها.

كانت تلك نقطة تحول في حياة جراسيا، ومن ثم في حياة جوزيف ابن أخيها. فقد غادرت البندقية متجهة إلى استانبول حيث كان اليهود المضطهدون في أوروبا يجدون لهم في الدولة العثمانية الملاذ الآمن. وهناك كشفت جراسيا عن يهوديتها. وبعد سنوات (في عام ١٥٥٤) لحق جوزيف بعمته في استانبول حيث اختتن وأعلن يهوديته وتخلى عن اسمه الذي اشتهر به (جون ميجويز)، ليعرف منذ ذاك بجوزيف ناسي (أو كما عرفه العثمانيون باسم يوسف ناسي)، وتزوج من رينا Reyna ابنة عمته جراسيا ووارثتها الوحيدة.

ومنذ وصوله إلى استانبول وثق جوزيف علاقته بقصر السلطان، في البداية عن طريق الطبيب اليهودي موسى هامون، ومن ثم بإقناع السلطان وحاشيته بأهميته المالية الكبرى وشبكة علاقاته المالية المتشعبة في أوروبا التي سيستفيد منها السلطان نفسه والسلطنة العثمانية عموما. كذلك نجح في إقامة علاقة وثيقة بالصدر الأعظم رستم باشا الذي كان زوج مهري ماه بنت السلطان سليمان من زوجته المفضلة روكسلانة، التي عرفت باسم خرّم، والتي كانت ذات تأثير كبير على السلطان نفسه. ولم يكتف بذلك بل زج نفسه في الصراع على وراثة العرش بين ابني السلطان سليمان: بايزيد وسليم (الذي ورث فيما بعد السلطنة عن أبيه سليمان)، متخذا جانب الثاني الذي ما إن انتصر على أخيه في معركة قونية (١٥٦١) حتى أصبح جوزيف أحد أقرب الرجال إليه.

من خلال هـذه العلاقـات المتـشعبة والمنـافع الماليـة الواسـعة استصدر جوزيف في العام ١٥٦١ فرمانا من الـسلطان سـليمان بانتدابـه سيدا على طبرية وتأجيره المدينة، بالإضافة إلـى سـبع قـرى تقـع فـي منطقتها، بهدف توطين اليهود فيها، وذلـك مقابـل ألـف دوقيـة (ducat عملة كانت شائعة آنذاك في التجارة العالميـة وكانـت تـزن نحـوا مـن ٣,٥ غرام من الـذهب) يـدفعها جوزيـف للـسلطان سـنويا. وبجانـب السلطان سليمان نفسه، وقع الفرمان كل من ولديه سـليم ومـراد ليـضمن بذلك تنفيذ القرار حتى بعد موته. متسلحا بهذا الفرمـان، شـرع جوزيـف ناسي في تنفيذ مشروعه، فأرسل إلى طبريـة أحـد ثقاتـه جوزيـف بـن أدرت Joseph ibn Adret وكلفـه بإعـادة بنـاء المدينـة وإقامـة أسـوار حولها، وزوده بالمال الكافي لذلك وقد تبرعت به عمته جراسيا.

أثار المشروع مخاوف سكان فلـسطين مـن غيـر اليهـود، فقـد قدم المسيحيون الفلسطينيون شكوى إلـى البـاب العـالي قـالوا فيهـا "إن الغرض من هذا المشروع هو جعل طبريـة مملـوءة بالأفـاعي الخبيثـة التي هي أكثر خبثا من تلك التي تـسكن الخرائـب. وإن هـؤلاء [اليهـود] يريدون أن يحولوا الكنيسة إلى كنيس". وقد حمـل هـذه الـشكوى ممثـل عنهم إلى الباب العالي، ولكنه لم يتمكن من مقابلـة الـسلطان، بـل قابـل الصدر الأعظم، غير إن ذلك لم يؤثر على سير المشروع.

كذلك أبدى سكان منطقة طبريـة معارضـة شـديدة للمـشروع، إذ حذرهم شيوخهم من مغبة وجود مدينـة يهوديـة فـي أوسـاطهم، وقـالوا لهم إن بناء هذه المدينة سوف يؤثر على حياتهم وعقيـدتهم. وقـد تمثلـت المعارضة بقيام العمال مـن الـسكان بالعـصيان والإضـراب، مخـالفين بذلك أوامر الباب العالي. وقد توقف العمل فتـرة، لكـن ممثـل جوزيـف ناسي ذهب إلى والي الـشام وأخبـره بإضـراب العمـال وتـوقفهم عـن

العمل ومخالفتهم لأوامر الباب العالي. وقد وجه الوالي مجموعة من الجند على وجه السرعة إلى المنطقة، وقبضوا على اثنين من شيوخها واعتبروهما محرضين على الإضراب وعاقبوهما بشدة. وقد ذكرت مصادر أنهما أعدما. وعلى إثر ذلك، اضطر العمال إلى الرجوع إلى العمل، إلا إن سكان المنطقة استمروا بمهاجمة موقع البناء بين الحين والآخر. وبسبب ذلك تأخر البناء بعض الوقت.

استكمل بناء سور للمدينة في العام ١٥٦٥، وبذلك اعتبرها أصحاب المشروع أنها أصبحت آمنة لإقامة مشاريع اقتصادية فيها من جهة، ولجلب اليهود للسكنى فيها من جهة اخرى. فمن الجهة الأولى توجه جوزيف ناسي لجعل طبرية مركزا لصناعة المنسوجات الحريرية، وهذا ما دعاه إلى زرع كميات من أشجار التوت فيها ليربي عليها دود القز، مصدر الخيوط الحريرية. أما لجهة جلب اليهود إليها فقد وجه جوزيف نداءات إليهم، خاصة أولئك المقيمين في إيطاليا، يحثهم فيها على القدوم إلى طبرية والسكنى فيها متعهدا أن ينقل القادمين منهم بالسفن التي يملكها. لكن يبدو أن الاستجابة لهذه الدعوات كانت ضئيلة، إذ لا نجد في مصادرنا إلا حالتين سجلتا ما يشبه الهجرة الجماعية لليهود من إيطاليا. الأولى كانت عندما قرر ٢٠٠ يهودي من مدينة كوري Cori في منطقة كامبانيا Campagna أو Campania في جنوب إيطاليا الهجرة بشكل جماعي إلى طبرية، وقد أرسلوا لهذا الغرض موفدا منهم إلى المدن الإيطالية الكبرى لجمع تبرعات من اليهود الأثرياء لتغطية نفقات رحلتهم. غير أننا لا نعرف مصير هؤلاء، إذ يسكت مصدرنا (الموسوعة اليهودية) عن ذلك ولا يخبرنا ما إذ كان هؤلاء قد خرجوا فعلا من إيطاليا، وما إذا كانوا قد وصلوا حقيقة إلى طبرية. الحالة الثانية حدثت في العام

١٩٦٩ عندما خرج ١٠٢ من يهود بيسارو Pesaro على ظهر سفينة من مدينة البندقية في طريقهم إلى طبرية. غير أن هؤلاء كان مصيرهم مأساويا إذ سقطوا بأيدي قراصنة من جزيرة مالطة، فباعهم هؤلاء عبيدا في سوق النخاسة.

وهكذا، لم يحقق مشروع جوزيف ناسي في طبرية أغراضه، إذ لم تستقطب المدينة غير أعداد قليلة من رجال الدين اليهودي. حتى أن صاحب المشروع نفسه لم يسكن طبرية، كما لم تسكنها أيضا عمته، الممولة الرئيسية للمشروع، على الرغم من أنه بني لها بيت كبير في المدينة لتأوي إليه. وفي تقديرنا أن انخراط جوزيف ناسي في الشؤون الأوروبية، بعد أن وضع أساسا للاستيطان اليهودي في طبرية، قد شغله عن مشروعه. فقد أتاحت له ثروته الضخمة وشبكة العلاقات المالية المتشعبة في أوروبا، حتى وصل به الأمر إلى حد إقراض الأموال لبعض ملوكها، أن يقوم بعدد من الأدوار التآمرية في الصراعات البينية في أوروبا، وأيضا التدخل في شؤون بعض أقطارها الداخلية. ويظهر أن طموحه آنذاك كان يتجه نحو تولي حكم منطقة في أوروبا أكثر من أن يكون "سيد طبرية". وقد تجسد هذا الطموح مرة عندما استصدر قرارا من صديقه السلطان سليم الثاني (الذي ورث عرش السلطنة العثمانية عن أبيه سليمان القانوني سنة ١٥٦٦) بتسميته دوقا على جزيرة ناكسوس Naxos وجزر أخرى قريبة منها (من الجزر اليونانية)، وكانت تحت سلطة الدولة العثمانية. وقد أخذ يدير شؤون هذا الأرخبيل من قصره قرب استانبول عن طريق وكيل له هناك من اليونانيين المسيحيين. غير إن طموحه كان أبعد من ذلك، فقد ذكر أنه نال وعدا من السلطان سليم بأن يجعله ملكا على قبرص. ويضاف إلى كل هذا، أن

للصدر الأعظم آنذاك، محمد باشا صقللي، كان ينظر بارتياب إلى مشاريع جوزيف ناسي، وكان يجاهر بمعارضته له، في وقت كان السلطان سليم الثاني مشغولا في قصره بتوب قبي سراي بملذاته الحسية وجواريه وخموره، فليس مستبعدا أن يكون صقللي باشا قد وقف حجر عثرة في وجه تطوير مشروع الاستيطان اليهودي في طبرية.

على كل حال، توفي جوزيف ناسي في العام ١٥٧٩ دون أن يلمس نتائج تذكر لمشروعه في طبرية. غير أن المشروع عاد وجرت محاولة لإحيائه بعد وفاة ناسي، وكان ذلك بواسطة يهودي آخر من المرانوس هو سلومون أبيناس Solomon Abenaes. ولد أبيناس في البرتغال لأسرة يهودية متنصرة سنة ١٥٢٠، حاملا اسم ألفارو منديس Alvaro Mendes تغطية على يهوديته. وفي عام ١٥٨٠ هاجر إلى الدولة العثمانية واستقر في استانبول ليعلن من هناك عودته إلى اليهودية باسم سلومون أبيناس، وكان قد جمع ثروة طائلة من صناعة الماس، أتاحت له أن يتقرب إلى السلطان العثماني مراد الثالث (حكم ١٥٧٤-١٥٩٥) ثم ليوثق علاقته بالسلطان محمد الثالث (حكم ١٥٩٥-١٦٠٣). وقد لعب أبيناس في أثناء ذلك أدوارا على غاية من الأهمية على صعيد علاقات الدولة العثمانية بالدول الأوروبية. منها مثلا أنه كان ينقل إلى السلطان مراد الثالث من خلال شبكة من جواسيسه أخبار الحرب الإنكليزية الإسبانية في عام ١٥٨٨ والتي تمكن الإنجليز في أثنائها من تحطيم الأسطول الإسباني الضخم (المعروف بالأرمادا) في معركة جريفلاينز Gravelines البحرية المشهورة. كذلك قام بدور دبلوماسي مهم في عهد السلطان محمد

الثالث في صياغة معاهدة بين الدولة العثمانية وإنجلترة ضد فليب ملك إسبانيا.

أبيناس هذا هو من تولى إحياء مشروع الاستيطان اليهودي في طبرية الذي كان جوزيف ناسي قد أسس له. وكان ذلك بأن أرسل ابنه إلى طبرية نيابة عنه لتنفيذ المشروع. وقد بادر هذا إلى عقد "صلح" مع سكان المنطقة، الذين كانوا قد رفضوا وجود المهاجرين فيها، يطمئنهم إلى حسن نواياه. كما بنى لنفسه بيتا كبيرا في المدينة يشبه القلعة. إلا إن هذا الصلح لم يدم طويلا، إذ عاد السكان يهاجمون المدينة، حتى أصبح وضعها غير آمن، ولم يكن اليهود قادرين على الخروج منها إلا على شكل جماعات. وبالإضافة إلى ذلك حدثت نزاعات بين اليهود أنفسهم حول ملكية بعض العقارات. وكانت النتيجة أن كثيرا من اليهود أخذوا يغادرون المدينة متجهين إلى مدن فلسطين الأخرى. وقد انتهى المشروع عمليا بوفاة سلومون أبيناس عام ١٦٠٣ وتحول ابنه للدراسة الدينية، ولتطوى بذلك صفحة من تاريخ طبرية في العهد العثماني.

(٤)
ظاهر العمر الزيداني
حاكم طبرية وشيخ الجليل

على مدى يزيد عن خمسين سنة من القرن الثامن عشر الميلادي أقام ظاهر العمر الزيداني إمارة شبه مستقلة عن السلطة العثمانية في مناطق الجليل (شمال فلسطين) متخذا طبرية عاصمة له في البداية قبل أن ينقل عاصمته إلى عكا. وقد مثلت هذه الإمارة، من

خلال حركة الانتعاش الاقتصادي والتطوير العمراني التي شهدتها هذه المنطقة في زمنه، حالة استثنائية في بلاد الشام تحت الحكم العثماني التي كانت تعاني من فساد الولاة العثمانيين واستبدادهم وانتهابهم خيرات البلد. ويخرج عن نطاق ما هو مخطط لهذا الكتاب الدخول في تفصيلات سيرة هذا الأمير، فنكتفي إذن بإيجاز يضع سيرته وأعماله في إطار "صفحة" أخرى من تاريخ طبرية في العهد العثماني.

يعود الزيادنة بأصولهم إلى الحجاز في الجزيرة العربية التي هاجروا منها في النصف الثاني من القرن السابع عشر باتجاه بلاد الشام ليقيموا فترة بين قبيلة بني أسد التي كانت مواقعها حول معرة النعمان بين دمشق وحلب، ثم لينتقل فرع منهم إلى شمال فلسطين ويستقر هناك[١٧]. وهذا الفرع هو الذي عرف بالزيادنة نسبة إلى زيدان الذي كان، كما يبدو، زعيما لهذا الفرع ومنه انحدر الزيادنة. وقد اتخذ الزيادنة سهل البطوف، قرب عرابة، مستقرا لهم في البداية وانخرطوا في النزاعات الداخلية في المنطقة، وخرجوا منها بأن وطدوا نفوذهم فيها، وكان ذلك واضحا في تعيين عمر الزيداني (والد ظاهر) شيخا على عرابة البطوف حوالي سنة ١٦٨٣م[١٨].

ومن عرابة أخذ الزيادنة يمدون نفوذهم إلى قرى البطوف المجاورة، وعهد إليهم من جانب والي صيدا الذي كانت المنطقة تقع ضمن إدارته، بمهمة التزام ضرائب تلك الناحية، بناء على طلب الأهالي. وقد كرس الزيادنة نفوذهم في المنطقة وما يشبه زعامتهم لها بفضل تعاونهم مع الفلاحين وتحالفهم معهم. وقد أثبت الزيادنة إجمالا قدراتهم وجدارتهم في مهماتهم السابقة في نواحي الجليل[١٩]، ما جعل الأمير منصور الشهابي الحاكم في لواء صفد نيابة عن جده

الأمير بشير الشهابي، يعين (في عام ١٧٠٠) الشيخ عمر الزيداني ملتزما بجباية الضرائب في منطقة صفد، كما عهد إليه مهمة التزام الضرائب في طبرية[٢٠]. ولم يعمر الشيخ عمر طويلا بعد تعيينه في هذا المنصب، إذ توفي، على الأغلب في أوخر سنة ١٧٠٣[٢١]، مخلفا أربعة أبناء من الذكور: سعد ويوسف وصالح وظاهر، وهو أصغرهم سنا[٢٢].

ولد ظاهر، حسب أرجح الروايات، في عرابة البطوف سنة ١٦٨٩ لأم بدوية من عرب السردية[٢٣]، وكان عمره عند وفاة والده نحوا من اربعة عشر سنة. وكان حتى وهو في هذه السن المبكرة قد أتقن علوم القرآن وفنون الفروسية[٢٤]. وقد واتته الفرصة للزعامة عندما امتنع أخوته الأكبر منه سنا أن يلتزموا أمام السلطة العثمانية بجباية الضرائب، شأن والدهم الشيخ عمر، خشية من تحملهم مسؤولية سداد ما انكسر عليهم من أموال تجاه السلطة، فأوكلوا لأخيهم الأصغر هذه المهمة، فعهد إليه والي صيدا بمهمة أبيه،[٢٥]، وكانت تلك بداية بزوغ نجم ظاهر.

اتخذ ظاهر من عرابة البطوف مكان إقامة ومركزا لعمله. وسوف تمر ثماني عشرة سنة على توليه مهمة التزام جمع الضرائب قبل أن يظهر بقوة على مسرح الأحداث في عام ١٧٢١ عندما استنجد به وبفرسانه أهالي قرية البعنة لمواجهة حملة عسكرية نظمها والي صيدا ضدهم لمطالبتهم بضرائب مكسورة عليهم من سنوات سابقة[٢٦]. وفي العام التالي (١٧٢٢) استعان به محمد بن نافع شيخ صفد لإخضاع بعض القبائل البدوية في المنطقة. وقد أتاحت له هاتان الحادثتان الفرصة الكافية للظهور كزعيم قوي في مناطق الجليل، فأخذ يفرض سلطته على بعض القبائل البدوية وقرى الجليل. وقد

مكنته من ذلك تحالفات أقامها مع الفلاحين ومساعيه لكسب ود الأهالي ودعمهم له.

وكانت تلك مقدمات لتكوين ظاهر إمارته في طبرية. ففي عام ١٧٢٥ نشب صراع على السلطة في طبرية بين الحاكم التركي للمدينة والزعيم المحلي الشيخ محمد النصار الذي استنجد به لمواجهة الحاكم التركي. وقد حسم ظاهر الصراع لمصلحته هو نفسه إذ سيطر على الوضع في المدينة وطرد حاكمها، وأخرج من كان في سجونها لتزداد شعبيته، وفرض نفسه حاكما للمدينة بالأمر الواقع قبل أن يقره رسميا في هذا المنصب والي صيدا التي كانت طبرية من أعمالها.

فتح هذا التطور الجديد شهية ظاهر العمر لإنشاء إمارة في الجليل على غرار إمارة الشهابيين في لبنان يتمتع فيها بنوع من الاستقلال لكن دون أن ينازع السلطة العثمانية في المنطقة شرعيتها حتى لو كان ذلك شكليا. وقد سار نحو هذا الهدف على خطوط إن بدت في مظهرها العام متوازية فقد كانت في دوافعها ومضمونها وغاياتها الآليات الضرورية لتحقيق ذلك المشروع الطموح. وفي سبيل ذلك بدأ بطبرية نفسها التي اتخذها عاصمة له، وكانت طبرية آنذاك قرية مهملة فلا تصلح بذلك لتكون معقلا له. فجدد ظاهر إعمارها وأعاد بناء أسوارها وقلعتها ما يجعله يطمئن إلى أمنه فيها. ومن طبرية توجه للسيطرة على مناطق أخرى في الجليل، فخضعت له الناصرة ومحيطها وصفد ومنطقتها كما كانت تابعة له شفاعمرو ودير حنا والبعنة ومعظم مرج ابن عامر. كذلك صرف جزءا من جهده للتعامل مع أعراب شرق الجليل، وتمكن إما بالمواجهات المسلحة مع بعضهم أو بإقامة نوع من التحالفات مع بعضهم الآخر من إزالة ما كان يمكن أن يمثله هؤلاء من عقبات أمام مشروعه.

وكان ظاهر يعتمد في ذلك على علاقاته الطيبة مع الفلاحين وأهل المدن على السواء والتعامل معهم تعاملا حسنا وهم الذين وفروا له الغطاء لتوسيع سيطرته على الجليل.

أما لجهة علاقته بالسلطنة العثمانية فقد كسب حيادها في السنوات الأولى لمشروعه بأن استمر في تأدية ما يترتب عليه من أموال بصفته ملتزما بجباية الضرائب في المناطق الخاضعة له. وبجانب ذلك كله وجه همه لتنمية مشروعه اقتصاديا فتوسعت الأعمال الزراعية آنذاك، خاصة زراعة القطن، وأقام صلات مبكرة مع التجار الفرنسيين الذين كان يتخذون من عكا مكانا لإدارة نشاطاتهم التجارية، فكانوا زبائنه الدائمين في الحصول على منتجات القطن من المناطق التابعة له. وفي هذا الشأن يقول مؤرخ سيرته عبود الصباغ إن كل ما كان يزرع في بلاده من قطن وغلال كان يورده للفرنسيين[٢٧].

أزعج مشروع الشيخ ظاهر في إقامة إمارة يحكمها مباشرة في الجليل ولاة الشام وصيدا. فقد كان أي توسع جغرافي لهذه الإمارة يتم على حساب هاتين الولايتين. وقد واتت الفرصة لوالي دمشق (سليمان باشا العظم آنذاك) ليجرب حظه في القضاء على هذا الخطر الذي يمثله الشيخ ظاهر على ولايته، عندما قام الأخير بالتحرش بأمراء اللجون ونابلس الذين كانوا يتبعون والي دمشق، فاستغل سليمان باشا الفرصة للقضاء على نفوذه[٢٨]. وهكذا قام الوالي في العام ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧-١٧٣٨م بحملته الأولى على طبرية وحاصرها، ألا إنه لم يتمكن منها فقد انسحب إلى دمشق بعد أن صدر قرار من السلطنة العثمانية في استنبول بتعيينه واليا على مصر. ويبدو أن سليمان باشا أراد أن يحفظ ماء وجهه بعد فشله في اقتحام طبرية،

فأشاع في دمشق ـ كما كتب مؤرخ معاصر للأحداث ـ أنه انسحب من حصار المدينة بعد أن خرج إليه أهلها "وعليهم الذل رافعين أكف الضراعة بالمسكنة وضاجين بالأدعية له وللسلطان الأعظم ودفعوا لحضرته مئتي كيس من المال"، فعفا عنهم وصفح[٢٩].

كان غياب سليمان باشا العظم عن ولاية الشام فرصة للشيخ ظاهر ليوطد نفوذه في الجليل ويمضي قدما في تعزيز بنيان إمارته. غير أن هذا الأمر لم يستمر طويلا إذ أعيد سليمان باشا إلى منصبه واليا على الشام سنة ١٧٤١ (أي بعد نحو من ثلاث سنوات على مغادرته هذا المنصب). ولم يمض غير أشهر حتى جدد سليمان باشا مشروعه في القضاء على ظاهر العمر. فقاد حملة جديدة على طبرية سنة ١٧٤٢، التي تحصن فيها الشيخ ظاهر، وحاصرها مدة ثلاثة أشهر، دون أن يتمكن منها. وقد اضطر إلى الانسحاب منها بعد أن أزف موعد الحج إذ كان مقررا أن يقود هو موكبه إلى الديار المقدسة"[٣٠].

غير إن سليمان باشا عاد في السنة التالية (١٧٤٣)، وبعد رجوعه من الحجاز، فقاد حملة أخرى على الشيخ ظاهر، ذهبت في اتجاهين: شق منها لمحاصرة طبرية وشق آخر لمحاصرة قلعة دير حنا التي كانت آنذاك العاصمة الثانية للزيدانيين وكانت تحت إدارة سعد العمر نيابة عن أخيه الشيخ ظاهر. لكن الزيادنة نجوا من جديد عندما توفي سليمان باشا العظم فجأة في موقعه على مقربة من قرية لوبيا. [٣١]

اختلف شكل العلاقة بين الشيخ ظاهر وولاة الشام بعد وفاة سليمان باشا العظم الذي خلفه في الولاية ابن أخيه أسعد باشا العظم

الذي كان قبل يتولى حماة. فقد نشأت علاقة مهادنة بين الشيخ ظاهر والوالي الجديد الذي كان مشغولا عنه بترتيب بعض الشؤون الداخلية في ولايته. كذلك يبدو أن أسعد باشا أدرك صعوبة القضاء على شيخ الجليل مستفيدا من تجارب سلفه سليمان باشا الفاشلة فامتنع من التصدي له. ويعرض عبود الصباغ هذا النوع من العلاقة بقوله "ومن زيادة شجاعة ضاهر اضطر وزير الشام [= أسعد باشا] أن يسكت عنه لأنه من بعد سليمان باشا تولى على الشام أسعد باشا من بيت العظم، وأسعد المذكور كان لا يحب الحرب بل كان يحب المال والراحة"[32]. ويظهر أن الشيخ ظاهر أدرك ما كان عليه والي الشام آنذاك من جشع فلم يبخل عليه بما يلبي رغبته فقد ذكر البديري، المعاصر له، أن ظاهر أرسل لأسعد باشا مرة "أربعين جملا محملة أرزا وسكرا وجوخا"[33].

استمرت فترة المهادنة بين الشيخ ظاهر وأسعد باشا مدة اثنتي عشرة سنة إلى أن عزل هذا الوالي عن الشام في مطلع سنة ١٧٥٧. وكانت تلك المدة كافية للشيخ ظاهر لكي يوسع إمارته ويوطد دعائم حكمه في الجليل. ففي العام ١٧٤٦ انتزع من والي صيدا التزام مدينة عكا وما لبث أن أعاد بناء المدينة وعمر سورها ثم نقل إليها مقر حكمه لميزاتها الاستراتيجية فهي بعيدة نسبيا عن دمشق التي كانت مصدر خطر على عاصمته القديمة طبرية، وأيضا باعتبارها الميناء الرئيسي الذي كان مطل تجارة الشيخ ظاهر على أوروبا. وبانتقاله إلى عكا أوكل الشيخ ظاهر لأبنائه حكم المناطق التابعة له؛ فعين ابنه الأكبر صليبي حاكما على طبرية، وعليا على صفد، وعثمان على شفاعمرو، وسعيدا على صفورية (وفي مرحلة لاحقة عين ابنه أحمد على جبل عجلون عندما مد حكمه إلى هناك)[34]. وبعد سنوات قليلة

وسع الشيخ ظاهر مناطق حكمه فعهد إليه بالتزام مدينة يافا، وبعدها منحه أسعد باشا التزام مدينة حيفا سنة ١٧٥٣، كما مد حكمه من هناك إلى بلدة طيرة حيفا (التي يسميها عبود الصباغ الجبرة) على مسافة ١٢ كم جنوب حيفا، وعلى الطنطورة (هي عند عبود الصباغ الحمرتين) على بعد ٣٠ كم من حيفا، كما بسط سلطته على بلاد حارثة (الواقعة نواحي بيسان وغور الأردن) وعلى منطقة جبل عجلون[٣٥].

نجح ظاهر العمر إذن في تأسيس إمارة متسعة على حساب ولايتي الشام وصيدا شملت الجليل كله، وجبل الكرمل وامتدادا منه على الساحل لمسافة نحو من ثلاثين كيلومترا، ومناطق الأغوار حول بيسان، ومن هناك عبورا إلى الشرق من نهر الأردن وصولا إلى منطقة جبل عجلون. وقد اتبع الشيخ ظاهر في سياسته هذه الإمارة على عدد من الدعائم كما يلي[٣٦]:

١ - تشجيع زراعة القطن والحبوب في الجليل عامة وقرى ساحل عكا خاصة، وتأمين تصديرها إلى فرنسا ودول أوروبية أخرى، واستثمار الأموال في البناء والإعمار، فالقلاع والحصون والجوامع والأسواق التي بنيت في تلك الفترة هي خير دليل على أعماله في المناطق التابعة له.

٢- تأمين العدالة والاستقرار وهما أساس التقدم والازدهار.

٣- إقامة الحكم على أساس التعاون والتحالف مع الأهالي من فلاحين وعربان وسكان مدن، فصار هؤلاء شركاء في الحكم والازدهار بدلا من اتباع سياسة البطش والقوة التي اشتهر بها معظم

الحكام وجباة الضرائب الذين كانت السلطنة العثمانية ترسلهم من خارج المنطقة.

٤- المعاملة الحسنة والتسامح مع غير المسلمين من يهود ومسيحيين، فجاء هؤلاء إلى عواصم حكمه، وخصوصا إلى طبرية ثم عكا، وأدوا دورا مهما في التجارة مع أوروبا إلى جانب التجار الفرنسيين وغيرهم.

٥- اهتمام الشيخ ظاهر بإقامة شبكة من العلاقات مع رجال الدولة في اسطنبول لكي يرعوا مصلحته، في مقابل تقديم الهدايا والرشاوى، إضافة إلى تأمين وصول الضرائب المطلوبة إلى خزينة الدولة في الوقت الملائم. وما دام الشيخ ظاهر كان يؤدي هذا الدور بنجاح لم تجد الدولة سببا يمنع إضافة مناطق جديدة يلتزم هو جباية ضرائبها.

ويختصر معاصره الخوري ميخائيل بريك الدمشقي وصفه لظاهر وحكمه بقوله أن "صار له صيت ذائع بكرمه وشجاعته وسلوك الدرب، وصار أمان بزمانه، وكان محب [كذا] للنصارى"[٣٧].

استمرت المهادنة بين الشيخ ظاهر ووالي دمشق طوال عهد أسعد باشا العظم الذي عزل عن الولاية في شباط ١٧٥٧. وقد استمر هذا الوضع في عهدي الواليين اللذين أعقباه: عبد الله باشا الشتجي فمحمد باشا الشالك. غير أن الوضع تبدل مع تعيين عثمان باشا الكرجي واليا على الشام سنة ١٧٦٠ الذي بدا منذ بداية ولايته أنه مصمم على استعادة ما كان الشيخ ظاهر قد أضافه إلى إمارته من ولاية الشام. وهكذا لم يكن قد مضى على تعيينه في منصبه غير شهرين حتى جرد حملة على ظاهر استولى خلالها على الطنطورة،

من المناطق التابعة للشيخ ظاهر، إلا إن ظاهرا عاد فاستعادها، كذلك كان الأمر بالنسبة لحيفا التي استولى عليها عثمان باشا وما لبث ظاهر أن استردها[٢٨]. وقد سعى عثمان باشا بجد لن يأخذ تفويضا من السلطة المركزية في اسطنبول للتصدي للشيخ ظاهر دون أن يتمكن من ذلك إذ كانت الدولة في اسطنبول تعلم أن قوة ظاهر قد ازدادت إلى درجة كبيرة وأن أي هجوم عليه ستكون له مضاعفات خطيرة في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلة في الحرب التي بدأتها مع روسيا منذ عام ١٧٦٨[٢٩]. وبدلا من الحرب المباشرة، لجأ عثمان باشا إلى تغذية الفتن التي كانت تنشب بين الشيخ ظاهر وأبنائه الذين اخذوا يناصبونه العداء جهرا طمعا بتوسيع المناطق التي كان قد أوكل إليهم إدارتها، وربما في وراثته حيا. وكانت هذه الفتن تتحول إلى صراعات عسكرية لم يكن عثمان باشا بعيدا عن النفخ في بوقها ضد ظاهر. وغير ذلك، فقد نجح عثمان باشا في مساعيه مع الإدارة المركزية لاستصدار قرار بتعيين ابنه درويش باشا واليا على صيدا (أيلول ١٧٧٠)، بكل ما يترتب على ذلك من إحكام الحصار حول الشيخ ظاهر تمهيدا لتصفيته.

غير إن ذلك الحصار لم يجد نفعا، إذ شهدت المنطقة تطورات جديدة أتاحت للشيخ ظاهر أن يطيل عمر إمارته خمس سنوات أخرى، لكنها كانت سنوات مليئة بالاضطرابات وأشكال الصراع المختلفة. وقد نجمت تلك التطورات من مصر التي كان يحكمها آنذاك علي بك الكبير الذي كان في الأصل مملوكا لكنه كان يطمح إلى استعادة مجد السلطنة المملوكية التي قضى عليها العثمانيون سنة ١٥١٦ فكان أن وجه همه إلى الشام التي كانت قبل جزءا من دولة المماليك. وقد تطابق هذا الطموح مع ما كان يواجهه

الشيخ ظاهر من محاولات القضاء عليه وعلى إمارته من جانب والي الشام، فكان أن نشأ تحالف بين الطرفين هدفه المباشر القضاء على عثمان باشا والي الشام لكنه اتخذ في مضمونه وشكله العام صيغة التمرد غير المعلن على السلطنة العثمانية.

بدأ هذا الحلف عمله في العام ١٧٧٠بأن أرسل علي بك حملة عسكرية بقيادة إسماعيل بك احتلت بالتعاون مع قوات ظاهر العمر غزة ويافا، ثم ما لبث علي بك أن عزز قواته بأخرى في العام التالي بقيادة محمد بك أبو الذهب الذي أوكلت إليه قيادة الحملة المصرية في الشام، فاحتل الرملة، ثم تقدم مع القوات التابعة لظاهر العمر، وأخرى من متوالة جبل لبنان، بزعامة الشيخ ناصيف نصار، وكان حليفا لظاهر العمر، فاتجهت القوات جميعا نحو الشمال واحتلت دمشق (في حزيران ١٧٧١)، لتجبر واليها عثمان باشا الكرجي على الهرب باتجاه حماة. وهنا حدثت مفاجأة غير متوقعة، إذ لم يمكث محمد بك أبو الذهب في دمشق غير أسبوعين حتى غادرها عائدا إلى مصر. ومهما كانت الأسباب التي قيلت عن هذا الفعل المفاجئ، فإن ما يبدو مؤكدا من سير الأحداث فيما بعد، أن عودة أبي الذهب إلى مصر كانت تمهيدا لتآمره على سيده علي بك للقضاء عليه والحلول محله في حكم مصر.

هيأ خروج القوات المصرية من الشام لعودة عثمان باشا الكرجي إلى مركز ولايته في دمشق، وليتجدد الصراع من جديد بينه والشيخ ظاهر. غير أنه هزم هزيمة منكرة قرب بحيرة الحولة (ايلول ١٧٧١)[٤٠]. وقد فتح هذا الانتصار الذي حققه الشيخ ظاهر على غريمه شهيته لتوسيع نفوذه إلى مناطق جديدة، وكانت صيدا هدفه هذه المرة. وقد اشرنا قبل إلى أنها كانت تحت حكم واليها درويش

باشا ابن عثمان باشا الكرجي. فهاجمها الشيخ ظاهر ومعه حلفاؤه من متاولة جبل عامل ليهرب منها واليها وتؤول السيطرة فيها إلى الشيخ ظاهر وحلفائه. وقد أثارت الهزيمتان الممضتان اللتان مني بهما عثمان باشا وابنه درويش باشا حفيظة السلطة العثمانية كما يبدو إذ تم عزل الواليين معا في اعقابهما، وعين على الشام محمد باشا العظم واليا.

في مصر تسارعت التطورات بعد عودة أبي الذهب إليها. فقد نشب نزاع بينه وبين علي بك الذي اضطر على إثره للهرب إلى حليفه ظاهر العمر في الشام. ومن هناك بدأ يخطط للعودة إلى مصر بمساعدة الشيخ الزيداني، وقد عاد بالفعل تدعمه بعض قوات الشيخ ظاهر. إلا إنه هزم في المواجهة مع قوات أبي الذهب وجرح في أثناء القتال، وما لبث أن توفي بعد ايام متأثرا بجراحه (نيسان ١٧٧٣).

تركت وفاة علي بك تأثيراتها باتجاهين، الأول فراغ في السلطة في مصر شغله أبو الذهب، وغياب حليف لظاهر العمر في الشام ما جعله يقف وحيدا في مواجهة العثمانيين باعتباره ثائرا متمردا على سلطتهم. وزاد الأمر سوءا أن أبا الذهب قاد حملة جديدة من مصر (آذار ١٧٧٥) متوجها إلى الشام وهدفه هذه المرة القضاء على الشيخ ظاهر. وقد حقق أبو الذهب في هذه الحملة مكاسب إذ خضعت له غزة والرملة ويافا وصيدا وعكا مما جعل الشيخ ظاهر يلجأ إلى حلفائه المتاولة في جبل عامل. لكن أبا الذهب لم يستمتع بهذه الانتصارات طويلا إذ توفي فجأة (حزيران ١٧٧٥) في عكا، فعاد جيشه إلى مصر.

عاد الشيخ ظاهر من جديد إلى عاصمته عكا بعد وفاة أبي الذهب وانسحاب القوات المصرية منها. غير إن مقامه فيها لم يستمر طويلا إذ قررت السلطة العثمانية أن تتخلص نهائيا منه وتنهي تلك الظاهرة التي استنها بإقامة إمارة شبه مستقلة في الشام. وهكذا أرسلت قوة بحرية بقياد القبطان حسن باشا على الشيخ الزيداني. وقد تمكنت هذه القوة في البداية من احتلال حيفا، وما لبثت أن توجهت إلى عكا التي كان الشيخ ظاهر متحصنا فيها، وضربتها بالمدافع على مدى ثلاثة أيام. وفي هذا الحصار، واجه الشيخ ظاهر مشكلات أفقدته السيطرة على أوضاع المدينة. فقد دخل ابنه علي في قتال معه، طمعا في أن يتولى المنصب بعد أبيه، كما خانه أحد أكبر رجاله المعروف بالدنكزلي، وكان على رأس جيشه، بأن أجرى اتصالات مع القبطان العثماني لتسليمه المدينة، كذلك انقلب عليه جزء لا يستهان به من جيشه من المرتزقة المغاربة، وكل ذلك أصاب الشيخ العجوز باليأس من استمرار المقاومة، فهرب من عكا، إلا أن بعض جنوده المغاربة قتلوه في ظاهر المدينة في أواخر آب ١٧٧٥[1].

كان عمر الشيخ ظاهر عند مقتله نحوا من ٨٦ سنة، وقد بدأت زعامته في وقت مبكر من سنوات عمره متخذا من عرابة البطوف مركزا له ولنحو ٢٢ سنة، ثم نقل مركزه إلى طبرية التي استمر فيها ٢١ سنة (١٧٢٥-١٧٤٦)، لينقل هذا المركز إلى عكا على امتداد نحو من ٢٩ سنة (١٧٤٦ إلى وفاته سنة ١٧٧٥). ومن آثاره في طبرية سورها، وأحد مسجديها (الجامع الزيداني)، وقلعة وهي التي عرفت فيما بعد باسم السرايا.

أما أبناء الشيخ ظاهر، وهم كانوا بصورة من الصورة أحد اسباب نهايته المأساوية، فقد التجأوا بعد موته إلى حلفاء أبيهم من

متاولة لبنان. إلا إن القبطان التركي حسن باشا استدرجهم إليه بالخديعة، بأن أعلن العفو عنهم ودعاهم إليه مع وعد بأن يعيد إليهم ما كان لوالدهم. فلبوا دعوته، باستثناء علي الذي لم يكن يؤمن بوعود العثمانيين. وعندما اجتمع الأبناء لدى حسن باشا قام هذا بإهانتهم، فلم يحتمل أصغرهم سعيد الإهانة، واتهم الباشاوات بالكفر، فما كان من الباشا إلا أن علقه على المشنقة، وأبعد الآخرين إلى اسطنبول. أما علي فلم يفقد الأمل في استعادة مجد الزيادنة، فعمل على حشد الأنصار في فلسطين ومناطق شرق الأردن، وقد التف حوله بعض الناس بعد ما لاقوه من ظلم الجزار ورجاله، و"أخذوا يترحمون على أيام الشيخ ظاهر". غير إن الأمر لم يطل بعلي، إذ دس عليه والي دمشق ضابطا من رجاله تمكن من قتله غيلة[٤٢]، لتنتهي بموته هذه المحاولة الفريدة بتأسيس إمارة عربية في الجليل تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي.

(٥)
سكان طبرية في العهد العثماني

لا يمكن توفير بيانات عن أعداد سكان طبرية طوال العهد العثماني الذي امتد حتى بلغ أربعة قرون. ويستثنى من ذلك القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إذ تتوفر بعض البيانات عن أعداد السكان من خلال مجموعتين من المصادر والمراجع. إحداهما المصادر العثمانية الرسمية التي كانت على شكل تعدادات للسكان أو تقارير رسمية تصدر عن الولايات العثمانية. غير إنه لا يمكن الاطمئنان بيقين إلى الأرقام المتاحة في هذه المصادر لغير سبب.

أحدها أن العلوم المتصلة بالتعداد لم تكن قد نضجت آنذاك في الدولة العثمانية لتعطي معلومات دقيقة عن السكان. وثانيها أن البحث الحديث يشكك في قدرة السلطات العثمانية وإمكاناتها في إجراء مسوح شاملة وصحيحة عن السكان. وثالثها أنه يمكن توقع أن تكون الأرقام التي تحصلت عليها السلطات العثمانية عن أعداد السكان مزيفة إذ تمتنع كثير من الأسر عن إعطاء السلطة أرقاما حقيقية عن أعداد الأفراد فيها خوفا من الضرائب ومن التجنيد الإلزامي. أما المجموعة الثانية فهي كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها، بما في ذلك كتاباتهم عن السكان: اعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية والمعيشية. غير أن هناك تحفظات على أعداد السكان في هذه الكتابات منها أنها كانت جميعا تقديرية تخمينية، وأحيانا انطباعية، ما يجعلها تقع في مرتبة المؤشرات ولا ترتقي إلى الحقيقة الرقمية الصحيحة. ومن هذه التحفظات أيضا أن معظم هؤلاء الرحالة قد قدموا المنطقة وأعينهم مشدودة إلى تتبع روايات العهد القديم (التوراة) عن المنطقة، وبذلك فقد أولوا اليهود فيها اهتماما خاصا باعتبارهم ورثة ذلك الكتاب وحملته، فبالغوا في أعدادهم إلى درجة ملحوظة. ومع إبقاء هذه التحفظات في الذهن، سوف نتتبع في الجدول رقم ١ أعداد سكان طبرية في سنوات مختلفة ووفقا للمصادر التي أوردتها مع الانتباه إلى ما فيها من تناقضات غير مقبولة تجعل الثقة في أدنى مستوياتها.

الجدول رقم ١

سكان طبرية في العهد العثماني في سنوات مختلفة

السنة	الإجمالي	مسلمون	يهود	مسيحيون	جهة التقدير
١٨١٢	٤٠٠٠	٣٠٠٠	١٠٠٠	بضعة أسر	بيركهارت[٤٣]
١٨١٦	٢٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٢٠ أسرة	باكنغهام[٤٤]
١٨٤٢	٤٠٠٠	؟	؟	؟	بفايفر[٤٥]
١٨٤٨	١٣٠٠- ١٤٠٠	٣٠٠- ٤٠٠	١٠٠٠	بضعة أفراد	لينش[٤٦]
١٨٥٧	١٥٠٠	؟	؟	؟	و.م. تومسون[٤٧]
١٨٦٩	٢٠٠٠	١٢٠٠	٨٠٠	قلة	أندرو تومسون[٤٨]
١٨٧٢	٣١٢٥	٧٩٥	٢٠٠٠	٣٣٠	سالنامة ولاية سوريا[٤٩]
١٨٧٦	٢٠٠٠	١٠٠٠	٩٠٠	١٠٠	كوندر[٥٠]
١٨٧٩	٣٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠	؟	مالك جارفي[٥١]
١٨٨٦	٣٦٤٠	١٣٥٥	٢٠٢٥	٢٦٠	شوماخر[٥٢]
١٨٩١	٥٠٠٠	؟	؟	؟	سميث[٥٣]
١٩٠٤	٣٧٧١	١٧٥١	١٧٦٦	٢٥٤	سالنامة ولاية بيروت[٥٤]
١٩٠٨	٥٣٤٩	١٦٣٨	٣٣٨٩	٣٢٢	سالنامة ولاية بيروت[٥٥]
١٩١٥	٨٠٠٠	؟	؟	؟	آرثر روبين[٥٦]

المصادر: تنظر في الحواشي نهاية هذا الفصل وفقا لأرقامها المثبتة في الجدول.

(٦)
التعليم

حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر لا نجد ما يدل على أن السلطات العثمانية قد أقدمت على إنشاء مدارس لها في طبرية. ولم تكن طبرية في ذلك استثناء من سائر المناطق الخاضعة للدولة العثمانية التي كان نشر التعليم آخر اهتماماتها. وقد أخذت الدولة تولي شيئا من الاهتمام للتعليم بدءا من العام ١٨٥٧ عندما تأسست وزارة للتعليم باسم "معارف عمومية نظارتي"[٥٧]. وفي العام ١٨٦٩ (جمادى الأولى ١٢٨٦هـ) صدر أول نظام للمعارف نظمت به المدارس في الدولة العثمانية بمختلف ولاياتها[٥٨]. وقد تأخرت طبرية في الاستفادة من هذا النظام، إذ بعد صدوره بنحو من عشرين سنة، أي في العام ١٨٨٦ كان في قضاء طبرية بأجمعه أربع مدارس ابتدائية للذكور بمجموع ١٢٠ تلميذا، بينما حرمت البنات من المدارس[٥٩]. ومن هذه المدارس الأربع كانت واحدة في طبرية أقيمت في الجامع الزيداني في المدينة[٦٠]. والمدرسة الابتدائية (أو المكتب الصبياني) في عرف نظام التعليم العثماني مقتصرة على أربع سنوات دراسية فقط.

وقد انتظرت طبرية عشر سنوات أخرى قبل أن ينشئ بها العثمانيون مدرسة أعلى مستوى. ففي العام الدراسي ١٨٩٥/١٨٩٦ أنشأوا مدرسة رشدية، التي تعني أربع سنوات دراسية أخرى بعد المدرسة الابتدائية. وقد ضمت هذه المدرسة في ذلك العام ٢٦ تلميذا[٦١]. إلا إن هذا العدد تراجع في العام ١٨٩٨ إلى ١٢ طالبا يعلمهم معلم واحد[٦٢]. وفي العام ١٩٠٠ ارتفع العدد مرة أخرى، إذ كانت المدرسة الرشدية آنذاك تضم ١٧ طالبا يعلمهم معلم واحد[٦٣].

وفي أواخر العهد العثماني كان في طبرية مدرستان رسميتان: واحدة للذكور جمعت ١٠٠ تلميذ، يعلمهم خمسة معلمين، وثانية للبنات تضم ٥٠ تلميذة تعلمهن ثلاث معلمات[٦٤].

غير إن التعليم في طبرية لم يكن مقتصرا على من كانوا يلتحقون بهذه المدارس الحكومية، كما إنه لم يكن معدوما قبل إنشائها. فما نعلمه من مسيرة التعليم في التاريخ العربي ـ الإسلامي عامة أن مواثله كانت ثلاثة: الأول الكتّاب (جمعه كتاتيب) الذي كان يلتحق به الأطفال ليتعلموا القراءة والكتابة وشيئا من الحساب بالإضافة إلى استظهار أجزاء من القرآن الكريم. الثاني كان المسجد (التعليم المسجدي) الذي كانت تعقد فيه حلقات الدراسة لروادها المهتمين بالعلوم الدينية واللغة العربية التاريخ، والثالث المنشآت التعليمية التي عرفت بالمدارس والتي كان محورها العلوم الدينية ويلتحق بها من أراد التخصص بهذه العلوم على مستوى عال ومتقدم. ولا نجد ذكرا في مصادرنا لهذا الموئل الثالث في طبرية، بخلاف ما كان عليه الوضع في العواصم والمدن الكبرى التي تكاثرت فيها هذه المدارس بشكل ملحوظ. غير إن ذلك لا يعني غياب الموئلين الآخرين عنها (الكتاب والمسجد بصفته مكانا للتعلم)، فهما كانا شائعين في مختلف المدن، مهما صغرت، في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه. ويضاف إلى هذين، أن طبرية شهدت في العهد العثماني بدايات المدارس التي أنشأتها الطوائف المسيحية، او البعثات التبشيرية والتي لم يقتصر الالتحاق بها على المسيحيين بل كانت أيضا مفتوحة للأطفال المسلمين. وكان هناك في أواخر العهد العثماني ثلاث مدارس من هذا النوع: (١) المدرسة الإسكتلندية (للبروتستانتية) التي تأسست سنة ١٨٩٢، وكان يدرس فيها في العام ١٩٠٠ ٨٠ تلميذا

و٤٠ تلميذة، (٢) مدرسة الروم الأرثوذكس، وقد تأسست سنة ١٨٩٤، وكان يدرس فيها في العام ١٩٠٠ ١٦ طالبا و٨ طالبات، (٣) مدرسة الكاثوليك، التي تأسست عام ١٩٠٠ وكان يدرس فيها آنذاك ١٥ تلميذا[٦٥].

(٧)
وصف المدينة وسكانها عند الرحالة الغربيين

يبدو من المرجح أن ما كانت عليه أوضاع طبرية في زمن الأيوبيين المتأخرين وفي عصر السلطنة المملوكية (وقد جاء وصفها في الفصل السابق) قد استمرت كما هي عليه زمنا طويلا في العهد العثماني. فقد تراجعت أهمية المدينة بعد ذلك الزمن، وتراجع أيضا الاهتمام بها ليتواصل ذلك تحت حكم العثمانيين. لكن يمكن أن يستثنى من ذلك الفترة التي حكم فيها ظاهر العمر طبرية (والجليل) إذ نهض بإعمار المدينة وتحصينها. كذلك شهدت طبرية جانبا من العمران في زمن حكم المصريين، إذ أعيد بناء حماماتها، ويمكن للمرء أن يتوقع أن ذلك كان له أثره في زيادة أعداد القادمين إليها من طالبي الاستشفاء. غير إن المدينة شهدت في هذه الفترة بالذات كارثة ضخمة عندما ضربها زلزال مدمر في اليوم الأول من عام ١٨٣٧ ذهب ضحيته نحو من ٧٠٠ من سكانها، بالإضافة إلى تهدم منازلها وأسوارها.

وقد ترك لنا الرحالة الغربيون الذين زاروا طبرية تقارير ضافية عن مشاهداتهم للمدينة كما كانت عليه في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. غير أن المشكلة التي يواجهها الباحث في

قراءته ما كتبه هؤلاء عن مدن الشرق عامة أنهم نظروا إليها من خلال عدسة كانت تكبّر مظاهر التخلف فيها، كما لم تجذب أعينهم منها إلا ما كان فيها من سلبيات وما كان يعتورها من أشكال القصور الحضري. ولم تكن هذه النظرة بعيدة عن الثقافة الغربية آنذاك التي أطلت على الشرق عامة من شرفة استعلائية ونزعت إلى التعامل معه وكأنه كتلة متجانسة من التخلف. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قدم أولئك الرحالة من مدن غربية أتاحت لها البحبوحة الاقتصادية، التي نعم بها الغرب على حساب شعوب الشرق التي ابتليت بالاستعمار الغربي، أن تتقدم بالعمران والتنظيم والنظافة والخدمات الاجتماعية، فكان أن قارنوا بين ما شاهدوه في مدن الشرق وما خبروه في مدنهم من تقدم، فكتبوا عن الأولى وفي أذهانهم دائما تلك المقارنة التي كان بعض الرحالة يفصحون عنها دون مواربة.

وبذلك، فإذا أخذنا ما كتبه هؤلاء عن طبرية في الزمن موضوع البحث هنا (العهد العثماني) نخرج بصورة فيها كثير من السواد عن أوضاعها الاجتماعية والعمرانية. وقد تكون الصورة صحيحة، لكن الباحث لا يمكن أن يجزم بصحتها ما دام يفتقد إلى "المصادر المستقلة" التي يمكن أن يقيس عليها شهادة أولئك الرحالة الغربيين عما رأوه في المدينة عندما زاروها. لكن يلاحظ أن ما شاهده هؤلاء الرحالة قبل الزلزال (١٨٣٧) كان أقل اعتاما مما رآه آخرون قدموا وقد تهدمت المدينة بفعله، ويبدو أنه لم يهتم أحد بإزالة الآثار الكارثية التي خلفها الزلزال. وسوف يتضح هذا في المقتطفات التي سوف نوردها أدناه من كتابات بعض الرحالة.

كان ما كتبه الرحالة والمستشرق السويسري بيركهات عن طبرية[٦٦]، كما شاهدها في سنة ١٨١٢، هو أوسع ما ورد إلينا من

وصف لحالة المدينة قبل وقوع الزلزال، وكان ما يزال قائما فيها كثير من المنشآت التي أقامها ظاهر العمر، وأيضا كانت لاتزال تتمتع نسبيا ببقايا الازدهار الذي كانت عليه زمن الأمير الزيداني.

يصف بيركهات حالة العمران في المدينة فيقول إنها "محاطة في جنباتها البرية بسور سميك حسن البناء بارتفاع نحو من عشرين قدما مزود بمتاريس مرتفعة وكوى للرمي. وهو يحيط المدينة من ثلاث جهات ويقع طرفاه القصيان عند الماء. إلا إني لاحظت بضعة أعمدة من الجرانيت محطمة على شاطئ البحيرة، ما قد يشير إلى أن المدينة كانت محاطة من ذلك الجانب أيضا. ويحمي سور المدينة عشرون برجا مستديرا تقوم على مسافات متساوية. وقد بني السور والأبراج بحجارة سوداء من حجم متوسط، ويبدو أنها قد بنيت في زمن غير بعيد، فهي جميعا مرممة جيدا". وغير السور، يتحدث الرحالة نفسه عن وجود بوابة للمدينة، وقصر واسع البناء للمتسلم، وجامع جميل ذي أقواس، وكنيسة، وعن طرقات قريبة من شاطئ البحيرة ذات قناطر، وأزقة مسقوفة وهي جميعا مبنية من الحجر.

ويلقي بيركهارت بعض الضوء على حياة المدينة الاقتصادية، فيذكر أن بها سوقا قد بنيت حديثا، وقد أحصى هو نفسه في هذه السوق نحوا من اثني عشر محلا للبيع بالتجزئة. ويقول إن سكان طبرية يتاجرون بشكل رئيسي مع بدو الغور وقضاء صفد. ويتجمع أصحاب الدكاكين كل يوم إثنين في الخان عند سفح جبل طابور، حيث تقام هناك سوق تعرف بسوق الخان، وتجري فيها مقايضة بضائع المدينة بالأنعام.

أما الأعمال الرئيسية لسكان طبرية فهي الزراعة في السهل الضيق الذي يقع غرب المدينة ومنحدرات الجبال الغربية التي يروونها من ينابيع مياه عدة. وتشمل محاصيلهم الزراعية القمح والشعير والذرة والتبغ والشمام والعنب وقليلا من الخضروات. ويمتاز الشمام عندهم بأنه من أفضل الأنواع وهو مطلوب جدا في عكا ودمشق حيث يتأخر نضوجه نحوا من شهر عن موعده في طبرية. ويذكر بيركهارت أنه بعث إلى أصدقائه في دمشق حمولة بغل من هذا الشمام، وذلك يعد هدية جميلة ومقبولة وفق العادات الشرقية. ويضيف بأن الشجيرة التي تنتج البلسم أو البلسان المكي [ذا الرائحة العطرية المهدئة] تلقى نجاحا في طبرية، وكثير من الناس يزرعونها في حدائقهم. ويصف هذه الشجيرة بأنها قليلة الارتفاع تشبه أوراقها أوراق دوالي العنب، بينما تشبه ثمرتها حبة الخيار وبطول نحو من ثلاث بوصات، ويتحول لونها من الأخضر إلى الأصفر عندما تنضج. ويكون موعد جنيها في شهر حزيران، فيصب عليها الزيت آنذاك وتعرض للشمس، وبعد ذلك يستخرج عصيرها الذي يعرف بالبلسم.

أما عن السكان فيقول بيركهارت أن عددهم يبلغ نحوا من أربعة آلاف نسمة، وأن ربعهم من اليهود، بينما هناك عدد من الأسر المسيحية القليلة. ويقول إن هؤلاء يتمتعون بحرية عظيمة وبمساواة كاملة مع الأتراك. وبالإضافة إلى هؤلاء فإن فيها حامية دائمة من الأتراك عددها ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ رجل غالبيتهم متزوجون. ويذكر أن الجزار عندما كان يحكم المنطقة أقنع مجموعة من الأفغان، يقدر عددهم بمئتي جندي، بالاستقرار في طبرية. إلا إنه بعد موته تفرق

هؤلاء في أنحاء سورية المختلفة، وقد رأى بيركهارت اثنين منهم كانا لا يزالان يعيشان في المدينة.

ويتحدث بيركهارت بتفصيل عن يهود طبرية، فيقول إنهم يعيشون في معزل عن السكان ويقيمون في حي خاص بهم يحيط به سور له بوابة واحدة تغلق عند مغيب الشمس ولا يسمح بالمرور منها بعد ذلك. ويبلغ عدد الأسر اليهودية مئة وستين أسرة أو مئتين، منها أربعون أسرة أو خمسون من بولندا والبقية من أسبانيا والمغرب وسورية. ويشير إلى أن هؤلاء جميعا فقراء لا يعملون وهم يعيشون على الإعانات التي يتلقونها من إخوانهم في الدين في مختلف أنحاء العالم. وقد اعتاد يهود طبرية أن يوفدوا سنويا أربعة وفود لتلقي الإعانات، أحدها إلى شمال أفريقية، والثاني إلى سواحل أوروبا من البندقية إلى جبل طارق، والثالث إلى الأرخبيل اليوناني واستانبول والأناضول، والرابع إلى سورية. أما اليهود البولنديون منهم فهم يرسلون وفدا مماثلا إلى بوهيميا وبولندا. كما يتلقى اليهود بعض صدقات من يهود لندن بين حين وآخر. ويشير الكاتب إلى أن اليهود البولنديين يتعرضون لحالات من الابتزاز من جانب اليهود السوريين فيقول إن اليهود السوريين باعتبارهم هم أصحاب المكان يجبرون الغرباء على أن يدفعوا أجورا عالية مبالغا فيها مقابل أماكن سكنهم، كما يلزمونهم بأن يساهموا بمبالغ كبيرة لإعانة السوريين المعوزين، بينما هم يمتنعون عن دفع أي شيء مهما صغر للفقراء القادمين من بولندا.

ويترك لنا بيركهارت وصفا لما شاهده من آثار في طبرية ومحيطها، فيذكر أن المدينة القديمة، كما يبدو، لا تقع ضمن حدود طبرية الحالية (في زمنه)، ولكنها ربما كانت على مسافة قصيرة منها

باتجاه الجنوب. ذلك إن خرائبها تبدأ من مسافة على بعد نحو من خمس دقائق مشيا من المدينة الحالية باتجاه الحمامات. والبقايا القديمة الوحيدة الموجودة هي عبارة عن أعمدة قليلة وأكوام من الحجارة وجدران مهدمة جزئيا وأساسات لمنازل. أما على جانب البحر، وقريبا من المياه، فهناك بقايا خربة لسور غليظ أو لعله حاجز مياه، وقليل من الأعمدة من البازلت الرمادي ملقاة في الماء. كذلك رأى الكاتب في منتصف المسافة ما بين البلدة والحمامات سبعة أعمدة، اثنان منها في وضع قائم، وكل منها بطول ما بين اثنتي عشرة قدما وأربع عشرة، وبقطر خمس عشرة بوصة، وعلى مسافة منها كان هناك عمود جميل من الجرانيت المصري الأحمر بقطر نحو من قدمين. وفي الجهة الشمالية من المدينة رأى الكاتب بقايا أسوار غليظة متصلة بالجبل ما دله على أن المدينة كانت محصنة من تلك الجهة. وبالإضافة إلى ذلك يقول إنه شاهد في الجهة الجنوبية الغربية من طبرية جامعا حسن البناء، ومعبدا أو مقاما لقديسة، وهو في ذلك يشير إلى مقام السيدة سكينة الذي أوردنا له ذكرا في فصل سابق.

وتختلف هذه الصورة التي أوردها بيركهارت لطبرية قبل الزلزال عنها بعده. فوفقا لما رأته النمساوية إيدا بفايفر التي كانت في طبرية سنة ١٨٤٢، أي بعد وقوع الزلزال بنحو من خمس سنوات، فقد كانت المدينة أشبه بالخرائب. تقول: "رأينا منازل مهدمة تماما، وأخرى محطمة جدا بشقوق كبيرة في الجدران، وشرفات وأبراجا مشعثة. وباختصار، فقد كنا نتجول بين خرائب"[٦٧].

ولم تتحسن الصورة بعد مضي ست سنوات من ذلك فالكابتن لينش الذي كان في المدينة سنة ١٨٤٨ يقول إن الخراب كان ما يزال ماثلا عندئذ من جراء زلزال ١٨٣٧ الذي أهلك قسما كبيرا من أهلها،

ويصف البلدة بأنها تعاني من سوء النظافة، خاصة اليهود منها الذين قال عنهم إنهم لا يهتمون بالتجارة، كما اعتادوا أن يفعلوا، إذ كان اهتمامهم الوحيد ينصرف إلى الصلاة وقراءة التلمود[٦٨].

وفي عام ١٨٥٧ زار و. م. تومسون طبرية وقال عنها "إن البلدة الحالية تقع على شاطئ البحيرة، وهي محاطة بسور، تمت تقويته بعدد من الأبراج، لكن زلزال سنة ١٨٣٧ أدى إلى سقوط جوانب كبيرة من السور، ثم لم يجر إصلاحه منذ ذلك الحين. ولا توجد في سوريا بلدة تماثل طبرية في كثرة أوساخها، وهي في الصيف شديدة الحرارة وتكثر فيها الهوام والحشرات"[٦٩].

وفي عام ١٨٦٧ مر الكاتب والروائي الأميركي الشهير مارك توين بطبرية في أثناء رحلة له طويلة شملت المشرق وأجزاء من أوروبا، وقال عنها إن سكانها من اليهود الدميمين والعرب والزنوج، ووصفها بأنها مدينة قذرة وفقيرة. أما اليهود فيها فقال عنهم بأسلوبه الساخر: "يقال إن هؤلاء ذوي الأنوف الطويلة، وطوال القامة مع هزال، والذين يبدون وكأنهم مصابون بعسر الهضم، ويعتمرون قبعات لا يمكن وصفها، ويتدلى أمام كل أذن من آذانهم جديلة جعداء، هم أنفسهم الفريسيون القدماء الذين كانوا يعتقدون بأنهم أقوم أخلاقاً من الآخرين. إنهم، من غير ريب، يظهرون كذلك"[٧٠].

وبعد سنتين (أي في سنة ١٨٦٩) تجول القسيس البريطاني أندرو تومسون في طبرية وقال عنها "شاهدنا أسوارها متهدمة في عدة مواضع بسبب الهزة الأرضية. وقد أعطتنا هذه الأسوار العالية فكرة عن أنها كانت فيما بضى تضم في داخلها مدينة ذات أهمية، ولكن ما أعظم الفرق بين القشرة الخارجية وما كان في جوفها. فهنا

جزء كبير غير مأهول، وقد تجمع السكان في الوسط، كأنهم يخشون وقوع هزة أخرى. ويقدر عدد السكان بألفي نسمة بينهم عدد قليل من الأسر المسيحية و٨٠٠ يهودي. أما البقية فمسلمون. وبدا لنا أن النظافة معدومة، خصوصا في الجزء اليهودي من البلدة، ولم تكن هناك شوارع لأن إنشاء البيوت لم يخضع لأي نوع من التنظيم."[٧١]

وبعد أكثر من أربعين سنة استمرت الآثار التي خلفها الزلزال ظاهرة. فقد رآها ماك جارفي سنة ١٨٧٩ ووصف سورها الذي كان متصدعا في جزء منه، بينما كانت أجزاء أخرى منه قد سويت بالأرض. إلا إنه يلفت نظره جامعها الذي قال عنه إنه على الرغم من الخراب الذي لحق بالجامع نفسه إلا إن مئذنته هي أجمل المآذن في فلسطين وأكثرها رشاقة، وهي سداسية الأضلاع ومبنية بالحجر الكلسي المصفر، وبأحزمة من حجر البازلت الأسود على مسافات متقاربة[٧٢].

ومع قرب انتهاء العهد العثماني لم تكن الأوضاع في طبرية بأفضل مما جاء من وصف لها في الكتابات السابقة. فإذا صدقنا ما كتبه الإنجليزي السير فردريك تريفيز، في كتاب له صادر في العام ١٩١٢ عن رحلة قام بها إلى فلسطين قبيل ذلك، فإن المدينة كانت آنذاك في حالة كئيبة جدا. فوفقا له[٧٣]، فإن البلدة مكونسة من شوارع ضيقة معبدة مغطاة بالأوساخ، أما بيوتها فغير ممتعة إن لم تكن قبيحة بالفعل. وسوقها متواضعة وقذرة من كثرة الإهمال، وهي باختصار مكان تعيس ونتن. ويتوسع تريفيز في وصف أوضاعها الصحية السيئة ويقول عن سكانها إجمالا إنهم أكثر الكائنات مرضا ممن يمكن أن تلقاهم خارج ردهات المستشفيات. ويقول عن اليهود فيها "إن أكثر العينات اكتئابا هي بعض اليهود الذين يدبون في المدينة وكأنهم

مرضى قد تماثلوا للشفاء ومصابون بالنكد. وهم يعتمرون فوق خصل شعورهم المعقوصة قبعات سوداء كبيرة أو قلنسوات من الفراء، وعلى أجسادهم عباءات كالتي يرتديها الزمنى الذين لم يعتادوا أن يرتدوا ملابس الخروج العادية... وهؤلاء الناس الذين يرتدون ملابس الزمنى يبدون هم أنفسهم زمنى: فهم هزيلون ومنهكون وشاحبون، حتى إن بعضهم يبدو وكأنه كان محجوبا عن ضوء النهار لأشهر إما في زنزانات أو في بيوت المجذومين".

حواشي الفصل الرابع

(١) عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦** (دمشق، د.ن، ١٩٧٤)، ص. ٦٥.

(٢) عبد العزيز محمد عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤** (القاهرة: دار المعارف، تاريخ المقدمة ١٩٦٧)، ص ص. ٦١-٦٢.

(٣) عبد الكريم رافق، **المرجع المذكور**، ص ص. ٩٥-٩٦.

(٤) **نفسه**، ص. ٩٦.

(٥) **نفسه**، ص ص. ١٥٢-١٥٣.

(٦) بازيلي، **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية**، ترجمة يسر جابر (بيروت: در الحداثة، ١٩٨٨)، ص. ٧٨.

(٧) عبد الكريم رافق، **المرجع المذكور**، ص. ٣١٠.

(٨) عادل مناع، **تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨: قراءة جديدة** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩)، ص. ٩٤.

(٩) شهدت الشام قبيل الحملة المصرية عليها عددا من الثورات على مظالم الولاة العثمانيين واحتجاجا على تجنيد الأهالي في الجيش العثماني؛ انظر: عادل مناع، **المرجع المذكور**، ص ص. ١٣٠-١٣١؛ عبد الكريم رافق، **المرجع المذكور**، ص ص. ٢٠٤-٢٠٥.

(١٠) بازيلي، **المرجع المذكور**، ص. ١٤٨.

(١١) زهير غنايم عبد اللطيف غنايم، **لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية ١٢٨١-١٣٣٧هـ/ ١٨٦٤-١٩١٨م** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩)، ص. ٣٣.

(١٢) عبد العزيز عوض، **المرجع المذكور**، ص. ٦٤.

(١٣) عادل مناع، **المرجع المذكور**، ص. ١٤٧.

(١٤) بارزيلي، المرجع المذكور، ص. ٢٩٩. وفي الحقيقة لم نجد في أي من مراجعنا الأخرى ما يفيد بشيء للتعرف على شخصية الشيخ سعيد عبد العال المذكور.

(١٥) انظر: عبد العزيز عوض، المرجع المذكور، ص. ٨. وخلال هذه الفترة كانت بلاد الشام تضم بالإضافة إلى ولاية بيروت كلا من ولاية سورية وولاية حلب وسنجق القدس المستقل (الذي يخاطب العاصمة العثمانية مباشرة ولا يتبع أيا من الولايات)، ومتصرفية لبنان (دون بيروت).

(١٦) اعتمدنا في هذا الموضوع على المراجع التالية:

- Naomi E. Pasachoff and Robert J. Littman, *A Concise History of the Jewish People* (Lanham: Rowman & Littlefield, 2005).

- *Jewish Encyclopedia*. article "Joseph Nasi".

- "Joseph Nasi", in: *Jewish Virtual Library* (A Division of the American-Israeli Cooperation Enterprise), as maintained on server: www.jewishvivtualibrary.org

- Harry Ojalvo, "Ottoman Sultans and their Jewish Subjects", *Foundation for the Advancement of Sephardic Studies and Culture*, as maintained on server: www.sephardicstudies.org

- جعفر هادي حسن، "هكذا ولدت إسرائيل: قصة المستوطنة الأولى"، مجلة العربي، العدد ٥٠٥ (ديسمبر ٢٠٠٠)

(١٧) هذا ما أورده مترجم حياة ظاهر العمر: ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، تعليق قسطنطين المخلصي (حريصا، ١٩٤٥) ص. ١٥.

(١٨) مناع، المرجع المذكور، ص. ٤٨، نقلا عن: توفيق معمر، ظاهر العمر، ط. ٢ (الناصرة، ١٩٩٠)، ص. ٣٤.

(١٩) مناع، المرجع المذكور، ص. ٤٩.

(٢٠) عبود الصباغ، الروض الزاهر في تاريخ ضاهر، تحقيق أسامة محمد أبو نحل (إصدار مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد العاشر، العدد الثاني، حزيران ٢٠٠٢)، ص. ٢٢.

(٢١) مناع، المرجع المذكور، ص. ٥٠.

(٢٢) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص. ٢٢.

(٢٣) ميخائيل الصباغ، المصدر المذكور، ص. ١٥.

(٢٤) بازيلي، المرجع المذكور، ص. ٧٠.

(٢٥) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص. ٢٣.

(٢٦) عن حادثة البعنة وتوابعها أنظر: نفسه، ص ص. ٢٤-٣٠.

(٢٧) نفسه، ص. ٣٥.

(٢٨) رافق، المرجع المذكور، ص. ٢٤٥.

(٢٩) البديري الحلاق، (نسخة الوراق الألكترونية)، ص.٥.

(٣٠) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص ص. ٣٣-٣٤.

(٣١) مناع، المرجع المذكور، ص. ١٥٣؛ البديري الحلاق، المصدر المذكور، ص. ١٩؛ عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص ص. ٣٧-٣٨.

(٣٢) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص. ٤٣.

(٣٣) البديري الحلاق، المصدر المذكور، ص. ١٠.

(٣٤) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص ص. ٤١-٤٣.

(٣٥) نفسه، ص ص. ٤٠-٤٣.

(٣٦) مناع، المرجع المذكور، ص. ٧٣.

(٣٧) الخوري ميخائيل بريك الدمشقي، تاريخ الشام، تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٢)، ص. ٢٧.

(٣٨) رافق، المرجع المذكور، ص ص. ٢٨٣-٢٨٤.

(٣٩) نفسه، ص. ٢٩٤.

(٤٠) وصف ميخائيل الدمشقي، المصدر المــذكور، ص. ١٠٦، نتائج هذه الموقعة بقوله إن عساكر عثمان باشا كسروا، فمنهم من قتل، والبقية رموا بأنفسهم في ميــاه البحيــرة، وغرقوا، كما إن الباشا نفسه رمى نفسه في الماء إلا أن جماعته أخرجوه، ومن عاد منهم إلى دمشق، فقد عادوا بــكل خزي"، بينما كسب ظاهر العمر، ورجع إلى عكـا "كاســبا غانما".

(٤١) عبود الصباغ، المصدر المذكور، ص ص. ١٠٦-١٠٧.

(٤٢) بازيلي، المرجع المذكور، ص ص. ٨٦-٨٧،

(43) John Lewis Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London: John Murray. 1822), p. 322.

(44) J.S. Buckingham, *Travels in Palestine through the Countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan* (London: Hurst, Rees, Orme &Brown, 1831).

نقلا عن: سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين (عمان: منشورات دائــرة الثقافــة والفنون، ١٩٨٧)، المجموعة الثانية، ص. ٣٨. وقد قام باكنجهام برحلته إلى فلسطين سنة ١٨١٦.

(45) Ida Pfeifer, *A Visit to the Holy Land, Egypt and Italy* (London: Ingram Cooke & co., 1857), Chapter X.

وكانت إيدا بفايفر في طبرية سنة ١٨٤٢.

(46) W.F. Lynch, *Narrative of the United States Expedition to the River Jordan and the Dead Sea* (Arno Press, Philadelphia, 1849).

نقلا عن: سليمان موسى، المرجع المذكور، ص. ٦٥. ووليم لينش هو قائد بعثة من سلاح البحرية الأميركي أرسلت لدراسة طبيعة الأرض التي يجري فيها نهر الأردن فيما بــين بحيرة طبرية والبحر الميت. وللكتاب يتحدث عن أعمال البعثة ومشاهداتها فــي الأشــهر الأولى من عام ١٨٤٨.

(47) Rev. W.M. Thomson, *The Land and the Book* (London: T. Nelson and Sons, 1879).

نقلا عن سليمان موسى، المرجع المذكور، ص. ١٤٤. وقد عمل طومسون في مجال الإرساليات في سوريا وفلسطين مدة ثلاثين عاما. وقام برحلة في عام ١٨٥٧ بدأها من بيروت واختتمها بالقدس. وكتابه المذكور يضم يومياته في تلك الرحلة.

(48) Andrew Thomson, *In the Holy Land* (New York: Randolph & Co., 1869).

نقلا عن: سليمان موسى، المرجع المذكور، ص. ٢٤٢. وأندرو تومسون هو قسيس بريطاني من ادنبرة، قام برحلة إلى المشرق سنة ١٨٦٩.

(٤٩) كتب سالنامة الدولة العلية العثمانية هي كتب سنوية كانت تصدرها الدولة العثمانية وتتناول فيها التنظيم الإداري في ولاياتها كافة، ويغلب عليها الطابع الإحصائي. البيانات في الجدول نقلا عن: زهير غنايم عبد اللطيف غنايم، لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩)، ص. ١١٩.

(50) Claude Conder and H.H. Kitchener, *The Survey of Western Palestine, Vol. I Galilee* (London: The Committee of the Palestine Exploration Fund, 1883).

نقلا عن غنايم، المرجع المذكور، ص. ١١٩. وكان "صندوق استكشاف فلسطين" Palestine Exploration Fund قد أوفد كوندر وكتشنر، وكانا ضابطين في الجيش البريطاني، على رأس بعثة لإجراء مسح في فلسطين بين ١٨٧٤ و١٨٧٧.

(51) J.W. Mc Garvey, *L ands of the Bible: A Geographical and Topographical Description of Palestine* (Cincinnati: The Standard Publishing Company, 1880), Part II, Chapter VII.

وماك جارفي هو أستاذ أميركي مختص بدراسة "الجغرافية المقدسة"، قام برحلة استمرت ثلاثة أشهر إلى فلسطين ومصر وسورية في العام ١٨٧٩.

(52) Gottlieb Schumacher, "Population List of Liva Akka", PEF [Palestine Exploration Fund], 1887.

نقلا عن: غنايم، المرجع المذكور، ص. ١١٩. وشوماخر أميركي من أصل ألماني، هاجر مع أسرته وهو طفل إلى فلسطين إذ كان أبوه أحد أعضاء جماعة مسيحية كانت تستهدف استيطان فلسطين. درس الهندسة في ألمانيا، ثم عمل في خدمة السلطنة العثمانية حيث

عين كبيرا للمهندسين في لواء عكا. وبهذه الصفة قام بعدة مسوح في فلسطين والجـولان وحوران ومنطقة عجلون في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

(53) George Adam Smith, *The Historical Geography of the Holy Land*, 7th edition (London: Hodder and Stoughton, 1901), p. 445.

والمولف لاهوتي أسكتلندي له عدة مؤلفات في التاريخ التوراتي، كما له بالإضـافة إلـى الكتاب المذكور أعلاه كتاب عن القدس. قام برحلتين إلى فلسطين إحـداهما فـي ١٨٩١، وبوحي منها كتب كتابه عن جغرافيتها التاريخية.

(٥٤) نقلا عن: غنايم، المرجع المذكور، ص. ١١٩.

(٥٥) نقلا عن الموقع نفسه.

(٥٦) نقلا عن الموقع نفسه.

(٥٧) عبد الله عبد السلام القلشان، التعليم في فلسطين - الجزء الأول: التعليم العربـي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ١٥١٦-١٩٤٨ (عمان: منشورات دار الكرمل، ١٩٨٧)، ص. ١٣.

(٥٨) عبد العزيز عوض، المرجع المذكور، ص. ٢٥٤.

(٥٩) كما يتبين من جدول لدى: عبد العزيز عوض، المرجع نفسه، ص. ٣٦٦، نقلا عن سالنامة ولاية سورية سنة ١٣٠٣ (١٨٨٦).

(٦٠) الدباغ، في ديار الجليل

(٦١) مصطفى مراد الدباغ، "التعليم في فلسطين فـي عهـد الانتـداب"، الموسـوعة الفلسطينية- القسم الثاني: الدراسات الخاصة، دراسـات الحـضارة (بيـروت: هيئـة الموسوعة، ١٩٩٠)، ص. ٦٦.

(٦٢) الدباغ، في ديار الجليل

(٦٣) نفسه

(٦٤) مصطفى مراد الدباغ، التعليم في فلسطين، المرجع المذكور، ص. ٦٦.

(٦٥) الدباغ، ديار الجليل

(66) Burckhardt, *op.cit*, pp. 320-323.

(67) Ida pfeifer, *op.cit*., chapter X.

(٦٨) W.F. Lynch, op.cit. نقلا عن سليمان موسى، المرجع المذكور، ص ص. ٦٤-٦٦.

(69) Rev. W.M. Thomson, *op.cit*,

نقلا عن سليمان موسى، المرجع المذكور، ص. ١٤٤.

(70) Mark Twain, *The Innocents Abroad or the Pilgrims' Progress* (New York and London: Harper & Brothers, 1869) Vol. II, p. 260.

(٧١) Andrew Thomson , op.cit. نقلا سليمان موسى، المرجع المذكور، ص. ٢٤٢.

(72) McGarvey, *op.cit*., p. 320.

(73) Sir Fredrick Trevers, *The Land that is Desolate: An Account of a Tour in Palestine* (London: Smith, Elder & Co., 1912), pp. 195-197.

الفصل الخامس

تحت الحكم البريطاني

(١)

في الحرب العالمية الأولى

أعـادت الحـرب العالميـة الأولـى (١٩١٤-١٩١٨) تـشكيل خارطة الوطن العربي بأجمعها (خاصة منطقـة الهـلال الخـصيب) التـي توزعت بين سيادات مختلفة بعد خروجها مـن ظـل الـسيادة العثمانيـة. وقد تأطرت الشظايا التي انقسم إليها الوطن العـرب نتيجـة هـذه الحـرب ضمن حدود جغرافية وامتدادات سـكانية بفعـل المـصالح الدوليـة فـي المنطقة والتنافس فيما بينهـا الـذي كـان يأخـذ، احيانـا، شـكل علاقـة الصراع ما بين أطرافها، وأحيانا تفرض ضـرورات التـوازن مـا بـين هذه الأطراف أنواعا مـن علاقـات التوافـق أو المـصالحة أو التواطـؤ، بحيث قرر تفاعل الـصيغتين معـا (الـصراع والتوافـق) شـكل امتـداد الإقليم الجغرافي وحجمه، أرضـا وسـكانا، فـي ضـوء مـوازين قـوى الصراع وتغالبها السياسي وحسابات الأرباح والخسائر لكل منها.

وكان اللاعبـان الأساسـيان فـي هـذا الـصراع (مـن خـارج المنطقة) قد تمثلا فـي بريطانيـا وفرنـسا، وإلـى درجـة أقـل روسـيا القيصرية. وقد لعبـت الـصهيونية دورا أساسـيا فـي إطـار مجموعـة العوامل هذه؛ فهي بجانب ما قدمتـه مـن تفـسيرات "نظريـة وتاريخيـة" لأطراف الصراع الـدولي فـي هـذا التنـافس، عملـت أيـضا لحـسابها الخاص في تعيين هذا الامتداد لما يلبي أهـدافها، أو جـزءا منهـا، بقـدر ما يتاح لها في ظل الصراع.

وقد تكفلت هذه العوامل جميعـا بتكبيـل الطمـوح العربـي نحـو إقامة دولة عربية مستقلة وموحدة والتي كانت إرهاصاتها قـد بـدأت فـي الظهور في السنوات القليلة التـي سـبقت الحـرب العالميـة الأولـى ثـم تجسدت في أثناء الحرب في المشروع الـذي طرحتـه الثـورة العربيـة، بقيادة الشريف حسين، في إقامة هذه الدولة فـي إطـار جغرافـي يـشمل الهلال الخصيب (العراق وبـلاد الـشام) والجزيـرة العربيـة، وضـرب هذا الطموح في الصميم بعمليـة سـلب منهجيـة تقاسـم فيهـا اللاعبـون الأوروبيون الأساسيون فيما بيـنهم مـصائر الامتـداد الجغرافـي الـذي رشـحه الطمـوح العربـي ليكـون فـضاء الدولـة العربيـة المـستقلة والموحدة.

أين كانت طبرية في إطار هذه الإرادات المتصارعة؟

طبرية جزء

من مشروع الدولة العربية المستقلة

لم يلحـظ مـشروع الـشريف حـسين وضـعا خاصـا لطبريـة باعتبارها، وكتحصيل حاصل، سوف تكون جـزءا مـن الدولـة العربيـة المستقلة والموحـدة. فالمـشروع الـذي طرحـه الـشريف حـسين فـي مراسلاته مع السير هنري مكماهون، المعتمـد البريطـاني فـي مـصر [*]،

---

[*] جرى تبادل هذه الرسائل ما بين ١٤ تموز ١٩١٥ و١٠ آذار ١٩١٦، وعـددها عـشر رسائل منها خمس رسائل وجهها للشريف حسين، وخمس أخرى كانت من مكمـاهون. وأهم هذه الرسائل المتصلة بحدود الدولة العربية المقترحة خاصة اثنتان: أحداهما مـن>

كان يدعو إلى دولة عربية حدودها في الشمال خط أذنة - مرسين والجنوبية المحيط الهندي (جنوب الجزيرة العربية)، والشرقية بلاد فارس حتى خليج البصرة وخليج البصرة (الخليج العربي)، والغربية البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء. وقد تحفظ مكماهون على هذه الحدود المطلوبة فاستثنى منها أذنة - مرسين (وقد وافقه الشريف حسين على ذلك)، و"الأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب"، والمقصود بها لبنان (وهو ما رفضه الشريف حسين). وعلى كل حال، حتى مع هذا الاستثناء البريطاني المرفوض، فإن طبرية كانت تقع في إطار هذه الدولة العربية التي شرّع الشريف حسين تخومها.

وبخلاف ذلك، يمكن تلمس اهتمام خاص بطبرية فيما كانت القوى الكبرى تدبر للمنطقة عموما في أثناء الحرب العالمية الأولى والسنوات القليلة التي أعقبتها. وقد صنع هذا الاهتمام إجمالا عاملان: الأول عامل المياه بما كان يمثله خزان المدينة الكبير (بحيرة طبرية) من أهمية خاصة في اقتصاد المنطقة في المستقبل، والثاني التراثان اليهودي والمسيحي اللذان ميزا المدينة ومنطقتها بالقداسة، الحقيقية أو المدعاة.

>الشريف حسين بتاريخ ١٤ تموز ١٩١٥، والأخرى من مكماهون في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥، التي استثنى فيها بعض المناطق التي طالب بها الشريف.

طبرية في اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦

في الوقت الذي كانت بريطانيا تتعهد للشريف حسين بالاعتراف بدولة عربية موحدة ومستقلة مقابل اشتراكه مع الحلفاء في الحرب على الدولة العثمانية، كانت تفاوض على جبهة أخرى مع حلفائها الأوروبيين على تقاسم الوطن العربي فيما بينها بعد زوال الحكم العثماني عنه والذي ظهر في أثناء الحرب العالمية الأولى أنه وشيك وحتمي.

وقد أسفرت هذه المفاوضات الأخيرة عما عرف باتفاقية سايكس – بيكو التي كانت الأولى في التاريخ الحديث التي ترسم حدود المطامع الإستعمارية في العالم العربي بوضوح. الاتفاقية، بإيجاز شديد[١]، هي النتيجة التي أسفرت عنه مفاوضات بين بريطانيا، وقد مثلها مارك سايكس، وفرنسا ومثلها جورج بيكو، وروسيا القيصرية، ممثلة بوزير خارجيتها سازونوف، لاقتسام تركة "الرجل المريض" – الدولة العثمانية، بعد انتهاء الحرب. وقد توصلت الأطراف الثلاثة إلى اتفاق نهائي فيما بينها من خلال رسائل متبادلة بين العواصم الثلاث: الفرنسية والبريطانية والروسية[٢]، ومن هذه الرسائل تعتبر الرسالة التي وجهها إدوارد جري وزير خارجية بريطانيا إلى بول كامبون السفير الفرنسي في لندن في ١٦ أيار ١٩١٦ هي الوثيقة الأساسية في الاتفاقية التي توضح مضمونها بتفصيل.

وفيما يتصل بالعالم العربي، فقد قضت الاتفاقية بتوزيعه بين بريطانيا وفرنسا، مع إبقاء منطقة لم يتم الاتفاق عليها لتكون منطقة دولية. وقد أرفقت الاتفاقية بخريطة توضح "حصص" كل من هاتين الدولتين، وأعطيت رموزا وألوانا مختلفة (دون تسميتها) تبين توزيع هذه الحصص كما يلي:

١ـ المنطقة (أ) التي يقام فيها دولة عربية بنفوذ فرنسي (أولية الحق لفرنسا في المشاريع والقروض المحلية وهي وحدها التي ستزود المنطقة بالمستشارين والموظفين الأجانب). وتشمل هذه المنطقة سوريا الداخلية بما فيها مدن دمشق وحمص وحماة وحلب، ثم في اتجاه شمالي شرقي لتشمل الموصل.

٢ـ المنطقة (ب) التي يقام فيها أيضا دولة عربية لكن بنفوذ بريطاني (أولية الحق لبريطانيا في المشاريع والقروض المحلية، وهي وحدها التي ستزود المنطقة بالمستشارين والموظفين الأجانب). وتشمل هذه المنطقة أجزاء من جنوب فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ثم تتجه شرقا فتعبر وادي عربة والبحر الميت ونهر الأردن إلى الشرق من النهر، وبادية الشام حيث يتجه قسم منها شمالا لتضم كركوك في حدودها، وقسم آخر في اتجاه جنوبي شرقي إلى الكويت فساحل الخليج العربي.

٣ـ "المنطقة الزرقاء" التي سوف يسمح لفرنسا وحدها بإقامة إدارة مباشرة أو غير مباشرة كما ترغب في ذلك. وتشمل هذه المنطقة ساحل سوريا الشمالي على البحر الأبيض المتوسط ولبنان، كما تشمل أجزاء من جنوب تركيا.

٤ــ المنطقة الحمراء التي يسمح لبريطانيا وحدها بإقامة إدارة مباشرة أو غير مباشرة وفق رغبتها. وتشمل العراق من شمال بغداد إلى البصرة على رأس الخليج العربي.

٥ــ ميناءا حيفا وعكا اللذان منحتهما الاتفاقية لبريطانيا.

٦ــ "المنطقة البنية" Brown Area وهي ما اختلف عليها الثلاثة الكبار، وقرروا في النهاية أن يجعلوها "دولية" إذ نصت الاتفاقية على مايلي بخصوصها: "في المنطقة البنية تنشأ إدارة دولية، وهي صيغة يجب أن تقرر بعد التشاور مع روسيا، وبالتالي مع الحلفاء الآخرين، وممثلي شريف مكة".

ووفقا للتقسيمات الإدارية العثمانية التي كانت قائمة آنذاك، ضمت "المنطقة البنية" هذه (انظر الخريطة رقم ٧) معظم لواء عكا، وظلت صفد خارجها وألحقت بالمنطقة (أ) المرشحة لتكون ذات نفوذ فرنسي، كما أخرجت مدينتا حيفا وعكا من اللواء لتمنحا لبريطانيا. كما ضمت "المنطقة البنية" جميع لواء نابلس ومعظم متصرفية القدس التي أخرجت منها الخليل ومنطقة النقب، وقد ضمت هاتان المنطقتان الأخيرتان إلى المنطقة (ب) التي قررت الاتفاقية أن تكون ذات نفوذ بريطاني.

وفي هذه التقسيمات التي قضت بها اتفاقية سايكس ــ بيكو كانت طبرية تقع في إطار "المنطقة البنية"، أي مرشحة لتكون تحت إدارة دولية لو قدر لهذه الاتفاقية أن تنفذ بحذافيرها بعد الحرب العالمية الأولى.

ومن المثير أن نلحظ هنا كيف وظف "الدين" لتغليف المطامع الإستعمارية في المنطقة، فما كان على السطح في المفاوضات التي جرت في شأن فلسطين عامة بين الفرقاء أطراف اتفاقية سايكس ـ بيكو أن الطريق إلى قرار تدويل "المنطقة البنية" كان يمر عبر بوابة الادعاءات الدينية. ففي وقت مبكر من الحرب العالمية الأولى أظهر الفرنسيون أن فلسطين تقع ضمن مطامعهم بالممتلكات العثمانية. ففي خريف ١٩١٤ أثار دلكاسيه، وزير خارجية فرنسا، في البرلمان الفرنسي المطالب للفرنسية هناك، كما أولت الصحافة الفرنسية اهتمامها الكبير بهذه المسألة[٣]. وكان الفرنسيون يشيرون في ذلك إلى أنهم يرغبون في ضم سوريا إليهم. وكان مفهوما، آنذاك، أن سوريا تشمل فلسطين[٤]. وفي تشرين الثاني من العام نفسه جرى اجتماع بين قيصر روسيا وباليولوغ، السفير الفرنسي في بطرسبرغ، أقر خلاله القيصر لفرنسا بـ"مطالبها" بالنسبة لفلسطين[٥].

غير أن الروس تراجعوا عن هذا الموقف بعد قليل. ففي آذار ١٩١٥ طلبت الحكومة الفرنسية رسميا من روسيا أن توافق على إقامة حكم فرنسي في فلسطين وسوريا، غير أن الروس رفضوا رفضا قاطعا أن تكون لفرنسا سلطة كاملة في "الأماكن المقدسة"، وطالبوا بضمانات تحترم حقوقهم.

وقد توازى مع هذا الموقف الروسي الجديد موقف بريطانيا التي كانت ترفض أن تتفرد فرنسا بفلسطين، وكان هذا الرفض نابعا من تقدير البريطانيين لأهمية فلسطين الاستراتيجية بالنسبة لقناة السويس، فهي بمحاذاتها القناة كانت تمثل عمقا دفاعيا عنها. وكان

الهجوم الذي قام به العثمانيون في أواسط شباط ١٩١٥ على القناة — على الرغم من أنه لم يكتب له النجاح — سببا في تأكيد أهمية الخطر الذي يأتي من أي هجوم بري عبر فلسطين.

وقد كانت هذه المعارضة التي تشبث في وجه فرنسا من جانب حلفائها، سببا في أن دلكاسه أعلن عن رغبته في التنازل عن مطامح فرنسا بالنسبة للأماكن المقدسة، بشرط أن يسمح لها بالمطالبة "بهذا الجزء أو ذاك من فلسطين". غير أن الوزير الفرنسي تسلم جوابا حاسما من بطرسبرغ يذكر أن المصالح الأرثوذكسية الروسية تشمل الأرض المقدسة التي تضم الجليل ونهر الأردن وبحيرة طبرية والقدس، وأن هذه الأماكن لا يمكن أن تخضع لحماية دولة كاثوليكية[٦].

وفي ضوء هذه الادعاءات جميعا، كان الحل التوفيقي بين الأطراف المتنازعة على وراثة "الأرض المقدسة"، بما فيها طبرية، أن تكون دولية، وهو قرار إن نظر في جوهره كان يعني بصورة من الصور تأجيل البت في مصيرها بانتظار ما سوف تسفر عنه الحرب من نتائج على الأرض قد تضع بيد الأقوى في المنطقة زمام المبادرة في تقرير مستقبلها.

الاحتلال العسكري البريطاني

كان الاحتلال البريطاني لطبرية في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى. فقد شرعت القوات البريطانية في التوغل في اتجاه بلاد الشام قادمة من مصر (فعرفت هذه القوات بسبب ذلك بالحملة

المصرية) اعتبارا من تشرين الأول ١٩١٦ عندما بدأت العمليات البريطانية في سيناء (بعد أن فشل هجومان عثمانيان على جبهة قناة السويس في شباط ١٩١٥ وآب ١٩١٦). ومن سيناء اتجهت "الحملة المصرية" إلى رفح واستولت عليها (كانون الثاني ١٩١٧)، غير إنها فشلت مرتين في الاستيلاء على غزة (آذار ونيسان ١٩١٧)، ما استدعى تغيير قائد الحملة وتعيين الجنرال اللنبي قائدا جديدا لها. وقد تمكن هذا من الاستيلاء على بئر السبع (تشرين الأول ١٩١٧)، ثم غزة (تشرين الثاني من العام نفسه)، وفي التاسع من كانون الأول ١٩١٧، دخلت قوات الجنرال اللنبي مدينة القدس بعد أن انسحبت منها القوات العثمانية.

وخلال تسعة أشهر من ذلك التاريخ تبادل الإنجليز والعثمانيون هزائم وانتصارات عسكرية محدودة إلى أن كانت معركة مجدو (قرية تل المتسلم على بعد ٣٠ كم إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، و٤٠ كم إلى الغرب من نهر الأردن) في ١٩ أيلول ١٩١٨ التي هزم فيها العثمانيون هزيمة ساحقة وكرست السيطرة العسكرية البريطانية على معظم فلسطين. وقد اتجه الجنرال اللنبي، بعد هذه المعركة، شرقا لجنوب وعبر نهر الأردن (على الجسر الذي سمي فيما بعد باسمه) ومقصده دمشق. وخلال أحد عشر يوما حققت القوات البريطانية، ومعها قوات الثورة العربية، انتصارات حاسمة على العثمانيين، ووصلت القوات الأخيرة إلى دمشق في ٣٠ أيلول ١٩١٨ لتلحق بها القوات البريطانية في اليوم نفسه، ولتفرض حصارها على المدنية.

في هذا اليوم بالذات اتجهت فرقة كبيرة من القوات البريطانية إلى طبرية واستولت عليها، واتجهت منها شمالا لتؤمن الجسر (جسر بنات يعقوب) الذي يقع على مجرى نهر الأردن الشمالي ما بين بحيرتي طبرية والحولة. وفي اليوم التالي (الأول من تشرين الأول ١٩١٨) دخلت طلائع قوات الثورة العربية دمشق لينتهي بذلك فعليا العهد العثماني في جنوب بلاد الشام*.

(٢)
الانتداب والمياه والحدود

مزقت بريطانيا أجزاء مهمة من اتفاقية سايكس ـ بيكو بأن ألغت فكرة دولية "المنطقة البنية"، والتي تشمل إجمالا معظم فلسطين، وأخضعتها لسيطرتها العسكرية المنفردة. وقد أرفقت ذلك بوعد قطعته على نفسها بأن "تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل هذه الغاية"، وفق نص تصريح اللورد بلفور وزير خارجيتها في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧. ولم يمض غير قليل، حتى كرست بريطانيا مسألة وجودها في فلسطين بنظام الانتداب عندما اقتسمت هي وفرنسا منطقة الهلال

* تلاحقت هزائم العثمانيين بعد دمشق في شمال بلاد الشام ولبنان ما أدى إلى انسحابهم من تلك المناطق، وتوقفت الحرب رسميا في الثلاثين من تشرين الأول ١٩١٨ بتوقيع العثمانيين الهدنة مع قوات الحلفاء، ليكون ذلك نهاية عهد الحكم العثماني للبلاد العربية.

الخصيب العربية إذ نالت بريطانيا حصتها بأن تكون منتدبة على فلسطين والعراق، وفرنسا على سوريا ولبنان*.

ولكن ما هي فلسطين التي نالتها بريطانيا غنيمة لها على أن تؤسس وطنا قوميا لليهود فيها؟ ليس هناك، لا في صك الانتداب ولا في تصريح بلفور، ما يدل على تخوم هذه "الفلسطين". ولم تتحدد هذه التخوم إلا بعد نحو من أربع سنوات من انتهاء الحرب العالمية الأولى جرى خلالها "مشادات" على درجة عالية من التوتر بين بريطانيا وفرنسا حول تخطيط الحدود التي تفصل منطقتي انتدابهما. بإجمال، كانت فرنسا تذهب إلى توسيع منطقة انتدابها في لبنان إلى أقصى ما يتاح لها بأن تدفع حدود فلسطين الشمالية إلى الجنوب بقدر ما تستطيع، بينما كانت بريطانيا تدفع بخط الحدود هذا إلى الشمال بقدر ما تستطيع أيضا[٧].

---

* طبقت فكرة الانتداب على المناطق العربية التي خرجت من تحت الحكم العثماني بموجب معاهدة سيفر التي صاغها المجلس الأعلى للحلفاء (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الميركية) في مؤتمر لندن (١٢ شباط ١٩٢٠). وبموجب هذه المعاهدة قرر مجلس الحلفاء وضع فلسطين والعراق وسوريا تحت الانتداب. وبعد شهر وقليل قرر المجلس في سان ريمو بإيطاليا (في ٢٥ نيسان ١٩٢٩) وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، وسوريا (بما فيها لبنان) تحت الانتداب الفرنسي. وقد صادقت عصبة الأمم (في ٦ تموز ١٩٢١) على صك الانتداب على فلسطين، ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ أيلول ١٩٢٣.

وفي هذه "المشادات" كانت مسألة المياه محورا اساسيا لما تمثله من أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل فلسطين الاقتصادي. وقد شملت هذه المسالة نهر الليطاني، ومنابع نهر الأردن وروافده، ونهر الأردن نفسه، ونهر اليرموك، بالإضافة طبعا إلى مياه بحيرة طبرية. ولم تكن الحركة الصهيونية بغائبة عن هذه "المشادات"، إذ كانت تضغط، من خلال بريطانيا، باتجاه أن تكون فلسطين، التي وعدت بأن يؤسس فيها وطن قومي لليهود، متسعة قدر الإمكان ومسيطرة على مصادر المياه جميعا التي أشرنا إليها. وهي في الوقت نفسه وضعت بيد المفاوض البريطاني ذخيرة كانت الأساطير التوراتية قد صاغتها عن حدود "إسرائيل التاريخية"، وجعلها المفاوض البريطاني من جملة أوراقه، وربما الورقة الرئيسية، في مفاوضاته مع الفرنسيين، فتمسك بالأسطورة التوراتية التي تذهب إلى أن إسرائيل القديمة كانت تقع ما بين دان (موقع تل القاضي في شمال فلسطين) وبئر السبع، فبمثل هذه الخريطة ـ الأسطورة يمكن تأمين معظم مصادر المياه في الشمال لتكون ضمن حدود "الفلسطين" التي يريدها.

وكان هناك تسليم من جانب البريطانيين والفرنسيين على السواء بأن تكون طبرية من نصيب البريطانيين، غير أن بحيرتها كانت مسألة أخرى. ففي إحدى مراحل المفاوضات، جرى اتفاق بين الحكومتين البريطانية والفرنسية، وقع في باريس في ٢٣ كانون الأول ١٩٢٠، على أن يمر خط الحدود بين منطقتي الانتداب البريطاني والانتداب الفرنسي في وسط بحيرة طبرية. غير إن بريطانيا عادت وتراجعت عن هذا الاتفاق وراحت تصر على أن

تكون بحيرة طبرية بما فيها شواطئها الشرقية ضمن فلسطين(ـــها).
وبعد مفاوضات عسيرة استغرقت سنوات، نالت بريطانها بغيتها بموجب اتفاقية وقعت بين الدولتين الاستعماريتين في السابع من آذار ١٩٢٣، رسمت بدقة الحدود بين منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي[٨].

وبموجب هذه الاتفاقية يسير خط الحدود (انظر الخريطة رقم ٨) من رأس الناقورة على البحر الأبيض المتوسط، ويتجه شرقا بشكل متعرج إلى الشمال الغربي من قرية المالكية، حيث يتجه إلى الشمال من المطلة (في فلسطين)، ثم يتجه باتجاه جنوبي شرقي ليعبر نهر الحاصباني إلى تل القاضي الذي يبقى في فلسطن، ثم يتجه شرقا ليعبر نهر بانياس على مسافة ٩٠٠ متر إلى الجنوب الغربي من قرية بانياس، ويسير مع الضفة اليسرى لنهر بانياس باتجاه الجنوب الغربي حتى منطقة تل العزيزات، ثم يتجه جنوبا ويسير إلى الشرق من بحيرة الحولة ثم مع نهر الأردن حتى جسر بنات يعقوب، حيث يسير إلى الشرق من نهر الأردن إلى مصب النهر في بحيرة طبرية.

ومن هنا يبدأ خط الحدود بالسير على مسافة ١٠ أمتار من شاطئ بحيرة طبرية الشرقي إلى منتصف هذا الشاطئ تقريبا، إذ يبدأ خط الحدود عند هذه النقطة بالاتساع إلى الشرق لمسافة تبعد عن الشاطئ بما يتراوح بين ١٢٠٠ متر وأكثر من كيلومترين، بحيث يضم داخله جزءا من المنحدرات الغربية لهضبة الجولان. ويصل الخط إلى جنوب بحيرة طبرية على مسافة تبعد ٥٠٠ متر إلى الشمال والشمال الغربي من خطة سكة حديد درعا ــ يافا (حيث يبقى هذا

الجزء من الخط ضمن الأراضي الفلسطينية)، ثم يسير خط الحدود موازيا لطريق سمخ ـ الحمة (إلى الشمال منه وعلى بعد ٥٠ مترا)، حتى ينتهي في الشرق في نقطة تبعد ٥٠٠ متر إلى الشرق من الحمة.

وبهذه الاتفاقية تمكنت بريطانيا من الفوز بطبرية وبحيرتها ومصادر المياه التي تصب في البحيرة لتكون من جملة ما اختلسته من غنائم في الحرب.

(٣)
التقسيمات الإدارية

كان الاحتلال البريطاني العامل الحاسم في رسم حدود جديدة لمنطقة سوريا الكبرى وتقسيماتها الداخلية. فالسلطة الآن، المدعومة بالقوة العسكرية، أصبحت في يد بريطانيا بغير منازع، وقد رأت من مصلحتها أن تتخلى عن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في العهد العثماني وتنشئ أخرى وفق ما يلبي هذه المصلحة.

وهكذا، على أثر احتلال القوات البريطانية ـ ومعها قوات الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ـ سوريا، وضع الجنرال اللنبي نظام "إدارة مناطق العدو المحتلة" (إ.م.ع.م) Enemy Occupied Territory Administration، وبموجب هذا النظام قسمت البلاد السورية إلى الأقسام التالية:

١ـــــ إ.م.ع.م الـشمالية، وتـشمل الـساحل الـسوري واللبنـــاني المتطابق تقريبا مع "المنطقة الزرقاء" حـسب اتفاقيـــة ســايكس ــ بيكـو، والتي خصصتها الاتفاقيـــة لتكـون تحـت الإدارة الفرنــسية. ونظـــرا لأن الفرنسيين لم يكونوا قادرين على تـوفير قـوات عـسكرية مـن أوروبـا، فقد استمر البريطانيون في احتلال هـذه المنطقـــة إلـى مــا بعــد انتهــاء الحرب العالمية الأولى.

٢ـــــ إ.م.ع.م الـشرقية، وتـــشمل ســورية الداخليـــة والمنـــاطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن، وهي تتطابق تقريبـــا مـــع المنطقتـــين (أ) و(ب) حسب اتفاقية سايكس ــ بيكو، وقـــد خصــصت هـــذه المنطقـــة لتكون تحت إدارة الأمير فيصل.

٣ــ إ.م.ع.م الجنوبية وتشمل أجــزاء مــن جنـوب لبنـــان (مـــن نهر الليطاني) ومتصرفية القدس المستقلة ولـواءي نـــابلس وعكـــا، وهـــي تزيد قليلا نحو الشمال عن "المنطقة البنية" التـــي كـــان ينبغـــي أن تكـــون منطقة دولية وفق اتفاقية سايكس ــ بيكو. وكانت طبرية تقـــع فـــي إطـــار هذه المنطقة التي عين لهـــا حـــاكم عـسكري بريطـــاني، وظلـــت تحكـــم عسكريا إلى سنة ١٩٢٠ عندما منحـــت بريطانيـــا صـــفة الانتـــداب علـــى فلسطين، فتحول الحكم إلى إدارة مدنية بريطانيـــة، علـــى رأســـها منـــدوب سام تعينه الحكومـــة البريطانيـــة (كـــان هربـــرت صـــموئيل البريطـــاني الصهيوني هو أول من تولى هذا المنصب).

وقد أتاح مرسوم "دسـتور فلـسطين" الـذي أصـــدرته الحكومـــة البريطانية فـــي العـــام ١٩٢٢ للمنـــدوب الـــسامي تقـسيم فلـسطين إلـــى وحدات إدارية مدنية تسهل من مهمـــات الإدارة. وبـــذلك صـــدر منـــشور

بالتشكيلات الإدارية في العام نفسه، قسمت فلسطين بموجبه إلى ثلاثة ألوية يضم كل لواء منها عددا من الأقضية كما يلي[٩]:

(١) لواء القدس، ومركزه القدس، ويضم أقضية: بيت لحم، الخليل، القدس، أريحا، رام الله.

(٢) اللواء الجنوبي، ومركزه يافا، ويضم أقضية: بئر السبع، غزة، يافا، الرملة.

(٣) اللواء الشمالي، ومركزه حيفا، ويضم أقضية: عكا، بيسان، جنين، نابلس، الناصرة، صفد، طولكرم، طبرية.

وقد استمر الوضع قائما كذلك إلى العام ١٩٣٩، عندما صدر في اليوم الأول من تموز من العام نفسه مرسوم قسمت فلسطين بموجبه إلى ستة ألوية، يضم كل لواء منها عددا من الأقضية، ليستمر الوضع كذلك إلى نهاية عهد الانتداب في العام ١٩٤٨. وكانت هذه التشكيلات كما يلي:

(١) لواء الجليل، ومركزه الناصرة، ويضم أقضية: عكا، بيسان، الناصرة، صفد، طبرية.

(٢) لواء حيفا، ومركزه حيفا، ويتألف من قضاء حيفا فقط.

(٣) لواء نابلس، ومركزه نابلس، ويضم أقضية: نابلس، جنين، طولكرم.

(٤) لواء القدس، مركزه مدينة القدس، ويتألف من ثلاثة أقضية: القدس، الخليل، رام الله.

(٥) لواء اللد، ومركزه يافا، ويتكون من قضائي يافا والرملة.

(٦) لواء غزة، مركزه غزة، ويتألف من قضائي غزة وبئر السبع.

أصبحت طبرية إذن في عهد الانتداب البريطاني مركزا لقضاء كان تابعا للواء الشمالي، ومركزه حيفا، من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩، وأتبع بعد ذلك إلى لواء الجليل، ومركزه الناصرة، حتى نهاية عهد الانتداب في العام ١٩٤٨.

وقد ضم قضاء طبرية (انظر الخريطة رقم ٩) القرى التالية وفق الترتيب الألفبائي[١٠]: حدثا (١٢ كم جنوب غرب طبرية)، حطين (٨ كم شمال غرب)، الحمة (١٢ كم جنوب شرق)، خربة الوعرة السوداء (٧ كم جنوب غرب)، الدلهمية (٢٥ كم جنوب)، سمخ (١٠ كم جنوب شرق)، السمرة (١٠ كم جنوب شرق)، السمكية (١١كم شرق)، الشجرة (١١ كم غرب)، الطابغة (٩ كم شمال)، العبيدية (١١ كم جنوب)، عولم (١٥ كم جنوب غرب)، عيلبون (غرب)، غوير أبو شوشة (٨ كم شمال)، كفر سبت (١٠ كم جنوب غرب)، لوبيا (١٠ كم غرب)، المجدل (٤ كم شمال غرب)، معذر (غرب)، مغار (١٢ كم شمال غرب)، المنارة (٥ كم جنوب)، منشية سمخ (١١ ك جنوب)،المنصورة (١٦ كم شمال غرب)، نصر الدين (٣ كم جنوب غرب)، النقيب (١٠ كم شرق)، نمرين (١٠ كم شمال غرب)، وادي الحمام (٥ كم شمال)، ياقوق (١٢ كم شمال).

ويلاحظ أن ثلاثا من هذه القرى (المجدل، الطابغة، السمكية) تقع مباشرة على الشاطئ الغربي لبحيرة طبرية، واثنتين (النقيب، السمرة) على الشاطئ الشرقي، وواحدة (سمخ) على الشاطئ الجنوبي.

(٤)
طبرية في مشروعات تقسيم فلسطين

إن تعبير "الوطن القومي" لليهود، الذي ظهر في تصريح بلفور، وضمن في نصوص صك الانتداب البريطاني على فلسطين، كان تعبيرا مراوغا، فهو يعني كل شيء، وأي شيء، من "مركز روحي" إلى "دولة" وكل ما بين هذين التعبيرين من تلوينات سياسية وكيانية. غير إن الصهيونية فهمت منه منذ البداية، وأرادته أن يكون، على أنه دولة لليهود أو دولة يهودية. وإلى حد بعيد كان هذا الفهم يتطابق مع النوايا الحقيقية لبريطانيا، صاحبة تصريح بلفور ومنشئة صك انتدابها على فلسطين. فهي إن تبنت رسميا هذا التعبير المخادع فقد كان لضرورات مستقبلية تقرر بموجبها أي البدائل تختار حسب متطلبات المرحلة، ووفق ما تمليه عليها مصالحها.

غير أنه منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين كشفت بريطانيا عن ترجمتها الحقيقية لتعبير الوطن القومي التي أعلنتها دون مواربة أنها تعني به "دولة يهودية في فلسطين"، وكان ذلك من خلال عدة مشروعات لتقسيم فلسطين طرحت ما بين ١٩٣٥ و١٩٤٧. ولم يكتب

لأي منها أن يتحقق باستثناء ما جاء في قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة ١٩٤٧، والذي ظهرت بموجبة دولة اليهود في فلسطين إلى الوجود باسم إسرائيل.

أين كانت طبرية في هذه المشروعات؟

مشروع ستيوارت إرسكين

ستيوارت إرسكين Stuart Erskine صحفية بريطانية صنفت كتابا عن فلسطين في العام ١٩٣٥ ظهرت فيه لأول مرة بشكل صريح فكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وقد دعت إرسكين في مشروعها[11] إلى تقسيم فلسطين إلى قسمين: كانتون يهودي على الساحل، حدوده تبدأ من شمال يافا وتتجه شمالا إلى قرب حيفا، ومن هناك إلى مرج ابن عامر فإلى الشاطئ الغربي لبحيرة طبرية، ثم إلى روش بينا فالحولة. ويضاف إلى هذا الكانتون اليهودي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من يافا، وتكون تل أبيب عاصمة وميناء له. أما يافا نفسها فتبقى ميناء للدولة العربية التي تضم الأقسام الباقية من فلسطين، وتكون القدس عاصمة لها. وفي الوقت نفسه تضم هذه الأقسام مع شرق الأردن لتشكل الدولة العربية. وقد أفردت إرسكين مكانة خاصة للمدن "المقدسة". فالقدس والخليل وصفد وبيت لحم والناصرة وطبرية (التي ستقع ضمن الدولة العربية) هي مدن دينية، وستظل تخضع للقوانين والأنظمة التي تصدرها عصبة الأمم.

وفي الحقيقة لم يتعد مشروع إرسكين جهود صاحبته التي تجولت به في بعض العواصم العربية تدعو إليه. غير إن أهميته

تكمن في أنه كان مؤشرا إلـــى تفكيـــر البريطـــانيين، فـــي ذلـــك الـــزمن، بالنسبة لحل القضية الفلـــسطينية علـــى أســـاس إقامـــة دولتـــين، عربيـــة ويهودية، في فلسطين.

مشروعات ١٩٣٧-١٩٣٨

جاءت هذه المشروعات في غضون الثـــورة العربيـــة الفلـــسطينية الكبـــرى (١٩٣٦-١٩٣٩). ففـــي إحـــدى مراحلهـــا وعـــدت الحكومـــة البريطانية بالتحقيق في اســـباب "الاضـــطرابات" الـــسائدة فـــي فلـــسطين و"في كيفية تنفيذ صك الانتداب علـــى فلـــسطين بالنـــسبة إلـــى التزاماتنـــا نحو العرب ونحو اليهود"، مقابل توقـــف الثـــورة، التـــي توقفـــت بالفعـــل بعد الاستجابة لوساطة من الملوك والأمـــراء العـــرب. ولهـــذا الغـــرض، عينت الحكومة "لجنة ملكية" برئاسة لـــورد بيـــل Peel ـــ فعرفـــت عامـــة باسم رئيسها ـــ قامت بزيارة فلـــسطين، واســـتمعت إلـــى شـــهادات مـــن الزعماء العرب واليهود، ومكثت في البلاد منـــذ وصـــولها إليهـــا فـــي ١١ تشرين الثاني ١٩٣٦، إلى مغادرتها فـــي أواســـط كـــانون الثـــاني ١٩٣٧، ثم رفعت تقريرها إلى الحكومة البريطانية فـــي ٢٢حزيـــران مـــن العـــام نفسه، بينما نشرت الحكومة هذا التقرير في السابع من تموز.

أوصت لجنة بيل في تقريرها[١٢] بـ"إنهـــاء أجـــل الانتـــداب علـــى فلسطين وأن يستبدل به نظام معاهـــدات يتفـــق مـــع الـــسابقة التـــي درج عليها في معاهدتي العراق وسورية". كذلك أوصـــت بتقـــسيم الـــبلاد إلـــى دولتين عربية ويهودية، بحيث تضم الأقسام العربيـــة مـــن فلـــسطين إلـــى شرق الأردن في إطار هـــذه الدولـــة العربيـــة المقترحـــة. وإلـــى جانـــب

هاتين الدولتين أوصى تقرير اللجنة بإيجاد مناطق تظل خاضعة للانتداب. والمنطقة الرئيسية منها منطقة تمتد حدودها من نقطة شمالي القدس إلى نقطة جنوبي بيت لحم، وأن يهيأ لهذه المنطقة أمر الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة ممر يشمل مدينتي اللد والرملة وينتهي في يافا (انظر توصيات التقسيم في الخريطة رقم ١٠).

وبالإضافة إلى منطقة القدس ومحيطها، رأت اللجنة أن يكون هذا الانتداب شاملا أيضا مدينة الناصرة وبحيرة طبرية، إذ إن ذلك سوف "ينسجم مع عواطف المسيحيين في العالم أجمع"، وفق التقرير. وبذلك أوصت اللجنة بـ"أن يعهد إلى القوة القائمة بالانتداب بإدارة الناصرة ، وبسلطات كاملة لحماية قداسة مياه بحيرة طبرية وشواطئها". وقد ارتأت اللجنة في تقريرها أن تظل المدن، التي وصفتها بأنها "مدن مختلطة"، والتي شهدت "احتكاكات على درجات متفاوتة في الاضطرابات الأخيرة"، تحت إدارة الانتداب لفترة معينة، إلى أن تصاغ معاهدات لضمان حماية الأقليات. وحددت اللجنة المدن هذه بأربع: طبرية وصفد وعكا وحيفا. أما سكان هذه المدن الأربع، فلن يتمتعوا بجنسية أي من الدولتين المقترحتين (العربية واليهودية)، بل سوف يظل وضعهم كما هو حاليا: "أشخاص يتمتعون بالحماية البريطانية".

وضع طبرية إذن في توصيات لجنة بيل للتقسيم سيكون كما يلي: بحيرتها وشواطئها سوف تظل، لقداستها، "أمانة" بيد إدارة الانتداب إلى أجل غير معروف، أما المدينة نفسها فسوف تخضع

للانتداب طوال زمن لم تحدده التوصيات ولكن نهايته غير منظورة. وهذا الوضع ينطبق أيضا على سكان المدينة الذين يظلون خلال هذا الزمن غير المحدد يعدون أشخاصا مشمولين بالحماية البريطانية.

لم ينل مشروع لجنة بيل موافقة أي من الأطراف عليه، فقد رفضه الصهيونيون لصغر المساحة التي خصصها للدولة اليهودية، ورفضته القيادة الوطنية الفلسطينية لأنه يجور على حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة على كامل الأرض الفلسطينية، كذلك نظرت إليه لجنة الانتدابات في عصبة الأمم بفتور وطلبت من الحكومة البريطانية إعادة النظر فيه. وقد تجددت الثورة الفلسطينية بعد صدور تقرير لجنة بيل نتيجة الإحساس بخيبة الأمل المريرة من وعود الحكومة البريطانية بإعادة النظر في سياستها في فلسطين.

نتيجة كل ذلك قررت الحكومة البريطانية إرسال لجنة أخرى، وهذه المرة كانت "لجنة فنية"، بهدف إعادة النظر في مشروع لجنة بيل للتقسيم، وقد عرفت هذه اللجنة باسم رئيسها السير جون وودهيد Sir John Woodhead. وقد استغرق عمل اللجنة عدة أشهر وغادرت فلسطين في الثالث من آب ١٩٣٨، وصدر تقريرها في تشرين الأول من العام نفسه.

وقبل أن نعرض لتوصيات هذا التقرير نشير إلى أن للصهيونيين في فلسطين تقدموا للجنة وودهيد بمشروع معدّل لمشروع لجنة بيل، طالبوا فيه بزيادة مساحة الدولة اليهودية لتشمل مساحات إضافية في منطقة غزة وبئر السبع، والجزء الجنوبي من سهل بيسان. كذلك طالبوا بأن تشمل الدولة اليهودية أجزاء من شرق

الأردن، تقع بين نهر اليرموك في الشمال وبين خط مقابل للطرف الجنوبي من سهل بيسان في الجنوب، ويحدها شرقا خط يرسم في التلال المشرفة على وادي الأردن. كذلك طالب المشروع الصهيوني بإجراء تعديلات على المنطقة المقترح إبقاؤها تحت الانتداب البريطاني بحيث يختصر من مساحتها غربي القدس لتصل حدود الدولة اليهودية المقترحة إلى هذه المدينة من جهة الغرب، على أن يضاف النقب إلى المنطقة الانتدابية، خلافا لما أوصت به لجنة بيل بأن يكون النقب جزءا من الدولة العربية. وفي هذا المشروع سوف تكون طبرية ضمن الدولة اليهودية[١٣].

لم تأخذ لجنة وودهيد بالمشروع الصهيوني. كما رفضت مشروع لجنة بيل الذي سمته الخطة (أ)، وبدلا منها قدمت تصورين أولهما سمته الخطة (ب)، والثاني أطلقت عليه الخطة (ج). تقوم الخطة (ب) على أساس إبقاء منطقة القدس، كما في مشروع لجنة بيل على حالها، بينما تقام دولة يهودية في منطقة الجليل الغربي، وتمتد بممر جنوبي الناصرة إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لتشمل هذا الساحل من عكا إلى جنوب تل أبيب، ثم تتقطع بممر منطقة القدس الانتدابية، ويضاف إليها منطقة تابعة لها على الساحل جنوب يافا. أما الدولة العربية فتقوم على جميع الأراضي الفلسطينية التي استثنيت منها منطقة القدس الانتدابية والدولة اليهودية (انظر الخارطة ١١ رقم التي توضح حدود هذه المناطق). وفي هذه الخطة تقع طبرية وبحيرتها ضمن الدولة اليهودية.

وتختلف الخطة (ج) اختلافا بينا عن الخطة (ب)، وقد قالت اللجنة في تقريرها إن أغلبية أعضائها يحبذونها. تصورت الخطة (ج) ثلاثة أقسام من فلسطين تبقى تحت الانتداب: شمالية تشمل شمال فلسطين بكامله، ووسطى تشمل منطقة القدس، وجنوبية تشمل النقب. أما الدولة اليهودية فهي أصغر مساحة من تلك التي اقترحتها لجنة بيل والخطة (ب)، فهي تقوم على جزء من السهل الساحلي بدءاً من الطنطورة إلى تل أبيب، كما تضم منطقة أخرى، على الساحل أيضا، تقع جنوب منطقة القدس الانتدابية، بحيث تشمل المنطقة الواقعة حول مستعمرتي ريشون لتسيون ورحوفوت. أما الدولة العربية فتقوم على سائر الأراضي العربية باستثناء مناطق الانتداب الثلاث والدولة اليهودية (انظر كيفية التقسيم في الخريطة رقم ١٢).

وبموجب الخطة (ج) تدخل طبرية وبحيرتها ضمن المنطقة الانتدابية الشمالية، بالإضافة إلى مدن حيفا وعكا وصفد والناصرة.

رفض الفلسطينيون مشروعات التقسيم كما ظهرت في أعمال لجنتي بيل وودهيد إذ كانت مناقضة لطموحهم في إقامة دولة مستقلة ذات سيادة على جميع الأراضي الفلسطينية، وتصاعدت أعمال الثورة تعبيرا عن هذا الرفض. وقد تمكنت الثورة، في هذه المرحلة الثانية، من تحقيق إنجازات كبيرة: فقد سيطر الثوار على مناطق واسعة من فلسطين، وبدأت الإدارة البريطانية في المدن الرئيسية تنهار انهيارا يكاد يكون كاملا، ما دفع بالحكومة البريطانية إلى إرسال تعزيزات عسكرية كبيرة إلى فلسطين لإخماد الثورة. وكان كل ذلك يشتت تركيز الحكومة على ما كان يجري على المسرح الأوروبي حيث

كانت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق بعد أن تمكن أدولف هتلر من تحقيق مكاسب سياسية وإقليمية واستراتيجية لا يقلل من شأنها في أوروبا*.

وبدافع من تدهور الأوضاع في أوروبا، قرر مجلس الوزراء البريطاني اتخاذ الإجراءات اللازمة لاحتواء الثورة وإقناع العرب بالتفاهم مع بريطانيا[14]. وهكذا مع صدور توصيات لجنة وودهيد في ٩ تشرين الثاني ١٩٣٨، أصدرت الحكومة البريطانية بيانا، وجهه وزير المستعمرات إلى البرلمان، أعلنت فيه أنها توصلت إلى نتيجة هي أن "الصعوبات الإدارية والمالية التي ينطوي عليه إيجاد دولتين، عربية ويهودية، هي صعوبات كبيرة جدا، بحيث إن هذه الحل للمشكلات هو حل غير عملي. لذلك فإن حكومة جلالته سوف تستمر في مسؤوليتها بالنسبة لحكم جميع فلسطين"[15]. وبذلك تراجعت بريطانيا مرحليا عن سياسة التقسيم للتفرغ للخطر الداهم عليها من ألمانيا النازية.

مشروع المقاطعات

تجدد طرح فكرة تقسيم فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد دارت أساسا حول اثنين: مشروع المقاطعات في العام

---

* كان من هذه المكاسب ضم إقليم السار (المنطقة المتنازع عليها بين ألمانيا وفرنسا) إلى ألمانيا، وإدماج النمسا في الرايخ الألماني الثالث، وانتزاع إقليم السوديت من جمهورية تشيكوسلوفاكيا كمقدمة لابتلاع هذه الجمهورية، وإنشاء محور برلين ــ روما.

١٩٤٦، وقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بالتقسيم في العام ١٩٤٧.

جاء المشروع الأول مع ظهور الولايات المتحدة الأميركية لاعبا أساسيا على مسرح القضية الفلسطينية وإصرارها على أن يكون لها كلمة مسموعة فيها. وقد ترجم ذلك بتشكيل لجنة أنجلو ـ أميركية، أعلن عنها رسميا في ١٠ كانون الأول ١٩٤٥، بحيث تكون صلاحياتها التحقيق في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ومدى تحملها مشكلة الهجرة اليهودية إليها والاستيطان فيها، كذلك التحقيق في أوضاع اليهود الذين كانوا ضحايا الاضطهاد النازي والفاشي في بعض أقطار أوروبا، وأيضا الاستماع إلى وجهات النظر التي يتقدم بها شهود من العرب واليهود، واستشارتهم في مشكلات فلسطين.

واستنادا إلى هذه الصلاحيات أصدرت اللجنة تقريرها في ٢٠ نيسان ١٩٤٦ الذي تضمن عشر توصيات عامة، كان أهم ما تضمنته ما جاء في توصيتها الثالثة بأنه "يجب ألا يسود اليهود العرب في فلسطين ولا العرب اليهود... ولن تكون فلسطين دولة يهودية ولا دولة عربية"، كذلك التوصية الرابعة التي توصلت إلى "نتيجة مؤداها أن العداوة بين العرب واليهود... تؤكد أن أي محاولة ــ الآن ولبعض الوقت ــ لإقامة دولة فلسطينية مستقلة أو دول فلسطينية مستقلة سوف تؤدي إلى حرب أهلية يمكن أن تهدد سلام العالم"، لذلك أوصت اللجنة "بأن تستمر حكومة فلسطين كما هي الآن تحت الانتداب، في انتظار عقد اتفاقية وصاية تقوم بها الأمم المتحدة"[١٦].

كانت توصيات اللجنة عامة وغير محددة (باستثناء التوصية بإدخال مئة ألف يهودي فورا إلى فلسطين). وبسبب ذلك تشكلت لجنة مشتركة أخرى من الخبراء مهمتها البحث في توصيات اللجنة الأنجلو أميركية، وقد رأس الجانب البريطاني فيها هربرت موريسون Herbert Morrison، بينما رأس الجانب الأميركي هنري ف. جريدي Henry F. Grady. وقد عرضت تفصيلات ما توصلت إليه اللجنة فيما عرف بمشروع جريدي ــ موريسون ، أو مشروع موريسون، أو نظام المقاطعات، على مجلس العموم البريطاني في ٣١ تموز ١٩٤٦.

توصل الخبراء[١٧] إلى قبول المبادئ التي أرستها التوصية الثالثة من توصيات اللجنة الأنجلو ــ أميركية القائلة بأن فلسطين لا يمكن أن تكون دولة عربية ولا دولة يهودية، ولن اليهود يجب ألا يسودوا العرب ولا العرب اليهود". وارتأوا "أن الفرصة الوحيدة للسلام... هي في صياغة دستور للبلاد يعطي كل جانب أوسع الإجراءات العملية لإدارة شؤونه الخاصة به... ويمكن تأمين ذلك، بشكل أمثل، في قيام مقاطعات Provinces عربية ويهودية، تتمتع بأوسع إجراءات الحكم الذاتي تحت حكومة مركزية".

وقد اقترح مشروع الخبراء لهذا الغرض أن تقسم فلسطين إلى أربع مناطق: مقاطعة عربية (تشمل جزئين) ومقاطعة يهودية ومنطقة القدس ومنطقة النقب، والحدود بين هذه المناطق ليست سياسية بل هي إدارية بحتة (انظر حدود هذه المناطق الأربع في الخريطة رقم ١٣). وقد حدد المشروع مستويات مختلفة من

الحكومات في هذا النظام، فهناك حكومة المقاطعة المعنية بشؤون المقاطعة المحلية، كما هناك حكومة مركزية (للمناطق الأربع) تنحصر فيها السلطات الخاصة بالدفاع والعلاقات الخارجية والجمارك والضرائب والمحافظة على القانون والنظام، بالإضافة إلى أمور تهم فلسطين جميعها. أما السلطات التشريعية والتنفيذية لهذه الحكومة المركزية فسوف يمارسها المندوب السامي بمساعدة مجلس تنفيذي معين. ولا يشير المشروع إلى استقلال فلسطين، كما لم يحدد فترة انتقالية لذلك، بل يتضح من الصلاحيات التي رسمها للمندوب السامي أنه يسلم ببقاء الانتداب ويفترض استمراره.

وفي هذا المشروع كانت طبرية تقع ضمن إطار المقاطعة اليهودية.

رفض العرب واليهود كلاهما مشروع جريدي ـ موريسون أو نظام المقاطعات: العرب لأنه يتعارض تماما مع مطالبهم باستقلال فلسطين وإقامة دولة موحدة فيها، واليهود لأن المشروع شكل تراجعا جذريا عن مشاريع أخرى سبقته سلمت بـ"حقهم" بإقامة دولة يهودية في فلسطين[18]. وإزاء هذه المواقف دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر في لندن لبحث المسألة برمتها، وقد انعقد هذا المؤتمر في دورتين: أولى بدءا من ١٠ أيلول ١٩٤٦، وقد قاطعها الطرفان الأساسيان العرب الفلسطينيون واليهود، بينما شارك فيها ممثلون عن الحكومة البريطانية والدول العربية وجامعة الدول العربية. أما الدورة الثانية فقد عقدت في قصر سان جيمس بلندن ابتداء من ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧، وتمثلت فيها الحكومة البريطانية بوزير خارجيتها

إرنست بيفن، كما شارك ممثلون فلسطينيون ويهود وآخرون من الدول العربية وجامعتها. وقد طرح في هذه الدورة عدد من المشاريع، عربية وبريطانية، إلا إن المؤتمر لم يتوصل إلى قرارات بشأنها نتيجة المواقف المتعارضة التي تحصنت خلفها الأطراف المشاركة في المؤتمر[١٩]. ونتيجة لذلك دخل مؤتمر لندن الطريق المسدود. وقد عقدت الجلسة الختامية في ١٤ شباط ١٩٤٧، والتي أعلن فيها إرنست بيفن فشل المؤتمر في إيجاد اتفاق بين الفريقين، العربي واليهودي، واعتراف الحكومة البريطانية بفشلها في الوصول إلى حل للمشكلة، كما أعلن أن الحكومة قررت أن تحيل المشكلة برمتها إلى الأمم المتحدة[٢٠].

مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧

مع إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، كانت الأوضاع جميعا قد نضجت لإقامة دولة يهودية في فلسطين. فقد كان اليهود يشكلون دولة داخل دولة، بمؤسساتهم السياسية والاقتصادية والمالية، وتشكيلاتهم العسكرية المختلفة. كما كان عدد اليهود في فلسطين، نتيجة الهجرة، قد وصل إلى درجة كافية لتقام لهم دولة. كذلك كان اليهود قد استولوا على مساحات معتبرة من الأرض الفلسطينية تصلح نواة لإقامة هذه الدولة. وفي الوقت نفسه، كانت القوى العالمية الكبرى قد حسمت أمرها تجاه هذه المسألة بالتقاء القطبين الكبيرين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية على هذا الهدف.

وفي ظل هذه الأوضاع طرح "مستقبل فلسطين" على الجمعية العامة للأمم المتحدة التي شكلت لجنة منها للنظر في الموضوع المطروح عرفت باسم "لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين" United Nations Special Committee on Palestine والتي عرفت اختصارا بـ UNSCOP ـ أنسكوب. وقد تواصلت أعمال هذه اللجنة الخاصة واجتماعاتها، في نيويورك وفلسطين وجنيف، أكثر من ثلاثة أشهر (ما بين ٢٦ أيار ١٩٤٧ و ٣١ آب من العام نفسه)، أصدرت في ختامها تقريرها الذي أظهر أن أعضاءها منقسمون إلى فريقين: أقلية وأغلبية*. وقد دعا مشروع الأقلية إلى إنشاء دولة اتحادية (فدرالية) مستقلة من دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية، بحيث تكون القدس عاصمة للدولة الاتحادية. أما مشروع الأغلبية فقد دعا إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، مع إبقاء منطقة القدس تحت وصاية دولية، على أن تنضم هذه الكيانات الثلاثة إلى اتحاد اقتصادي.

وبموجب هذا التصور، سوف تكون الدولة العربية مكونة من أربعة أقسام جغرافية: قسم في الجليل الغربي حتى الساحل عند عكا، وقسم في الهضاب الوسطى، وقسم على الساحل الجنوبي يشمل منطقة غزة وأجزاء من النقب محاذية للحدود المصرية، ومدينة يافا التي

---

* فريق الأقلية كان مكونا من ممثلي كل من الهند وإيران ويوغوسلافيا. بينما ضم فريق الأغلبية ممثلي كل من مندوبي كندا وتشيكوسلوفاكيا وغواتيمالا وهولندا وبيرو والسويد وأرغواي.

سوف تتبع الدولة العربية. وسوف تكون الدولة اليهودية مكونة من ثلاثة أقسام: قسم في الشمال من تل القاضي إلى جنوب بيسان، وقسم على الساحل، وقسم يشمل معظم منطقة النقب. أما منطقة القدس التي سوف تظل تحت وصاية دولية فتمتد من أبو ديس في الشرق وعين كارم في الغرب، ومن شعفاط في الشمال وبيت لحم في الجنوب (انظر خارطة التقسيم رقم ١٤). وقد وضع مشروع الأغلبية للتصويت من جانب أعضاء الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ التي أقرته تحت رقم ١٨١ بأغلبية ٣٣ صوتا مقابل ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت*.

كانت طبرية تقع، بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١، ضمن الدولة اليهودية، تماما كما هي في معظم مشروعات التقسيم السابقة منذ العام ١٩٣٥. وكان ذلك انعكاسا لعوامل ثلاثة: أولها وأكثرها أهمية مسألة المياه التي كانت تشغل بال

---

* الدول التي صوتت لصالح المشروع هي: أستراليا، بلجيكا، بوليفيا، البرازيل، بيلوروسيا، كندا، كوستاريكا، تشيكوسلوفاكيا، الدانمارك، الدومينيكان، إكوادور، فرنسا، غواتيمالا، هاييتي، أيسلندا، ليبيريا، لوكسمبورغ، هولندا، نيوزيلندا، نيكاراغوا، النرويج، بنما، باراغواي، بيرو، الفلبين، بولندا، السويد، أوكرانيا، جنوب أفريقيا، الاتحاد السوفياتي، الولايات المتحدة، أوروغواي، فنزويلا. وقد عارضت المشروع كل من: كوبا، مصر، اليونان، الهند، إيران، العراق، لبنان، باكستان، المملكة العربية السعودية، سوريا، تركيا، اليمن. أما الدول التي امتنعت عن التصويت فكانت: الأرجنتين، تشيلي، الصين، كولومبيا، السلفادور، الحبشة، هندوراس، المكسيك، المملكة المتحدة، يوغوسلافيا.

الصهيونيين وهم في صدد العمل لإنشاء دولة لهم في فلسطين، فقد كان تركيزهم الأساسي ينصب على تأمين مصادر مياه وفيرة تجعل هذه الدولة قابلة للحياة اقتصاديا. وكانت بحيرة طبرية بالإضافة إلى روافد نهر الأردن ومجراه الشمالي قبل أن يصب في البحيرة ومجراه بعد أن يخرج من البحيرة في جنوبها، تلبي هذا الشرط. والعامل الثاني ادعاءات القداسة الدينية اليهودية للمدينة نفسها فقد عدتها التقاليد اليهودية إحدى أربع مدن "مقدسة" لديها: طبرية والقدس والخليل وصفد. أما العامل الثالث فكان العامل السكاني إذ مثل اليهود في المدينة نفسها نسبة عالية من السكان تشكلت بفعل الهجرة اليهودية إليها خاصة بعد الحرب الحرب العالمية الأولى. غير إننا نستذكر أن مشروع التقسيم الذي تقدمت به لجنة بيل في العام ١٩٣٧ أوصى بأن تظل بحيرة طبرية وشواطئها خاضعة للانتداب، وبذلك أخرجتها من الدولة اليهودية. وكانت اللجنة واضحة في تعليل ذلك، إذ أخذت بعين الاعتبار قداسة المنطقة في التراث المسيحي. وقد سارت على الخط نفسه لجنة وودهيد إذ أوصت في الخطة (ج) من تقريرها أن تكون طبرية ضمن منطقة الانتداب الشمالية، وبذلك أخرجتها ايضا من الدولة اليهودية المتصورة.

(٥)
سكان طبرية في عهد الانتداب

جرى في فلسطين تعدادان للسكان، أولهما في العام ١٩٢٢ والثاني في العام ١٩٣١، وبذلك فأرقامهما هي الأرقام الرسمية التي كانت تعتمدها حكومة الانتداب البريطانية في وثائقها. ويشير بعض المصادر إلى حدوث أخطاء في تعداد ١٩٢٢ لجهة تقليل عدد العرب في البلاد الأمر الذي كان يدفع نسبة اليهود في إجمالي السكان إلى الأعلى.

وإلى جانب هذين التعدادين "الرسميين"، أعدت حكومة الانتداب تقريرا مسحيا عن أوضاع فلسطين في العام ١٩٤٥ قدمته للجنة التحقيق الأنجلو ـ أميركية (الوارد ذكرها أعلاه). وقد اشتمل هذا التقرير على بيانات إحصائية عن أعداد السكان لذلك العام. ويظهر الجدول رقم ٢ أعداد السكان في طبرية في هذه السنوات الثلاث.

الجدول رقم ٢

أعداد السكان في طبرية في عهد الانتداب

	١٩٢٢	١٩٣١	١٩٤٥
مسلمون	٢٠٩٦	٢٦٤٥	٤٩٩٠
مسيحيون	٤٢٢	٥٦٥	٧٨٠
بهائيون ودروز	٥	١٠	١٠
مجموع العرب	٢٥٢٣	٣٢٢٠	٥٧٨٠
يهود	٤٤٢٧	٥٣٨١	٦٠٣٠
المجموع الكلي	٦٩٥٠	٨٦٠١	١١٨١٠

المصدر: أرقام العامين ١٩٢٢ و١٩٣١ نشرها الدباغ (ديـــار الجليـــل)، وأرقام ١٩٤٥ من:

Government of Palestine, *A Survey of Palestine Prepared in December 1945 and January 1946 for the Anglo-American Commission of Inquiry.*

وكما ينبغي أن يلاحظ فقد أدخلنا البهائيين والدروز، وأعدادهم قليلة لا يعتد بها إحصائيا، في مجموع العرب.

ويلاحظ من أرقام الجدول أن نسبة العرب في تعداد ١٩٢٢ إلى إجمالي عدد السكان كانت ٣٦,٣ بالمئة (مقابل ٦٣,٧ بالمئة لليهود)، وقد ارتفعت النسبة العربية قليلا في تعداد ١٩٣١ لتصبح ٣٧,٤ بالمئة (مقابل ٦٢,٦ بالمئة لليهود). إلا أنها طرأ عليها تغيير كبير في أرقام ١٩٤٥ إذ أصبحت نسبة العرب ٤٩ بالمئة (مقابل ٥١ بالمئة لليهود).

واستنادا إلى هذه الأرقام نفسها فإن نسبة الزيادة السكانية عند العرب في الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣١ كانت ٢,٧٥ بالمئة سنويا (نسبة مركبة)، وارتفعت هذه النسبة ارتفاعا كبيرا في الفترة من ١٩٣١ إلى ١٩٤٥ فاصبحت ٤,٢٥ بالمئة سنويا. أما عند اليهود فكانت في الفترة الأولى (١٩٢٢-١٩٣١) ٢,٢ بالمئة سنويا، وقد انخفضت انخفاضا كبيرا في الفترة الثانية (١٩٣١-١٩٤٥) لتصبح ٠,٨ بالمئة فقط.

كيف يمكن تفسير هذه النسبة المتدنية في الزيادة السكانية السنوية ليهود طبرية في الفترة الثانية، خاصة وإن وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت في تنامٍ مطرد، الأمر الذي كان ينبغي أن يجد صدى في نمو أعداد اليهود في المدينة بمعدلات أعلى من هذه النسبة الضئيلة؟

إذا لم يكن هناك خطأ في تعدادي ١٩٢٢ و١٩٣١ وتقديرات ١٩٤٥ (وإن كان فهو كان "خطأ" متعمدا لتضخيم عدد اليهود) فإن هذه الظاهرة (نسب الزيادة المتدنية للسكان اليهود) يمكن تفسيرها بالقول بأن طبرية لم تكن من المدن التي جذبت إليها المهاجرين

اليهود بنسب عالية، فقد كان توجههم أكثر نحو المدن المتقدمة اقتصاديا مثل حيفا وتل أبيب، بالإضافة إلى القدس لأسباب سياسية واقتصادية ودينية. كما أن نسبة معتبرة من المهاجرين اليهود كانت تتجه نحو المستوطنات الزراعية التي كانت ظاهرة مرافقة لظاهرة الهجرة. ويعطينا مقال لكاتب يهودي نشر في صحيفة بالستاين بوست في مطلع سنة ١٩٤٦ سببا لتأكيد أن طبرية لم تكن فقط بلدا غير جاذب للهجرة بل أيضا بلدا طاردا لسكانها من اليهود. فهو يصف هؤلاء السكان اليهود بأنهم "شرقيون كسالى، أو عديمو الحيلة، ويكادون يموتون جوعا"، فهم ينقسمون إلى ثلاث طبقات: طبقة النخبة المكونة من علماء التلمود الذين يعيشون على الصدقات التي يتلقونها من اليهود في الخارج، والطبقة الأدنى من هؤلاء مكونة من العاملين في التجارة، إلا إن معظم هؤلاء يعملون باعة متجولين يجوبون قرى الجليل العربية، وفي أسفل السلم الاجتماعي تقبع الطبقة الثالثة التي تضم العمال اليدويين. وهكذا، فهذه المدينة، التي يصفها الكاتب بأنها "مدينة أشباح"، لا تقدم فرص أمل في المعيشة لأبنائها الذين كانوا قد أخذوا بهجرها، فأعداد السكان (اليهود طبعا) تنكمش إذ "إن الدماء الشابة تواصل هجر المدينة نحو مراعٍ أكثر اخضرارا"[٢١].

كان الوضع هكذا حتى نهاية ١٩٤٥، إلا إن تدني نسبة الزيادة في السكان اليهود في طبرية استمر على الوتيرة نفسها حتى سقوط طبرية بيد الصهيونيين في نيسان ١٩٤٨. بل إن ثمة ما يدل على أن عدد هؤلاء قد تناقص خلال هذه الفترة. فبعض التقديرات تشير إلى أن عدد اليهود الذين كانوا في طبرية بعد استيلاء

الصهيونيين عليها كان ٥٥٦٦ يهوديا[٢٢]، وتشير تقديرات أخرى إلى أن عددهم كان نحوا من ٦٠٠٠ يهودي[٢٣]. ونستذكر أن العدد في العام ١٩٤٥ كان ٦٠٣٠ يهوديا، أي أن عدد اليهود كان من حقه أن يكون نحوا من ٦٣٧٠ نسمة في نيسان ١٩٤٨ إذا اعتمدنا معدل نمو طبيعي متراكما (نسبة مركبة) نراه معقولا هو ٢,٥ بالمئة سنويا)، بمعنى أن طبرية "خسرت" من سكانها اليهود خلال الفترة من ١٩٤٥ إلى نيسان ١٩٤٨ نحوا من ٨٠٠ نسمة (إذا كانت تقديرات العام ١٩٤٨ تساوي ٥٥٦٦)، او نحوا من ٣٧٠ نسمة (إذا كانت تلك التقديرات تساوي نحوا من ٦٠٠٠ نسمة).

في مقابل ذلك، يبدو لنا مؤكدا أن الحراك السكاني الأفقي لعرب طبرية كان يسير في اتجاه معاكس لذلك الحراك اليهودي. بمعنى أن طبرية كانت تستقطب إليها سكانا عربا من خارجها. والنسبة التي أشرنا إليها للزيادة السكانية لعرب طبرية بين ١٩٣١ و١٩٤٥ (٤,٢٥ بالمئة سنويا كنسبة مركبة) لم تكن بالتأكيد تعادل معدل النمو الطبيعي (زيادة عدد المواليد على عدد الوفيات) فهي نسبة عالية إذا اخذت الظروف الصحية آنذاك بعين الاعتبار. بل إن جزءا من هذه النسبة المرتفعة كان بالتأكيد بسبب الهجرة القادمة إلى المدينة. وفي الحقيقة ليس هناك معلومات إحصائية عن الهجرة الداخلية في فلسطين في عهد الانتداب لنعرف حجم هذا الجزء، لذلك نلجأ إلى قرينة نراها دالة على هذه "الهجرة القادمة". تلك هي ألقاب بعض الأسر في طبرية التي تدل على أصولها غير الطبرانية، بعضها من مناطق فلسطينية وأخرى عربية غير فلسطينية. ومن

الأمثلة على ذلك: سخنيني (نسبة إلى سخنين)، عنبتاوي (نسبة إلى عنبتا)، عكاوي (إلى عكا)، يافاوي (إلى يافا)، شعَبي (إلى شعَب)، حطيني (إلى حطين)، عيلبوني (إلى عيلبون)، شفاعمري (إلى شفاعمرو)، شجراوي (إلى الشجرة)، ريناوي (إلى الرينة)، سعسعاوي (إلى سعسع)، سلطي (إلى السلط)، عجلوني (إلى عجلون)، طرابلسي (إلى طرابلس). وغير ذلك، فهناك أسر لا تحمل نسبة بلدانية لكنها معروفة بأنها ذات أصول تنتسب إلى مدن أخرى غير طبرية. ومن أمثلة ذلك أسرة الحاجب وأسرة حديد من أصول صفدية، وأسرة الطبري من أصول في حوران، وأسرة نعناعة من أصول صفورية، وأسرة صايغ من قرية في حوران، وأسرة صباغ من أصول تعود إلى قرية الشوير في جبل لبنان.

ومن المؤكد أن بعض هذه الأسر، التي اتخذت مثالا هنا، كانت قد استقرت في طبرية منذ العهد العثماني وأصبحت مع الزمن جزءا من نسيج المدينة السكاني. وهذه الظاهرة مفهومة إن أخذت في إطار أن الحراك السكاني (الأفقي) في العهد العثماني كان لا تعيقه حدود سياسية لم تكن قائمة بين أجزاء المنطقة العربية إجمالا، وبالتالي كانت طبرية تقع ضمن هذا الإطار. إلا إن أسرا أخرى اتخذت طبرية دارا لها في عهد الانتداب البريطاني وصارت تعرّف نفسها بأنها "طبرانية" بغض النظر عن نسبتها[24]. وكان ما جذبها إلى المدينة عوامل عدة بعضها يتصل بكونها مركزا لقضاء حيث تتركز دوائر الإدارة والمحاكم والشرطة وما يستتبع ذلك من حاجة إلى كوادر مؤهلة أو شبه مؤهلة لم تشبعها طبرية نفسها فكان أن سدت

الحاجة بأشخاص من خارجها ، وبعضها يتصل بوجود المدرسة الابتدائية/ الثانوية فيها التي يلاحظ أن نسبة عالية من معلميها كانوا وافدين إلى طبرية من خارجها[٢٥]، وبعضها الآخر متصل بكونها سوقا للقرى القريبة منها وللسكان البدو المقيمين في محيطها ما كان يغري أشخاصا عديدين من خارج المدينة للسكنى فيها والاندماج في نشاطها التجاري.

بإجمال، يقودنا هذا العرض، والأرقام والنسب التي سبقت، إلى القول باطمئنان بإنه خلافا لما يذكر عادة عن أن عدد اليهود في طبرية كان يفوق عدد عربها، كان عدد العرب في المدينة يزيد، ومهما كانت النسبة، عن عدد اليهود فيها عند احتلالها في العام ١٩٤٨. فكما بينا قبل كان عدد اليهود فيها عند ذلك يتراوح – حسب التقديرات – بين ٥٥٦٦ و ٦٠٠٠ نسمة، بينما إذا اعتمدنا تقدير أعداد السكان العرب لسنة ١٩٤٥ (٥٧٨٠ نسمة) مع إضافة معدل نمو طبيعي تراكمي (نسبة مركبة) قوامه ٣ بالمئة فقط، يكون عددهم قد وصل إلى ٦١٧٥ نسمة في نيسان ١٩٤٨.

(٦)
التعليم في طبرية
في عهد الانتداب البريطاني

اختلفت صورة التعليم في طبرية في عهد الانتداب نسبيا عما كانت عليه في زمن العثمانيين. فقد قسم التعليم في المدارس إلى

مرحلتين: أولى هي المرحلة الابتدائية وتضم سبع سنوات، وثانية هي المرحلة الثانوية وتشمل أربع سنوات تؤهل التلميذ الذي ينهيها بنجاح للتقدم إلى امتحان المتريكوليشن (التأهيل أو شهادة الدراسة الثانوية).

وقد ظل التعليم في طبرية حتى وقت متأخر من عهد الانتداب (حتى العام الدراسي ١٩٤٥/ ١٩٤٦) مقتصرا على المرحلة الابتدائية (حتى الصف السابع). وقد حدث في ذلك العام الدراسي (١٩٤٥/١٩٤٦) أن افتتحت الحكومة الصف الأول الثانوي، وكان صناعيا، في مدرسة طبرية الحكومية[٢٦]، ثم تلته بالصف الثاني الثانوي، وكان صناعيا أيضا. وبذلك وفرت الحكومة تسعة صفوف (منها سبعة ابتدائية وصفان ثانويان) للتلاميذ الذكور، بينما اقتصر تعليم البنات على المرحلة الابتدائية.

وقد ظل عدد المدارس الحكومية في عهد الانتداب على حاله كما كان في العهد العثماني، إذ لم يزد هذا العدد عن مدرسة واحدة للذكور، ومدرسة أخرى للبنات. ومع هذا فقد طرأت زيادة نسبية في عدد التلاميذ من كلا الجنسين. ويوضح الجدول رقم ٣ هذا العدد في سنوات مختلفة.

الجدول رقم ٣

أعداد التلاميذ في مدارس طبرية الحكومية

السنة الدراسية	عدد التلاميذ	عدد التلميذات	المجموع
٣٨/١٩٣٧	٢٨٣	٢٤١	٥٢٤
٤٣/١٩٤٢	٣٦٨	٢١٨	٥٨٦
٤٥/١٩٤٤	٤٣٠	٢٥٠	٦٨٠
٤٨/١٩٤٧	٦٥٠	٣٨٠	١٠٣٠

المصدر: أرقام السنة الدراسية ٣٨/١٩٣٧ من: مصطفى مراد الدباغ، (ديار الجليل)، وأرقام السنتين الدراستين ١٩٤٢/ ١٩٤٣ و ١٩٤٨/١٩٤٧ من: مصطفى مراد الدباغ، التعليم في عهد الانتداب، المرجع المذكور، ص. ٦٦، وأرقام السنة الدراسية ١٩٤٤/ ١٩٤٥ من: عبد الله عبد السلام القطشان، المرجع المذكور، ص. ٢١٤.

ويضاف إلى هذه الأعداد للتلاميذ الملتحقين بمدرستي الحكومة آخرون كانوا يدرسون في المدارس غير الحكومية. ففي العام الدراسي ٣٨/١٩٣٧ مثلا كان هناك ٨ تلاميذ في هذا النوع من المدارس، مقابل ٩٦ تلميذة، أما في العام الدراسي ٤٣/١٩٤٢ فكان هناك ٣١ تلميذا مقابل ٨١ تلميذة[٢٧].

وتنسب الزيادة التدريجية في أعداد التلاميذ (ذكورا وإناثا) إلى عاملين، أولهما الزيادة الطبيعية في عدد السكان بشكل عام والتي

لا بد قد انعكست في زيادة عدد من هم في سن التعليم، وثانيهما زيادة وعي الأهل بضرورة تعليم أبنائهم ما جعل أعداد التلاميذ تتزايد.

لكن مع هذا فقد ظلت نسبة عالية من الأبناء الذين هم في سن التعليم (الفئة العمرية من ٥ سنوات إلى ١٥ سنة) محرومين من هذه النعمة. ففي البيانات الإحصائية للعام الدراسي ١٩٤٢/ ١٩٤٣ مثلا، كانت نسبة التلاميذ الملتحقين بالمدرسة الحكومية، والمدارس غير الحكومية، ٦٦,٥ بالمئة فقط من أجمالي عدد الأبناء الذين هم في سن التعليم، أي في الفئة العمرية من ٥ سنوات إلى ١٥ سنة (٣٩٩ تلميذا من ٦٠٠). أما نسبة التلميذات فكانت ٥٤,٤ بالمئة (٢٩٩ تلميذة من ٥٥٠)[٢٨]. أي أن ٣٣,٥ بالمئة من الذكور الذين هم في سن التعليم و٤٥,٦ بالمئة من البنات كانوا خارج المدارس في تلك السنة.

وإذا وثقنا بهذه الأرقام المأخوذة من مصادر حكومة الانتداب البريطانية فيمكن أن تعزى هذه النسب المرتفعة في أعداد البنين والبنات الذين ظلوا خارج الأطر المدرسية إلى الأوضاع الاقتصادية ــ الاجتماعية السيئة التي كان تسود أغلب القطاعات السكانية في طبرية في عهد الانتداب ما كان يدفع بأولياء أمور الأبناء إلى الاستغناء عن "ترف تعليمهم" والاستعانة بهم في كثير من الأحيان في أعمالهم (حرفة صيد السمك أو أي حرفة أخرى) لزيادة دخول الأسرة.

لكن على الرغم من ذلك، فقد تمكنت بعض الأسر الميسورة من توفير تعليم متقدم لأبنائها. فقبل أن تنشئ حكومة الانتداب صفين ثانويين في مدرسة الذكور في طبرية (في العام الدراسي ١٩٤٥/

١٩٤٦) كان عدد من الطلاب ممن أنهوا المرحلة الإبتدائية (الصف السابع) يتوجهون إلى مدارس فيها صفوف ثانوية في مدن فلسطينية أخرى في مسعى لاستكمال تحصيلهم المدرسي. وكانت صفد التي تضم صفين ثانويين في مدرستها الحكومية هي الوجهة الأكثر قصدا لقربها من طبرية. كذلك كانت القدس مقصدا آخر بمدارسها الثانوية الكاملة.

وإلى ذلك، أتاحت بعض الأسر الميسورة لأبنائها تعليما جامعيا خارج فلسطين بالتأكيد إذ لم تنعم البلاد بجامعة عربية طوال عهد الانتداب. وقد تمكنا من التعرف على خمسة عشر اسما من طبرية حاز أصحابها تعليما جامعيا في عهد الانتداب، وربما فاتتنا أسماء أخرى لم نهتد إليها. وتضم قائمتنا الأسماء التالية وقد وضعنا بين قوسين إزاء كل منها اسم الجامعة التي تخرج منها، والتخصص، وسنة التخرج إن توفرت لدينا هذه المعلومات: رشيد الطبري (الجامعة الأميركية في بيروت، الطب، ١٩٢٨)، أديب خرطبيل (الجامعة الأميركية في بيروت، الطب، ١٩٢٨)[٢٩]، صدقي الطبري (الجامعة الأميركية في بيروت، اقتصاد وعلوم سياسية، ١٩٢٧)[٣٠]، حسين محمد أبو السعود الطبري (جامعة بيروت الأميركية، علوم سياسية، ١٩٤٧)[٣١]، يوسف صايغ (الجامعة الأميركية في بيروت، تجارة، ١٩٣٨)، فؤاد صايغ (الجامعة الأميركية في بيروت، هندسة مدنية، ١٩٤٠)، فايز صايغ (الجامعة الأميركية في بيروت، فلسفة، ١٩٤٥)، توفيق صايغ (الجامعة الأميركية في بيروت، أدب إنجليزي، ١٩٤٥)[٣٢]، حسيب صباغ (الجامعة الأميركية في بيروت، هندسة،

١٩٤١)، سعيد خوري (الجامعة الأميركية في بيروت، هندسة، ١٩٤٦)[٣٣]، فايز الطبري (حقوق)، جمال الطبري (صيدلة)، عمر محمود للطبري (الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٧)، حسين علي اليوسف (الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٦)[٣٤]، محمد نظمي خليل خرطبيل (جامعة القاهرة، طب بيطري)[٣٥].

(٧)
الطب

ورثت طبرية في عهد الانتداب البريطاني تركة طبية فقيرة عن زمن الحكم العثماني. فباستثناء مستشفى الإرسالية الأسكتلندية (مستشفى تورنس) الذي أسس في ذلك الزمن واستمر في العمل في عهد الانتداب (سنعرض له بتفصيل أوفى بعد قليل)، لا نجد ما يدل على وجود أطباء عرب أو مراكز طبية عربية في المدينة وهي تحت الحكم العثماني. وقد طرأ تحسن، وإن كان ضئيلا، في عهد الانتداب. فقد أنشأت الحكومة عيادة في المدينة كان يديرها حتى نهاية هذا العهد في العام ١٩٤٨ طبيب واحد فقط. إلى جانب ذلك درس اثنان من أبناء طبرية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، وتخرجا منها سنة ١٩٢٨[٣٦]. وقد استقر أحدهما (الدكتور رشيد الطبري) في طبرية التي افتتح فيها عيادة، بينما توجه الآخر (الدكتور أديب خرطبيل) إلى طولكرم ليعمل طبيبا هناك.

حصلت طبرية إذن على طبيب عربي "خاص" في عهد الانتداب، بالإضافة إلى طبيب العيادة الحكومية. وإلى ذلك يستذكر أهالي طبرية طبيبا يهوديا "خاصا" (اسمه يوسيموف) كان يتعامل معه الأهالي العرب بثقة وقد أقام علاقات طيبة معهم.

ومما يذكر في هذا الشأن أن عدد الأطباء العرب في جميع أنحاء فلسطين في العام ١٩٤٥ كان ٢١٠ أطباء من إجمالي عدد السكان العرب (المسلمين واليهود) البالغ آنذاك ١,٢٢١,٨٤٠ نسمة وفق تقرير حكومة الانتداب الذي اعدته للجنة الأنجلو- أميركية الوارد ذكره أعلاه، أي بواقع طبيب عربي واحد لكل ٥٨١٨ نسمة من السكان العرب، بينما كان عدد الأطباء اليهود ٢٢٥٧ طبيبا في العام نفسه من إجمالي عدد اليهود البالغ في تلك السنة ٦٠٨,٢٣٠ نسمة (وفق التقرير المذكور)، أي بواقع طبيب يهودي واحد لكل ٢٦٩ نسمة من السكان اليهود.

غير إن الأهم في الأوضاع الطبية في طبرية كان مستشفى الإرسالية الإسكتلندية فيها المعروف بالاسم الشائع "مستشفى تورنس". تعود الجذور التاريخية لهذا المستشفى إلى العام ١٨٣٨ عندما أسست "كنيسة اسكتلندا" الإنجيلية (البروتستانتية) لجنة تهدف إلى تنصير اليهود A Committee for the Conversion of the Jews. غير إن بعض التغييرات التي طرأت على بنية الكنيسة بعد اتخاذها هذا الإجراء حد من نشاط هذه اللجنة في فلسطين. وقد أعيد التفكير في تحقيق هذا الهدف الذي اسست من أجله اللجنة بعد أكثر من اربعين سنة من ذلك التاريخ عندما أوفدت الكنيسة بعثة إلى فلسطين في العام

١٨٨٤ برئاسة الطبيب الأسكتلندي ديفيد واط تورنس David Watt Torrance لدراسة الأوضاع المحلية هناك. وبعد جولة قام بها تورنس في كل من مصر ودمشق والناصرة وطبرية توصل إلى نتيجة أن هناك إمكانية للعمل التبشيري بين اليهود، وأوصى بأن تكون طبرية مركزا للإرسالية الإسكوتلندية على أن تكون صفد مقرا صيفيا لها، وبحيث يكون مجال عمل الإرسالية الطب والتعليم. وعلى هذا الأساس أنشأ تورنس مستشفاه في سنة ١٨٨٥ ضمن غرفتين وبإمكانات كانت في البداية متواضعة نسبيا. وفي عام ١٨٩٤ أعيد إنشاء المستشفى من جديد في بناء له خاص ليضم ٢٤ سريرا وستة أسرة للأطفال. وفي السنة التالية أصبح تورنس كاهنا في كنيسة أسكتلندة الحرة".

أخذ المستشفى يتوسع باطراد منذ ذلك. وفي سنة ١٩٢١ التحق هربرت واط تورنس Herbert Watt Torrance بأبيه، وكان مثله طبيبا تخرج من جامعة جلاسكو. وقد توفي تورنس الأب في العام ١٩٢٣ ليخلفه ابنه هربرت في رئاسة المستشفى، ويستمر كذلك إلى ما بعد قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨[٣٧].

أدى مستشفى تورنس خدمات طبية لا تنكر لأهالي طبرية العرب (اليهود كانوا يتجهون أكثر نحو مؤسساتهم الطبية الخاصة بهم). ومن ذلك أن المستشفى كان يضم ٧٠ سريرا في عام ١٩٤٤، وقد بلغ من عاده من المرضى في العام المذكور أكثر من ١٠٠٠ مريض[٣٨]. وقد ضمت اسرة المستشفى عددا من الأطباء الاختصاصين وصيدليا ومولدة وعشرات الممرضات[٣٩].

حواشي الفصل الخامس

(١) أوردنا تفصيلات عن مقدمات هذه الاتفاقية وتحليلا لمواقف أطرافها ونصوصها الرئيسية ونتائجها في كتابنا: **فلسطين والفلسطينيون: صيرورة تكوين الاسم والوطن والشعب والهوية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣)، ص ص. ٨٩-١٠٨.

(٢) عدد هذه الرسائل ثلاث عشرة رسالة أولها بتاريخ ١٣ نيسان ١٩١٦، وآخرها مؤرخة بتاريخ ٢٣ تشرين الأول من العام نفسه. وقد نشرت هذه الرسائل في المصدر التالي:

Documents on British Foreign Policy 1919-1939, edited by E.L. Woodward and Rohan Butler (London: Her Majesty's Stationary Office, 1955), First Series, Volume IV, pp, 241-251.

(3) H.F. Frichwasser-Raanan, *The Frontiers of a Nation* (London: The Batchworth Press, 1955), p. 63.

(4) Esco Foundation for Palestine, *Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Politics* (New Haven: Yale University Press, 1947), p. 57.

(5) M. Paleologue, *An Ambassador Memoirs,* translated by F.A. Holt (London: Hutchinson and Co., 1926), Vol. I, p. 163.

(6) Raanan, *op.cit.,* pp. 61-62.

(٧) عرضنا تفصيلات عن مشاريع خط الحدود الشمالي لفلسطين والمفاوضات الشاقة والمتوترة بين بريطانيا وفرنسا في كتابنا: **فلسطين الدولة: جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني** (نيقوسيا: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٨٥)، ص ص. ٥١-٦١.

(٨) نص الاتفاقية مع الخريطة التي توضح مسار خط الحدود بـين منطقتـي الانتـداب البريطاني والفرنسي في:

Great Britain, Parliamentary Papers, *Agreement Between His Majesty's Government and the French Government Respecting the Boundary Line between Syria and Palestine from the Mediterranean to el-Hamme.* (Treaty Series No. 13, 1923, London: His Majesty's Stationary Office, 1923).

(٩) للتشكيلات الإدارية في عهد الانتداب من: **الموسوعة الفلسطينية**، م. ١، ص ص.

(١٠) وفق القائمة والخريطة المنشورتين في:

www. palestineremebered.com (District of Tiberias)

(11) Stuart Erskine, *Palestine of the Arabs* (London: George Harrap and Co. Ltd., 1935), pp. 231-234.

(١٢) الحكومة البريطانية، **تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (الكتاب الأبيض رقـم ٥٤٧٩، عرض على البرلمان بأمر جلالته في شهر تموز ١٩٣٧)**.

(١٣) انظر المشروع في:

Great Britain, Parliamentary Papers, *Palestine Partition Committee Report Presented by the Secretary of State for Colonies to Parliament, Octobre 1938 – Cmd. 5884* (London: His Majesty's Stationary Office, 1938), hereinafter: *Partition Committee Report*.

(١٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسـات والنشر، ١٩٧٠)، ص. ٣٤٥.

(15) Great Britain, Parliamentary Papers, *A Statement by His Majesty's Government , Presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament by command of His Majesty, November 1938 – Cmd. 5893* (London: His Majesty's Stationary Office, 1938), p. 3.

(١٦) نصوص توصيات اللجنة وأعمالها في:

Great Britain, Parliamentary Papers, *Report of the Anglo-American Committee of Inquiry Regarding the Problems of European Jewry qn3 Palestine, Presented by the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty – Cmd. 6808* (London: His Majesty's Stationary Office, 1946).

(١٧) نصوص توصيات لجنة جريدي – موريسون وأعمالها في:

Great Britain, Parliamentary Papers, *Proposals for the Future of Palestine, July 1946- February 1947, Presented by the Secretary of State for the Colonies and the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty – Cmd. 7944* (London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

(١٨) وردت تفصيلات هذه المواقف المختلفة لدى:

Robert John and Sami Hadawi, *The Palestine D*iary (Beirut: the Palestine Research Center, 1970), Vol. II, pp. 94-100.

(١٩) أوضحنا سير أعمال المؤتمر بدورتيه في كتابنا: **فلسطين والفلسطينيون**، المرجع المذكور.

(٢٠) نص خطاب بيفن في: جامعة الدول العربية، **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: المجموعة الثانية ١٩٤٧-١٩٥٠** (القاهرة: جامعة الدول العربية، دت)، ص ص. ٣٩-٤٠.

(21) M. Brilliant, "Ghost City Cries out for Youth: Rejuvenating Tiberias", *Palestine Post*, 18 January 1946.

(٢٢) **الموسوعة الفلسطينية**، مادة طبرية، م. ٣، ص. ٩٩.

(23) Daniel Jacobs, *Israel and the Palestinian Territories* (Rough Guides, 1998), p. 98.

(٢٤) اعتمد المؤلف الحالي في هذه الفقرة عن الأسر الطبرانية على معرفته الشخصية فهو من أبناء طبرية.

(٢٥) من خمسة عشر معلما ضمتهم مدرسة طبرية الحكومية للذكور قبل سقوطها بيد الصهيونيين كان اثنان فقط من طبرية، والآخرون من مدن فلسطينية أخرى؛ إبراهيم يحيى الشهابي، **طبرية: تراث وذكريات** (دمشق: دار الشجرة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ص. ١٠٨.

(٢٦) عبد الله عبد السلام القطشان، **المرجع المذكور**، ص. ١٧١.

(٢٧) مصطفى مراد الدباغ، ديار الجليل.

(٢٨) أرقام مجمعة من: مصطفى مراد الدباغ، المرجع المذكور؛ التعليم في عهد فلسطين، **المرجع المذكور**، ص. ٦٦، نقلا عن:

Government of Palestine, Department of Education, *Annual Report 1942-1943*

(٢٩) اسما الطبيبين وسنة تخرجهما من الجامعة من سجلات خريجي كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت AUB Medical Alumni المحفوظة على موقع الجامعة الألكتروني www. aub.edu.lb

(٣٠) مصطفى العباسي، "عائلة الطبري وقيادتها للمجتمع العربي في مدينة طبرية منذ أواخر العهد العثماني حتى أواخر الانتداب"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ٦٤ (خريف ٢٠٠٥).

(٣١) الشهابي، **المرجع المذكور**، ص. ١٣٠.

(٣٢) أبناء صايغ الأربعة من: أنيس صايغ، **عن أنيس صايغ** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦)، ص ص. ٣٢-٣٤.

(٣٣) حسيب صباغ وسعيد خوري من: **مجلة العمران العربي** (إصدار خاص)، العدد ٨٩ (حزيران ٢٠٠٨).

(٣٤) الشهابي، **المرجع المذكور**، ص. ١٣٠.

(٣٥) **نفسه**، ص. ١٣٤.

(٣٦) اسما الطبيبين وسنة تخرجهما من الجامعة من سجلات خريجي كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت AUB Medical Alumni المحفوظة على موقع الجامعة الألكتروني www. aub.edu.lb.

(٣٧) أنشأ أحد أحفاد تورنس الأب قاعدة بيانات غزيرة المعلومات عن جده بعنوان: David Watt Torrance History وهي محملة على الموقع التالي: www. freepages.history.rootsweb.ancestry.com

كذلك تتوفر معلومات جيدة عنه في الخدمات الأرشيفية archive services لجامعة دندي البريطانية على موقعها: www.dundee.ac.uk . ومثل ذلك على الدليل الأكاديمي للأرشيفات البريطانية، حيث تتوافر معلومات عنه في الموقع:

www.avchveshub.ac.uk/news/0805torrance.html

(٣٨) الدباغ، في ديار الجليل

(٣٩) صايغ، المرجع المذكور، ص. ٨٤.

الفصل السادس

الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة

(١)
مقدمات النضال الوطني

كانت الحركة الوطنية في طبرية صورة مصغرة عنها في فلسطين عامة، فهي كانت تسير على وقعها فلها بذلك دوافعها وأهدافها وخصائصها وملامحها الدالة عليها. في العهد العثماني كان الهم الوطني الفلسطيني، والعربي عامة، منصبا على هجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي والاستيطان، خاصة مع قدوم موجة الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين (١٨٨٢-١٩٠٣) والتي حملت ما بين ٢٠ و٣٠ ألف يهودي معظمهم من يهود روسيا، والموجة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤) والتي قدر عدد المهاجرين اليهود خلالها بما بين ٣٥ و٤٠ ألف يهودي. وقد واجهت هذه الأعداد المتكاثرة من المهاجرين اليهود صدودا عربيا فلسطينيا مختلف الأشكال ما بين التحذير في الصحف تجاه الأخطار الكامنة فيها، وكتابة العرائض للسلطات العثمانية تطالب بمنع الهجرة، ومواقف النواب العرب في مجلس المبعوثان (البرلمان) التركي التي كانت تضغط في سبيل استصدار إجراءات فعالة لمنع الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين.

ولم تكن طبرية غائبة عن هذه الأجواء، فقد وردت إلى العاصمة استنبول (١٨٩٠) تحذيرات من القائم مقام تنبه إلى توسع اليهود في شراء الأراضي في المنطقة[١]. وفي أواخر العهد العثماني (قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى) كان أمين أرسلان، قائم مقام طبرية، من أشد المتحمسين لمعارضة انتقال الأراضي للصهيونيين،

ولم يكن ذلك فقط بسبب ما كان يراه من خطر يهدد الفلاحين الفلسطينيين، بل أيضا ــ وأكثر من ذلك ــ لأنه كان قلقا من أن يغير انتقال الأراضي العربية إلى اليهود من هوية البلد. وكان أرسلان يعتقد أن مصير فلسطين آنذاك لم يكن بأيدي العرب بل بأيدي السلطات العثمانية. وكان يرى في هذا الشأن أن هذه السلطات كانت تحت النفوذ الصهيوني، وهو أمر كان يؤدي إلى الموافقة الضمنية على الهجرة والاستيطان الصهيونيين[٢].

وتسجل لمنطقة طبرية سابقة التصدي لانتقال الأراضي بالقوة في هبة فلاحية في مطلع القرن العشرين. كان ذلك عندما اشترت الوكالة اليهودية أراض قرب طبرية من أسرة سرسق البيروتية فقام القرويون في المنطقة بمهاجمة المهندسين ومساعديهم الذين أرسلتهم الوكالة لمسح الأراضي وتقدير مساحتها ومنعوهم من إنجاز الوثائق والمعلومات اللازمة لذلك فلم تسجل الأرض باسم الوكالة رسميا[٣]. ومرة أخرى (١٩٠١-١٩٠٢) حدثت اصطدامات عنيفة بين فلاحي منطقة طبرية والصهيونيين إثر محاولة جمعية الاستعمار اليهودي Jewish Colonization Association أن تطرد الفلاحين الذين يعملون في أرض مساحتها نحو من ٧٠ ألف دونم في منطقة طبرية ــ كانت قد اشترت معظمها من أسرة سرسق وشركائها من أسرتي تويني والمدور ــ فتصدى لها الفلاحون الذين كانوا يستأجرون تلك الأرض بالقوة، فلم يمتنعوا فقط من مغادرة الأرض بل أيضا حدث إطلاق نار من جانبهم، ما جعل موظفي الجمعية الصهيونية يلجأون إلى السلطات العثمانية في المنطقة طلبا للمساعدة. وقد تدخلت السلطات بالقوة

واعتقلت عددا من الفلاحين لتجبر الآخرين على الرحيل من الأرض التي كانوا يفلحونها[4].

كانت تلك أمثلة على ما كانت عليه الحال في العهد العثماني، غير أن التحديات التي واجهت الفلسطينيين عامة في عهد الانتداب البريطاني كانت أكثر تعقيدا وأشد وطأة. كانت هناك هجرة اليهود واستيلاؤهم على الأرض واستيطانهم فيها امتدادا لما كان عليه الوضع في العهد السابق، لكن هذه المرة بوتيرة أسرع وبعدوانية أكثر شراسة. وإلى جانب ذلك كان هناك "الوطن القومي اليهودي" في طور التشكيل وصولا إلى إقامة دولة يهودية، إن لم تكن على أرض فلسطين بأجمعها فعلى أوسع مساحة منها. وكانت سياسة بريطانيا الصهيونية التي أخضعت الفلسطينيين لحكمها وأنكرت عليهم حق تقرير المصير، وأمعنت في سلب حقهم في الاستقلال، وعملت كل ما في استطاعتها لإشباع الاشتهاء الصهيوني بامتلاك فلسطين. وقد خاضت الحركة الوطنية الفلسطينية أنماطا مختلفة من التصدي لتلك التحديات بكل تعقيداتها، وبوسائل متعددة سياسية وعسكرية معا. ولم تكن طبرية مستثناة من أي من هذه الأنماط، كما أن وسائلها في التصدي كانت هي نفسها تلك التي كانت بيد الحركة الوطنية الفسطينية بعامة.

على الصعيد السياسي كانت مشاركة طبرية في الحركة الوطنية تتم من خلال غير قناة: التظاهرات الشعبية والإضرابات وتشكيل الهيئات الوطنية والمشاركة في المؤتمرات التي كانت تعقد على مستوى الوطن عامة والاندماج في الأحزاب الوطنية القائمة. أما

على الصعيد العسكري فقد تجلت مشاركتها أكثر ما يكون في الثورة العربية الفلسطنية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩)، ثم في الدفاع المسلح عن المدينة قبل سقوطها بيد الصهيونيين في العام ١٩٤٨.

(٢)
المشاركة في الأطر القيادية والمؤتمرات

كانت أولى الهيئات الوطنية التي شكلت في فلسطين والتي أخذت على عاتقها قيادة حركته والتعبير عن مطالبه هي الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية. وكان القصد من هذه التسمية ــ كما يقول إميل الغوري ــ "إظهار الوحدة القائمة بين النصارى والمسلمين العرب لإحباط أي دعاية طائفية ودينية يقوم بها الإنجليز ضد العرب"[٥]. وقد قامت هذه الجمعيات في وقت مبكر إذ نجدها قد انتشرت في المدن الفلسطينية كافة منذ العام ١٩١٨، أي بعد قليل من الاحتلال البريطاني العسكري لفلسطين، وقد بلغ عددها خمس عشرة جمعية، إلا أنها انضوت جميعا في تشكيل واحد كانت رئاسته في القدس، بينما كانت الجمعيات في المدن الأخرى بمثابة فروع لها. وكان منها الجمعية الإسلامية ــ المسيحية في طبرية[٦].

كانت هذه الجمعيات هي القاعدة التي انطلقت منها فكرة مؤتمر فلسطيني عام يوجه الحركة الفلسطينية ويصوغ أهدافها. وقد عقد هذا المؤتمر ــ الذي عرف باسم المؤتمر العربي الفلسطيني الأول ــ في القدس (٢٧ كانون الثاني - ٤ شباط ١٩١٩). وقد مثل

طبرية في هذا المؤتمر ثلاثة أعضاء (محمود طبري، إلياس قعوار، محمود حسين) من أجمالي أعضاء المؤتمر البالغ عددهم ٢٦ عضوا[٧]. وقد عقد المؤتمر في أثناء فترة الحكم العسكري البريطاني على فلسطين (قبل أن يعلن الانتداب رسميا)، وفي ظل توجه النخب العربية الفلسطينية في معظمها نحو المطالبة بعدم فصل مستقبل فلسطين عن إطارها الجغرافي والقومي الأوسع الماثل في "سوريا الكبرى"، الموحدة والمستقلة. وكان تشكيل حكومة الأمير فيصل بن الحسين في دمشق، التي أعلنت أن ولايتها تشمل البلاد السورية كافة، قد وفر قاعدة عملية لذلك التوجه. وهكذا، كان أبرز قرارات المؤتمر اثنين: " ـ إننا نعتبر فلسطين جزءا من سوريا العربية، إذ لم يحدث قط أن انفصلت عنها في أي وقت من الأوقات، ونحن مرتبطون بها بروابط قومية ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية، ـ وبناء على ما تقدم، نعرب عن رغبتنا في ألا تنفصل سوريا الجنوبية، أو فلسطين، عن حكومة سوريا العربية المستقلة، وأن تكون متحررة من جميع أنواع النفوذ والحماية الأجنبيتين".

بعد نحو من خمسة أشهر من المؤتمر العربي الفلسطيني الأول أبلغ هذا التوجه للجنة التي عرفت باسم لجنة كنج ـ كرين. كان أساس اللجنة قرارا لدول الحلفاء بتعيين لجنة لدرس قضية الولايات العربية التي انسحبت منها الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى والوقوف على رغبات سكانها. وقد تخلف البريطانيون والفرنسيون عن الاشتراك في اللجنة، بينما قرر الأميركيون إرسال موفدين هما كنج وكرين اللذان زارا المنطقة في الفترة من ١٠ إلى

٢٥ حزيران ١٩١٩. وقد تجولت اللجنة في معظم المدن الفلسطينية تستمع إلى آراء وفودها في شأن القضية التي جاءت بهدف استطلاعها. ولم تشمل زيارة اللجنة طبرية بل استمعت إلى وفد منها عندما كانت في الناصرة يوم ٢٣ حزيران. ووفقا لوثيقة سجلت آنذاك عن أعمال اللجنة فقد توافد على اللجنة "ممثلو الناصرة وطبرية وصفد على اختلاف طوائفهم، وقد قدم مندوبو المسلمين والطوائف الكاثوليكية وبعض من طائفة الأرثونكس مطالبهم وهي: ١- رفض جميع المطالب الصهيونية من جعل فلسطين وطنا قوميا لهم، ومنع مهاجرة اليهود إلى سوريا الجنوبية (فلسطين)، ٢- عدم فصل فلسطين عن باقي البلاد العربية، ٣- الاستقلال التام للبلاد السورية، ٤- أن تكون الحكومة ملكية ديموقراطية مدنية، ٥- إذا كان لا بد من وصاية فالمؤتمر السوري الذي سيجتمع في دمشق، والذي سيمثل جميع البلاد السورية سيقرر ما يراه بهذا الخصوص"[٨].

وقد مثلت طبرية في المؤتمر السوري العام المشار إليه. عقد هذا المؤتمر في دمشق في أواخر حزيران ١٩١٩، وضم "مندوبي المناطق [السورية] الثلاث: الجنوبية والشرقية والغربية". وكان من أبرز قراراته التي أذيعت في ٢ تموز ١٩١٩ "الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية"، و"أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية مدنية نيابية... وأن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل"، و"عدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين، والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان، عن القطر السوري... وأن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة"[٩].

مثّل طبرية في هذا المؤتمر طاهر الطبري ويوسف العاقل، وفق محمد عزت دروزة الذي تولى سكرتارية المؤتمر[10]. وطاهر الطبري، ويرد أحيانا باسم محمد طاهر الطبري، ولد في طبرية سنة ١٨٩٧ وتلقى دروسه الأولية في هذه المدينة وتابع دراسته في الأزهر، ثم التحق بجامعة أستانبول مدة أربع سنوات، عاد بعدها إلى طبرية. وقد عين مفتيا للمدينة بعد اعتزال خاله عبد السلام هذا المنصب وكان في الحادية والعشرين من عمره. وبموازاة الإفتاء كان يعمل أيضا مدرسا في المدرسة الرسمية في المدينة. وفي عام ١٩١٩ وصفه تقرير بريطاني بأنه كان من أنشط أفراد الحركة الوطنية العربية في طبرية، كما كان شخصا عظيم النفوذ في المنطقة[11]. أما يوسف العاقل فقد وصفه دروزة بأنه من الأسر البارزة في طبرية، وأشاد بعقله وأخلاقه وبخطه القومي[12].

وقد تمثلت طبرية بعد ذلك في المؤتمرات الفلسطينية حتى السابع منها، وكان هو آخر هذه السلسلة من المؤتمرات التي الإطار العام للحركة الوطنية الفلسطينية. وفي الحقيقة، لم نجد في مصادرنا أسماء من مثلوا المدينة في المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني، الذي كانت سلطات الحكم العسكري البريطاني قد منعت عقده في فلسطين فانعقد في دمشق في شباط ١٩٢٠. أما المؤتمر الثالث الذي عقد في حيفا (١٣-١٩ شباط ١٩٢٠) فقد انتدبت الجمعية الإسلامية – المسيحية في طبرية شخصيتين وطنيتين فلسطينيتين كانتا آنذاك مقيمتين في حيفا ليمثلاها فيه، هما نجيب نصار ورفيق التميمي[13]. أما نجيب نصار فهو أحد رواد مناهضة الصهيونية، ولد في لبنان

سنة ١٨٦٥ ودرس هناك ثم انتقل إلى طبرية وعمل صيدليا في المستشفى الاسكتلندي فيها (مستشفى تورانس)، كما عمل في الزراعة في منطقتها، واطلع من خلال ذلك على أساليب الصهيونية في الاستيطان، وأخذ يكتب في صحف بيروت والقاهرة عن تلك الأخطار. انتقل إلى حيفا سنة ١٩٠٨، وأسس فيها جريدة "الكرمل" التي أخذ على عاتقه فيها كشف الأخطار الصهيونية على فلسطين من خلال الهجرة والاستيطان اليهوديين. تعرض في الحرب العالمية الأولى للاعتقال في دمشق من جانب السلطات العثمانية. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى حيفا حيث استأنف إصدار "الكرمل" التي كانت تتعرض لإغلاقات متوالية من جانب سلطات الحكم البريطاني إلى أن أغلقت نهائيا سنة ١٩٤٤. وقد توفي نجيب نصار في الناصرة في آذار ١٩٤٨"[١٤]. أما رفيق التميمي فهو من نابلس، وقد درس في استنبول ثم في جامعة السوربون في باريس ونال إجازة في الآداب، وعمل بعدها مدرسا في عدد من المدن العربية. وكان أحد مؤسسي جميعة العربية الفتاة سنة ١٩١١، وبعد إعلان ثورة الشريف الحسين ابن علي التحق رفيق بجيش الأمير فيصل. وبعد سقوط مملكة فيصل في دمشق عاد إلى فلسطين حيث عمل في مجال التربية والتعليم، كما نشط سياسيا، وأصبح عضوا في الهيئة العربية العليا. بعد النكبة هاجر إلى دمشق واستقر فيها إلى وفاته سنة ١٩٥٦"[١٥].

اتخذ هذا المؤتمر (المؤتمر الثالث) قرارات أبرزها المطالبة بـ"تشكيل حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب أعضاءه

الشعب المتكلم باللغة العربية القاطن في فلسطين حتى أول الحرب [العالمية الأولى]"، بالإضافة إلى رفض الوطن القومي لليهود[16].

عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في القدس (٢٩ أيار- ٢ حزيران ١٩٢١)، وقد غلب على جدول أعماله إجراءات تنظيمية، كما قرر إرسال وفد فلسطيني إلى لندن للتفاوض بشأن القضية الفلسطينية. وقد مثل طبرية في هذا المؤتمر كل من الشيخ طاهر الطبري، وكنا قد أشرنا إليه سابقا، وإسحق درويش. وقد انتخب الشيخ طاهر ليكون عضوا في اللجنة التنفيذية المنبثقة عن المؤتمر[17]. أما إسحق درويش فكان واحدا من رجالات الرعيل الأول في فلسطين وابن شقيقة مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني. ولد في القدس سنة ١٨٩٦ وتلقى دراسته الإبتدائية والإعدادية فيها، كما درس في بيروت، وخلال الحرب العالمية الأولى تخرج ضابط احتياط وجند في الجيش العثماني. بعد انتهاء الحرب عاد إلى فلسطين، ونشط في الحركة الوطنية، وشارك في عدة مؤتمرات فلسطينية وعربية، وفي ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩. كان مقربا جدا من المفتي ورافقه في كثير من نضالاته، واختير عضوا في الهيئة العربية العليا لفلسطين. وبعد مسيرة حافلة بالعطاء الوطني توفي في القدس سنة ١٩٧٤[18].

وعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس في نابلس (٢٢-٢٥ آب ١٩٢٢)، وقد جاء عقده في أعقاب إصدار ملك بريطانيا (في ١٠ آب ١٩٢٢) "دستور فلسطين" والذي جاء مستوحى من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، وتضمن في مقدمته نص تصريح بلفور، ورسم شكل نظام الحكم الذي تنوي الحكومة البريطانية تطبيقه في

فلسطين، والذي كان في حقيقته صيغة من صيغ الحكم الاستعماري الذي كانت تمارسه بريطانيا في مستعمراتها الأخرى[١٩]. وقد رفض المؤتمر في قراراته هذا "الدستور"، كما رفض نظام الانتداب، ودعا إلى استقلال البلاد، ووضع بذلك "عهدا" نص على ما يلي: "نحن نواب الشعب العربي الفلسطيني في المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المنعقد في نابلس نعاهد الله والتاريخ والأمة على أن نواصل السعي في سبيل استقلال بلادنا وتحقيق الوحدة العربية بالذرائع المشروعة القانونية، وإننا لا نرضى بالوطن القومي اليهودي والهجرة اليهودية"[٢٠].

مثل طبرية في هذا المؤتمر كل من صدقي الطبري وإسحق درويش. وقد أشرنا قبل إلى إسحق درويش، أما صدقي الطبري فهو من مواليد طبرية سنة ١٨٩٩، ودرس أولا في مدينته، ثم نال إجازة في الاقتصاد والعلوم السياسية من الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٢٧. وقد شرع في الانخراط في الحركة الوطنية في وقت مبكر منذ سنوات الانتداب الأولى، ومثل طبرية في عدد من المؤتمرات الفلسطينية والهيئات الوطنية، وتولى منصب مدير بنك الأمة العربية في طبرية، وكان على امتداد سنوات عهد الانتداب من ألمع الشخصيات السياسية الطبرانية، ومن أكثرها نشاطا في العمل الوطني الفلسطيني العام[٢١].

عقد المؤتمر الفلسطيني السادس في يافا (١٦-٢٠ حزيران ١٩٢٢)، وقد مثل طبرية فيه أمين العبد الله[٢٢] وطاهر الطبري الذي انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية للمؤتمر[٢٣]. وقد انشغل المؤتمر بما

كانت حكومة الانتداب البريطاني قد قررته بشان تشكيل مجلس تشريعي في فلسطين، والذي اعتبر أن القبول به فلسطينيا يعني الموافقة على تصريح بلفور بما تضمنه من وعد بإقامة الوطن القومي اليهودي. وقد قوبل هذا المجلس بحملة ضغط شعبي وبمقاطعة فلسطينية عامة لم تمكن الحكومة من إجراء انتخابات له، فاستعاضت عنه بقرار بتشكيل مجلس استشاري تعين الحكومة نفسها أعضاءه. وقد قوبل هذا المجلس أيضا بمعارضة قوية، وقرر المؤتمر السادس "مقاطعة كل شخص يقبل عضويته"[٢٤]، وبذلك فشلت الحكومة في فرض هذا المجلس، كما فشلت من قبل في تشكيل المجلس التشريعي.

وقد تأخر موعد انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع خمس سنوات، التأم بعدها في يافا (٢٠-٢١ حزيران ١٩٢٨). وتمثلت طبرية في هذا المؤتمر بكل من أمين العبد الله وصدقي الطبري وفايز الطبري وعبد الواحد حماد ويوسف العاقل وخليل خرطبيل[٢٥]. وقد صدر عن المؤتمر بيان قال "إن سكان فلسطين لا يطيقون ولن يطيقوا نظام الحكم الحالي الاستعماري المطلق، ويطلبون بكل ما لديهم من حقوق تأسيس هيئة تمثيلية تضع دستورا فلسطينيا يضمن لها إيجاد حكومة برلمانية"[٢٦].

كان المؤتمر السابع آخر حلقات هذا التشكيل السياسي الذي توافق عليه الفلسطينيون لتأطير العمل الوطني وتمثيل الشعب الفلسطيني وقيادة حركته. وقد قام هذا الإطار على أساس مؤتمر تنبثق عنه لجنة تنفيذية تتمثل فيها الحركة الوطنية بمختلف اتجاهاتها وأطيافها. وقد استمرت هذه الصيغة قائمة رسميا إلى وفاة رئيس

اللجنة التنفيذية موسى كاظم الحسيني في ٢٣ آذار ١٩٣٤ نتيجة ما أصابه من أذى على يد الجند الإنجليز في أثناء تظاهرة كان يقودها قبل أيام قليلة من وفاته. وقد شاركت طبرية كما أظهرنا قبل في مختلف مستويات هذه الصيغة.

(٣)
الحزب العربي الفلسطيني

ظهر واضحا أن صيغة "مؤتمر ــ لجنة تنفيذية" قد اصابها وهن وعجز في أواخر سنواتها ما استوجب ظهور تشكيلات سياسية مختلفة تحمل على عاتقها مهمة قيادة الشعب الفلسطيني وتعيد بعث الحيوية في حركته الوطنية. وقد ظهرت هذه التشكيلات في صورة أحزاب تجسدت في النهاية في ستة، كان ظهورها على التوالي كما يلي: حزب الاستقلال (٢ آب ١٩٣٢)، وحزب الدفاع الوطني (٢ تشرين الثاني ١٩٣٤)، والحزب العربي الفلسطيني (٢٥ آذار ١٩٣٥)، وحزب مؤتمر الشباب (أيار ١٩٣٥)، وحزب الإصلاح (١٨ حزيران ١٩٣٥)، وحزب الكتلة الوطنية (٤ تشرين الأول ١٩٣٥). وقد توصلت هذه الأحزاب إلى تشكيل بنية قيادية جديدة في نيسان ١٩٣٦ هي اللجنة العربية العليا التي تمثلت فيها الأحزاب كافة، واتخذت شكل الائتلاف الجبهوي.

كان الحزب العربي الفلسطيني (حزب الحاج أمين الحسيني، وكان برئاسة جمال الحسيني) أكثر الأحزاب نفوذا وأوسعها انتشارا

وتميز باتساع قاعدته الشعبية. وفي الوقت الذي لا نجد في مصادرنا أثرا يدل على وجود الأحزاب الخمسة الأخرى في طبرية، كان للحزب العربي فرع في المدينة. فمنذ تأسيس الحزب، وكان المؤتمر الذي أعلن تأسيسه قد انعقد في القدس، كان اثنان من طبرية في لجنته التنفيذية، هما صدقي الطبري، الذي اشرنا إليه قبل غير مرة، وإسماعيل القره شولي[٢٧]، وكان من الشخصيات الوطنية البارزة في طبرية. وقد شكل صدقي الطبري فرعا للحزب في طبرية برئاسته، وأشرف على نشاطاته في المدينة والقضاء[٢٨].

(٤)
نماذج أخرى للفعل الوطني

بجانب المشاركة في تلك المؤسسات والهيئات القيادية، كان للشخصيات الوطنية الطبرانية دور كذلك في مؤتمرات فلسطينية وعربية أخرى تتدرج في إطار العمل الفلسطيني العام والنشاط القومي المتصل بفلسطين. ومن أمثلة ذلك المشاركة في أعمال "المؤتمر الإسلامي للدفاع عن الأقصى" الذي انعقد في القدس (١ تشرين الثاني ١٩٢٨) برئاسة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى. وقد جاء انعقاد المؤتمر للدفاع عن حائط البراق الذي كان اليهود يطالبون به مدعين أنه "حائط المبكى" وآخر ما تبقى من هيكل سليمان[٢٩]. وقد حضر هذا المؤتمر ٢٨٩ شخصية من مختلف المدن الفلسطينية، ومن دمشق وبيروت وشرق

الأردن. وكان من أعضاء المؤتمر من طبرية كل من الشيخ طاهر الطبري والشيخ أمين العبد الله وعبد الواحد حماد[30].

وفي مثل ثان كانت الفتوى التي أصدرها اجتماع لعلماء المسلمين التام في المسجد الأقصى في القدس (٢٦ كانون الثاني ١٩٣٥) بشأن بيع الأراضي لليهود. ووقع الفتوى ٢٤٧ شخصا من المفتين والقضاة والخطباء والأئمة والوعاظ وعلماء الدين في فلسطين، ونصت على "أن بائع الأرض لليهود في فلسطين، سواء أكان ذلك بالذات مباشرة أو بالواسطة، والسمسار والمتوسط في هذا البيع والمسهل له والمساعد عليه بأي شكل مع علمهم بالنتائج، كل أولئك ينبغي أن لا يصلى عليهم، ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ويجب نبذهم ومقاطعتهم واحتقار شأنهم وعدم التودد إليهم والتقرب منهم"، وقد وقع على الفتوى من طبرية الشيخ طاهر الطبري مفتي المدينة وقاضيها[31].

وفي مثل ثالث على هذه المشاركة مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني الأول الذي انعقد في يافا (٤ كانون الثاني ١٩٣٢) الذي كان القصد منه تجنيد الشبان الفلسطينيين في ميادين العمل الوطني لخدمة قضيتهم. وقد أصدر المؤتمر في ختام جلساته "ميثاقا قوميا" لشباب فلسطين، أكد على وحدة البلاد العربية، وتوجيه الجهود في كل قطر عربي نحو الاستقلال التام، ورفض الأمة العربية لجميع أشكال الاستعمار، وأن أراضي فلسطين برمتها أراض عربية مقدسة، وأن كل من سعى أو سمح أو ساعد على بيع كل أو جزء من هذه

الأراضي يعد مقترفا خيانة عظمى"[32]. وقد انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية له كان من أعضائها صدقي الطبري[33].

والمثل الرابع هنا هو مؤتمر علماء فلسطين الأول الذي دعا إليه الحاج أمين الحسيني وعقد في القدس (25 كانون الثاني 1935)، وحضره نحو من 400 من رجال الدين والقضاة الشرعيين والمفتين وأئمة المساجد العرب الفلسطينيين. وقد أفتى المؤتمرون بتحريم بيع أي شبر من أرض فلسطين، وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية. وقد شارك في هذا المؤتمر من طبرية الشيخ طاهر الطبري، مفتي المدينة وقاضيها الشرعي[34].

والمثل الخامس كان المؤتمر القومي العربي الذي عقد في بلودان بسورية وافتتح في 8 أيلول 1937 وجاء انعقاده بعد صدور تقرير لجنة بيل التي أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ومنطقة عربية تضم إلى شرق الأردن وثالثة دولية (عن اللجنة، انظر الفصل السابق). وقد شارك في المؤتمر 140 عضوا من فلسطين، و140 من سوريا، و80 من لبنان، و40 من شرق الأردن، و15 من العراق، وعدد قليل من مصر. وقد أكد المؤتمر في قراراته أن فلسطين جزء لا ينفصل عن أجزاء الوطن العربي، ودعت إلى مقاومة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها، والإصرار على إلغاء الانتداب ووعد بلفور[35]. ومن طبرية شارك في المؤتمر الدكتور رشيد الطبري[36].

(٥)
اللجنة القومية

تشكلت "لجان قومية" في مختلف مناطق فلسطين عند بدء الإضراب الفلسطيني الكبير، الذي تحول إلى ثورة مسلحة (ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩)، بهدف قيادة العمل الوطني الفلسطيني. وقد انتشرت هذه اللجان في مدن فلسطين وقراها كافة، واعتبرتها اللجنة العربية العليا فروعا لها في تلك المدن. وقد تشكلت اللجنة القومية في طبرية برئاسة صدقي الطبري، وكان من أبرز اعضائها نايف الطبري ورشيد الطبري وفايز الطبري ومحمد سخنيني ورشيد العقيل وإلياس دياب وعبده العابدي ومحمد سحتوت[٣٧].

وقد شاركت هذه اللجنة في مؤتمر اللجان القومية الأول الذي عقد في القدس (٢٤ نيسان ١٩٣٦) وضم وفدها إلى المؤتمر أربعة أعضاء هم صدقي الطبري وعبده العابدي وإسماعيل الحاج خليل وسليمان التركماني[٣٨]. كذلك شارك وفد من لجنة طبرية القومية في مؤتمر اللجان الثاني الذي عقد في القدس (٧ أيار ١٩٣٧) وضم خمسة أعضاء هم: صدقي الطبري وعبده العابدي وفواز المفلح وإسماعيل الحاج خليل وسليمان التركماني[٣٩]. وقد قرر هذا المؤتمر مقاطعة اليهود والامتناع من دفع الضرائب لحكومة الانتداب.

(٦)
أحزاب عقائدية

إلى جانب ذلك كله، نلمس وجود امتدادات لأحزاب عقائدية في طبرية، وإن كانت ليست بذلك الاتساع الذي كانت عليه المشاركة الطبرانية في أطر العمل الفلسطيني العام. وفي هذا ترد في مراجعنا أسماء لعدد من أعضاء الحزب القومي السوري من طبرية منهم يوسف صايغ وفؤاد صايغ وفايز صايغ[٤٠]، وعباس حماد وعبد الهادي حماد وسعيد حماد وزهير ربا[٤١]، وأسماء لعدد من الشيوعيين منهم ميشيل عيلبوني ونايف خشبون ومحمد قاسم خميس وفيصل اسمير العجلوني وأحمد عبد الرحمن الكردي[٤٢].

(٧)
مكانة أسرة الطبري في القيادة

قبل أن نختتم هذا الجزء من دراستنا عن الحركة الوطنية في طبرية بأبعادها السياسية نجد من المناسب أن نفسر هذا الظهور الذي تكرر في الصفحات السابقة لأسماء شخصيات من أسرة الطبري كان لها مشاركاتها العديدة في المناسبات والمؤسسات الوطنية المختلفة، وهو ما سوف نلاحظه أيضا في الأقسام التالية من هذا الفصل.

ويبدو هذا الظهور المتكرر مفهوما في ضوء ما ذكرناه في مطلع هذا الفصل عن أن الحركة الوطنية في طبرية كانت صورة مصغرة لها في فلسطين عامة، وبذلك فهي تحمل خصائصها نفسها.

ومن هذه الخصائص بروز دور الأسرة في الحراك السياسي الفلسطيني عامة، أو ما يمكن أن يطلق عليه بشكل أكثر تحديدا "دور الأعيان" في هذا الحراك. ولا يتسع المجال هنا للبحث في أسباب هذه "الظاهرة" ومكوناتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بل يكفي للتدليل عليها الإشارة إلى المكانة المركزية في الحراك السياسي الفلسطيني عامة في عهد الانتداب البريطاني التي كان يشغلها أعيان أسر الحسيني والنشاشيبي والخالدي وطوقان وجرار وعبد الهادي والفاهوم والنحوي، لنذكر فقط بعضا منها. وأسرة الطبري لم تكن استثناء من هذه القاعدة العامة، فوجودها في مركز الحراك السياسي في طبرية كان مثيلا لمواقع أسر أخرى في غيرها من المدن الفلسطينية، ضمن البيئة السياسية/ الاجتماعية/ الاقتصادية التي كانت تسود فلسطين في زمنها.

العوامل، إذن، التي جعلت أسرة الطبري تشغل مركز الحراك السياسي في طبرية هي نفسها التي جعلت غيرها من أعيان الأسر في فلسطين يأخذون الدور نفسه. وتعود الأسرة بأصولها إما لعجلون أو لحوران، وفق راويتين مختلفتين[١٣]. وليس هناك يقين بالنسبة لتاريخ مقدم الأسرة إلى طبرية، غير أن أول ظهور لها في المصادر يعود إلى أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما ظهر اسم الشيخ عبد الله الطبري قاضيا في طبرية إبان فترة الحكم المصري لفلسطين ١٨٣١-١٨٤٠ (انظر عن هذا الحكم الفصل الرابع أعلاه). وقد ظل الشيخ عبد الله يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٨٧٣، وظهر إلى جانبه اسم الشيخ محمد الطبري الذي كان مفتي طبرية ما بين ١٨٦٨

و١٨٧٣. ومن الجيل الثاني الذي لحق هذين الشيخين، اشتهر سعيد ابن الشيخ محمد زعيما ذا نفوذ كبير في المدينة، وانتخب في مجلس إدارة القضاء عدة مرات في السنوات ١٨٧٦-١٨٧٨، فيما تولى في سنة ١٨٨٤ منصب سكرتير المجلس، وفي سنة ١٩٠٠ انتخب رئيسا لبلدية طبرية وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٨. وبالإضافة إلى سعيد ظهر من هذا الجيل الثاني الشيخ عبد السلام أمين الطبري الذي درس في الأزهر، ثم تولى سنة ١٨٧٣ منصب الإفتاء في طبرية خلفا للشيخ محمد الطبري المذكور أعلاه، وظل في هذا المنصب إلى سنة ١٩١٤ عندما تنازل عنه ليتولاه من بعده ابن أخته الشيخ طاهر (ابن سعيد المشار إليه أعلاه).

كان منشأ زعامة الأسرة في الحياة العامة مرتبطا إذن بمكانتها الدينية (قاضي المدينة ومفتيها من الأسرة). وقد أسس هذا النوع من المكانة لظهورها في المواقع المتقدمة في المجالين الاجتماعي والسياسي. ونلحظ ذلك بوضوح فيما كان عليه وضع الأسرة في عهد الانتداب إذ تمتعت بمركز الصدارة في هذين المجالين معا. وقد ظهر منها على الخصوص الشيخ طاهر الطبري الذي أشرنا إليه غير مرة، والذي تعززت مكانته أكثر عندما عين، بالإضافة إلى منصبه في الافتاء، قاضيا شرعيا لطبرية في العام ١٩٢٤ (واستمر في هذا المنصب إلى ١٩٤٦ عندما نقل قاضيا في مدينة الناصرة). كذلك ظهر من شخصيات هذه الأسرة أخ غير شقيق للشيخ طاهر الطبري هونايف الطبري، الذي يوصف في بعض التقارير التي كتبت عنه في عهد الانتداب بأنه شخصية بارزة جدا

ذات نفوذ محلي واسع، وبأن لـه اليـد الطـولى فـي نـشاطات المنطقـة كافة. ومن شخصيات الأسرة التـي لمعـت فـي عهـد الانتـداب أيـضا صدقي الطبري (وهو ابن عبد الـسلام الطبـري الـذي سـبقت الإشـارة إليه) الذي ورد اسمه غير مرة هنـا مـن قبـل كمـا سنـشير إليـه فـي الأقسام التالية من هذا الفصل.

وما ينبغي الالتفات إليه أن العامل الـديني الـذي أسـس للمكانـة المتقدمة التي كانت عليها هذه الأسـرة اجتماعيـا وبالتـالي سياسـيا كـان يتقاطع وبشكل محايث مع وضعها المـالي المتـين. فقـد كونـت الأسـرة ثروات كانت بمقاييس الوقت طائلة، فكـان أفرادهـا يعـدون مـن كبـار أصحاب العقارات في طبرية، إن لـم يكونـوا أكبـرهم، كمـا كـان لهـم أراض زراعية شاسعة نسبيا خارج المدينة (خاصـة فـي ناصـر الـدين والمنارة)، بالإضافة إلى ما كانوا يملكون من قطعـان المواشـي. ومثلمـا أن النفوذ سبيل من السبل المؤدية إلى زيادة الثراء، فـإن الثـروة نفـسها، وبعلاقة جدلية، تؤهل أصحابها للدخول مـن بـاب واسـع نحـو منـاطق الصدارة وبالتالي النفوذ والزعامة. وهـذا مـا كـان عليـه وضـع هـذه الأسرة ضمن العلاقة الجدلية ما بين الثروة والنفوذ.

وبالإضافة إلى ذلك، فـإن ثـراء الأسـرة أتـاح لأبنائهـا تعليمـا عاليا لم يكن مثله متاحا إلا لقلة، وهي ثرية على كـل حـال، مـن الأسـر الطبرانية الأخرى. وكانت البـدايات فـي الأزهـر، كمـا هـي الحـالات التي أشرنا إليه أعلاه. وقد تطور الوضـع فـي عهـد الانتـداب باتجـاه جامعات أخرى وبتخصصات مختلفة (ما بـين الطـب والعلـوم الـسياسية والاقتصاد والحقوق، والصيدلة)، وقد أثبتنا فـي الفـصل الـسابق أسـماء

ستة من أسرة الطبري (تمكنا من التعرف عليهم) ممن تلقوا مثل هذا التعليم العالي. ولا شك أنه كان لذلك أثره في تعزيز المكانة الاجتماعية التي كانت عليها الأسرة. ففي المجتمعات المماثلة للمجتمع الطبراني في عهد الانتداب التي تقل فيها نسبة المتعلمين عامة، وتندر فيها نسبة من يصلون إلى مراحل التعليم العالي، يتمتع هؤلاء الأخيرون بمراتب عالية في المكانة الاجتماعية التي كثيرا ما تتطور إلى مرتبة القيادة السياسية.

وعودا على بدء، كانت الحياة الوطنية في طبرية، في جانبها السياسي، في عهد الانتداب البريطاني نموذجا مصغرا لها فلسطين عامة، بنشوئها ودوافعها وأهدافها وبخصائصها الدالة عليها.

(٨)
المقاومة المسلحة
هدوء ما قبل العاصفة

من الملاحظ أن المرة الأولى التي شهدت فيها طبرية أعمالا مسلحة بين سكانها العرب، من جانب، والصهيونيين والإنكليز من جانب آخر، كانت في أثناء الثورة العربية الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩. قبل ذلك ظلت طبرية هادئة بخلاف المدن والمناطق الفلسطينية الأخرى التي كانت ساحات للاضطرابات والصراع المسلح في سلسلة الثورات والانتفاضات الفلسطينية بدءا من ثورة ١٩٢٠، مرورا بثورة أيار ١٩٢١، وثورة البراق ١٩٢٩، وانتفاضة

١٩٣٣، ولنتهاء بثورة الشيخ عز الدين القسام ١٩٣٥، التي كانت بصورة ما مقدمة للثورة الكبرى.

وقد تعزى هذه الظاهرة إلى طبيعة التركيب الطائفي ليهود طبرية الذي كان يغلب عليه انتماؤهم إلى الطائفة السفاردية (الشرقية) التي اتسمت صلاتها بعرب المدينة بصفات حسن الجوار والتعايش السلمي وبالعلائق الاقتصادية الطيبة، فلم يكن لدى العرب بذلك حوافز مباشرة لمناصبة جيرانهم اليهود في المدينة العداء العنيف. كذلك قد تفسر هذه الظاهرة أيضا بوجود كثرة يهودية في المدينة كانت تساوي نصف عدد السكان الإجمالي ما كان يجعل استفزاز هذه الكثرة أمرا لا يمكن التكهن بنتائجه السلبية على العرب. ونجد هذا التفسير موثقا في رسالة يعود تاريخها إلى تموز ١٩٢٢ أرسل بها الشيخ طاهر الطبري إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني (التي كانت تقود النضال الوطني عند ذاك) ردا على انتقادات كانت قد أبدتها اللجنة لما كان يبدو عدم المشاركة الفاعلة في الإضراب الذي كانت قد دعت إليه اللجنة (في يومي ١٣ و١٤ تموز ١٩٢٢) احتجاجا على نظر عصبة الأمم في صك الانتداب البريطاني على فلسطين تمهيدا لإقراره. ويشير الشيخ طاهر في رسالته إلى المعوقات والصعوبات التي كانت تواجه العرب في طبرية فيما يتعلق بممارسة النشاط الوطني كما في بقية المدن. فبالنسبة إلى هؤلاء كان للقيام بالتظاهر والإضرابات في مدينة ذات أكثرية يهودية أمرا صعبا، كما أن تنفيذ الإضرابات ما كان ليؤثر في الحركة التجارية – على حد قوله – لأن معظمها كان تحت سيطرة اليهود[٤٤].

وبجانب ذلك، لا يمكن التقليل من تأثير المتصدرين لتزعم الحركة الوطنية في المدينة في الحؤول دون تحول النشاط الوطني فيها إلى أعمال عنف. فقد كان هؤلاء في غالبيتهم من ملاكي العقارات وأصحاب المصالح التجارية ووجهاء الأسر التي تتمتع بأوضاع اقتصادية متقدمة نسبيا، وهم الذين كانت مصالحهم تتحقق بأفضل ما تكون في الأجواء الهادئة المطمئنة، وبذلك فإن أي اضطراب عنيف في المدينة سوف ينعكس سلبا عليها. والمثل الأبرز على دور هذه الزعامات في إشاعة أجواء التهدئة ما كان في أثناء ثورة البراق (آب ١٩٢٩) عندما انتشرت أعمال العنف الموجهة إلى اليهود والإنجليز معا في معظم المدن الفلسطينية وبعض المناطق الريفية، شاملة القدس ونابلس ويافا وحيفا واللد والخليل وصفد وبيسان وقرى في مناطق الجليل. أما طبرية فقد خيم عليها الهدوء آنذاك ولم تقع فيها أية حوادث غير مألوفة، وكان ذلك نتيجة ما قامت به زعامات المدينة من مساعي لضبط الأمور وإشاعة أجواء الاطمئنان. فبمبادرة من الشيخ عبد السلام الطبري تم تنظيم اجتماع للأعيان العرب واليهود في مضافة العائلة وقد تقرر فيه أن "ينصح كل فريق قومه بملازمة الهدوء والسلام"، كما صدر عن الاجتماع بيان باللغتين العربية والعبرية دعا إلى التمسك بذلك. وقد وقع البيان أحد عشر من رؤساء الأسر العربية في طبرية[٤٥].

وقد اختلف الوضع في أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) التي شهدت طبرية في أثنائها أعمالا مسلحة واضطرابات اتصفت بالعنف. وتفسر هذه الحالة الجديدة بمعطيات

تكاملت معا لتجعل انخراط المدينة في أعمال العنف أمرا حتميا: الأول ازدياد حجم الأخطار التي كان يواجهها الفلسطينيون عامة على بلدهم ومستقبلهم وتوضحها بشكل لا يقبل اللبس. وكانت تلك ماثلة تحديدا في ارتفاع وتيرة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ارتفاعا ملحوظا من جهة، وظهور المقاصد البريطانية الحقيقية التي كانت تتخفى خلف التعبير المراوغ عن "الوطن القومي" لليهود والذي اتضح الآن أنه يعني دون مواربة إنشاء دولة يهودية في فلسطين (كما هي في مشروعات التقسيم التي أعلنت في تلك الفترة). تلك الأخطار كان يلمسها أهل طبرية (وهم هنا مدار بحثنا) في ازدياد عدد المهاجرين اليهود الجدد الذين كانوا يتكاثرون بشكل مطرد في الأحياء اليهودية الجديدة التي تحيط بالمدينة، خاصة في شمالها الغربي (ضاحية قريات صمويل على وجه أكثر تحديدا) وفي ازدياد عدد المستوطنات التي كانت تتكاثر حول المدينة وعلى القرب منها، كما كانوا قد أدركوا ما كان البريطانيون ومعهم الصهيونيون يريدون من مدينتهم ـ أن تكون جزءا من الدولة اليهودية في أي تقسيم لفلسطين قادم.

وثانيا، كانت الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) قد اتسمت بالشمولية الجغرافية خلافا لبعض الثورات السابقة التي كانت تقتصر على مناطق معينة دون غيرها. فقد عمت الثورة المدن جميعا بالإضافة إلى انتشار عملياتها في الريف من أقصى شمال فلسطين إلى أقصى جنوبها، فلم يكن هناك أدنى احتمال لنجاح أي محاولة، إن حدثت، من جانب الوجهاء المتصدرين لقيادة الحركة الوطنية لإشاعة جو من التهدئة. ويلحظ هذا الأمر خصوصا في حقيقة تشكل قيادات

ميدانية في منطقة الجليل، غير تلك التي تصدرت قيادة الحركة الوطنية في طبرية، كانت تتجه بأعمالها العسكرية نحو المدينة نفسها، بالإضافة طبعا إلى المناطق الأخرى في الجليل التي كانت تقع ضمن إطار مسؤولياتها القتالية. وكان لذلك تأثيره في اتجاهين، الأول تجاوز "قيادة الوجهاء" وتقليص دورهم نسبيا في التأثير على مجريات الأمور والثاني إشاعة أجواء مواتية في المدينة للمبادرة بأعمال عنف، بمختلف أشكالها، يقوم بها السكان العرب تتناسب مع ما كان المناضلون الذين كانوا تحت إمرة تلك القيادات الميدانية يقومون به.

وثالثا، إذا كان عرب طبرية قد عرفوا في الماضي اليهود الذين كانوا يساكنونهم في المدينة على أنهم جيران يمكن التعايش معهم بسلام وهدوء، فقد أخذت الأوضاع في التبدل مع تكاثر عدد المهاجرين من أوروبا الذين لم يكن يربطهم بأهل المدينة العرب أي نوع من الصلات، بل كان وجودهم في المدينة وما حولها يستفز العرب ويغذي لديهم مشاعر العداء الصريح للصهيونية والتي كثيرا ما كانت تأخذ شكل العداء المطلق لكل ما هو يهودي أكان من أولئك المهاجرين الجدد أم أولئك "الجيران" الأقدمين.

(٩)
طبرية في الثورة الكبرى

في ظل هذه المعطيات كانت مشاركة طبرية في الثورة الكبرى تماثل ما كان يحدث في المدن الأخرى وفي الريف الفلسطيني

عامة. كانت البداية أن أضربت المدينة، شأنها شأن مناطق فلسطين بأجمعها التي دخلت في الإضراب الكبير بدءا من ٢٠ نيسان ١٩٣٦ والذي رافقه منذ البداية أعمال عنف مسلح شمل عدة مناطق فلسطينية. غير أن بدايات هذه الأعمال تأخرت قليلا في طبرية إذ لا نلمس أثرا لها إلا في مطلع شهر حزيران من العام نفسه، عندما جرت مهاجمة مبان لشركة يهودية في المدينة ليلا وتم إحراقها[٤٦]. وقد تبع ذلك بعد أيام إطلاق نار كثيف تعرضت له ضاحية أحفا اليهودية في جنوب المدينة (المعروفة أيضا بأحوزات (حزات) كيبر) من ثلاث جهات محيطة بها، وقد تدخلت الشرطة فردت على النار بالمثل[٤٧].

وقد تواصلت أعمال العنف بعد ذلك، وكانت ضاحية قريات شموئيل، التي كانت غالبية سكانها من اليهود المهاجرين، هدفا رئيسيا فيها[٤٨]. كذلك تعرض الحي اليهودي في المدينة القديمة لعدد من الهجمات بالقنابل، وسجلت حوادث من إلقاء المتفجرات على محلات يهودية في الشوارع المختلطة، كما تكاثرت عمليات قذف الحجارة على تلك المحلات وعلى أشخاص يهود من جانب فتيان صغار السن كانوا ينتظمون في أطر جماعات صغيرة، خاصة في مناسبات التظاهرات الشعبية.

ومن الحوادث الملفتة للنظر في هذا السياق ما حدث من مواجهات عنيفة يوم ١٩ نيسان ١٩٣٧ بين عرب طبرية من جانب والصهيونيين والبوليس البريطاني من جانب آخر. وقد جاءت هذه المواجهات كردة فعل مباشرة على ما قام به الصهيونيون من

استفزازات للسكان العرب عندما نظمت أعداد منهم ينتمون للمنظمة الصهيونية الجديدة*، وهم من كانوا يعرفون بالتصحيحيين revisionists، موكبا أريد له أن ينطلق من طبرية إلى مستعمرة تل حي في شمال فلسطين للاحتفال فيها بذكرى مقتل الصهيوني المتطرف جوزيف ترومبلدور Joseph Trumpeldor الذي قتل هناك في اشتباك مع العرب سنة ١٩٢٠. ويصف بيان أصدره المكتب الصحفي في حكومة الانتداب البريطاني[٤٩] ما جرى في ذلك اليوم بأن مجموعة صغيرة من التصحيحيين، التي كانت جزءا من فرقة كبيرة كان أفرادها يرتدون ملابس مميزة وموحدة ويتسلحون بالهراوات، شكلت مسيرة في المدينة القديمة استعدادا للذهاب إلى تل حي للاحتفال بذكرى ترومبلدور. وقد قابل أولاد عرب هذه المجموعة بالسخرية وصرخات الاستهجان وبقذفها بالحجارة. وسرعان ما انتشر

---

* المنظمة الصهيونية الجديدة New Zionist Organization كان قوامها مجموعة من الصهيونيين المتطرفين عرفوا بصفة الصهيونيين التصحيحيين Revisionist Zionists وكانوا يتبعون آراء الصهيوني المتشدد فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky، وقد شكلوا تلك المنظمة التي انشقت عن المنظمة الصهيونية العالمية (الرسمية) في العام ١٩٣٥، احتجاجا على ما كانت تعتبره "مواقف معتدلة" كانت تتخذها المنظمة الأم تجاه الإنكليز وحكومة الانتداب البريطاني. وكان أبرز أفكار هذه المنظمة الجديدة دعوتها إلى إقامة دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن (فلسطين وشرق الأردن آنذاك). وفي عام ١٩٤٦ عادت المنظمة الجديدة فانضمت مرة أخرى إلى المنظمة الأم. وفي أوساط هؤلاء التصحيحيين انبثقت المنظمات الصهيونية الأكثر تطرفا وإرهابا مثل منظمة الإرغون ومنظمة ليحي. وقد انضوى هذا التيار بعد قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨ في إطار حزب حيروت الذي تطور فيما بعد إلى حزب الليكود.

القذف بالحجارة حتى عم المدينة جميعا. وقد تدخلت الشرطة سريعا وبشكل حازم إلا أن جمهورا عربيا كبيرا احتجزوا سيارة شاحنة تابعة للبوليس وتمكنوا من تحرير معتقل عربي فيها وهربوه. وفي أثناء هذا العراك الصاخب أصيب شرطيان إنجليزيان بجراح خطيرة. وقد أطلق البوليس عدة رصاصات باتجاه الجمهور الذي ما لبث أن تفرق. إلا أن القذف بالحجارة استمر في مختلف أنحاء المدينة كما أطلقت عيارات نارية بعيدة المدى في اتجاه المدينة من التلال المحيطة بها. وأصيب في هذه المواجهات عدد من العرب واليهود بالإضافة إلى بعض رجال البوليس. وقد فرض منع التجول على المدينة اعتبارا من وقت الغروب، وفي أثناء ذلك تحرك موكب التصحيحيين الذي كان يشكل حمولة عشرة حافلات من طبرية باتجاه تل حي وقد رافقته قوة إنجليزية. وقد أصدرت محكمة عسكرية إنجليزية في اليوم التالي حكما بالسجن لمدة سنتين على عربي، وبالسجن سنة واحدة على عربي آخر، بينما حكم بالسجن شهرين على يهودي وبالسجن شهرا واحدا على يهودي آخر.

ومن الملاحظ أن هذه المواجهات وقعت بعد أن كان قد أعلن عن إنهاء الإضراب الكبير اعتبارا من ١٢ تشرين الأول ١٩٣٦ والتوقف "رسميا" عن مواصلة الثورة المسلحة*. غير أن واقع الحال

* أعلن عن وقف الإضراب ابتداء من ١٢ تشرين الأول ١٩٣٦ نتيجة الضغوط التي مارسها قادة الدول العربية على القيادة الفلسطينية لكي يفسح المجال لعمل اللجنة التي كانت الحكومة البريطانية قد أعلنت عن تشكيلها بهدف التحقيق في "الاضطرابات" التي كانت قد سادت في فلسطين منذ بدء الإضراب.

على الأرض كان خلاف ذلك إذ استمرت الأعمال العسكرية، وإن كانت بشكل متقطع، التي كان يقوم بها المناضلون الفلسطينيون في مختلف المناطق خلافا للموقف الرسمي. ويصف تقرير حكومي بريطاني الحالة في منطقة طبرية (وهي المعنية هنا) كما كانت خلال الأشهر القليلة التي أعقبت توقف الإضراب بأنه خلال شهر آذار من عام ١٩٣٧ كانت الأوضاع في أقضية طبرية والناصرة وصفد ما زالت مضطربة[٦٠].

غير أن الموقف عاد إلى التفجر بشكل واسع مع دخول الثورة الفلسطينية مرحلتها الثانية في أعقاب اغتيال أندروز Andrews حاكم لواء الجليل في ١٦ أيلول ١٩٣٧، إذ جاء اغتياله في الناصرة بمثابة إشارة البدء لتجدد الثورة وأعمال العنف. وكان لطبرية ومنطقتها نصيب في هذه الأعمال. إذ يورد التقرير البريطاني نفسه (المشار إليه أعلاه) أخبار معركة جرت شمال غرب طبرية آخر أيام شهر كانون الأول ١٩٣٧ بين من وصفها بأنها "عصابة مسلحة كبيرة" وقوات من الجيش والبوليس وقوة حدود شرق الأردن* أوقعت

---

* تأسست "قوة حدود شرق الأردن" في الأول من نيسان ١٩٢٦، وكانت تتبع مباشرة المندوب السامي البريطاني على فلسطين، وكانت الغاية المعلنة من إنشائها حماية حدود شرق الأردن، إلا أنها كانت تشترط على المنتسبين إليها أن يقبلوا العمل في أي مكان تحدده قيادة هذه القوة. وكان مركز قيادة القوة في البداية معسكر صرفند في فلسطين، ثم نقلت إلى الزرقاء في شرق الأردن. ضمت القوة جنسيات مختلفة من فلسطين وشرق الأردن وسوريا والسودان، وكان قادتها جميعا من الضباط الإنجليز. اعطيت القوة مهمات قتالية في فلسطين نفسها، كذلك بعض المهمات في العراق (في أثناء ثورة رشيد عالي>

خسائر في صفوف "العصابة"، كما كانت خسائر البريطانيين مقتل ضابط وجندي إنجليزيين وإصابة جنديين إنجليزيين بجروح.

وقد تصاعدت المواجهات المسلحة في المنطقة على امتداد العام ١٩٣٨ والشهور الأولى من العام ١٩٣٩. ومن الملاحظ أن هذه المواجهات كانت ذات شقين: أحدهما ما كان يجري محليا في المدينة من أعمال عنف يقوم بها مناضلون من المدينة نفسها في عمليات تفجير ومهاجمة أشخاص يهود والتصدي لرجال البوليس الإنجليزي[٦٥]، أما الشق الاخر فكان يشمل النشاطات العسكرية لفصائل الثورة الفلسطينية العاملة في منطقة الجليل والتي كان جانب مهم منها موجها إلى مدينة طبرية. وكانت قيادات هذه الفصائل تصدر بلاغات تفصيلية عن أعمالها العسكرية، كما كانت بعض البلاغات تصدر تحت عنوان "المركز الرئيسي لقيادة الثورة في منطقة طبرية"، وبعضها كان يصدر بتوقيع "يحيى قائد منطقة طبرية" واسمه الكامل يحيى هواش، وبعضها الاخر بتوقيع "قائد الثورة العام المتوكل على الله" وهو لقب كان يستخدمه عبد الرحيم الحاج محمد، أحد القادة الكبار في الثورة وقد استشهد في معركة مع الإنكليز في ١٩٣٩/٣/٢٧.

وتبين هذه البلاغات أنواع العمل العسكري الذي كانت تقوم به الفصائل والتي كانت تشمل مهاجمة الضواحي اليهودية في المدينة

>الكيلاني) وفي سوريا في أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي إيران. حلت القوة في ٩ شباط ١٩٤٨ بعد أشهر قليلة من قرار الأمم المتحدة بتسقسيم فلسطين، وإعلان الحكومة البريطانية قرارها بإنهاء انتدابها على فلسطين.

وبعض المستوطنات القريبة منها والاصطدام مع الجند الإنجليزي فيها والحراس اليهود وقطع الطريق على سيارات تقل صهيونيين مسلحين والاستيلاء على أسلحتهم وتخريب خطوط الهاتف والكهرباء[٥٢]. غير أن الإنجاز الأكبر في هذه الأعمال العسكرية كان في سيطرة الثوار على مدينة طبرية ساعات معدودات لكنها كافية للتدليل على فاعلية الثورة، خاصة في العام ١٩٣٨.

(١٠)
سيطرة الثوار على طبرية

كان ذلك في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول ١٩٣٨. وتجمع المصادر العربية والبريطانية والصهيونية على جوهر ما جرى في ذلك اليوم المتميز، وإن كانت تختلف في التفصيلات، خاصة منها تلك المتصلة بخسائر الطرفين.

الرواية العربية عن هذه الحادثة نجدها في وثيقتين، الأولى البلاغ العسكري الذي اصدرته قيادة اللواء الشمالي في "القيادة العامة لجيش الثورة العربية في فلسطين" ، والثانية رسالة من صفد أرسلها – في اليوم التالي للمعركة – عيد سليمان، وهو من رجال الدين العاملين في الحركة الوطنية، إلى أكرم زعيتر[٥٣].

يتضمن البلاغ العسكري لقيادة الثورة أن الهجوم على طبرية نفذته خمس فصائل تضم جميعها ٣٠٠ من المجاهدين، وكانت بقيادة

للقائد العام للثورة (أبو إبراهيم الكبير* الذي كان قائدا لهما في اللواء الشمالي)، وهو الذي قاد الفصيل الرئيسي، بينما قاد الفصائل الأربع الأخرى كل ممن يسميهم البلاغ بأبي عاطف، والشيخ محمد، والشيخ يوسف، وأبي أحمد، والشيخ يحيى. وقد انطلق المجاهدون، من مكان لا يحدده البلاغ، في الساعة الثامنة من مساء الأحد (٢ تشرين الأول)، وطوقوا المدينة من جميع أطرافها، بعد أن سدوا منافذ الطرق بالحجارة وقطعوا أسلاك التلفون ما بين صفد وطبرية، والناصرة وطبرية، ونصبوا الرشاشات على مراكز منيعة، ثم هجموا دفعة واحدة من جميع الجهات، ودخلوا المدينة، وأخذوا بمهاجمة البيوت اليهودية ومعسكرات الجيش الإنجليزي، ونصبوا الأعلام العربية على دار الحكومة، وأحرقوا محكمة الصلح والسرايا والمتاجر اليهودية.

---

* خليل محمد عيسى وكان يدعى أبا إبراهيم الكبير تمييزا له من قائد آخر عرف بأبي إبراهيم الصغير (توفيق إبراهيم من قرية أندور). ولد في قرية المزرعة الشرقية بقضاء رام الله، وعمل فلاحا في قرية شفاعمرو، ثم انتقل للعيش في حيفا حيث انضم هناك إلى حركة الشيخ عز الدين القسام. وبعد القضاء على هذه الحركة التحق، شأنه شأن سائر القادة القاسميين، بالثورة العربية الفسطينية الكبرى، وأصبح قائدا للمنطقة الشمالية. طاردته السلطات البريطانية، وغادر فلسطين بعد توقف عمليات الثورة إلى دمشق فبغداد حيث اشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١. وعندما أخفقت هذه الثورة غادر بغداد إلى سوريا، ومنها إلى برلين حيث أقام فيها ما تبقى من سنوات الحرب العالمية الثانية. وقد عاد إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب، وكان له فيما بعد دور بارز في القتال الذي نشب بعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين (١٩٤٧). بعد النكبة انتقل إلى دمشق، ثم إلى عمان حيث أمضى بقية عمره إلى وفاته سنة ١٩٧٩. انظر ترجمته: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ص ص. ٣٧٢-٣٧٣.

وقد قتل في هذه المعركة سبعون شخصا من اليهود وثلاثة خفراء، واستولى الثوار على بنادق وكمية من الذخائر. وقد سيطر الثوار على المدينة ثلاث ساعات انسحبوا بعدها دون خسائر.

أما رسالة عيد سليمان عن هذه المعركة فتشير إلى أن عدد الثوار الذين هاجموا المدينة كان ٤٠٠ شخص، وأنهم تمكنوا من حرق ثلاث من دوائر الحكومة بالإضافة إلى عشرة دور ضخمة. وتقول إن اشتباكات وقعت بين الثوار وقوات الحكومة، وتقلل من عدد القتلى اليهود الذي سقطوا في المعركة فتذكر أنهم كانوا خمسة وثلاثين بالإضافة إلى جرحى كثيرين. كذلك تنفرد الرسالة بذكر اشتباك بين الثوار وقوات الحدود عند حمامات طبرية (جنوب المدينة)، وبأن سيطرتهم على المدينة استمرت حتى صباح اليوم التالي.

وتختلف الرواية اليهودية في التفاصيل. فتذكر[٥] أن "عصابة مسلحة كبيرة" دخلت طبرية في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بعد أن قطعت خطوط التلفون عنها، وقد كانت مكونة من فريقين، قدم أحدهما من اتجاه صفد ووصل إلى حي قريات شمويل (اليهودي شمال غرب المدينة)، والثاني من الجنوب مخترقا حي عكيفا اليهودي. وخلال خمس دقائق سمع صفير من التلال المحيطة بالمدينة ليبدأ بعده إطلاق النار الذي كان موجها بشكل رئيسي إلى مقر الحكومة، ومركز الشرطة، ومباني إيوائهم. وفي وقت متزامن مع ذلك اشتعلت النيران في مكاتب الحكومة، وفي كنيس، وفي ستة منازل في حي عكيفا. وقد ردت الشرطة على الهجوم، وخلال خمس

وعشرين دقيقة عززت بعناصر من "قوة حدود شرق الأردن" من سمخ، إلا أن هذه تعرضت لإطلاق للنار عليها بقوة من جانب حاجز مسلح عند حمامات طبرية. وقد استمرت الاشتباكات من الساعة التاسعة مساء إلى الحادية عشرة، تمكنت بعدها قوات الشرطة المعززة بحرس الحدود من إخراج "العصابة" من المدينة. وقد ذكرت الصحيفة أن عدد القتلى من اليهود كان تسعة عشر، نكرت اسماءهم جميعا.

أما الرواية البريطانية فتختلف، إذ تركز فقط على القتلى من اليهود دون الإشارة قط إلى مهاجمة المراكز الحكومية الإنجليزية في المدينة. وقد جاءت الرواية في تقرير الحكومة البريطانية إلى مجلس عصبة الأمم الذي ورد فيه عن هذه الحادثة أنها غارة raid عامة نظمت بشكل متناسق ونفذت بوحشية على الحي اليهودي في المدينة، وأسفرت عن مقتل تسعة عشر يهوديا، وذكر التقرير أن الجنود اشتبكوا مع "العصابة"[٥٥].

مهما كان الاختلاف في التفصيلات، فمن الواضح أن هذه العملية العسكرية كانت إحدى العمليات النوعية النموذجية التي نفذها الثوار الفلسطينيون آنذاك، فقد أحسن التخطيط لها، وجرى تنفيذها بكفاءة عسكرية متميزة إذ هوجمت المدينة من محورين في وقت واحد، من الشمال والجنوب، وكانت الأهداف قد عينت بدقة وشملت أهدافا إنجليزية وأخرى صهيونية، وانسحب الثوار دون أن تقع خسائر في صفوفهم. وقد قاد العملية قائد المنطقة الشمالية من مناطق عمليات الثورة خليل محمد عيسى، المعروف بأبي إبراهيم الكبير،

وهو من أكثر قادة الثورة كفاءة ومقدرة. ولكفاءة العملية حاول الصهيونيون التشكيك بقدرة القادة الفلسطينيين على التخطيط لمثلها، فزعمت تقارير صحفية أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن النازيين الألمان كانوا خلفها، وأن أحد الضابط الألمان السابقين كان هو الذي نظم هذه العملية[56]. ولا تشير هذه التقارير إلى أي من هذه الدلائل المزعومة.

كانت ردة الفعل الإنجليزية على هذه العملية ضمن سلسة من الهجمات واسعة النطاق وقد نفذت بكثير من الوحشية والقسوة. وقد لخصت الحكومة البريطانية في تقريرها إلى مجلس عصبة الأمم (المشار إليه أعلاه) أعمالها تلك بقولها بأنه في اليوم التالي من عملية طبرية قام جنودها بالاشتباك مع العصابات "الغازية" وكبدوها خسائر في الأرواح تقدر بخمسين شخصا، منهم "زعيم من زعماء قطاع الطرق سيء السمعة". وقد كان عدد هذه الاشتباكات ثلاثة، اثنان منها شمال طبرية والثالث قرب صفد.

غير أن البلاغ العسكري الرسمي الذي أصدرته حكومة الانتداب عن هذه الأعمال ووزع في فلسطين يعطي تفصيلات أكثر، إذ يذكر[57] أن الجند الإنجليز قاموا بعمليات تفتيش في طبرية وجوارها وأنهم ألقوا القبض على سبعة من "الإرهابيين" المعروفين في المدينة. كما قاموا بحملات تأديبية على القبائل والقرى التي عرف عنها بأنها قدمت دعما ومساعدة لأولئك الذي قاموا بالهجوم على طبرية، فأحرقوا ستين خيمة من خيام البدو ما بين المجدل وحطين. كذلك اشتبك الجنود مع "عصابة مسلحة كبيرة" في المثلث القائم ما

بين قرى ياقوق وعيلبسون وغوير أبو شوشة، وشاركت طائرات عسكرية إنجليزية في هذا الاشتباك الذي استمر من الواحدة من بعد منتصف الليل إلى الفجر. وزعم البيان أن خسائر الفلسطينيين في هذا الاشتباك كانت ٣٦ إصابة قاتلة. كذلك أشار البلاغ إلى اشتباكات أخرى وقعت ما بين طبرية وصفد شاركت فيها طائرتان حربيتان، وخسر فيها الفلسطينيون ١٠ إصابات. أما الإنجليزفقد أصيبت مصفحاتهم ودمر بعض رشاشاتهم، دون وقوع خسائر في الأرواح.

وتعطي المصادر الفلسطينية صورة أكثر فظاعة لعمليات الانتقام تلك. فقد جاء في رسالة وجهها من صفد عبد سليمان (الذي أشير إليه سابقا) إلى أكرم زعيتر مؤرخة في ٦ تشرين الأول ١٩٣٨،[٥٨] أي في اليوم التالي للعمليات الإنجليزية، وصف تفصيلي لما تم في ذلك اليوم. تذكر الرسالة أن "خط القتال" كان طويلا جدا امتد من قرب طبرية عند مكان يدعى جرن حلاوة وشمل جميع الجبال التي تصل طبرية بصفد إلى قرية ترشيحا من أعمال عكا، وكان طول هذا الخط يزيد عن ٨٠ كيلومترا. وقد اشترك في القتال من قوات الحكومة ما يزيد عن ٥٠٠٠ جندي تساندهم ثماني طائرات، أما عدد المجاهدين فكان قرابة ألفي مجاهد، من رجال الثورة وممن انضم إليهم من أبناء القرى. وقد استشهد في هذه الاشتباكات أحد قادة الثورة الذي تسميه الرسالة أبا خضر وتصفه بأنه "قائد صابر محنك"، كما استشهد ثلاثة من الثوار قرب جرن حلاوة من أعمال طبرية، وجرح أربعة. وتؤكد الرسالة أن خسائر الثوار كانت محصورة في هذا العدد فقط "وكل ما ستذيعه محطات الإذاعة

في هذا الصدد هو تجن على الحقيقة الراهنة". وفي المقابل تقول الرسالة إن خسائر قوات الحكومة لم تقل عن أربعين قتيلا، بينما الجرحى كانوا أضعاف هذا العدد، وبالإضافة إلى ذلك أتلف المجاهدون عددا وفيرا من "عدد القتال الإنجليزية".

وعن الفظائع التي اقترفها الإنجليز تقول الرسالة إن طائرة حلقت فوق القرى الآمنة، وألقت قنابلها على قرية أدبتا فقتلت ثلاثا من نسائها، كما قتلت أربعة من قرية الصفصاف (شمال صفد)، وثلاثة آخرين من رجال بدو الزنغرية بين صفد وطبرية. وحدث أيضا أن قام الجيش بإحراق جميع مضارب عرب المواسي وعرب أبي شوشة قرب حطين وعرب النوير قرب طبرية. وإلى جانب هذا كله، اقترف الجند "آثاما كبارا"، وفق تعبير الرسالة، بحق سكان المضارب البدوية بتعريضهم للضرب والتعذيب، ما سبب إصابة ١٢٠ منهم بجراح، كما اعتقلوا ٩٠ شخصا منهم.

(١١)
اغتيال رئيس البلدية اليهودي

لا نعلم في الحقيقة إن كانت هناك صلة ما بين هذه الحوادث التي جرت في طبرية ومحيطها واغتيال رئيس مجلس بلديتها اليهودي بعد نحو من ثلاثة أسابيع منها. لكن قد تكون الأجواء المتوترة التي خلقتها تلك الحوادث، وعمليات الانتقام الشنيعة التي اقترفتها القوات البريطانية قد أثرت في اختيار التوقيت، دون أن

نهمل حقيقة أن رئيس البلدية هذا كـان مـستهدفا مـن الحركـة الوطنيـة في طبرية على مدى سنوات سـابقة عديـدة، وربمـا جـاءت الحـوادث الأخيرة لتشكل إطارا مواتيا لعملية اغتياله.

كان التقليد في طبرية في السنوات الأولـى مـن عهـد الانتـداب البريطاني أن يكون رئيس بلديتها عربيا وذلـك امتـدادا لمـا كـان عليـه الوضع في الزمن العثماني. وكـان آخـر عربـي شـغل المنـصب هـو قدري حافظ الذي استمر رئيسا للبلدية حتى عـام ١٩٢٣، عنـدما عينـت السلطات البريطانية بعده زكي (زاخـي) الحـديف رئيـسا بالوكالـة، ثـم انتخب للمنصب في السنة التاليـة، والحـديف هـذا هـو الـذي تعـرض لعملية الاغتيال بعد نحو من خمسة عشر عاما.

ولد الحـديف فـي طبريـة سـنة ١٨٩٠ لأسـرة مـن الطائفـة السفاردية (الشرقية)، كانت قـد هـاجرت إلـى المدينـة العـام ١٧٤٠[٥٩]. وكان أبوه الحاخام الرئيسي للطائفة في المدينة، كمـا شـغل جـده الموقـع نفسه من قبله[٦٠]. وقد انتخب الحديف مرتين لرئاسـة البلديـة، مـرة سـنة ١٩٢٣، وأخرى سنة ١٩٣٤. وكـان مجلـس البلديـة وفـق مـا سـنت السلطات البريطانية يتكون من سبعة أعـضاء أربعـة مـنهم مـن اليهـود وثلاثة من العرب (مسلمين ومسيحي)، وبحيـث تـسند رئاسـة المجلـس إلى عضو يهودي. وقد جرت محاولات عربيـة عـدة للاعتـراض علـى هذا الوضع، خاصة أن تكون الرئاسـة لـشخص يهـودي. وفـي أعقـاب الانتخابات الأخيرة تكثفت هذه الاعتراضـات بمطالبـة حكومـة الانتـداب بإبعاد الحديف عن رئاسة البلدية بذريعة أنـه يحمـل الجنـسية الفرنـسية، فلا يحق له بذلك اعتلاء هذا المنصب. وقد أبرق الأعـضاء العـرب فـي

مجلس البلدية إلى المندوب السامي البريطاني مطالبين بتعيين عربي في رئاسة المجلس. وقد فتح تحقيق في موضوع فرنسية الحديف وذكرت المعلومات آنذاك أنه كان بالفعل يحمل هذه الجنسية، قبل الحرب العالمية الأولى، إلا أنه تخلى عنها وجنس بالتبعية العثمانية، ثم تجنس بالجنسية الفلسطينية بعد الحرب وفق قوانين حكومة الانتداب البريطاني[٦١]. ومن الواضح أن تلك المحاولة العربية قد فشلت إذ استمر الحديف في موقعه في رئاسة مجلس البلدية.

تعرض الحديف بعد نحو من أربع سنوات من ذلك لمحاولة اغتيال، عندما أطلقت باتجاهه عدة عيارات نارية بينما كان يسير قرب بيته في المدينة (١٨ حزيران ١٩٣٨)، إلا أنه نجا منها[٦٢]. غير أن المحاولة التالية كانت ناجحة، إذ تمكن مهاجمه (٢٧ تشرين الأول ١٩٣٨) من إصابته برصاصة استقرت في عموده الفقري، نقل بعدها إلى المستشفى[٦٣]، حيث توفي في اليوم التالي. وقد ورث الحديف في المنصب مواطنه اليهودي شمعون دهان الذي استمر فيه إلى ما بعد قيام إسرائيل.

(١٢)
نهاية مرحلة

انطبق على الحركة الوطنية في طبرية، بشقيها السياسي والعسكري، المصير نفسه الذي واجهته الثورة الفلسطينية الكبرى. فقد تعرضت لأعمال قمع رهيبة على أيدي السلطة البريطانية الحاكمة في

فلسطين شملت حملات عسكرية على مواقعها وقواتها، واشكالا من الحصارات، والأحكام العرفية، والغرامات الفردية والجماعية، وفرض أنظمة حظر التجول المتكررة، ومداهمة منازل المواطنين الآمنين وتخريب محتوياتها، ومصادرة الأسلحة، وأحكاما ظالمة وصلت في كثير من الأحيان حتى الإعدام، وما تكبدته الحركة الوطنية من جراء ذلك من شهداء ومعتقلين وخاضعين للإقامة الجبرية خارج مدينتهم ومنفيين ومطاردين من قوى الأمن الإنجليزية اضطروا إلى مغادرة البلد إلى الأقطار العربية المجاورة.

وفي أواخر العام ١٩٣٩ كانت بريطانيا في عجلة من أمرها على مسرح الحدث الفلسطيني، فقد كان عليها أن تنزع من خاصرتها شوكة الثورة الفلسطينية لتتفرغ للخطر الذي دهمها في أوروبا على يدي ألمانيا النازية. وكانت كل تلك الأعمال القمعية التي ارتكبتها بحق الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية قد كفلت لها إخماد الثورة، وإسكات صوتها، ولتنتهي بذلك مرحلة من التاريخ الفلسطيني الحديث، ولتضع الفلسطينيين على أبواب مرحلة أخرى امتدت على مدى سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) شددت بريطانيا خلالها قبضتها الحديدية عليهم بحيث لا يسمع صوت في فلسطين غير ما كان من هدير مدافع تلك الحرب. وطبرية لم تكن استثناء من ذلك، فقد أصابها ما أصاب سائر المناطق الفلسطينية من كوارث وطنية، وأيضا من الإكراه على السكوت.

حواشي
الفصل السادس

[1] Sakir Batmaz, "Illegal Jewish-Immigration Policy in Palestine (Periods of 1st and 2nd Constitutional Monarchy". *Turkish Studies: International Periodical for the Languages, Literature and History of Turkish or Turkic*, Vol. 3/1 (Winter 2008), p. 224.

[2] Abdedelaziz Ayyad, *Arab Nationalism and the Palestinians 1850-1939* (Jerusalem: Palestinian Academic Society for International Affairs, PASSIA, 1999), pp. 37-38.

[3] Ayyad, *op.cit*, p. 36.

[4] Rashid Khalidi, "Palestinian Peasant Resistance to Zionism before World War I", in: Edward W. Said and Christopher Hitchens (editors), *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question* (London: Verso, 1988), p.217.

[5] إميل الغوري، **المؤامرة الكبرى: اغتيال فلسطين ومحق العرب** (القاهرة ١٩٥٥)، ص. ٥٦.

[6] بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨**، الطبعة الثالثة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦)، ص. ٨١.

[7] انظر أسماء أعضاء المؤتمر الذين وقعوا على مذكرته إلى مؤتمر الصلح في باريس والمؤرخة ١٩١٩/٢/٣ في: **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩: من أوراق أكرم زعيتر**، أعدتها للنشر بيان نويهض الحوت، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ص. ١٦-١٧. وتقارن هذه الأسماء بما ورد في مصدر عاد إلى مكتب السجلات العامة البريطانية Public Records Office حيث يمكن التعرف على مندوبين اثنين من طبرية وقعا على المذكرة (هما محمود الطبري وإلياس لعوار) دون الثالث (محمود حسين)" انظر: **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال والصهيونية ١٩١٨-١٩١٩**، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت:

مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وبغداد: جمعية صندوق فلسطين، ١٩٦٨)، ص ص. ٣-٤.

[8] أوراق أكرم زعيتر، المرجع المذكور، ص. ٢٩.

[9] نص قرارات المؤتمر في: وجيه علم الدين، **العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨-١٩٢٢** (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٥) ص ص. ١٢٤-١٢٦.

[10] محمد عزت دروزة، **مئة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات**، الطبعة الأولى (منشورات الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار، ١٩٨٤)، الجزء الأول، ص ص. ٢٤٤-٢٤٥.

[11] مصطفى العباسي، "عائلة الطبري وقيادتها للمجتمع العربي في مدينة طبرية منذ أواخر العهد العثماني حتى أواخر الانتداب"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ٦٤ (خريف ٢٠٠٥).

[12] دروزة، مئة عام... المرجع المذكور، ص. ٢٤٥.

[13] بيان نويهض الحوت، المرجع المذكور، ص. ٨٥٢.

[14] انظر ترجمته في: **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الرابع، ص. ٤٥٧.

[15] انظر ترجمته لدى: محمد عزت دروزة، **مئة عام فلسطينية**، المرجع المذكور، ص ص. ١٤٧-١٤٨؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الثاني، ص ص. ٤٧٢-٤٧٣.

[16] وردت قرارات المؤتمر في تقريره المرسل إلى المندوب السامي البريطاني، انظر: أحمد طربين، **محاضرات في تاريخ قضية فلسطين** (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٨).

[17] أوراق أكرم زعيتر، المرجع المذكور، ص. ٨٦.

[18] انظر ترجمته في **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد ٤، ص. ١٣٦.

[19] نص مرسوم الدستور في: روبرت هاري درايتون، **قوانين فلسطين: مجموعة المناشير والأوامر والقوانين الفلسطينية** (القدس: مطبعة دير الروم، ١٩٣٦)، ص ص. ٣٣٠٤-٣٣٢٩. ويتألف الدستور من ٨٥ مادة، وقد جرت عليه تعديلات وإضافات لاحقة في ١٩٢٣، ١٩٣٣، ١٩٣٥، ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤٧.

[20] النص كما ورد لدى طربين، **المرجع المذكور**، ص. ٢١٨.

[21] انظر عن أخباره ونشاطاته السياسية: مصطفى العباسي، **المرجع المذكور**.

[22] بيان نويهض الحوت، **المرجع المذكور**، ص. ٨٥٩.

[23] كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩** (بيروت: مركز الأبحاث الفسطيني، ١٩٧٤)، ص. ٢٣٦.

[24] انظر مقررات المؤتمر الفلسطيني السادس في: طربين، **المرجع المذكور**، ص ص. ٢٢٠-٢٢٢.

[25] الحوت، **المرجع المذكور**، ص. ٨٦٥.

[26] نص البيان في: **أوراق أكرم زعيتر**، **المرجع المذكور**، ص ص. ٣٢١-٣٢٢.

[27] أسماء أعضاء مكتب الحزب ولجنته التنفيذية في: إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاما** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢)، ج. ١، ص ص. ١٩٧-١٩٨.

[28] مصطفى العباسي، **المرجع المذكور**.

[29] عن المؤتمر: **الموسوعة الفلسطينية**، م. ٤، ص. ٣٤٨.

[30] أسماء أعضاء المؤتمر لدى: الحوت، **المرجع المذكور**، ص. ٨٦٨، نقلا عن جريدة **الجامعة العربية**، العدد ٦٥، ٨ أيلول ١٩٢٧.

[31] **أوراق أكرم زعيتر**، **المرجع المذكور**، ص ص. ٣٨٨-٣٩١.

[32] **الموسوعة الفلسطينية**، م. ٢، ص ص. ٦١٦-٦١٨.

[33] الحوت، المرجع المذكور، ص. ٨٧٥.

[34] المرجع نفسه، ص. ٨٧٥.

[35] خيرية قاسمية، "سوريا والقضية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين ١٩١٨-١٩٣٩"، في: دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت لتكريم الدكتور قسطنطين زريق، تحرير هشام نشابة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ص.٢١٨-٢٢١.

[36] الحوت، المرجع المذكور، ص. ٨٩٥. وقد صحف الاسم في هذا المرجع خطأ برسم "راشد".

[37] مصطفى العباسي، المرجع المذكور.

[38] الحوت، المرجع المذكور، ص. ٨٨٩.

[39] أوراق أكرم زعيتر، المرجع المذكور، ص. ٤٢٩.

[40] أنظر عن انتماءاتهم الحزبية ونشاطاتهم: أنيس صايغ، المرجع المذكور، ص ص. ٣٣٨-٣٤٦.

[41] الحوت، المرجع المذكور، ص ص. ٩٠١-٩٠٢.

[42] خليل محمد السعد، طبرية: تاريخ وأمل (إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥)، ص. ٦١.

[43] المعلومات عن أسرة الطبري الواردة هنا وفيما يلي من هذا القسم من الكتاب تستند إلى البحث المتقصي الذي أجراه عنها مصطفى العباسي، المرجع المذكور.

[44] مصطفى العباسي، عائلة الطبري، المرجع المذكور. نقلا عن نص الرسالة المحفوظ في أرشيف دولة إسرائيل بملف رقم: 3/985/F. July 13, 1922

[45] الحوت، المرجع المذكور، ص. ٢٢٩، نقلا عن نص البيان الذي كان محفوظا في مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت في ملف رقم ب/ IV، ١٩٢٩-١٩٣٠؛ و مصطفى العباسي، عائلة الطبري...، المرجع المذكور، نقلا عن نص البيان المحفوظ في أرشيف دولة إسرائيل بملف رقم: 37/84/1, August 28, 1929 . وقد وقع البيان من أعيان

طبرية كل من: الشيخ عبد السلام الطبري، والشيخ طاهر الطبري، وسعيد الطبري، وأمين العبد الله، وعبد الواحد حماد، وخليل الخرطبيل، وإسماعيل العبد الله، ومحمد الحاج خليل، ومحمد قاسم شاهين، ويوسف العاقل، ومصطفى الطرابلسي.

[46] *Palestine Post*, 3 June 1936.

[47] *Palestine Post*, 19 June 1936.

[48] أوردت الصحافة اليهودية عدة تقارير عن هجمات تعرضت لها هذه الضاحية. من ذلك:

Palestine Post, 15 July 1936, 23 July 1936, 25 August 1936.

[49] نشرته بالستاين بوست ٢١ شباط ١٩٣٧.

[50] *Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the year 1937.*

[51] نشرت الصحافة أخبار عدد كبير من هذه الأعمال، وأمثلتها ما جاء في بالستاين بوست بتواريخ ١٩٣٨/٧/٤، ١٩٣٨/٨/٩، ١٩٣٨/٩/٧، ١٩٣٨/٩/٨، ١٩٣٨/١٠/٢، ١٩٣٩/١/١٥، ١٩٣٩/٥/٢، ١٩٣٩/٧/٣٠. كذلك وردت أخبار عن هذه الأعمال التي حدثت في أيلول وتشرين الأول ١٩٣٨ في تقرير الحكومة البريطانية لمجلس عصبة الأمم عن إدارة فلسطين في العام ١٩٣٨ كما يلي:

Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the year 1938.

[52] نماذج من هذه البلاغات العسكرية في: أوراق أكرم زعيتر، المصدر المذكور، ص ص. ٤٨٠-٤٨١، ٤٨٩، ٤٩١، ٥٠٧-٥٠٨، ٥٣٥، ٥٥٠، ٥٧٠، ٥٧٩، ٥٨٥، ٥٨٦-٥٨٨، ٦٢٥.

[53] انظر نص الوثيقتين في: أوراق أكرم زعتر، المصدر المذكور، ص ص. ٥٠٨-٥٠٩.

[54] *Palestine Post*, 4 October 1938.

[55] *Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year 1938*,

[56] *Palestine Post*, 10 January 1939.

[57] وفقا لنص التقرير الذي أوردته بالستين بوست، ٥ تشرين الأول ١٩٣٨.

[58] نص الرسالة في: أوراق أكرم زعيتر، المصدر المذكور، ص ص٥٠٩–٥١٠.

[59] *Haaretz*, 29 October 2008.

[60] *Palestine Post*, 30 October 1938.

[61] *Palestine Post*, 7 December 1934.

[62] *Palestine Post*, 19 June 1938.

[63] *Palestine Post*, 28 October 1938.

الفصل السابع

سقوط طبرية

(١)
فهم الكارثة
في ضوء فكر الترحيل الصهيوني

سقطت طبرية بيد الصهيونيين في ١٨ نيسان ١٩٤٨، أي بعد مرور ما يزيد قليلا عن أربعة أشهر ونصف الشهر على صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) الذي أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وبعد أقل من شهر من موعد نهاية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين (١٥ ايار ١٩٤٨)، عندما كانت بريطانيا ما تزال مسؤولة عن إدارة البلاد وتأمين حماية مواطنيها وممتلكاتهم. والثلاثة معا، الأمم المتحدة والصهيونية وبريطانيا، هي التي تشاركت معا ــ وبنسب مختلفة ــ في فرض حالة السقوط على المدينة وتشريد سكانها العرب منها.

وفي هذا الإطار الثلاثي الأبعاد يمكن التعرف بشكل أفضل على معطيات هذه الحالة ونتائجها، دون إهمال بعد رابع هو ما كان عليه الوضع الفلسطيني في المدينة (والذي كان بشكل من الأشكال نتاجا حتميا لما كانت عليه الأوضاع الفلسطينية والعربية بعامة)، والذي جعل تلك الحالة ممكنة الحدوث. لكن هل تلام الضحية، وهي التي أضعفت عن عمد على مدى عقود، وتركت تواجه مصيرها وحدها تحت وقع سكاكين خصومها بما اتصفوا به من قدرات متفوقة وإمكانات لم تكن توازيها إمكانات في الحشد المادي والتخطيط والتنفيذ؟

كان الفصل الأول الذي مهد لحالة السقوط قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم (المشار إليه أعلاه). فقد قضى بأن تكون طبرية ضمن الدولة اليهودية التي أوصى بقيامها. وبذلك فإن نحوا من ٦٠٠٠ مواطن هم إجمالي سكانها العرب سوف يخضعون لحكم هذه الدولة. غير أن القرار نفسه فتح الباب رسميا، وبموافقة أممية، لإسباغ شرعية ما على فكرة الترحيل Transfer التي هي مكون عضوي من مكونات العقيدة الصهيونية. فقد نص القرار على أنه "يمكن للأشخاص الذين تجاوزوا سن الثمانية عشر عاما أن يختاروا المواطنة في الدولة الأخرى، وذلك خلال عام واحد من تاريخ الاعتراف باستقلال الدولة التي يقطنون فيها... ويفهم من حق الخيار هذا أن يتضمن زوجات الأشخاص الراغبين في ممارسة هذا الحق، وأطفالهم الذين لم يبلغوا سن الثمانية عشر عاما"[1]. صحيح أن القرار لم ينص صراحة على الترحيل بالإجبار (كما هي العقيدة الصهيونية)، غير أن مجرد النص على انتقال المواطنين من دولة إلى أخرى في إطار التقسيم كان ينسجم مع تصورات الحركة الصهيونية عن الدولة "اليهودية النقية"، ويسوغ لها القيام بكل ما من شأنه إجبار المواطنين العرب في الدولة اليهودية المقترحة بقرار التقسيم على "أن يختاروا المواطنة في الدولة الأخرى".

وهكذا فيما يتصل بطبرية (وهي موضوع بحثنا هنا)، كان أمام سكانها العرب البالغ عددهم نحوا من ٦٠٠٠ مواطن، خيار نظري بين بديلين: البقاء مواطنين في دولة ليست هي دولتهم، فهي "دولة يهودية" كما سماها القرار ١٨١ بوضوح، أو أن يرحلوا ـ بعد

أن يقتلعوا جذورهم من أرضهم - إلى الدولة العربية المقترحة. وإلى ذلك، حدد القرار اليوم الأول من آب ١٩٤٨ موعدا أقصى لانتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، غير أن بريطانيا عادت فعينت يوم ١٥ أيار من العام نفسه موعدا لانسحاب آخر قواتها من البلاد.

تلقت الحركة الصهيونية هذا القرار بحماس وتأييد شديدين من حيث المبدأ، غير أنها من ناحية عملية، وكما ظهر ذلك واضحا من تطور الأحداث، كانت تسعى لتحقيق هدفين: الأول توسيع المناطق التي سوف تقوم عليها الدولة اليهودية إلى اقصى مدى يمكن أن تسمح به موازين القوى القائمة آنذاك، بحيث تشمل هذه الدولة مناطق أخرى خصصها قرار التقسيم للدولة العربية المقترحة، والثاني إعادة التركيب السكاني في المناطق المخصصة للدولة اليهودية والمناطق الأخرى التي يُستولى عليها من أراضي الدولة العربية المقترحة من خلال ترحيل العرب منها بمختلف الوسائل وصولا إلى الحصول على دولة "يهودية نقية".

في هذا الإطار، إطار الترحيل، يمكن إعادة تركيب مجريات الحوادث التي آلت في النهاية إلى إجبار سكانها العرب على الخروج منها. فسياسة الترحيل transfer أو الطرد expulsion، وهي التي تعرف عادة بالتطهير العرقي ethnical cleansing، كانت جزءا أساسيا من العقيدة الصهيونية، ومكونا رئيسيا من مكونات الفكر الصيهوني السياسي القائم على أنه لا يمكن الحصول على "فلسطين يهودية" دون تحقيق شرط مسبق هو طرد سكانها العرب منها.

ولا يجد المرء كبير عناء في التعرف على هذه العقيدة في الأدبيات السياسية الصهيونية وفي فكر القادة الصهيونيين. فهذا ديفيد بن غوريون، أبرز الزعماء الصهيونيين في عهد الانتداب البريطاني (وأصبح فيما بعد أول رئيس لحكومة إسرائيل) يكتب في رسالة وجهها لابنه في العام ١٩٣٧ أنه "مع خلق الدولة اليهودية فإننا سوف نطرد العرب ونأخذ أماكنهم"[٢]. وفي مناسبة أخرى يكتب أنه

> "مع الترحيل بالإكراه فإننا سوف نحصل على مساحات واسعة... إنني أؤيد الترحيل بالإكراه، ولا أرى في ذلك شيئا غير أخلاقي... وهذه المسألة ينبغي ألا تغيب عن الأجندة لأنها مسألة مركزية. فهناك قضيتان هنا: (١) السيادة و(٢) إبعاد عدد معين من العرب، وعلينا أن نؤكد عليهما معا"[٣].

وغداة صدور قرار التقسيم، يكتب بن غوريون في مذكراته (١٩ كانون الأول ١٩٤٧): "ينبغي في كل هجوم توجيه ضربات حاسمة تؤدي إلى تدمير المنازل وطرد السكان"[٤].

ومثل هذا الفكر نجده، كمثل ثان، لدى يوسف فايتس Yosef Weitz، الذي كان مديرا لدائرة الأراضي في الصندوق القومي اليهودي. فهو يكتب في مذكراته (في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٠):

> "ينبغي أن يكون واضحا أنه لا مكان في هذه البلاد لشعبين... فالحل الوحيد هو أرض إسرائيل، على الأقل أرض إسرائيل الغربية [استثني من ذلك شرق الأردن]، دون عرب. ليس ثمة مجال لحل وسط هنا.. فليس هناك

من وسيلة غير ترحيل العرب من هنا إلى الأقطار المجاورة".

وفي عام ١٩٤٨، بعد أن كان قد صدر قرار التقسيم، واتته الفرصة ليضع أفكاره هذه موضع التنفيذ. فقد بدأ يشرف على عمليات ترحيل الفلسطينيين من قراهم، وفي نيسان من العام نفسه نال موافقة القيادة الصهيونية على تأسيس هيئة تتولى هذا الأمر: "هيئة توجه الحرب التي يقوم بها السكان والمستوطنون اليهود (اليشوف Yishuv) بهدف طرد أكبر عدد ممكن من العرب"[٥].

كان إذن التصور الصهيوني واضحا بالنسبة لما سوف تكون عليه فلسطين في المستقبل: أرض خالية من العرب أو ذات قلة عربية إن لم تتمكن أدوات الطرد من إبعادهم عنها بشكل كامل. وقد مارست العصابات الصهيونية المسلحة هذا التصور بشكل عملي بعد أسابيع قليلة من صدور قرار التقسيم بمجازر نفذتها في بعض القرى العربية. إلا أن طبرية كانت المدينة الأولى التي طبق فيها فكر الترحيل بشكل عملي وممنهج، إذ كان واضحا من بدء الصدامات المسلحة فيها أن الهدف الصهيوني لم يكن مجرد "السيطرة" على المدينة، بل إفراغها من سكانها العرب وطردهم منها، وهو هدف ما كان يمكن أن يتحقق إلا بتقاطعه مع التوجهات البريطانية نحو تسليم المدينة لليهود خالصة من عربها (كما سوف نبين في فقرات لاحقة من هذا الفصل).

وإذا نظرنا الآن إلى حدث سقوط طبرية بيد الصهيونيين بمنظار ما أعقبه من تداعيات أدت إلى تشريد الفلسطينيين من مدن

ومناطق أخرى في فلسطين، يمكن القول بأن طبرية كانت هي البوتقة الأولى التي اختبرت فيها الصهيونية فكرها السياسي النظري في الترحيل والطرد والتطهير العرقي، وكان الاختبار ناجحا وذا جدوى حتى أصبح نموذجا احتذته في تعاملاتها مع المناطق الفلسطينية الأخرى التي شردت سكانها منها وأجبرتهم على اللجوء خارج ديارهم.

(٢)
عرب طبرية
بين المهادنة والاستعداد للمواجهة

خلال فترة الهدوء النسبي التي أعقبت القضاء على الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦- ١٩٣٩) والتي امتدت طوال سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) والسنتين التاليتين نشأ ما يشبه الاعتقاد لدى عرب طبرية ــ وإلى أن تبين لهم فيما بعد خلاف ذلك ــ بأن مدينتهم سوف تكون في منجى من أية اعتداءات صهيونية عليها. وقد تأسس هذا الاعتقاد على قاعدة تاريخ من علاقات العرب في المدينة بيهودها، وعلى الأخص اليهود الشرقيون منهم، الذين كان يطلق عليهم أحيانا صفة "يهود أبناء عرب"، أو كما كان يرد ذكرهم في الأدبيات السياسية للحركة الوطنية في فلسطين بتعبير "اليهود الوطنيون"، والذين كان يقصد بهم اليهود المقيمين في فلسطين قبل موجات الهجرة اليهودية الأوروبية الواسعة. وقد اتصفت العلاقة بين

عرب طبرية وهؤلاء اليهود بالتعايش السلمي وحسن الجوار والتبادل التجاري التي لم تنتهكها إلا فترة الثورة العربية الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) التي شهدت قتالا وصدامات مسلحة بين الطرفين، ثم لتعود الحياة بعدها إلى طبيعتها الهادئة.

ويورد كثير من الطبرانيين حتى الآن، إن حفزتَ ذاكرتَهم، قصصا عدة ومختلفة تمثل ذلك النوع من الجوار الحسن الذي كان يسود المدينة. وقد كتب صدقي الطبري، أبرز زعماء طبرية السياسيين ورئيس لجنتها القومية، في مذكراته يصف هذا الوضع بقوله:

"كان عرب طبرية متأكدين من أن وضع مدينتهم كان مختلفا عن أوضاع المدن الأخرى، لأن العرب واليهود كان لديهم تاريخ طويل من علاقات الجوار الطيبة والتعايش. لذلك اعتقدوا بأن طبرية كانت بعيدة عن دائرة العنف والحرب"[٦].

وقد تسبب هذا الاعتقاد في ميل عرب طبرية إلى مهادنة اليهود إلى أن تكشفت نواياهم سافرة في الاشتباكات النهائية التي أدت إلى سقوط المدينة. غير أن ذلك لا ينبغي أن يفهم منه أن العرب في طبرية أهملوا الاستعداد للمواجهة، فقد شرعوا في أعقاب صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في تهيئة أنفسهم للاحتمالات السيئة، لكن ضمن إمكاناتهم المحدودة ما أنتج محدودية مماثلة في هذه التهيئة.

سياسيا، كانت الخطوات الأولى لتنظيم الاستعدادات للمواجهة المحتملة قد جاءت بمبادرة من الهيئة العربية العليا المعترف بها قيادة للشعب الفلسطيني*، والتي قررت تشكيل "لجان قومية" في المدن والقرى الفسطينية صدر "دستور" تشكيلها قبل يومين من صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. ووفق هذا "الدستور" فإن "اللجان القومية هي بمثابة لجان فرعية للهيئة العربية العليا، وعليها بذل الجهد في توحيد القوى والصفوف الوطنية تحت لواء النضال الوطني الذي تحمله الهيئة، وهي مسؤولة عن تنفيذ قرارات الهيئة وتوجيهاتها"[٧]. وبموجب ذلك دعت الهيئة العربية العليا الزعامات العربية في المدن والقرى الفلسطينية كافة إلى تشكيل لجان محلية، هي التي عرفت باللجان القومية، تتولى الإشراف على العمل الوطني فيها.

واستجابة لهذه الدعوة بادر عدد من الناشطين السياسيين في طبرية وفي مقدمتهم صدقي الطبري، وكان مديرا لبنك الأمة العربية في المدينة وينتمي إلى أسرة الطبري الثرية وذات النفوذ الواسع في طبرية وما حولها، إلى عقد اجتماع في ١٧ كانون الأول ١٩٤٧

* أعلن عن تشكيل الهيئة العربية لفلسطين في ١١ حزيران ١٩٤٦ برئسة الحاج أمين الحسيني الذي كان مقيما خارج فلسطين وقد حظرت السلطات البريطانية عودته إليها. وتولى الرئاسة عمليا في فلسطين جمال الحسيني الذي شغل منصب نائب رئيس الهيئة. وقد اعترفت جميع الأحزاب والفئات الفلسطينية بهذه الهيئة واعتبرتها الممثلة الوحيدة للشعب الفلسطيني، كما اعترفت بها جامعة الدول العربية بهذه الصفة.

حضره إلى جانب أولئك المبادرين من أهل طبرية عدد من زعامات القرى في قضائها[8]. وكان ذلك بمثابة اجتماع تمهيدي نُقل فيه إلى الحضور قرار الهيئة العربية العليا بتشكيل اللجان القومية، وطُلب من ممثلي القرى تشكيل مثل هذه اللجان في قراهم لتسوية النزاعات المحلية لديهم والمحافظة على النظام والاستعداد للدفاع عن قراهم، كما طلب منهم أن يتجنبوا القيام بأن عمل يمكن أن يؤدي إلى استثارة جيرانهم اليهود، وبأن يطلبوا من السلطات البريطانية السماح لهم بتسليح عدد من الحراس في قراهم.

وقد أعقب هذا اللقاء اجتماع آخر في ٢٠ من الشهر نفسه اقتصر على وجهاء طبرية، وقد انتخب فيه عشرة منهم ليكونوا هم اللجنة القومية في المدينة. إثر ذلك طلب صدقي الطبري من وجهاء قرى القضاء أن يختاروا منهم ممثلين يحضرون اجتماعا موسعا في طبرية. واختار الوجهاء ١٢ ممثلا شكلوا هم والأعضاء العشرة من اللجنة القومية في طبرية "اللجنة القومية لطبرية وقضائها"، وانتخب الحضور صدقي الطبري رئيسا لها[*]. وقد شكلت اللجنة أربع لجان

---

[*] كان أعضاء اللجنة الموسعة عند تشكيلها هم: من مدينة طبرية كل من صدقي الطبري رئيسا، والشيخ نايف الطبري، وخليل خرطبيل، ومحمد سحتوت، وإسماعيل قره شولي، وإلياس دياب مصلح، وسالم القردحجي، وإبراهيم خليل خرطبيل، وأحمد منصور، ونعيم محمد شاهين. ومن القرى كل من الأمير محمد عجاج من عرب المواسي، وأحمد قاسم رباح من حطين، ومحمود طرعاني من سمخ، ومختار يخلف من سمخ، وفواز العلي الشهابي من لوبية، وحسن أبو دهيس من لوبية، وسعيد الشامي من كفر كما، وصالح>

فرعية: واحدة لشؤون الأمن، وثانية مالية، وثالثة للإيواء والإسكان، ورابعة للخدمات الطبية والإسعافات الأولية. غير أنه ظهر على اللجنة فور تشكيلها علائم اختلاف بين أعضائها، كما بدا غياب التنسيق بين اللجنة في طبرية واللجان الأخرى التي تشكلت في القرى. وقد ترافق ذلك مع ارتفاع وتيرة التوتر في المدينة بين اليهود والعرب، وهذا ما دفع الشيخ طاهر الطبري، مفتي طبرية والذي كان آنذاك قاضيا شرعيا في الناصرة، إلى العودة إلى مدينته (٣ آذار ١٩٤٨) وإعادة تشكيل اللجنة القومية فيها بحيث ترأس هو نفسه اللجنة بينما شغل صدقي الطبري منصب نائب الرئيس[*] .

إلى جانب هذا التشكيل السياسي، سعت اللجنة القومية في طبرية إلى تكوين قوة دفاعية عن المدينة. وقد أوكلت هذه اللجنة منذ بداية تشكيلها إلى كامل الطبري (وهو أخو الشيخ طاهر) أمر قيادة قوة الدفاع عن المدينة.

غير أن طبرية كانت حتى ذلك تفتقد لوجود تنظيم شعبي يمكن أن يتطور إلى قوة قتالية، أو أن يكون نواة يمكن أن تبنى من

>محمد موسى من غوير أبو شوشة، وعبده العابدي من المغار، ونمر محمد حسين من المغار، ووصيف سليمان فارس من المغار، والطيب السعدي من كفر سبت.

[*] يذكر أحد المراجع المعتمد على المقابلات الشخصية (الشهابي، المرجع المذكور، ص. ٤٣) أن أعضاء اللجنة القومية في طبرية آنذاك كانوا: صدقي الطبري، يوسف الطبري، محمد صالح سخنيني، محمد سحتوت، إبراهيم الحاج خليل، نعيم محمد شاهين، إلياس دياب، إسماعيل قره شولي، خالد قصاد، صدقي الخليل. ويبدو أن هذا التشكيل كان قد تم بعد مقدم الشيخ طاهر الطبري إلى طبرية.

حولها مثل تلك القوة. ولا نستثني من ذلك فرقتي النجادة والفتوة اللتين كانتا العنوان الوحيد على وجود شكل ما من أشكال التنظيم الشعبي* . فقد كانت المنظمتان كلتاهما قليلتي العدد، وغير مسلحتين، وتغيب عنهما الخبرة العسكرية غيابا كليا، وكانت أشبه بفرق الكشافة التي تشارك في الاحتفالات والمناسبات الوطنية باستعراضات كانت تغلب عليها السذاجة، بالإضافة إلى ما كان يقوم بينهما من منافسات، حتى على هذا النوع من الأعمال المتواضعة، كانت كثيرا ما تصل إلى حد "الخناقات".

بخلاف هاتين المنظمتين بادرت اللجنة الأمنية المنبثقة عن اللجنة القومية في كانون الأول ١٩٤٧ إلى تكوين مجموعة من "الحرس الوطني" لم يزد عدد أفرادها حتى شباط من العام التالي عن ٢٤ فردا. وقد أوكل لهذه المجموعة الانتشار على الحدود الفاصلة بين الأحياء العربية والأحياء اليهودية والتمركز في فندق طبرية الكبير (المعروف بفندق كروسمان باسم صاحبه) الذي يشرف على

* أنشئت منظمة النجادة في العام ١٩٤٥ متخذة شكل التنظيم شبه العسكري، لتعمل أساسا بين الشباب الفلسطيني واستقطبت كثيرا منهم، وكان لها فروع في مختلف المدن والقرى الفلسطينية. وكان المحامي محمد نمر الهواري هو قائدها العام. أما منظمة الفتوة فكانت الذراع شبه العسكري للحزب العربي الفلسطيني (برئاسة جمال الحسيني)، وكان لها فروع أيضا في مختلف المدن والقرى الفلسطينية، وقد أخذت على عاتقها تنظيم الشبات وتدريبهم عسكريا. وقد وحدت المنظمتان رسميا في العام ١٩٤٧في هيكل واحد هو منظمة الشباب العربي، غير أن هذا التوحيد لم يلغ عمليا كيان أي من المنظمتين اللتين غلب عليهما التنافس والنزاع فيما بينهما.

الطريق المتجهة شمالا إلى صفد[9]. وما هو مؤكد أن تسليح هذه المجموعة كان نزرا، فما هو معروف أن حكومة الانتداب البريطانية كانت تتصدى بقوة لاقتناء العرب السلاح، وكانت قواتها الأمنية تقوم بمداهمات وحملات تفتيش متكررة بحثا عنه وتعاقب بشدة من تجده متلبسا باقتنائه. غير أن المؤرخ الفلسطيني عارف العارف يذكر استنادا إلى معلومات تحصل عليها من "المطلعين على بواطن الأمور من أبناء طبرية"، ـ كما قال ـ أن اللجنة العسكرية في دمشق* أرسلت إلى أهل طبرية في كانون الأول ١٩٤٧ خمسا وعشرين بندقية وأتبعتها في الشهر نفسه بست وثلاثين بندقية فرنسية، وكان عتاد هذه البنادق قليلا جدا زودتهم به وزارة الدفاع السورية"[10].

وغير هذا المصدر للتسليح نهض الأهالي بوسائلهم الخاصة بمهمة شراء الأسلحة من مصادر مختلفة (بعضها في سوريا)، غير أنها كانت جميعا من نوع الأسلحة الخفيفة مثل البنادق الإنجليزية أو الفرنسية الصنع، والبنادق الرشاشة صغيرة الحجم (من طرازي تومي وستن المعروفين آنذاك) والقنابل اليدوية.

ومن المؤكد أن عددا من هذه البنادق وضع في تصرف مجموعة الحرس الوطني، إذ تذكر صحيفة يهودية أن عشرين فردا

---

* شكلت جامعة الدول العربية اللجنة العسكرية بقرار اتخذه مجلسها في ٧ تشرين الأول ١٩٤٧ بهدف إمداد أهل فلسطين بالسلاح وتدريب القادرين منهم عسكريا. وكان من إنتاجاتها العسكرية جيش الإنقاذ وهو قوات غير نظامية تألفت من متطوعين عرب، وأدخلت فلسطين في مطلع ١٩٤٨. وقد اتخذت اللجنة من دمشق مقرا لها.

منهم أطلقوا النار على ثلاثة من اليهود في ليل الثالث من شباط، في شارع السلام في المدينة، وأصابوا أحدهم بجراح في ساقه، بينما فقد ثان، ونجا الثالث[11]. إلا أن هذه الحادثة كانت معزولة إذ لا نجد ما يشبهها إلا بعد ما يزيد عن شهر عندما نشب القتال في المدينة.

كانت الخطوة التالية في اتجاه التنظيم العسكري قد حدثت في ٢٢ شباط ١٩٤٨ عندما طلبت اللجنة القومية من رجال المدينة من أعمار ما بين ١٧ و٤٠ سنة تسجيل أنفسهم في مكتب "منظمة الشباب العربي" بهدف تشكيل قوة دفاع منهم. وقد سجل ٢٥٧ شابا أسماءهم لهذا الغرض ولتلقي التدريب العسكري، إلا أن التدريب الذي تلقوه كان متواضعا جدا، كما أن عددا منهم تخلى عن هذه المهمة حتى قبل أن ينشب القتال.

وجاءت الخطوة الثالثة في هذا الاتجاه بعد وصول مفتي طبرية الشيخ طاهر الطبري إلى المدينة في الثالث من آذار وتحمله مسؤولية قيادة اللجنة القومية فيها (انظر أعلاه). وقد تمكن الشيخ طاهر بهذه الصفة من إعادة تنظيم أعمال الدفاع عن المدينة، بما في ذلك تجنيد ١٥٠ شابا، غير أن هؤلاء كانت تنقصهم الخبرات القتالية بالإضافة إلى نقص السلاح في أيديهم إذ لم يزد عن عدد محدود من الأسلحة الخفيفة إلى جانب مدفع هاون واحد أو اثنين[12].

بالإضافة إلى هذه المجموعة، تكونت أخرى بقيادة صبحي شاهين، وهو من طبرية، وقد قدم إليها من دمشق ومعه عدد من المجاهدين الذين كانوا مسلحين بعدد من البنادق الرشاشة من طرازي ستن وتومي (وهما من الأسلحة الخفيفة)، كما كان لديهم مدفع هاون

واحد، لكن جميع هذه الأسلحة كان ينقصها العتاد[١٣]. ويشير بعض التقارير إلى أن صبحي شاهين كان يدين بالولاء للحاج أمين الحسيني، إلا أنه على الأغلب كان ينسق مع اللجنة العسكرية في دمشق التي أنشأتها جامعة الدول العربية ويتلقى الدعم منها[١٤].

(٣)
اشتباكات آذار ١٩٤٨
والخطة دال الصهيونية

بدأت المواجهة الأولى بين عرب طبرية واليهود في الثامن من آذار ١٩٤٨، واستمرت متقطعة عدة ايام. في صبيحة ذلك اليوم سمع إطلاق نار من أحد الأحياء العربية، وما لبث أن تبعه إطلاق نار كثيف من مختلف أرجاء المدينة، من جوانبها العربية واليهودية، وساد المدينة اضطراب شديد سقط خلاله اثنا عشر جريحا من العرب وعشرة جرحى من اليهود. وفي محاولة لمنع التصعيد، التقى اثنان من الوجهاء العرب (صدقي الطبري ونايف الطبري) بتوسط من الكولونيل أندرسون، القائد العسكري البريطاني في المدينة، بآخرين من اليهود، ليتوصل الطرفان في اليوم التالي (٩ آذار) إلى اتفاقية عرفت بـ"اتفاقية طبرية" كان أبرز بنودها ما يلي: (١) يواصل المواطنون حياتهم واتصالاتهم المشتركة كما هي عادتهم، (٢) تبقى قوات الدفاع لكلا الطرفين في مواقعها وتمتنع من القيام بأية إثارة أو صدام، (٣) يستطيع اليهود والعرب دخول جميع قطاعات المدينة

بحرية طالما لم يحملوا السلاح، (٤) سوف يبقى ممثلو الطرفين على اتصال لمعالجة أية حادثة[١٥]. وفي اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية تجول وجهاء عرب وآخرون يهود في شوارع المدينة يبشرون بالهدنة وبوقف القتال.

من خلال ما جرى بعد توقيع الاتفاقية ومما كشف من معلومات من الجانب الصهيوني عنها وعن التطورات التي لحقتها، يمكن القول باطمئنان بأن اتفاقية طبرية في التاسع من آذار ١٩٤٨ كانت خديعة مبيتة، وعملا تكتيكيا من جانب اليهود لالتقاط الأنفاس والإعداد لمواجهة أكثر حسما. فما يلاحظ أن من وقعوا الاتفاقية من الجانب اليهودي كانوا من السكان المحليين (المدنيين)، وقد تعرضوا في اجتماع عقد بينهم وبين قيادة للهاجناه* في المنطقة إلى نقد من جانب هذه القيادة لدورهم في التوصل إلى هذه الاتفاقية. وقد دافع أحد موقعي الاتفاقية (موشيه ساهار) عن موقفه بالتأكيد على أن العرب هم الذين طالبوا باتفاقية لوقف إطلاق النار[١٦]. ويؤكد ساهار نفسه في مناسبة أخرى على أن الاتفاقية كانت مؤقتة وخطوة تكتيكية حتى يحين الوقت للاستيلاء على القطاع العربي في طبرية. ففي شهادته التي تضمنها كتاب عن معركة طبرية يقول عن تلك الاتفاقية: "نحن

---

* الهاجناه كلمة عبرية تعني الدفاع، وقد تأسست المنظمة في عام ١٩٢٠، وكانت بمثابة الذراع المسلح للمنظمة الصهيونية العالمية في فلسطين. وهي التي تولت قيادة العمل العسكري ضد الفلسطينيين إلى ما بعد الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، حيث تحولت (في ٢٨ أيار ١٩٤٨) إلى جيش رسمي باسم قوات الدفاع الإسرائيلية.

لم ندخل في حالة من الهدوء والسكينة، بل على العكس من ذلك لقد ازددنا استعدادا للحظة الحاسمة"[١٧].

الهاجناه كان موقفها أكثر حسما إذ كانت تسير بخطى حثيثة ومخطط لها نحو الاستيلاء على المدينة وطرد سكانها العرب منها. وكان هذا الهدف واضحا تماما في الخطة التي وضعتها الهاجناه للتعامل عسكريا مع الأوضاع القائمة في فلسطين والتي عرفت بالخطة دال (Plan Dalet)[١٨]، والتي مرت في تعديلات متعاقبة منذ سنة ١٩٤٥ إلى أن كانت صياغتها النهائية في مطلع آذار ١٩٤٨. وقد رسمت هذه الخطة، من جملة أمور أخرى، بتدمير قرى العدو ومدنه (المدن والقرى العربية المستهدفة) وبإشعال النار فيها ونسفها وزرع الألغام في أنقاضها، خاصة تلك المراكز السكانية التي يصعب السيطرة عليها باستمرار. وفي حال حدوث مقاومة من هذه المراكز فينبغي تحطيم قواها المسلحة، كما يجب "طرد سكانها خارج حدود الدولة" العبرية المقترحة. وكتمهيد لهذه الغاية رسمت الخطة أيضا بقطع وسائل المواصلات عن هذه المراكز العربية، مثل الطرق والجسور والممرات الرئيسية ومفارق الطرق المهمة، وذلك عن طريق "أعمال التخريب والمتفجرات وإقامة الحواجز والألغام الأرضية، بالإضافة إلى السيطرة على المرتفعات القريبة من تلك الطرق". وكان ديفيد بن غوريون هو الذي أمر هيئة أركان الهاغاناه بوضع الخطة دالت[١٩]. وقد جاءت هذه الخطة ترجمة عملياتية دقيقة لفكره، وبالتأكيد للعقيدة الصهيونية عامة، في شأن التطهير العرقي، وهو ما اشرنا إليه قبل.

على هذه الخلفية كان التعامل مع طبرية. فقد كانت هناك نية مبيتة لإخلاء السكان العرب منها حتى قبل أن تنشب اشتباكات يوم ٨ آذار التي سردنا خبرها أعلاه. ففي رسالة وجهتها "اللجنة الأمنية" للهاجناه في طبرية إلى "قيادة الهاجناه القومية" في ٢٢ شباط ١٩٤٨، تتضح تماما هذه النية بطرد العرب. تبين الرسالة "أن مجرد دخول قوة يهودية ذات شأن ومجهزة جيدا إلى المدينة القديمة سوف يضمن احتلالها، وتبدأ بعد ذلك عملية إعادة اليهود الذين غادروها إليها وإزالة العرب منها"[٢٠].

لقد كانت طبرية هي المدينة الفلسطينية الأولى التي بادرت الهاجناه إلى تطبيق الخطة دالت فيها[٢١]. وكانت الأوضاع الجغرافية/ الاستراتيجية بالنسبة للمدينة عاملا مهما في احتمالات نجاح التطبيق. فقد كانت الأحياء العربية في المدينة القديمة شبه محاصرة من اتجاهين رئيسيين: في الشمال الغربي كان الحي اليهودي المعروف بقريات شموئيل، ويعرف أيضا بحزات (أحوزات) بايت، الذي يسيطر على الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بالناصرة وما بينهما من قرى عربية، بالإضافة إلى وقوعه على مرتفع يشرف على الأحياء العربية في أسفل المدينة مما يعطيه ميزة للسيطرة والتفوق. أما في الجنوب فكان حي أحفا (والمعروف كذلك بحزات (أحوزات) كيبسر) قادرا على السيطرة على الطريق المتجهة جنوبا والتي تربط المدينة بسمخ. بالإضافة إلى وجود مستوطنتين يهوديتين تقعان على شاطئ بحيرة طبرية الجنوبي تتحكمان بحركة السير هناك، هما دجانيا أ Degania Alef (التي كانت قد أقيمت سنة ١٩١٠)، ودجانيا ب

Degania Bet (التي كانت قد أنشئت سنة ١٩٢٠). ولإحكام الطوق حول المدينة كانت قوات الهاجناه قد قامت في الأول من آذار ١٩٤٨ باحتلال قرية المنارة التي تقع على بعد خمسة كيلومترات جنوب طبرية وشردت سكانها البالغ عددهم آنذاك نحوا من ٥٧٠ نسمة.

كان الوضع هو كذلك حول المدينة حتى شهر آذار من عام ١٩٤٨ عندما نشبت الاشتباكات لأول مرة. أما في داخل المدينة نفسها فكان هناك الحي اليهودي (حارة اليهود) في المدينة القديمة على شاطئ البحيرة والذي كان يمكن أن يكون قاعدة للهاجناه في أحشاء المدينة نفسها. وبالفعل أدخلت الهاجاناه فصيلا مسلحا منها قوامه بين ٣٠ و٤٥ رجلا إلى هذا الحي، ثم باشرت في اليوم التالي لتوقيع "اتفاقية طبرية" (٩ آذار ١٩٤٨) بعملية لإخلاء السكان اليهود المدنيين من الحي لكي لا يصيبهم ضرر عند تجدد الاشتباكات العسكرية المتوقعة. وفي هذه العملية تم ترحيل ١٤٥ أسرة يهودية من الحي أعيد إسكانهم في قريات شمويل بينما امتنعت أسر قليلة من الرحيل وبقيت فيه مع فصيل الهاجناه المسلح[٢٢].

على كل حال، لم تصمد "اتفاقية طبرية" على وقف إطلاق غير يومين. ففي ١١ آذار ١٩٤٨ تجددت الاشتباكات بين العرب واليهود، وامتدت لتشمل معظم أنحاء المدينة، وقد قتل فيها (وفق المراجع العربية) اثنان من اليهود وجرح أربعة من العرب. ولتهدئة الحال عقد اجتماع في دار الحكومة برئاسة حاكم لواء الجليل البريطاني والقائد العسكري البريطاني في المدينة وحضره من الجانب العربي خليل الطبري، عن اللجنة القومية، وعن الجانب

اليهودي رئيس بلدية طبرية. وقد تم الاتفاق على الدعوة إلى وقف القتال. إلا أن الدعوة فشلت، فأعلن المسؤولون البريطانيون نظام منع التجول في المدينة إلى الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، ورابطت قوات كبيرة من الشرطة الإنجليزية على مداخل المدينة[٢٣].

تجددت الاشتباكات في اليوم التالي (١٢ آذار) فور رفع منع التجول، وكانت هذه المرة أعنف منها في اليوم السابق، إذ شاركت القوات البريطانية في إطلاق النار على الأحياء العربية، وذكرت التقارير الصحفية العربية الفلسطينية التي سردت تفصيلات ما جرى في ذلك اليوم أن ما لا يقل عن أربعة من العرب استشهدوا في القتال برصاص الجيش البريطاني[٢٤].

تواصل القتال على امتداد اليومين التاليين (١٣ و١٤ آذار)، وقد نشبت فيه اشتباكات مباشرة بين العرب واليهود في شوارع المدينة، وحاولت قافلة يهودية مسلحة اختراق الأحياء العربية فتصدى لها العرب ودمروها، كما اتهمت المراجع العربية القوات الإنجليزية بإطلاق الرصاص على العرب. وقد استشهد في هذه الاشتباكات ما لا يقل عن خمسة من العرب منهم امرأة[٢٥]. ووفقا للتقارير الصحفية اليهودية كانت خسائر العرب في هذه الاشتبكات خلال الأيام الثلاثة الأولى (من ١١ إلى ١٣ آذار) ثمانية قتلى ولحد عشر جريحا[٢٦]. وتذكر هذه التقارير أيضا أن العرب خسروا أربعة قتلى في اليوم التالي (١٤ آذار) وكان عدد جرحاهم سبعة[٢٧]، ولا تشير هذه التقارير إلى خسائر اليهود.

انتهت هذه الجولة من القتال يوم ١٥ آذار بتدخل من السلطة البريطانية في طبرية. وتقول المراجع اليهودية إن وقف الاقتتال كان بطلب من المسؤولين العرب في المدينة[٢٨]، غير أن الدباغ ينقل عن طلعت السيفي، مدير مدرسة طبرية الحكومية، والذي كان آنذاك في المدينة، صورة مختلفة تبين أن وقف القتال تم بأمر مشدد من السلطات البريطانية في المدينة. يقول السيفي، وبالتأكيد مستندا إلى ما سمعه من المسؤولين العرب، إنه في ذلك اليوم "استدعى قائد قوة الجيش البريطاني المرابط في طبرية آنذاك – وعدده لا يقل عن ألف جندي عدا البوليس البريطاني والحكومي الموجود في البلدة – استدعى السيد صدقي الطبري، وجيه العرب، ورئيس البلدية اليهودي السيد دهان، وكان الوقت الحادية عشرة ليلا، وقد أخلتهما سيارة الجيش على ظهرها، وانتظرا ما يقرب من نصف الساعة على باب القائد، ثم أدخلا. وقد قال لهما القائد ما يلي بالحرف الواحد وباللهجة القاسية: 'نحن مسؤولون عن الأمن والنظام هنا لغاية ١٥ أيار، ولا نسمح بحدوث مثل هذه الاضطرابات، فاذهبوا وعرفوا الأهالي هذا الأمر، وإذا سمعت طلقت واحدة في البلدة فإنني سأطلق المدافع على تلك الأحياء التي تطلقها. هيا اذهبوا'. انتهى أمر القائد، وبالفعل في صباح اليوم التالي أطلقت بعض الطلقات في بعض الأحياء فوجه القائد طلقتين من المدافع على تلك الأحياء، فاستتب الأمن"[٢٩].

مهما يكن الأمر، فمن الواضح أن الطرفين العربي واليهودي التزما بوقف إطلاق النار، إذ تؤكد التقارير الصحفية العربية أن الهدوء ساد المدينة ابتداء من يوم ١٥ آذار وعادت الحياة إلى

طبيعتها، وقد باشر الأهالي أعمالهم كالمعتاد، وافتتحت الدوائر الرسمية أبوابها وباشرت أعمالها ولم يحدث ما يعكر صفو الطمأنينة"[30] ومثل ذلك جاء في التقارير الصحفية اليهودية التي أشارت إلى حدوث هدنة في القتال أعقبها جو من الارتياح والطمأنينة في المدينة[31].

استمرت الهدنة قائمة، وقد التزم الطرفان بها، مدة ٢٣ يوما، من ١٥ آذار إلى ٨ نيسان عندما تجدد القتال الذي انتهى باحتلال طبرية وترحيل سكانها العرب عنها. وهنا يثار سؤال عن الدوافع التي جعلت السلطة الإنجليزية آنذاك تذهب إلى فرض الهدنة بالقوة – وفق شهادة طلعت السيفي – على الطرفين المتقاتلين. نرجح أن الإنجليز آنذاك لم يكونوا قد حسموا أمرهم في شأن تسليم المدينة لليهود، إذ كانوا قد أعلنوا أن انسحاب قواتهم النهائي من فلسطين سوف يكون مع يوم ١٥ أيار ١٩٤٨، وبذلك كان الوقت مبكرا حينئذ ليتخلوا عن مسؤولياتهم في المدينة بالسماح لليهود بالسيطرة عليها. ويرجح هذا الاحتمال أن مجلس الأمن الدولي كان قد اتخذ قرارا في الخامس من آذار ١٩٤٨ (القرار رقم ٤٢) أي قبل أيام قليلة من اندلاع الاشتباكات في طبرية، ناشد فيه "جميع الحكومات والشعوب، خصوصا تلك التي في فلسطين وحولها، أن تتخذ جميع التدابير الممكنة لمنع أو تخفيف حدة الاضطرابات الجارية حاليا في فلسطين"[32]. وبذلك فقد كان محرجا لبريطانيا أن تغض الطرف عن الاشتباكات الدائرة في طبرية ولا تتخذ من الإجراءات ما يمنع استمرارها.

لكن مع هذا ينبغي أن يضاف أنه على الرغم من التفوق الصهيوني آنذاك على ما كان متوافرا لدى عرب طبرية من قدرات في التسليح والتنظيم والمقاتلين المدربين، فقد لقيت الهجمات الصهيونية مقاومة من جانب أهل طبرية تسجل لهم على قلة إمكاناتهم. وأكثر من ذلك، يتضح من متابعة تفصيلات الاشتباكات التي وقعت خلال الأيام الأربعة أن المناضلين العرب في المدينة كانوا في كثير من الأحيان هم المبادرين في الهجوم، ما يعني أن الأمور لم تكن قد نضجت بعد لفرض الاستسلام على العرب، لا من الجانب الصهيوني ولا من الجانب الإنجليزي.

(٤)
معركة السقوط
٨-١٧ نيسان ١٩٤٨

على كل حال، تجدد القتال في ٨ نيسان ١٩٤٨. وليس هناك معلومات مؤكدة عمن انتهك الهدنة المفروضة أولا، وإن كانت المراجع الصهيونية تحمل العرب مسؤولية ذلك[٣٣]. وفي هذا اليوم نشط القناصة العرب، وأوقعوا ثمانية قتلى من بين اليهود حسب التقارير الصحفية اليهودية[٣٤]، بينما أشارت تقارير صهيونية إلى وقوع أحد عشر قتيلا من بين العرب إلا أن التقرير الرسمي البريطاني عن حوداث هذا اليوم لم يسجل إلا ستة قتلى من العرب[٣٥]. وفي مقابل عمل القناصة العرب تعرضت الأحياء العربية في المدينة

القديمة لقصف يهودي عنيف بقذائف الهاون من مراكزها المشرفة على تلك الأحياء.

استمر القتال شديدا خلال الأيام الأربعة التالية (٩-١٢ نيسان) وكان القتال يتخذ شكل حرب شوارع، حاول اليهود خلالها أن يخترقوا بعض الدفاعات العربية والتسلل إلى الأحياء العربية حيث قذفوها بالقنابل ومدافع الهاون والرشاشات، إلا أنهم فشلوا في ذلك نتيجة المقاومة العربية الشديدة التي واجهتهم[٣٦]. وأكثر من ذلك فقد تمكن المناضلون العرب من السيطرة على بعض المراكز اليهودية المهمة في المدينة بما فيها فندق أدلر وبنك أنكلو بالستاين.

هذه الجولة من القتال التي استمرت خمسة أيام (٨-١٢ نيسان) والتي لم يتمكن اليهود من تحقيق هدفهم باقتحام المدينة شابها في يومها الأخير (١٢ نيسان) نكسة معنوية عندما هاجمت قوات الهاجناه قرية ناصر الدين التي تقع على المرتفعات الغربية المطلة على طبرية وارتكبوا فيها مجزرة قتلوا فيها اثني عشر عربيا (من رجال ونساء وأطفال) ودمروا منازلها وأحرقوها وشردوا باقي السكان الذين اتجهت غالبيتهم إلى طبرية. وكانت مهاجمة القرية جزءا من الخطة دال لإحكام الحصار حول طبرية. إلا أنها بالإضافة إلى ذلك كان لها مردود نفسي سيء في نفوس أهل طبرية الذين رأوا أهل القرية يشردون من منازلهم، ويروون أخبار الفظائع التي ارتكبتها القوات الصهيونية. وقد عززت أخبار مجزرة ناصر الدين أخبار مجزرة دير ياسين التي وقعت قبل يومين منها فقط (الليلة ٩

وصباح ١٠ نيسان ١٩٤٨) والتي ذهب ضحيتها ما لا يقل عن ٣٥٠ من سكانها، رجالا ونساء وأطفالا.

وما أن وصلت أخبار مجزرة ناصر الدين (١٢ نيسان) إلى طبرية حتى كتب الشيخ طاهر الطبري، مفتي المدينة، رسالة إلى الجنرال هيو ستوكويل Major-General Hugh C. Stockwell، القائد البريطاني للمنطقة الشمالية من فلسطين، أكد فيها أن العرب غير قادرين على الدفاع عن القسم العربي من المدينة، وأن اليهود يسيطرون على المواقع الرئيسية فيها وهم أفضل تنظيما وسلاحا وأكثر عددا من العرب الذين بدأت تنفد لديهم الذخائر والأطعمة. وقد طلب الشيخ طاهر في رسالته تدخل الجيش البريطاني[٣٧].

كانت ردة الفعل البريطانية على رسالة المفتي، وأيضا على مجزرة ناصر الدين أشبه بالمهزلة، إذ لم تتخذ السلطات الإنجليزية من الإجراءات ما يدل على عزمها على التدخل الفعلي والجاد لوقف القتال في طبرية، أو لمنع تكرار ما حدث في القرية المنكوبة. وتتيح لنا جريدة بالستاين بوست اليهودية الاطلاع تفصيلا على هذا الموقف. تقول الصحيفة[٣٨]: "لقد تعرض اليهود [يوم الإثنين ١٢ نيسان، أي يوم مجزرة ناصر الدين] للتهديد من جانب الجيش [الإنجليزي] ما لم تنسحب الهاجاناه من الأحياء اليهودية، إذ سوف تقصف المواقع اليهودية عند حلول ظهر [الثلاثاء ١٣ نيسان]. إلا أنه تم إلغاء هذا الأمر في الدقيقة الأخيرة بتوسط من السلطات اليهودية في القدس. وقد وجه هذا الإنذار الكولونيل[أندرسون، قائد المدينة العسكري] إلى الزعامات اليهودية بعد ظهر [الاثنين ١٢ نيسان]، بحضور العرب،

ولم يترك مجالا للشك في ضرورة تنفيذ هذا الأمر ما لم يتم الانصياع لشروطه. وقد أدان الكولونيل حملة الهاجاناه على قرية ناصر الدين التي قال عنها إنه قتل فيها عشرون شخصا يشملون نساء وأطفالا، وأحرقت في أثنائها المنازل. وقد أعطي الممثلون اليهود مهلة للساعة العاشرة من صباح [الثلاثاء ١٣ نيسان] ليفكروا في الأمر. وفي الساعة التاسعة والربع من [ليلة الاثنين ١٢ نيسان] استدعاهم الكولونيل ونصحهم بأن يقبلوا الموعد النهائي للإنذار الذي حدده الجيش، [كما أبلغهم] بأنه لن يقوم الجيش فقط بقصف المواقع اليهودية إن لم يوافق اليهود على هذا الموعد المعين، بل سيتخلى أيضا عن مسؤولياته في المحافظة على الأمن على الطريق الشمالي الذي تنقل عبره التجهيزات والإمدادات إلى الجليل الأعلى. وقد نصح الكولونيل الوفد اليهودي بالتعاون مع الجيش بدل التعاون مع الهاجاناه، وبأن يثقوا بعرب طبرية الذين وعدوا بحماية حيوات اليهود وممتلكاتهم في المدينة القديمة. وقد أجاب الوفد على ذلك بأن القصد من الهاجاناه هو الدفاع عن اليهود في كل مكان يتعرضون فيه للخطر، وذكّره الوفد بأن العرب هم الذين انتهكوا الهدنة، ولا يمكن الاعتماد عليهم. ومرة أخرى، في الساعة الثامنة والنصف من صباح [الثلاثاء ١٣ نيسان] طلب الكولونيل من ممثلي اليهود أن يجتمعوا به في ساحة مبنى تيغارت [مقر القوات الإنجليزية]، إلا أنهم رفضوا ذلك إذ اعتبروا دعوته لهم أهانة. وقد قال الكولونيل بعد ذلك إنه سوف يكون في المدينة القديمة عند الظهر، في الساعة التي حددها للقصف. غير أنه ألغي الاجتماع الذي كان مقررا عند الساعة الحادية

عشرة بين اليهود وحاكم اللواء سي. تي. إيفانس C.T. Evans إذ لم يتمكن الحاكم من الحضور. في أثناء ذلك سمع اليهود تقارير عن صدور أمر مضاد للأمر بالقصف، وعندما استفسروا عن ذلك من قيادة منطقة طبرية العسكرية لم يتلقوا إجابة. عند ذلك طلب اليهود تأجيل التنفيذ، إلا أن الكولونيل نظر في ساعته وقال إنه خلال سبع دقائق سوف يقوم الجنود بنسف المواقع اليهودية التي كان قد وجه لها مدفعا صغيرا. وقد انتظر الجنود حتى الساعة الثانية عشرة والربع عندما أصدر السيد إيفانس أوامره المضادة فانسحبوا".

لقد تعمدنا إيراد هذا النص مطولا، وبجميع تفصيلاته، لإظهار ما كان يتصف به الموقف البريطاني من رخاوة، لم تحجبها لهجة الكولونيل المتشددة، تجاه ما كان يجري في طبرية، فهل كان ثمة قرار بريطاني متخذ سلفا لتسليم طبرية إلى اليهود خالية من السكان العرب بعد إنضاج الظروف لذلك من خلال تصعيد العمليات العسكرية اليهودية ضدهم وإجبارهم على الرحيل؟ إذا كنا نفتقد لنص صريح واضح وموثق عن هذا الشأن فإن مجريات الأمور فيما بعد تؤكد وجود مثل هذه السياسة والتي اتضحت معالمها في اليومين الأخيرين من القتال، وهو ما سوف نبينه بعد قليل.

مهما يكن الأمر فعلى الرغم من قسوة وقع مجزرة ناصر الدين (١٢ نيسان) على أهالي طبرية فقد تواصل القتال في المدينة على مدى اليومين التاليين (١٣ و١٤ نيسان)، وقد تمكن المناضلون العرب في هذا القتال من تدمير عدد من البنايات اليهودية، كما نسف اليهود منازل عربية قريبة من مناطقهم حسب التقارير الصحفية

العربية[٣٩]. بينما تشير التقارير الصحفية اليهودية إلى أن القوات اليهودية تمكنت من تصفية عدد من المواقع العربية وأن العرب نهبوا المخازن اليهودية في المدينة القديمة[٤٠].

ويشير عارف العارف إلى أنه أثناء ذلك وصلت نجدات إلى المدينة من المناطق المجاورة، بعد أن استنجد أهل طبرية بالمناضلين المرابطين في الناصرة فأنجدهم هؤلاء بفئة يقودها محمد العورتاني، وهو من ضباط الجيش الأردني الذي كانت له مواقع على الأراضي الفلسطينية، وبفئة أخرى يقودها دياب الفاهوم، من الناصرة، كما انتدب رئيس المناضلين في الناصرة المعروف بأبي إبراهيم رجلا اسمه أبو الرب لمساعدة صبحي شاهين (كنا قد أشرنا إليه قبل) في إدارة دفة القتال[٤١].

غير أن هذه النجدة وصلت متأخرة فقد كانت الأوضاع قد نضجت للجولة الأخيرة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بالكارثة. وكانت صورة الوضع كما يلي: فرض الجيش الإنجليزي نظام منع التجول الكامل على طبرية لمدة ثلاثة أيام اعتباراً من ١٤ نيسان، غير أن اليهود لم يلتزموا بذلك إذ أدخلوا تعزيزات ومعدات إلى المدينة القديمة ونسفوا موقعين للعرب. وفي اليوم التالي لفرض منع التجول (١٥نيسان) انسحبت القوات الإنجليزية من حي جب البان العربي الذي يقع في شمال المدينة وقرر الجانب اليهودي الاستفادة من ذلك بالسيطرة على الطريق المؤدي من هناك إلى الجليل الأعلى[٤٢]، وبذلك يحكم الحصار حول المدينة.

في ١٦ نيسان بلورت الهاجناه خطتها لاقتحام طبرية بتفصيل، ووضعت لنفسها الأهداف الرئيسية التالية: ١- تنظيف المنطقة المحيطة بطريق الخروج إلى الجليل الأعلى، ٢- الاستيلاء على القلعة العربية الحصينة في فندق طبرية التي تسيطر على مخرج المدينة الشمالي، أي الطريق المؤدي إلى شرق الجليل الأعلى وصفد، ٣- تصفية مواقع العدو في جب البان، ٤- الهجوم على المدينة القديمة والاستيلاء عليها[٤٣].

في ليلة ١٦/١٧ نيسان بدأت وحدات مشتركة من الهاجناه والبالماخ* بمهاجمة المدينة القديمة بالمدفعية والمتفجرات ونسفت منازل عدة مما نشر الرعب في المدنية. وقد طلب الوجهاء العرب الاتفاق على هدنة إلا أن الهاجناه رفضت المفاوضات وأصرت على استسلام أهل طبرية غير المشروط. عند ذلك طلب العرب من البريطانيين أن يرفعوا حصار الهاجناه عن المدينة، وأن يوفروا الحماية للمناطق العربية، وكان جواب البريطانيين أنهم سوف يخلون المدينة خلال أيام قليلة لذلك لا يستطيعون توفير مثل تلك الحماية[٤٤].

في أثناء ذلك عرض الإنجليز مشروعا على اليهود بأن يتم تبادل سكاني ما بين طبرية وصفد بحيث يهجر عرب طبرية إلى

---

* تمثل البالماخ Palmach، أو الصاعقة، النخبة العسكرية الأكثر تدريبا والأفضل تسليحا في الهاجاناه وكانت قد تأسست سنة ١٩٤١.

صفد في مقابل نقل يهود صفد إلى طبرية، إلا أن القيادات اليهودية رفضت هذا المشروع[45].

اشتدت الحملة اليهودية يوم ١٧ نيسان على الأحياء العربية، واحتلت قوات الهاجناه والبالماخ المباني الكبيرة المشرفة على تلك الأحياء مثل فندق طبرية الكبير (فندق كروسمان) الذي كان حتى ذلك بيد العرب وبنك باركليز، مما مكنها من قصف الأحياء العربية بكثافة والتقدم من هناك باتجاه المدينة القديمة وهي تنسف المنازل العربية التي كانت في طريقها. وبات واضحا آنذاك أن سقوط طبرية بيد هذه القوات إنما هو مسألة ساعات قليلة. فقد كان المقاتلون العرب يخوضون معركة يائسة، على الرغم من الشجاعة التي أظهروها في محاولاتهم صد الهجمة الكاسحة، لكن بإمكانات متواضعة وبأسلحة كانت تنفد ذخائرها. ويورد عارف العارف ـ نقلا عما وصله من أخبار عن ذلك اليوم ـ قصة عن الضابط محمد العورتاني، الذي هبط طبرية لنجدتها (انظر أعلاه)، تكشف هشاشة الوضع العربي في المدينة، وإن كان العارف قد ذكر القصة للإشارة إلى "سذاجة" ما كانت عليه تلك القيادات العسكرية المتمثلة بالعورتاني. يقول العارف إن القائد الإنجليزي الذي كان يرابط مع قطعاته في طبرية استدعى العورتاني وسأله عما بيد العرب من وسائل القتال، وعما إذا كانوا يستطيعون الصمود والدفاع عن المدينة أمام قوات اليهود الكثيرة عدة وعددا، وسأل القائد أيضا الضابط العربي عما إذا كان يرى من الأنسب أن تنسحب الحامية العربية من طبرية، وأن يتدخل الجيش البريطاني فيسهل ترحيل السكان العرب منها أيضا. فأجاب العورتاني

بصراحة وسذاجة بأنه ليس لديه من الذخيرة والمجاهين ما يكفي للقتال أكثر من ساعة ونصف الساعة، وقد ذكر له بالضبط عدد المجاهدين والمقادير التي يملكها من السلاح والعتاد "وافترق الاثنان وفي قلب كل منهما ما فيه"[٤٦].

إلى جانب هذا الوضع العسكري المتردي كانت الضائقة الاقتصادية في طبرية قد وصلت ذروتها نتيجة الحصار الصهيوني الذي فرض عليها، فقد كانت تعاني من شح في السلع والأغذية مترافق مع ارتفاع في الأسعار وعدم تمكن التجار أنفسهم من بيع بضائعهم[٤٧].

وفي ظل هذه الأوضاع، كانت طبرية قد تركت لتواجه مصيرها المأساوي وحدها. فما يلاحظ أنه خلال هذه الأيام الحاسمة لم يبدر من أي من الأطراف التي كان من المفترض أن تدخل المدينة الآيلة إلى السقوط في إطار اهتماماتها ما يدل على أنها تحركت لمواجهة هذا المصير الذي كان يبدو مؤكدا. فقد كانت قوات جيش الإنقاذ* في الجليل على مسافة كيلومترات قليلة من المدينة إلا أنها لم تحرك ساكنا ولو حركة استعراضية يمكن أن توجه نظر القوات الصهيونية التي تحاصر المدينة وجهة أخرى غير هذا التركيز الشديد

* شكلته اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية ليضم متطوعين عربا لمساعدة أهل فلسطين، وقد أسندت قيادة الجيش إلى فوزي القاوقجي اعتبارا من شهر كانون الأول ١٩٤٧، ودخل الجيش الأراضي الفلسطينية يوم التاسع من الشهر نفسه. وعلى الرغم من وجود قواته في غير منطقة في فلسطين، إلا أن معظم انتشاره كان في المناطق الشمالية منها، الجليل خاصة.

على فرض الاستسلام غير المشروط على سكانها العرب. كذلك بدت القيادة الفلسطينية العليا، الهيئة العربية العليا، مشلولة بل ربما كانت تواجه همومها نتيجة تكثيف هجمات الهاجناه، وسائر العصابات الصهيونية المسلحة، على منطقة القدس. وعلى الرغم من وجود قطعات لجيش الجهاد المقدس التابع للهيئة* في منطقة الجليل إلا أنها هي أيضا غابت كليا عما كان يجري في طبرية. وربما يفسر ذلك بأن هذا الجيش بأجمعه كان ما يزال واقعا تحت صدمة استشهاد قائده عبد القادر الحسيني في معركة القسطل في ٧ نيسان أي قبل أيام قليلة من بداية سقوط طبرية.

وقد وصف العارف هذه الحالة من الغياب العربي الكلي عما كان يجري في طبرية بقوله: "الغريب في الأمر أنه لم يحضر إلى طبرية، والمعركة قائمة فيها، والمأساة التي وصفناها في الأسطر المتقدمة تمثل بين جدرانها، قائد من القادة الكبار المسؤولين، لا فوزي القاوقجي [القائد العام لجيش الإنقاذ]، ولا أديب الشيشكلي [قائد قوات جيش الإنقاذ في شمال فلسطين]، ولا طه الهاشمي [رئيس

---

* تعود جذور تشكيل جيش الجهاد المقدس إلى فترة الثورة العربية الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) إلا أنه أعيد بناؤه وتنظيمه بعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وكان بقيادة عبد القادر الحسيني، الذي استشهد فيما بعد في معركة القسطل. وكان الجيش تابعا للهيئة العربية العليا، وقد توزعت قواته على امتداد الأرض الفلسطينية، وكان له في المناطق الشمالية أربع سرايا متحركة وثلاث سرايا تدمير ووحدة طبية.

اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة العربية]، ولا الحاج أمين [الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا]، لا ولا أرسل واحد من هؤلاء رسوله ليستطلع الخبر"[48].

وقد تصادف وقوع الهجوم الصهيوني الحاسم على طبرية العربية (يوم ١٧ نيسان) مع إصدار مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٤٦ الذي دعا فيه إلى "إيقاف جميع الأعمال ذات الصبغة العسكرية أو شبه العسكرية وكذلك أعمال العنف والإرهاب والتخريب" في فلسطين، كما طلب من "حكومة المملكة المتحدة، ما دامت هي الدولة المنتدبة، أن تبذل قصارى جهدها لحمل جميع المعنيين على قبول [تلك الإجراءات]، ومع احتفاظها بحرية عمل قواتها، أن تشرف على تنفيذ هذه الإجراءات من قبل جميع المعنيين"[49].

غير أن هذا القرار لم يكن يعني شيئا بالنسبة لطبرية، فقد كانت مقاومة أهلها قد استنزفت، وحققت القوات الصهيونية سيطرة فعلية على المدينة، وأخذت القيادة العسكرية الإنجليزية فيها بالإعداد لتسليمها إلى اليهود بعد إخلائها من سكانها العرب. وفي هذا التقت السياسة الإنجليزية مع الخطة الصهيونية حول ترحيل (أو طرد) العرب من مدينتهم. وكانت هذه السياسة الإنجليزية قد تكشفت في الأيام الأخيرة من القتال في طبرية، إذ يشهد الدكتور إلياس سروجي، من الناصرة وكان طبيبا فيها آنذاك، بأن القائد العسكري الإنجليزي في المدينة اتصل هاتفيا بوالده ليلا في منتصف نيسان (١٩٤٨) وطلب منه أن يجهز قاعة السينما في الناصرة — وكان الوالد شريكا في ملكيتها — لإيواء العرب الذين سوف يتم أخلاؤهم من طبرية"[50].

(٥)
الخروج
١٨ نيسان ١٩٤٨

كانت النهاية يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨. في ذلك اليوم دبت الفوضى في المدينة، وساد الناس حالة من الهلع الشديد سببه قصف اليوم السابق وما رافقه من تدمير للمباني، يعيدان إلى الذاكرة ما حدث في مجرزتي دير ياسين وناصر الدين اللتين كانتا لا تزالان ماثلتين في الأذهان، وما صاحب كل ذلك من إحساس بالعجز واليأس وفقدان كل وسيلة تعينهم على البقاء. وإمعانا في إشاعة حالة اليأس كانت الهاجاناه ترفع العلم الصهيوني ذا اللونين الأبيض والأزرق على المباني التي كانت تنسفها[٥١]. وهكذا منذ فجر ذلك اليوم بدأ الخروج الكبير من المدينة. ويشير تقرير إلى تلك الحالة كما يلي: "كانت الطرق [في المدينة] تغص بالشاحنات والسيارات والحافلات والعربات المدفوعة باليد، وكانت جميعا ملأى بالعرب الذين صعقهم الرعب"[٥٢].

في صباح اليوم نفسه عقد اجتماع بين زعماء من عرب طبرية وآخرين يهود بوجود ممثل عن القيادة الإنجليزية في المدينة، وافق فيه العرب على إخلاء المدينة. والروايات الرسمية الصهيونية تزعم أن هذا الإخلاء كان طوعيا وقد اختاره العرب بمحض إرادتهم دون إكراه. فوفق تصريح رسمي لناطق باسم الوكالة اليهودية "إن العرب لم يرحلوا عن طبرية خوفا من الهجمات اليهودية، بل كان الإخلاء منسجما مع السياسة التي تبناها الزعماء العرب لتحقيق

أهدافهم"[٥٣]. وتوضح البالستاين بوست هـذه الأهـداف المزعومـة بقولهـا إن عصابة الزعماء العرب كانوا ينزعون إلـى إثـارة الاضـطرابات فـي فلسطين بهدف تعزيز سلطتهم وذلك مـن خـلال صـرف الانتبـاه عـن مشاكلهم الاجتماعية وتلك المتصلة بـسلالاتهم الحاكمـة، فكـانوا علـى استعداد للتضحية ليس باليهود فقط بل بعرب فلـسطين أيـضا، ومـن هنـا كانت عملية الإخلاء مـن طبريـة"[٥٤]. وفـي هـذا الخـط عـن الإخـلاء الطوعي قال بيان رسمي لمجلس الطائفة اليهودية فـي طبريـة: "إننـا لـم نطردهم ، بل هم أنفسهم الذين اختاروا هـذا الطريـق"[٥٥]. ويتكـرر زعـم الاختيار الطوعي فيما كتبه حاييم هرتزوج، الـذي كـان آنـذاك مـسؤولا في جهاز اسـتخبارات الهاجانـاه ورئيـسا لـدائرة الأمـن فـي الوكالـة اليهودية (وأصبح فيما بعد الـرئيس الـسادس لإسـرائيل ١٩٨٣-١٩٩٣) قائلا: "عندما تمكن لواء جولاني من الهاجانـاه مـن شـق مدينـة طبريـة إلى قسمين اختار العرب فيهـا أن يخلـوا المدينـة فرحلـوا شـرقا إلـى شرق الأردن"[٥٦].

إن غسل اليدين من دم الضحية لا يحجب حقيقـة الجريمـة التـي ارتكبت: جريمة طرد العرب مـن طبريـة التـي تمـت بـالتواطؤ بـين القوات الصهيونية وقـوات الانتـداب البريطـاني. الأولـى قامـت مـن جانبها بالحـصار والإرهـاب والقتـل والـدمار، حتـى أن اسـتخبارات الهاجاناه قدرت عدد خـسائر العـرب البـشرية فـي اشـتباكات الجولـة الأخيرة بثمانين قتيلا بينهم ثماني عشرة امـرأة[٥٧]. أمـا الطـرف الآخـر (الإنجليز) فقد قاموا مـن جهـتهم بتـسهيل تنفيـذ الجريمـة مـن خـلال تخليهم عن مسؤولياتهم في حماية الـسكان الـذين يقعـون تحـت حكمهـم

الانتدابي، بل في أحيان كثيرة كانوا يشاركون في توجيه الضربات العسكرية للأحياء العربية في المدينة. وقد رصدت حالات متكررة سقط فيها شهداء عرب برصاص القوات الإنجليزية (وقد أوردنا قبل أمثلة على ذلك). وإلى ذلك فقد كانت النية الإنجليزية مبيتة لترحيل العرب من المدينة (كما أوضحنا قبل)، ولتحقيق ذلك فقد مارسوا ضغوطا على الممثلين العرب الذين حضروا اجتماع صباح ١٨ نيسان (المشار إليه أعلاه) لإجبارهم على أخلاء المدينة، وهو أمر سجله صدقي الطبري، المشارك في ذلك الاجتماع، بوضوح في مذكراته[٥٨].

وهكذا إثر ذلك الاجتماع أبلغ القائد العسكري الإنجليزي للمدينة الوفد اليهودي بأنه، بصفته مسؤولا عن حياة المواطنين، فإنه ينوي إعلان حظر التجول بهدف ترحيل العرب من المدينة، وبعد ذلك سوف ينقل السيطرة على طبرية إلى ممثلين عن اليهود. وقد فرض حظر التجول بالفعل على حي كريات شمويل بدءا من الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم، وحشدت السلطة الإنجليزية في المدينة قافلة من ثلاثين حافلة أخذت تنقل العرب في اتجاهين: لتجاه سلكته الأقلية نحو الناصرة، بينا اتجهت الأغلبية صوب الجنوب وصولا إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وأكثر تحديدا إلى مدينة إربد. وفي الساعة السادسة والنصف وخمس دقائق من مساء ذك اليوم (١٨ نيسان ١٩٤٨) كانت عملية الإخلاء قد تمت كاملة وخلت طبرية من سكانها العرب.

(٦)
نهب المدينة وهدمها

كانت الأعمال الأولى التي قامت بها القوات الصهيونية بعد تسلمها السلطة في طبرية، تمشيط المدينة بحثا عمن قد يكون قد بقي فيها من سكانها العرب، ثم بدأت عملية النهب الواسعة. فقد حدثت عملية سرقة كثيفة لممتلكات العرب في طبرية بعد أن أخلى الجيش السكان العرب منها. وقد استمرت عملية النهب على الرغم من تعيين حراس يحذرون مرتكبي هذه الأعمال الشنيعة من ذلك. إلا أن أول من تولى عملية النهب كان أعضاء الهاجاناه لأنفسهم وليس الجمهور"[٥٩].

وكانت الخطوة التالية هي الشروع في هدم المدينة القديمة وإزالتها من الوجود. وكانت ملكية العرب من العقارات في المدينة عند الاحتلال تبلغ ٧٦,٨٥٤ مترا مربعا، منها ٤٣٩ مبنى سكنيا، يضم ١٦٦٥ غرفة سكنية، و٢٧٨ دكانا[٦٠]. وكان معظم هذه العقارات في المدينة القديمة وهي كانت مرشحة للهدم.

مرت عملية الهدم في مراحل كان أولاها في حزيران ١٩٤٨ عندما اتخذ قائد قوات الهاجاناه في المدينة قرارا بهدم المدينة القديمة وشق طريق جديد يربط شمال طبرية بجنوبها. وقد نال هذا القرار دعما من أعضاء المجلس البلدي في المدينة وزعماء اليهود فيها[٦١]. وكان من أشد المتحمسين لهدم المدينة القديمة يوسف نحماني

وموشيه فايتس. أما نحماني فهو مهاجر من أوكرانيا وأصبح عضوا في أحدى المنظمات الصهيونية العسكرية قبل أن يصبح مديرا للصندوق القومي اليهودي (كيرن كايميت Keren Kayemet LeYisrael) في طبرية، وعضوا في مجلسها البلدي في عهد الانتداب. وكان فايتس سكرتيرا لفرع طبرية للهستدروت (اتحاد العمال لليهود) وعضوا في المجلس البلدي للمدينة قبل أن يعين نائبا لرئيس المجلس بعد احتلال الهاجناه للمدينة في نيسان ١٩٤٨. وكانت وجهتا نظر هذين الشخصين بالنسبة لهدم المدينة "أن الحي القديم كان قد بني دون تخطيط مسبق. فالبناء فيه كثيف وتنقصه أسباب الراحة الحديثة، وبيوته صغيرة ومبنية بشكل سيء... كما أن منظره الخارجي يثير الاشمئزاز". وغير ذلك، كان الاثنان يؤمنان بأن هدم المدينة القديمة سوف يمنع سكانها السابقين (العرب) من العودة إليها. وكان هذا الرأي يتقاطع مع موقف القيادة العسكرية الصهيونية التي كانت ترى أيضا أن الهدم سوف يؤدي إلى منع العرب من العودة إلى مدينتهم"[٦٢].

لم تكن خطة الهدم مقتصرة على الممتلكات العربية بل أيضا تشمل الممتلكات اليهودية في المدينة القديمة. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الشأن أن هذه الممتلكات تعود حصرا تقريبا لليهود الشرقيين (السفارديم) فهم كانوا الغالبية في الأحياء القديمة من المدينة. ويكشف ذلك التمييز العنصري الذي مارسه اليهود المهاجرون من أوروبا (الأشكنازيم) ضد أبناء دينهم، فقد كان هؤلاء هم أصحاب القرار بالهدم دون أي مراعاة لأوضاع اليهود الشرقيين الذين كانوا يسكنون

الأحياء القديمة في المدينة ويغلب عليهم الفقر والحاجة. وقد اتهم اليهود الذين تعرضت مبانيهم لمخطط الهدم يوسف لحماني الذي كان يخصص آنذاك جهده لمتابعة عملية الهدم بأنه كان في ذلك "يعمل لمصالحه الخاصة"[٦٣]. ووصفت لجنة شكلها هؤلاء للوقوف في وجه عملية الهدم الوضع الذي كانت تسفر عنه العملية كما يلي: "إن أسرا عديدة تركت دون أن يكون لديها وسائل البقاء، كما أن المسنين والأرامل الذين كانوا يقيمون أودهم من تأجير بيوت ودكاكين في الحي القديم على مدى سنوات عديدة فقدوا كل ما كان لديهم. إن اليد المتوحشة التي عملت على تدبير هذا المؤامرة دمرت حياة العديد من الأسر الفقيرة"[٦٤].

استمرت مرحلة الهدم الأولى من حزيران ١٩٤٨ إلى آب من العام نفسه، وقد كانت العملية مريعة وأنجزت بكثير من القسوة والوحشية. وقد وصفت لجنة كانت تمثل ضحايا الهدم من اليهود، في بيان لها، هذا الذي تم آنذاك كما يلي: "كانت ألسنة اللهب تشاهد في بيوت اليهود والعرب. أما البلدية التي كانت تسرع عادة في إرسال رجال المطافئ لكل حالة حريق في المدينة فلم ترفع أصبعا واحدة لمواجهة تلك الحرائق. وفي كل يوم كان يتم إحراق عدد من المنازل في مختلف أنحاء المدينة القديمة... كانت الحرائق تشعل في المنازل، ثم تبدأ بعد ذلك عملية نسفها، وكانت تلك المنازل تعود إلى الناس الذين لا حيلة لهم والذين لم يتمكنوا في بعض الحالات من إنقاذ حاجاتهم، إذ كانت المنازل تهدم على قطع الأثاث والأدوات المنزلية، ففقد هؤلاء بيوتهم وتحولوا إلى قوم من المعدمين"[٦٥].

استؤنفت عملية الهدم في شباط ١٩٤٩ ووصل عدد المباني التي هدمت حتى ذاك إلى ٤٧٧ بناء تشكل ٧٠ بالمئة من ٦٩٦ بناء في المناطق المستهدفة. ثم تجدد الهدم في صيف العام نفسه حتى وصل المجموع الكلي للمباني التي هدمت حتى أيلول من نلك العام إلى ٥٨٩ مبنى تشكل ٨٥ بالمئة من إجمالي المباني المستهدفة. ثم وصل العدد في نهاية عام ١٩٤٩ إلى ٦٠٦ مبان. ولم يترك قائما في تلك العملية بمختلف مراحلها غير دور العبادة الإسلامية والمسيحية واليهودية وبعض المنازل التي كان قد احتلها مهاجرون جدد لا يملكون مساكن، وكانوا نحوا من ٦٠٠ شخص، وقد رفضت الحكومة إخلاءهم منها إذ لم يكن لديها آنذاك بديل منها[٦٦].

كانت كمية الأنقاض التي خلفتها عمليات الهدم مخيفة إذ قدرت بمئة واثنين وأربعين ألف متر مكعب[٦٧]. وفي هذه البيئة من الخراب والدمار وصلت الأوضاع الصحية إلى الحضيض وأخذت الأمراض تنتشر. وقد وصف رئيس الأطباء (اليهودي) في منطقة إسرائيل الشمالية هذه الأوضاع بقوله إن تلك المنازل (المهدمة) مكان مناسب لتكاثر الفئران والجرذان والحشرات، وقد سجلت حالات من التيفوئيد بين الأسر المهاجرة التي تسكن في المباني الباقية وهي مرشحة للتصاعد[٦٨].

(٧)
مصادرة الممتلكات العقارية

كانت الخطوة التالية بعد إتمام عمليات الهدم هي مصادرة الحكومة لجميع الأملاك في المدينة القديمة، مع تعويضات تدفع للملاكين اليهود. وقد جاءت هذه الخطوة متاخرة نسبيا بسبب الاحتجاجات التي قام بها هؤلاء الملاكون على مصادرة ممتلكاتهم. وقد صدر قرار المصادرة في أيار ١٩٥٥ وكان بتوقيع ليفي إشكول وزير المالية آنذاك (أصبح فيما بعد رئيس الحكومة الثالث لإسرائيل ١٩٦٣-١٩٦٩). وكان قرار المصادرة يستوجب أن يدفع السكان أجرة للمنازل التي يسكنونها حتى وإن كانت ملكهم، كما جاء القرار على خلفية وضع تصورات لتطوير المدينة لتكون مدينة سياحية متميزة.

أثار القرار غضب ضحاياه من سكان المدينة اليهود، وقد عبر عن ذلك الحاخام يوسف حاييم دوك Yosef Hayim Douck في رسالة وجهها إلى وزير المالية، قال فيها: "إن الوزير المحترم يعرف بالتأكيد معاناة أبناء مدينة طبرية القديمة المحافظين على هذه المستوطنة القديمة التي دمرت ليس بيد الغريب أو العدو بل بيد الحكومة. لقد أتوا ووضعوا متفجرات في المنازل دون اي اعتبار لكون هذه المنازل لليهود أو العرب. لقد خربوا كل شيء عمدا، وكان على أصحاب هذه المنازل، أكانوا أغنياء أم فقراء، أن يعيشوا في بيوت ليست لهم، وأن يدفعوا مقابل ذلك أجورا لذلك. أما من لا يستطيع دفع الأجرة فقد أمر بالإخلاء وقدم للمحاكمة. ولم تكن عمليات الهدم كافية، فإن الحكومة الآن تضع يدها على الأملاك وتصادرها لنفسها على الرغم من أنها تقول إنها تصادرها للمصلحة

العامة... لقد امتلأت أعيننا بالدمع ونحن نقرأ البيان [الخاص بالمصادرة]... إن هذه المدينة التي حافظت على الكنس والمدارس الدينية سوف تتحول إلى مدينة لهو وشر بينما يسرح سكانها على قمم الجبال... لقد كان لليهود على مدى مئات من السنين تحكمهم حكومة تركية، وهي حكومة لم تسرق أملاك أحد بالمصادرة، بل هي ساعدت على بناء مدينة التوراة وعلى توطين علماء التوراة فيها. فكيف لدولة حديثة، وهي تعزز روح التوراة، أن تسرق ممتلكات جمهور كامل وتقدم لهم بدلا من ذلك مجرد ورقة عديمة القيمة، وتطردهم من بيوتهم إلى بيوت الغرباء، وتجعلهم عبيدا لحارس أملاك الغائبين، فيدفعون أجور المنازل، وتحول مدينتهم إلى مدينة ملاهي؟"[٦٩]

وقد قدرت قيمة الأملاك التي تمت مصادرتها وهدمها (ما بين أرض ومباني) في المدينة القديمة والأحياء المجاورة بـ ٣٦٨,١٦٤ ليرة إسرائيلية، منها ٢٠٠,٧٤٠ ليرة قيمة الأملاك العربية وبنسبة ٥٥ بالمئة، و١٤٠,١٣٢ ليرة قيمة الأملاك اليهودية وبنسبة ٣٨ بالمئة ، و٢٥,٢٩٢ ليرة قيمة أملاك أخرى وبنسبة ٧ بالمئة (جبرت الكسور لأقرب عدد عشري، وقد كانت الليرة الإسرائيلية آنذاك تعادل جنيها استرلينيا)[٧٠].

مرت عملية الاحتلال إذن في سلسلة من الحلقات المتصلة: طرد السكان العرب من المدنية، سرقة محتويات بيوتهم ومحلاتهم، هدم المباني، ومصادرة الأملاك العقارية. غير أنها اختتمت بعملية سرقة أوسع نطاقا من تلك التي قام بها الأفراد، ارتكبتها الدولة ـ في هذه الحلقة الأخيرة من السلسلة ـ بتوزيع الأراضي العربية في

طبرية على المؤسسات الصهيونية فيما يشبه عملية تقاسم الأسلاب في الحروب البدائية. لقد قدرت مساحة اراضي المدينة التي يملكها عرب في داخل حدود المناطق المعمرة بأكثر من ٥٣٠ دونما، بالإضافة إلى ٢٥ دونما من اراضي المشاع، وبضعة دونمات من نوع أراضي الوقف. وقد اعتبرت هذه الأراضي العربية "أملاك غائبين". وكانت تلك الأملاك بهذه الصفة هي هدف عملية السرقة الكبرى عندما توزعتها المؤسسات الصهيونية فيما بينها. فحتى شهر آذار ١٩٥٠ كان توزيع الأسلاب من "أملاك العرب الغائبين" كما يلي: ١١٥ دونما لجمعية الاستعمار اليهودي في فلسطين Palestine Jewish Colonization Association (PICA)، و٨٠ دونما للصندوق القومي اليهودي Keren Kayemet Le-Yisrael، وبقي نحو ٢٥٠ دونما بيد حارس أملاك الغائبين[٧١].

وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة الخروج الكبير من طبرية. لكن، هل هو الفصل الأخير فعلا؟ من يدري؟!

حواشي الفصل السابع

(١) نص القرار رقم ١٨١، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ في: **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين**، جمع وتصنيف سامي مسلم (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية وأبو ظبي: مركز الوثائق والدراسات، ١٩٧٣)، ص ص. ٤-١٣.

(2) Michael Palumbo, *The Palestinian Catastrophe* (London: Quartet Books, 1987), p. 32, quoting Shapati Teveth, *Ben Gurion and the Palestinians, p,* 189.

(3) Cited in: Nur Masalha, *Expulsion of the Palestinians: The Concept of 'Transfer' in Zionist Political Thought 1882-1948* (Beirut: Institute For Palestine Studies,1992), p. 117.

(4) Palumbo, *op.cit*, p. 40, quoting *Ben Gurion's Diary*, Vol. I, December 19. 1947.

(5) Dominique Vidal, "The Expulsion of the Palestinians Re-examined", *Le Monde Diplomatique*, December 1997.

(٦) "مذكرات صدقي الطبري" مخطوطة بحوزة خير الطبري المقيم حاليا في الناصرة، كما أوردها:

Mustafa Abbasi, "The End of Arab Tiberias: The Arabs of Tiberias and the Battle for the City in 1948", *Journal of Palestine Studies,* Vol. 37, No. 3 (Spring 2008), p. 7.

(٧) نشرت جريدة الشعب الفلسطينية الدستور في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٧، انظر نصه لدى: بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨**، الطبعة الثالثة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦)، ص. ٨٣٣. كذلك انظر عن اعمال هذه اللجان المرجع نفسه، ص ص. ٥٩٨-٦٠٤.

(٨) إلا إذا أشير إلى خلاف ذلك، فإن المعلومات عن هذا الاجتماع والاجتماعات الأخرى التي عقدت وتشكيل اللجنة القومية في طبرية نفسها وقضائها واللجان الفرعية التي شكلتها مستقاة من: Mustafa Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op. cit*, pp.11-12

وقد عاد الباحث في ذلك إلى وثائق اللجنة نفسها بما فيها محاضر اجتماعاتها والمراسلات التي كانت تتم بين أعضائها والأخرى بين رئيسها ورئيس الهيئة العربية العليا وهي محفوظة جميعا في "أرشيف دولة إسرائيل" State of Israel Archives

(9) Abbasi, *The End of Tiberias, op.cit*, p. 13.

(١٠) عارف العارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢** (صيدا وبيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، تاريخ المقدمة ١٩٥٦)، المجلد الأول، ص. ٢٠٢.

(11) *Palestine Post*, February 4, 1948.

(12) Abbasi, *The End of Tiberias, op.cit*, p, 14.

(١٣) عارف العارف، المرجع المذكور، ص. ٢٠٣.

(14) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 14.

(١٥) المرجع نفسه، ص ص. ١٤-١٥.

(١٦) المرجع نفسه، ص. ١٥، نقلا عن وثيقة في ملفات وزارة الدفاع الإسرائيلية كما يلي:

"On the Situation in Tiberias", DFDDA (Defense Forces and Defense Department Archives), File no. 481/49/36, 23 March 1948, pp. 6-7.

(١٧) المرجع نفسه، ص. ١٦، نقلا عن شهادة موشيه ساهار في:

Forty Days in the Battle for the Liberation of Tiberias: Collected Testimony (Tel Aviv: Department of Defense Publication, 1993), p. 29.

(١٨) كان أول من كشف عن هذه الخطة عربيا الأستاذ وليد الخالدي ونشرها مترجمة عن العبرية إلى الإنجليزية في:

Walid Khaldi, "Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine", *Journal of Palestine Studies*, Vol. 18, No. 1 (Autumn 1988).), pp. 4-33 .

والأصل العبري لهذه الخطة نشر في:

Sefer Toldot Hahaganah [History of the Haganah], ed, by Yehuda Slutsky (Tel Aviv: Zionist Library, 1972), Vol. 3, Appendix 48, pp 1955-60.

(١٩) وليد الخالدي، "عودة إلى قرار التقسيم ــ ١٩٤٧"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٣٣ (شتاء ١٩٩٨)، ص. ٧.

(20) Mustafa Abbasi, "The War on the Mixed Cities: The Depopulation of Arab Tiberias and the Destruction of its Old 'Sacred' City (1948-9)", *Holy Land Studies*, 7.1 (2008), p. 48, citing: "From the Security Committee, Tiberias, to the National Command, Security Matters in Tiberias", *IDF and Ministry of Defense Archives, File No. 36/49/481, 22 February 1948.*

(21) David Tal, *War in Palestine, 1948: Strategy and Diplomacy* (London: Routledge, 2004), p. 100.

(22) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 17.

(٢٣) عن حوادث هذا اليوم: جريدة فلسطين، ١٢/٣/ ١٩٤٨

(٢٤) تفصيلات حوادث هذا اليوم: جريدة فلسطين ١٣/٣/١٩٤٨.

(٢٥) تفصيلات حوادث هذين اليومين: جريدة الدفاع العربية الفلسطينية، ١٥/٣/١٩٤٨.

(26) *The Palestine Post*, 14 March 1948.

(27) *The Palestine Post*, 15 March 1948.

(28) *The Palestine Post*, 14 March 1948.

(٢٩) مصطفى مراد الدباغ.

(٣٠) جريدة فلسطين، ١٦ و١٧ آذار ١٩٤٨، وجريدة الدفاع، ١٧ آذار ١٩٤٨.

(31) *The Palestine Post*, 16 March 1948.

(٣٢) نص القرار في: قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين، جمع وتصنيف سامي مسلم (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية وأبو ظبي: مركز الوثائق والدراسات، ١٩٧٣)، ص. ١٠٢.

(٣٣) انظر تقارير شهادات صهيونية حول هذا الأمر لدى:

Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, pp. 17-18.

(34) *The Palestine Post*, 11 April 1948.

(35) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 17.

(٣٦) أوردت جريدة فلسطين، ١٠-١٣ نيسان ١٩٤٨، تقارير مفصلة عن اشتباكات تلك الأيام الأربعة.

(37) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 20, citing Shaykh Taher's letter preserved at State of Israel Archives, File no. F/553/324, 12 April 1948.

(38) *The Palestine Post*, 14 April 1948.

(٣٩) جريدة فلسطين، ١٤ و١٥ نيسان ١٩٤٨.

(40) *The Palestine Post*, 15 April 1948.

(٤١) عارف العارف، المرجع المذكور، ص. ٢٠٣.

(42) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 20.

(43) Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 21.

(44) Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949* (Cambridge University Press, 1989), p. 71.

(٤٥) أشار إلى هذا المشروع غير مرجع يهودي، انظر على سبيل المثال:

David Tal, *op.cit*, p. 100; and Yoav Gelber, *Palestine 1948: War, Escape and the Emergence of the Palestinian Refugee Problem* (Sussex Academic Press, 2001), p. 107.

(٤٦) العارف، المرجع المذكور، ص. ٢٠٤.

(47) David Tal, *op. cit*, p. 100.

(٤٨) عارف العارف، المرجع المذكور، ص. ٢٠٥.

(٤٩) نص القرار في: قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين، المصدر المذكور، ص ص. ١٠٣-١٠٤.

(50) Elias Srouji, "The Last Days of Free Galilee: Memories of 1948", *Journal of Palestine Studies*, Vol. 33, No. 1 (Autumn 2003), p. 50.

(51) *The Palestine Post*, 19 April 1948.

(52) John and Hadawi, *op.cit*, Vol. II, p. 331.

(53) *The Palestine Post*, 21 April 1948.

(54) *The Palestine Post*, 21 April 1948.

(55) John and Hadawi, *op.cit*, Vol. II, p. 331.

(56) Chaim Herzog, *The Arab-Israeli Wars: Wars and Peace in the Middle East from the War of Independence through Lebanon* (Vingate Books, 1983), p. 3.

(57) David Tal, *op.cit*, p. 100.

(٥٨) "مذكرات صدقي الطبري" كما أوردها:

Abbasi, *The End of Arab Tiberias, op.cit*, p. 22.

(59) Yoav Gelber, *op. cit*, p. 107.

(60) Michael R. Fischbach, *Records of Dispossession: Palestinian Refugee Property and the Arab-Israeli Conflict* (Columbia University Press, 2003), Tables 1.5, 1.6, 1.7, pp. 30-31.

(61) Abbasi, *The War on the Mixed Cities, op.cit*, p. 55.

(62) Amon Golan, "The Politics of Wartime Demolition and Human Landscape Transformation", *War in History*, Vol. 9, No. 4 (October 2002), pp. 435-436.

(63) Abbasi, *The War on the Mixed Cities, op.cit*, p. 57.

(64) Amon Golan, *op.cit*, p. 436.

(65) Cited by Abbasi, , *The War on the Mixed Cities, op.cit*, p. 58.

(66) Amnon Golan, *op.cit*, pp. 437- 438.

(67) Abbasi, *The War on the Mixed Cities, op.cit*, 60.

(68) Amnon Golan, *op.cit*, p.437.

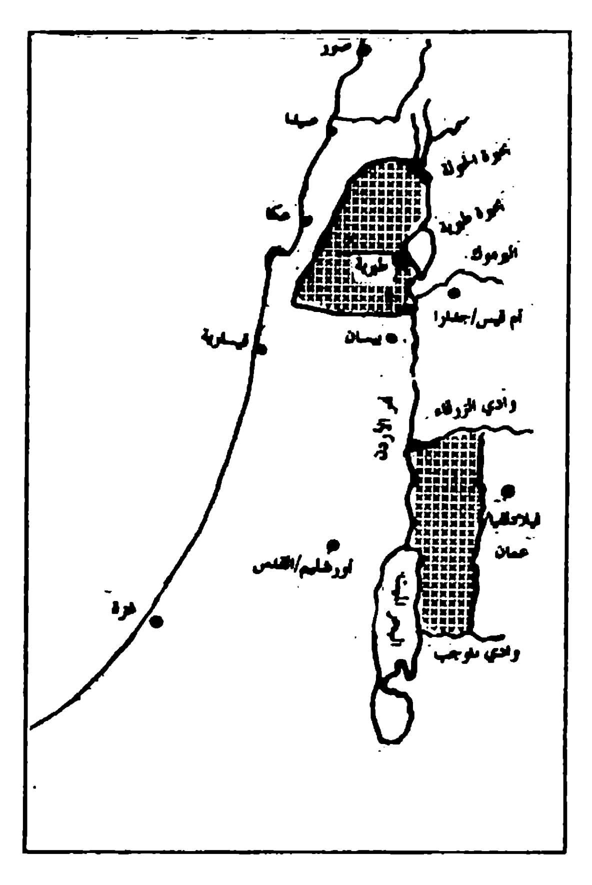
(69) Abbasi, *The War on the Mixed Cities, op.cit*, pp. 74-75.

(٧٠) الأرقام المطلقة من المرجع نفسه، الجدول ٤، ٥، ٦، ص ص. ٧٦-٧٧.

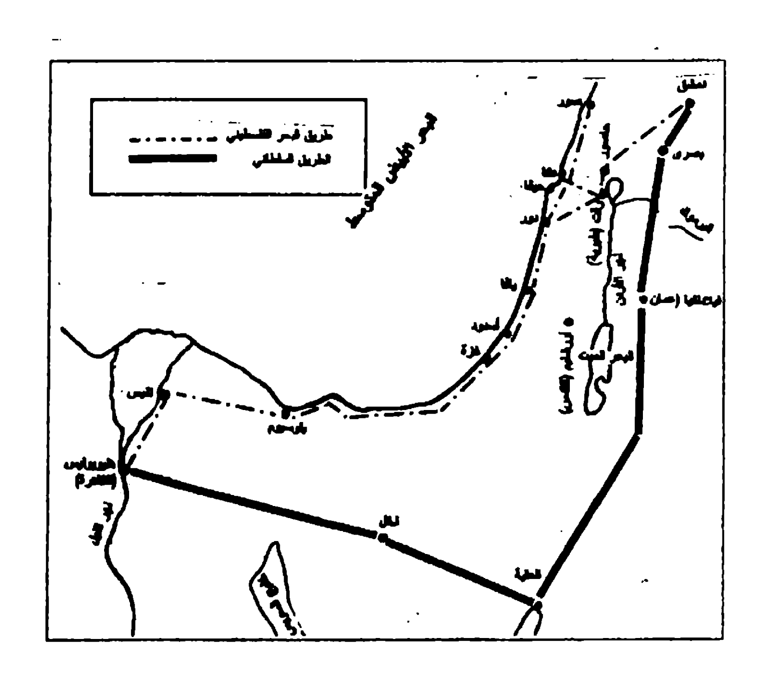
(71) *Ibid*, p. 51, citing: Meeting of the 'Committee for the Destruction of the Old City of Tiberias', 9 March 1950, Israel State Archive, Container No, 2/34.

ملحق الخرائط



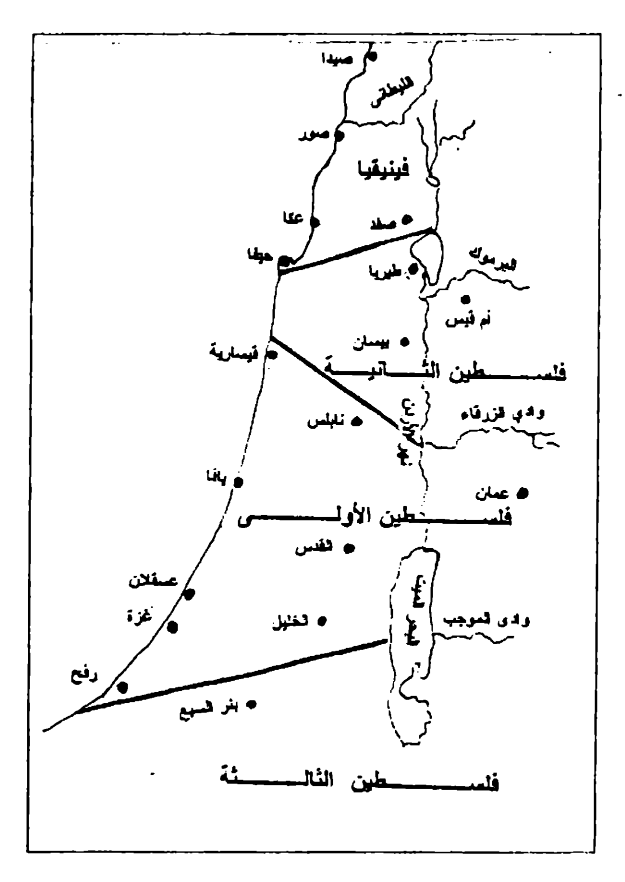


(١) منطقة حكم هيرود أنتيباس: الجليل والمنطقة ما بين وادي الزرقاء ووادي الموجب



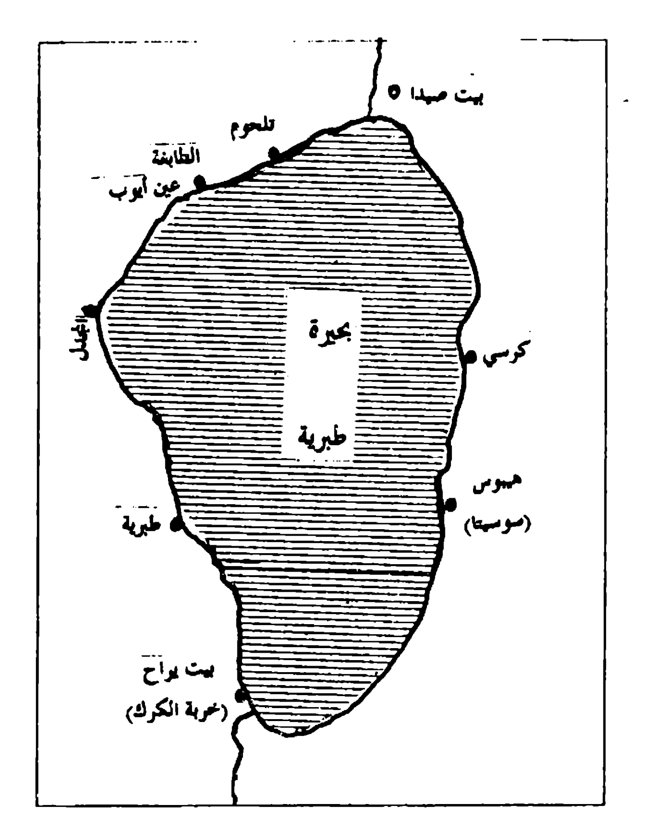
(٢) طرق القوافل والتجارة في التاريخ القديم .

حيث كانت رفنت، فيما بعد طبرية، تقع عند مفصل رئيسي على طريق البحر الفلسطيني يربط الداخل السوري بساحل البحر الأبيض المتوسط ومن هناك إلى مصر، كما كانت متصلة بطرق فرعية بالطريق السلطاني.



(٣) فلسطين حسب التقسيمات الرومانية

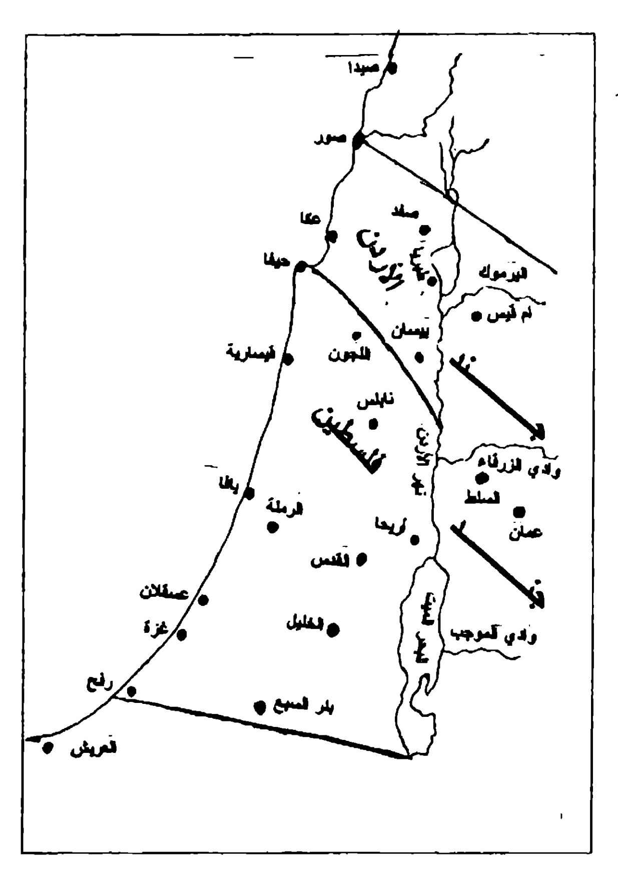
حيث كانت طبرية تقع في فلسطين الثانية



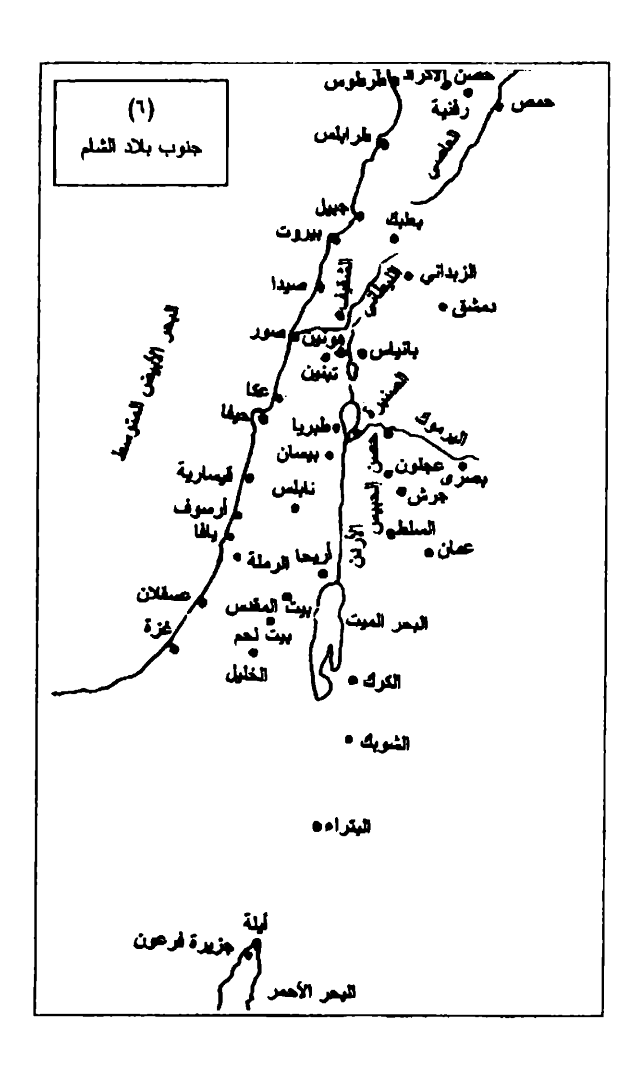
(٤) محيط بحيرة طبرية في تاريخها القديم

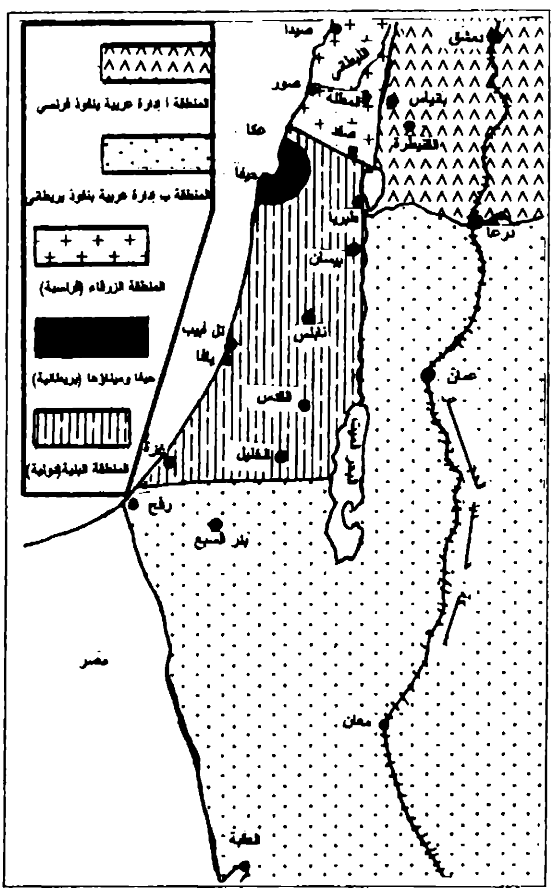
اشتهر عدد من البلدات على شواطئها منذ زمن الكنعانيين

وبعضها ما زال قائما حتى الآن

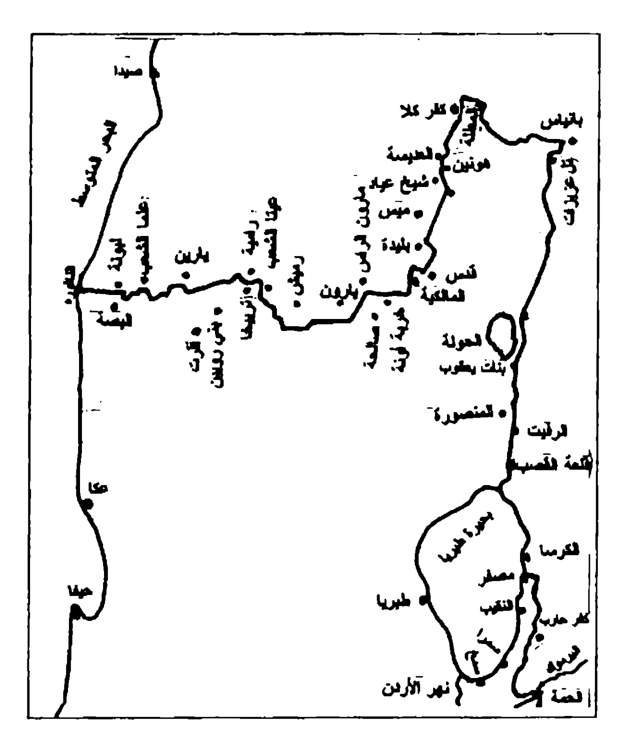


(٥) جندا الأردن وفلسطين في التاريخ الإسلامي
حيث كانت طبرية عاصمة جند الأردن


(٦)
جنوب بلاد الشام
حصن الأكراد
طرطوس
رفنية
حمص
العاصي
طرابلس
جبيل
بعلبك
بيروت
الزبداني
صيدا
دمشق
صور
هونين
بانياس
تبنين
عكا
حيفا
طبريا
اليرموك
بيسان
عجلون
بصرى
قيسارية
نابلس
جرش
أرسوف
يافا
السلط
عمان
الرملة
أريحا
الأردن
عسقلان
بيت المقدس
البحر الميت
غزة
بيت لحم
الخليل
الكرك
الشوبك
البتراء
أيلة
جزيرة فرعون
البحر الأحمر
البحر الأبيض المتوسط



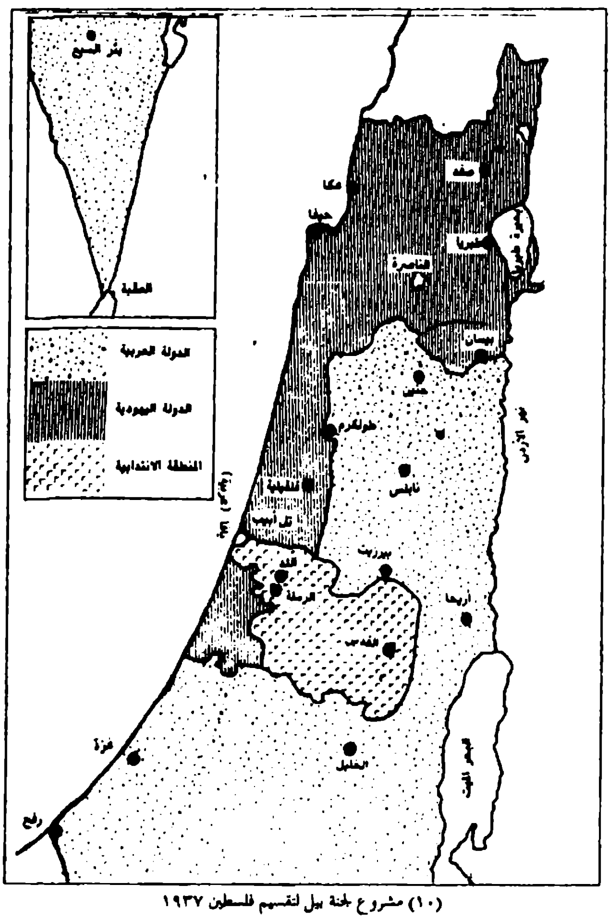
(٧) فلسطين في اتفاقية سايكس ـ بيكو ١٩١٦
حيث طبرية في المنطقة المخصصة لتكون دولية



(٨) خط حدود فلسطين في الشمال بموجب الاتفاقية الفرنسية-البريطانية ١٩٢٣
حيث يسير الخط شرق بحيرة طبرية

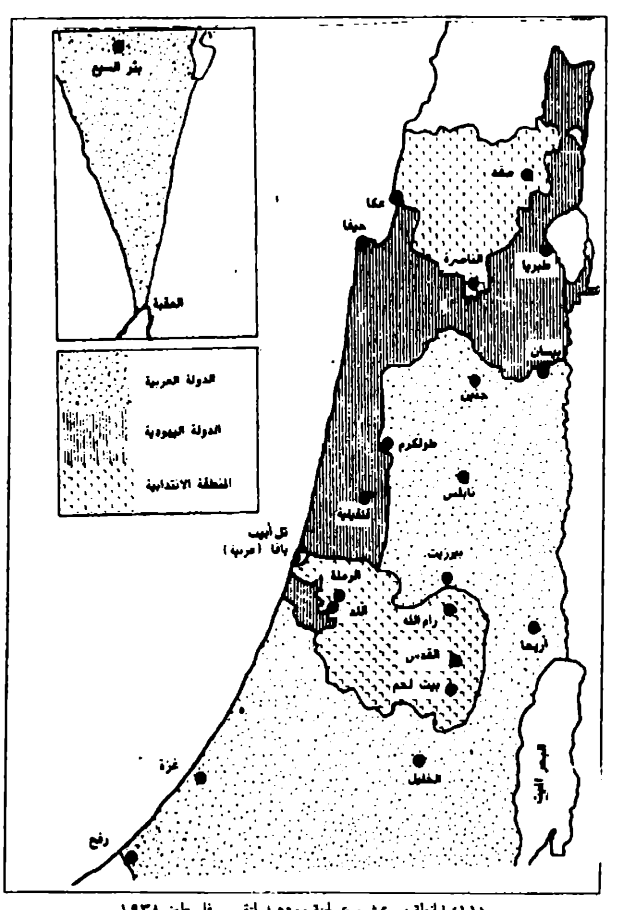


(٩) قضاء طبرية
عامر بسكانه وقراه



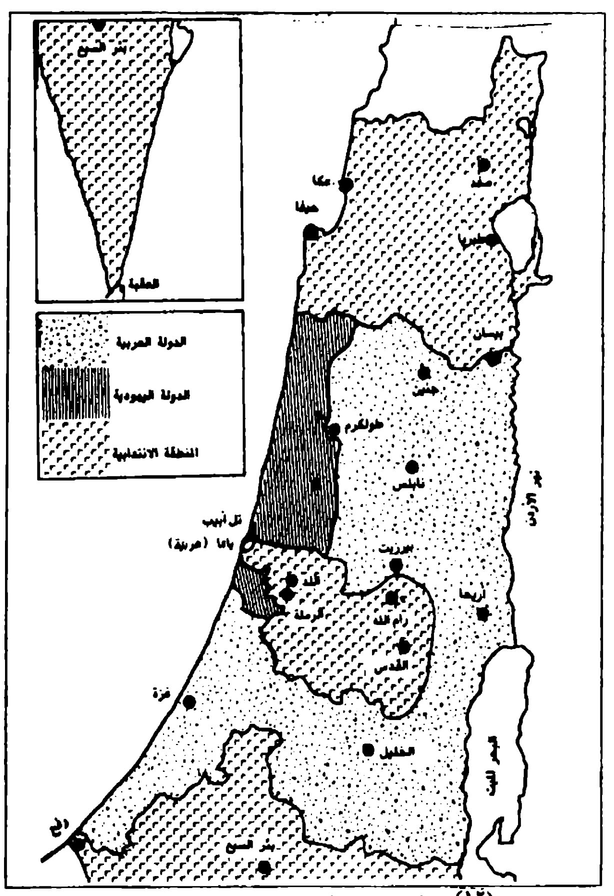
(١٠) مشروع لجنة بيل لتقسيم فلسطين ١٩٣٧

حيث المدينة في الدولة اليهودية وبحرها وشواطئها تحت الانتداب ومواطنو المدينة تحت الحماية البريطانية

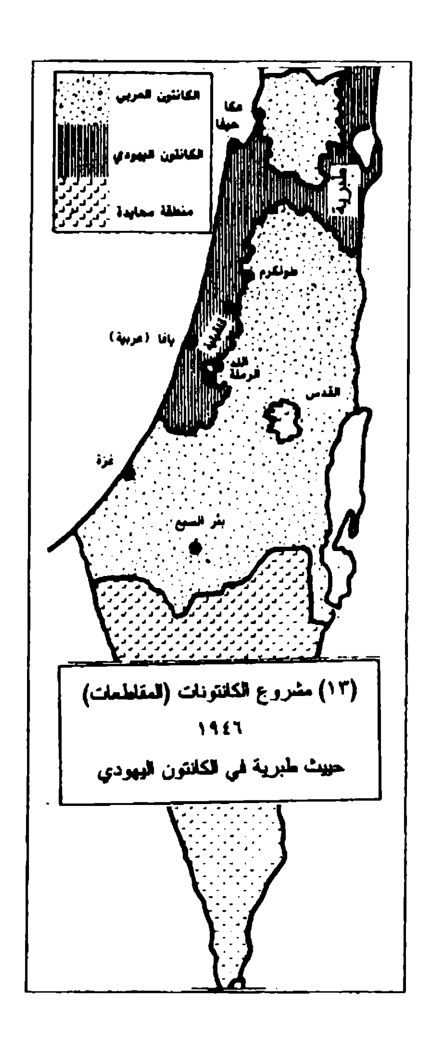


(١١) الخطة ب بمشروع لجنة وودهيد لتقسيم فلسطين ١٩٣٨

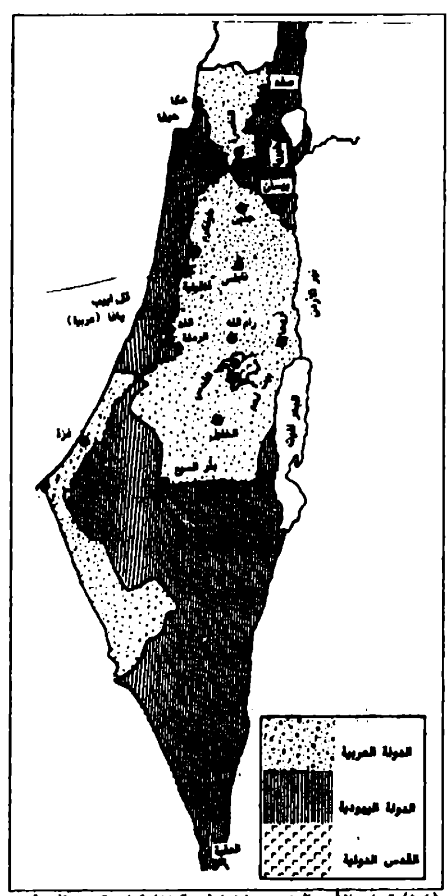
حيث طبرية وبحيرتها ضمن الدولة اليهودية



(١٢) الخطة ج بمشروع لجنة وودهيد لتقسيم فلسطين ١٩٣٨
حيث طبرية وبحيرتها ضمن المنطقة الانتدابية الشمالية



(١٣) مشروع الكانتونات (المقاطعات)
١٩٤٦
حيث طبرية في الكانتون اليهودي



(١٤) قرار الأمم المتحدة ١٨١ لسنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين
حيث طبرية في الدولة اليهودية

كشف

المصادر والمراجع

ـ ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** (نسخة ألكترونية محفوظة على موقع الوراق www. alwaraq. net وسوف نشير هنا فيما بعد إلى هذا الموقع بـ"نسخة الوراق الألكترونية").

ـ ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني؛ **الكامل في التاريخ**. تحقيق كارلوس يوهانس تورنبرغ، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩.

ـ الاصطخري؛ **المسالك والممالك**. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١.

ـ الأصفهاني، عماد الدين؛ **البرق الشامي**. تحقيق فالح حسين، عمان، ١٩٨٧.

ـ الأصفهاني، عماد الدين محمد بن حامد؛ **تاريخ دولة آل سلجوق**. ط. ٣، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠.

ـ بازيلي؛ **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية**. ترجمة يسر جابر، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨.

ـ البديري الحلاق، (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ البلاذري؛ **أنساب الأشراف** (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ البلاذري،أبو الحسن؛ **فتوح البلدان**. بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٨٣.

ـ بيطار، أمينة؛ **موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري**. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٨٠.

- تاريخ أبي يعلى (نسخة الوراق الألكترونية).

- تاريخ خليفة بن خياط. ط. ٢، تحقيق أكرم ضياء العمري، دمشق: دار القلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. تعليق محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

- ابن أبي جرادة، كمال الدين عمر بن أحمد؛ بغية الطلب في تاريخ حلب. تحقيق سهيل زكار، بيروت: دار الفكر.

- الجهشياري، محمد بن عبد القدوس؛ كتاب الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، تاريخ مقدمة المحققين ١٩٣٨.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي؛ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم. تحقيق سهيل زكار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

- الحافظ ابن كثير؛ البداية والنهاية. الطبعة الثانية، بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧.

- حسن، جعفر هادي؛ "هكذا ولدت إسرائيل: قصة المستوطنة الأولى"، مجلة العربي، العدد ٥٠٥ (ديسمبر ٢٠٠٠)

- الحسيني، صدر الدين علي بن ناصر؛ زبدة التواريخ: أخبار الأمراء والملوك السلجوقية. تحقيق محمد نور الدين، بيروت: دار إقرأ، ١٩٨٥.

- الحكومة البريطانية، تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (الكتاب الأبيض رقم ٥٤٧٩، عرض على البرلمان بأمر جلالته في شهر تموز ١٩٣٧).

ـ حميدة، عبد الرحمن؛ **أعلام الجغرافيين العرب**. الطبعة الثانية، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٠.

ـ الحوت، بيان نويهض؛ **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨**. الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦.

ـ ابن حوقل، أبو القاسم؛ **كتاب صورة الأرض**. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩.

ـ الخالدي، وليد؛ "عودة إلى قرار التقسيم ـ ١٩٤٧"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ٣٣ (شتاء ١٩٩٨).

ـ ابن خردانبة؛ **المسالك والممالك**. (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي؛ **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**. بيروت: دار الكتاب العربي، دت.

ـ ابن خلكان، أحمد بن محمد؛ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، تاريخ مقدمة المحقق ١٩٦٨.

ـ خلة، كامل محمود، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩**. بيروت: مركز الأبحاث الفسطيني، ١٩٧٤.

ـ الدباغ، مصطفى مراد؛ ؛ **بلادنا فلسطين - في ديار الجليل**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.

ـ ــــــــــــ"التعليم في فلسطين في عهد الانتداب"، **الموسوعة الفلسطينية- القسم الثاني: الدراسات الخاصة، دراسات الحضارة**. بيروت: هيئة الموسوعة، ١٩٩٠.

ـ درايتون، روبرت هاري؛ **قوانين فلسطين: مجموعة المناشير والأوامر والقوانين الفلسطينية**. القدس: مطبعة دير الروم، ١٩٣٦.

ـ دروزة، محمد عزت؛ **مئة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات**. الطبعة الأولى، منشورات الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار، ١٩٨٤.

ـ الدمشقي، الخوري ميخائيل بريك؛ **تاريخ الشام**. تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو، دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٢.

ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد؛ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧.

ـ الذهبي، محمد بن أحمد؛ **سير أعلام النبلاء**. ط. ٩، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ـ رافق، عبد الكريم؛ **العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦**. دمشق، د.ن، ١٩٧٤.

ـ رحلة ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. قدم له وحققه محمد عبد المنعم العريان، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٧.

ـ رنسيمان، ستيفن؛ **تاريخ الحروب الصليبية**. ترجمة السيد الباز العريني، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧.

ـ ريموندانجيل؛ **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**. نقله إلى العربية حسين محمد عطية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.

ـ الزركلي، خير الدين؛ **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. ط. ٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

ـ زكار، سهيل؛ **أخبار القرامطة في الإحساء والشام والعراق واليمن**. ط. ٢، دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٢.

ـ زكار، سهيل؛ **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: دراسة تتناول قيام الإمبراطورية السلجوقية وأحوال الشام والجزيرة عشية الغزو الصليبي**. ط. ٤، دمشق: دار الفكر، ١٩٨١.

ـ سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**. حيدر أباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥١

ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن؛ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ السعد، خليل محمود؛ **طبرية: تاريخ وأمل**. إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥.

ـ سخنيلي، عصام؛ **طغتكين أتابك دمشق ٤٨٨-٥٢٢هـ/ ١٠٩٥-١١٢٨م: صفحة من تاريخ الصراع مع الفرنج**. عمان: منشورات عمادة البحث العلمي بجامعة البترا، ٢٠٠٣.

ـ ــــــــــــ؛ **عهد إيلياء والشروط العمرية: نموذج تطبيقي لاستخدام أدوات التفكيك في تصحيح التاريهخ الإسلامي**. عمان: دار المناهج، ٢٠٠١.

ـ ــــــــــــ؛ **فلسطين والفلسطينيون: صيرورة تكوين الاسم والوطن والشعب والهوية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣.

ـ ــــــــــــ؛ **فلسطين الدولة: جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني**. نيقوسيا: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٨٥.

ـ السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد التميمي؛ **الأنساب**. تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت: دار الجنان، ١٩٨٨.

ـ الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد؛ **الديارات**. الطبعة الثالثة، تحقيق كوركيس عواد، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٦.

ـ الشافعي، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله بن عبد الله؛ **تاريخ مدينة دمشق**. تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥.

ـ ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر؛ **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧.

ـ أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي الشافعي. **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**. بيروت: دار الجيل، دت.

ـ ابن شداد؛ **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**. تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤.

ـ ابن شداد؛ **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**. (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ الشريف الإدريسي؛ **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ الشهابي، إبراهيم يحيى؛ **طبرية: تراث وذكريات**. دمشق: دار الشجرة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

ـ صايغ، أنيس؛ **عن أنيس صايغ**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦.

ـ الصباغ، عبود؛ **الروض الزاهر في تاريخ ضاهر**. تحقيق أسامة محمد أبو نحل، إصدار مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد العاشر، العدد الثاني، (حزيران ٢٠٠٢).

ـ الصباغ، ميخائيل؛ **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني**. تعليق قسطنطين المخلصي، حريصا، ١٩٤٥.

ـ الصفدي؛ **الوافي بالوفيات**. (نسخة الوراق الألكترونية).

ـ الصوري، وليم؛ **الحروب الصليبية**. ترجمة حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

ـ الطبري، محمد بن جرير؛ **تاريخ الأمم والملوك**. بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٩٨٥.

ـ طربين، أحمد؛ **محاضرات في تاريخ قضية فلسطين**. القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٨.

ـ العارف، عارف؛ **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢**. صيدا وبيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، تاريخ المقدمة ١٩٥٦.

ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح؛ **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦٣.

ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح؛ **العصر المماليكي في مصر والشام**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥.

ـ عباس، إحسان؛ **تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م**. منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام/ الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، ١٩٩٨.

ـ عباس، إحسان (تحقيق واستخراج)؛ **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨.

ـ العباسي، مصطفى؛ "عائلة الطبري وقيادتها للمجتمع العربي في مدينة طبرية منذ أواخر العهد العثماني حتى أواخر الانتداب"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد ٦٤ (خريف ٢٠٠٥).

ـ ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون؛ **تاريخ مختصر الدول**، صححه وفهرسه أنطون صالحاني اليسوعي. بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٩٨٣.

ـ ابن عساكر، علي بن الحسين الشافعي؛ **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**. ط. ٢، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩.

ـ العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد؛ **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**. مراقبة محمد عبد المعين خان،(حيدر أباد: مجلس إدارة المعارف الإسلامية، ١٩٧٢.

ـ ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد؛ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦.

ـ عوض، عبد العزيز؛ محمد **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤**. القاهرة : دار المعارف، تاريخ المقدمة ١٩٦٧.

ـ علم الدين، وجيه؛ **العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨-١٩٢٢**. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٥.

ـ العلي، صالح أحمد؛ **امتداد العرب في صدر الإسلام**. ط. ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣.

ـ غنايم، زهير غنايم عبد اللطيف؛ **لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية** ١٢٨١-١٣٣٧هـ/ ١٨٦٤٠١٩١٨م. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩.

ـ الغوري، إميل؛ **فلسطين عبر ستين عاما**. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢.

ـ الغوري، إميل؛ **المؤامرة الكبرى: اغتيال فلسطين ومحق العرب**. القاهرة، ١٩٥٥.

ـ أبو الفداء إسماعيل بن علي؛ **تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر**. تحقيق محمود ديوب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.

ـ ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى؛ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. نسخة الوراق الألكترونية.

ـ قاسمية، خيرية؛ "سوريا والقضية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين ١٩١٨-١٩٣٩"، في: **دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت لتكريم الدكتور قسطنطين زريق**. تحرير هشام نشابة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨.

ـ **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين**. جمع وتصنيف سامي مسلم، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية وأبو ظبي: مركز الوثائق والدراسات، ١٩٧٣.

ـ القطشان، عبد الله عبد السلام؛ **التعليم في فلسطين ـ الجزء الأول: التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ١٥١٦-١٩٤٨**. عمان: منشورات دار الكرمل، ١٩٨٧.

ـ ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي؛ **تاريخ دمشق**. تحقيق سهيل زكار، دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٣.

ـ القلقشندي، أحمد بن علي؛ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧.

ـ القيسي، ناهض عبد الرزاق، **الفلس العربي الإسلامي منذ صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي**. عمان: دار المناهج، ٢٠٠٦.

ـ ابن كثير القرشي الدمشقي؛ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر؛ **البداية والنهاية**. تحقيق محمد عبد العزيز النجار، القاهرة: دار الغد العربي، ١٩٩١.

ـ **الكتاب المقدس اي كتاب العهد القديم العهد الجديد**. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دت.

ـ كناعنة، مصلح؛ "خربة المنية"، كما هي محفوظة على: www. jalili48. com

ـ الكيالي، عبد الوهاب؛ **تاريخ فلسطين الحديث**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠.

ـ المقدسي، محمد بن أحمد؛ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. نسخة الوراق الألكترونية.

ـ **مقدمة ابن خلدون**. بيروت: دار الكتاب ومكتبة المدرسة، ١٩٨٢.

ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين؛ **التنبيه والإشراف**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١.

ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين؛ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. ط. ٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣.

ـ مصطفى، شاكر؛ **موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣.

ـ مناع، عادل؛ **تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨: قراءة جديدة**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩.

ـ ابن منقذ، أسامة؛ **كتاب الاعتبار**. مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، ١٩٣٠، طبعة مصورة: بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٨١.

ـ موسى، سليمان؛ رحلات **في الأردن وفلسطين**. المجموعة الثانية، عمان: منشورات دائرة الثقافة والفنون، ١٩٨٧.

ـ **الموسوعة الفلسطينية**. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤.

ـ ناصر خسرو؛ **سفرنامة**. نسخة الوراق الألكترونية.

ـ الواقدي،أبو عبد الله بن عمر؛ **فتوح الشام**. بيروت: دار الجيل.

ـ **وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩: من أوراق أكرم زعيتر.** أعدتها للنشر بيان نويهض الحوت، الطبعة الثانية، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤.

ـ **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: المجموعة الثانية ١٩٤٧-١٩٥٠.** القاهرة: جامعة الدول العربية، دت.

ـ **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال والصهيونية ١٩١٨-١٩١٩.** جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وبغداد: جميعية صندوق فلسطين، ١٩٦٨.

ـ اليازجي،ناصيف؛ **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**. بيروت: دار القلم، دت.

ـ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**. بيروت: دار صادر، ١٩٧٧.

ـ اليعقوبي؛ **كتاب البلدان**. (النسخة الأكترونية المحفوظة لدى: www.4shared .com

ـ ابن أبي يعلى، محمد؛ **طبقات الحنابلة**. تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة، د ت.

- Abbasi, Mustafa; "The End of Arab Tiberias: The Arabs of Tiberias and the Battle for the City in 1948", *Journal of Palestine Studies,* Vol. 37, No. 3 (Spring 2008).

- Abbasi, Mustafa; "The War on the Mixed Cities: The Depopulation of Arab Tiberias and the Destruction of its Old 'Sacred' City (1948-9)", *Holy Land Studies*, 7.1 (2008).

- "Ancient Tiberias Reveals More of its Beauty". *Science Daily*, July 29, 2005, quoting: The Hebrew University of Jerusalem.

- Arav, Rami, Richard Freund and John Shorder; "Bethsaida Rediscovered: Long-lost City Found North of Galilee Shore". *Biblical Archaeology Review*, Jan/Feb 2000.

- Ayyad, Abdedelaziz; *Arab Nationalism and the Palestinians 1850-1939* (Jerusalem: Palestinian Academic Society for International Affairs, PASSIA, 1999.

- Batmaz, Sakir; "Illegal Jewish-Immigration Policy in Palestine (Periods of 1st and 2nd Constitutional Monarchy". *Turkish Studies: International Periodical for the Languages, Literature and History of Turkish or Turkic*, Vol. 3/1 (Winter 2008.

- "Bethsaida-Location". An article by the University of Nebraska at Omaha (USA), www.unomaha.edu.

- Brilliant, M.; "Ghost City Cries out for Youth: Rejuvenating Tiberias", *Palestine Post*, 18 January 1946.

- Buckingham, J.S.; *Travels in Palestine through the Countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan.* London: Hurst, Rees, Orme &Brown, 1831.

- Burckhardt, John Lewis *Travels in Syria and the Holy Land.* London: John Murray. 1822.

- Conder, Claude and H.H. Kitchener; *The Survey of Western Palestine, Vol. I Galilee*. London: The Committee of the Palestine Exploration Fund, 1883.

- "District of Tiberias". www. palestineremebered.com

- *Documents on British Foreign Policy 1919-1939*. edited by E.L. Woodward and Rohan Butler, London: Her Majesty's Stationary Office, 1955.

- Dvorjestski, Estee; "Healing Waters: The Social World of Springs in Roman Palestine'. *Biblical Archaeology Review*, July/August 2004.

- Erskine, Stuart; *Palestine of the Arabs*. London: George Harrap and Co. Ltd., 1935.

- Esco Foundation for Palestine, *Palestine: A Study of Jewish, Arab and British Politics.* New Haven: Yale University Press, 1947.

- Fischbach, Michael R.; *Records of Dispossession: Palestinian Refugee Property and the Arab-Israeli Conflict*. Columbia University Press, 2003.

- Frichwasser-Raanan, H.F.; *The Frontiers of a Nation*. London: The Batchworth Press, 1955.

- Gelber, Yoav; *Palestine 1948: War, Escape and the Emergence of the Palestinian Refugee Problem*. Sussex Academic Press, 2001.

- *The Geography of Strabo*. translated with notes by H.C. Hamilton and W. Falcnor, London: George Bell and sons, 1903, as maintained on www. perseus. tufts. edu

- Gil, Moshe; *A History of Palestine 634-1099*. translated by Ethel Broido, Cambridge University Press, 1992.

- Golan, Amon; "The Politics of Wartime Demolition and Human Landscape Transformation". *War in History*, Vol. 9, No. 4 (October 2002).

- Great Britain, Parliamentary Papers, *Agreement Between His Majesty's Government and the French Government Respecting the Boundary Line between Syria and Palestine from the Mediterranean to el-Hamme*. Treaty Series No. 13, 1923, London: His Majesty's Stationary Office, 1923.

- Great Britain, Parliamentary Papers, *Palestine Partition Committee Report Presented by the Secretary of State for Colonies to Parliament, Octobre 1938 – Cmd. 5884*. London: His Majesty's Stationary Office, 1938.

- Great Britain, Parliamentary Papers, *Proposals for the Future of Palestine, July 1946- February 1947, Presented by the Secretary of State for the Colonies and the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty – Cmd. 7944*. London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

- Great Britain, Parliamentary Papers, *Report of the Anglo-American Committee of Inquiry Regarding the Problems of European Jewry qn3 Palestine, Presented by the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty – Cmd. 6808*. London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

- Great Britain, Parliamentary Papers, *A Statement by His Majesty's Government , Presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament by command of His Majesty, November 1938 – Cmd. 5893*. London: His Majesty's Stationary Office, 1938.

- Heinsch; Fr. James; "A Catholic views Zionism and the State of Israel". *The Holy Land*, A quarterly published by the Franciscan Custody of the Holy Land (1999), online version maintained on server: www.christusrex.org.

- Herzog, Chaim; *The Arab-Israeli Wars: Wars and Peace in the Middle East from the War of Independence through Lebanon*. Vingate Books, 1983.

- Huneberc of Heidenheim; *The Hodoeporican of St. Willibald* www. fordham.edu/ halsal/willibald.htm

- Hirschfeld. Yizhar and Eran Meir; "Tiberias 2004", *Hadashot Arkheologiyot*, of the Israel Antiquities Authority -- electronic English version: www. Hadashot-esi.org-il (118-2006).

- Hirschfeld, Yitzhar and Giora Solar, "Sumptuous Roman Baths Uncovered Near Sea of Galilee". *Biblical Archaeology Review*, 10:06 (December 1984).

- Hirchfeld, Yizhar; *Excavations at Tiberias 1989-1994*. Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 2004.

- Hirschfeld, Yizhar; *A Guide to Antiquity Sites in Tiberias*. Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 1992.

- "Idumea". Jewish Encyclopedia.

- Jacobs, Daniel; *Israel and the Palestinian Territories*. Rough Guides, 1998.

- John, Robert and Sami Hadawi; *The Palestine Diary*. Beirut: the Palestine Research Center, 1970.

- "Joseph Nasi". *Jewish Encyclopedia*.

- "Joseph Nasi". in: *Jewish Virtual Library* (A Division of the American-Israeli Cooperation Enterprise), as maintained on server: www. jewishvivtualibrary.org

- Josephus, Flavius; *The Antiquities of the Jews*. translated by William Whiston, as maintained on: Project Gutenberg.

- Josephus, Flavius; *The Wars of the Jews*. translated by William Whiston, as maintained on www. Project Rotenberg.com

- Khalidi, Rashid; "Palestinian Peasant Resistance to Zionism before World War I", in: Edward W. Said and Christopher Hitchens (editors), *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*. London: Verso, 1988.

- Khaldi, Walid; "Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine", *Journal of Palestine Studies*, Vol. 18, No. 1 (Autumn 1988).

- Laughlin, John C.H.; "Capernaum: From Jesus' Time and After". *Biblical Archaeology Review*, September/ October 1993.

- Le Strange, Guy; *Palestine under the Moslems*. Beirut: Khayats, 1965, reprinted from the original edition of 1890.

- Levy, Thomas E. and Mohammad Najjar; "Edom and Copper: The Emergence of Ancient Israel's Rival". *Biblical Archaeology Review*, 32:04 (Jul/Aug 2006).

- Lynch, W.F.; *Narrative of the United States Expedition to the River Jordan and the Dead Sea*. Arno Press, Philadelphia, 1849.

- "Major New Excavation Planned for Mary Magdalene Hometown". *Biblical Archaeology Review*, September/October 2007.

- Masalha, Nur; *Expulsion of the Palestinians: The Concept of 'Transfer' in Zionist Political Thought 1882-1948*. Beirut: Institute For Palestine Studies,1992.

- Mc Garvey, J.W.; *Lands of the Bible: A Geographical and Topographical Description of Palestine*. Cincinnati: The Standard Publishing Company, 1880.

- Morris, Benny; *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*. Cambridge University Press, 1989.

- Nun, Mendel; "Ports of Galilee". *Biblical Archaeology Review*, July/August 1999.

- Ojalvo, Harry; "Ottoman Sultans and their Jewish Subjects". *Foundation for the Advancement of Sephardic Studies and Culture*, as maintained on server: www. sephardicstudies. org

- Page, Charles R. "Kursi Excavation Project". *The Bible and Interpretation*, as maintained on server www.bibleinterp.com.

- Paleologue, M.; *An Ambassador Memoirs.* translated by F.A. Holt, London: Hutchinson and Co., 1926.

- Palumbo, Michael; *The Palestinian Catastrophe*. London: Quartet Books, 1987.

- Pasachoff, Naomi E. and Robert J. Littman; *A Concise History of the Jewish People.* Lanham: Rowman & Littlefield, 2005.

- "The Petra Great Temple".

www. brown.edu/departments/Petra/excavations/history

- Pfeifer, Ida *A Visit to the Holy Land, Egypt and Italy*. London: Ingram Cooke & co., 1857.

- Pliny the Elder; *The Natural History* edited by John Bostock and H.T. Riley, London: Taylor and Francis, 1855, as maintained on server: www. perseus.tufts.edu

- Redford, D.B., *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times*. Princeton: Princeton University Press, 1992.

- *Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the year 1937.*

- *Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the year 1938.*

- *Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of*

Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year 1939.

- Segal, Arthur and Michael Eisenberg; "Hippos-Sussita Excavation Project – The Fourth Season (October 2003)". *The Bible and Interpretation*, as maintained on server www.bibleinterp.com.

- Schumacher, Gottlieb "Population List of Liva Akka". *PEF [Palestine Exploration Fund]*, 1887.

- Smith, George Adam; *The Historical Geography of the Holy Land.* 7th edition, London: Hodder and Stoughton, 1901.

- Srouji, Elias; "The Last Days of Free Galilee: Memories of 1948". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 33, No. 1 (Autumn 2003).

- Stacy, David; *Excavations at Tiberias, 1973-1974: The Early Islamic Periods.* Jerusalem: Israel Antiquities Authority, 2004.

- Strange James F. and Hershel Shanks; "Has the House Where Jesus Stayed in Capernaum Been Found?". *Biblical Archaeology Review*, November/ December 1982.

- "Surprising Finds were Discovered in the IAA Excavations". maintained 7/8/2007, on Israel Antiquities Authority's server israelantiquities.org.il

- "Tabgha-Christian Site". as maintained on server: www. fectio.org.uk

- Tal, David; *War in Palestine, 1948: Strategy and Diplomacy.* London: Routledge, 2004.

- "Tell Beit Yerah". As maintained on server:www. biblewalks. Com

- "Tiberias-The Anchor Church". as maintained on Israel Ministry of Foreign Affairs' server: www.mfa.gov.il

- "Tiberias". *Catholic Encyclopedia.*

- "Tiberias". *Jewish Encyclopedia.*

- Thomson, Andrew; *In the Holy Land.* New York: Randolph & Co., 1869.

- Thomson, Rev. W.M.; *The Land and the Book*, London: T. Nelson and Sons, 1879.

- Trevers, Sir Fredrick; *The Land that is Desolate: An Account of a Tour in Palestine*. London: Smith, Elder & Co., 1912.

- Twain, Mark; *The Innocents Abroad or the Pilgrims' Progress*. New York and London: Harper & Brothers, 1869.

- Tzaferis, Vassilios; "A Pilgrimage to the Site of the Swine Miracle". *Biblical Archaeology Review*, March/ April 1989.

- Vidal, Dominique; "The Expulsion of the Palestinians Re-examined", *Le Monde Diplomatique*, December 1997.

كتب أخرى للمؤلف

- **فلسطين الدولة: جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني**. نيقوسيا: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٨٥.

- **مملكة هرمز: أسطورة الخليج التجارية ١٣٠٠-١٦٢٢**. دبي: ندوة الثقافة والعلوم، ١٩٩٧.

- **العباسيون في سنوات التأسيس: تفسير جديد للثورة والشرعية ونظام الحكم**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٨.

- **عهد إيلياء والشروط العمرية: نموذج تطبيقي لاستخدام أدوات التفكيك في تصحيح التاريخ الإسلامي**. عمان: دار المناهج، ٢٠٠١ .

- **فلسطين والفلسطينيون: صيرورة تكوين الاسم والوطن والشعب والهوية**. بيروت: المؤسسة العربية للدرسات والنشر، ٢٠٠٣ .

- **طغتكين أتابك دمشق ٤٨٨-٥٢٢هـ/ ١٠٩٥-١١٢٨م: صفحة من تاريخ الصراع مع الفرنج**. منشورارات عمادة البحث العلمي بجامعة البترا، ٢٠٠٣ .

- **الإسرائيليات: مكونات أسطورية في المعرفة التاريخية العربية**. بيروت: مؤسسة الدراسات والنشر ٢٠٠٤ (فاز بجائزة جامعة فيلادلفيا لأحسن كتاب للعام ٢٠٠٦).

- **المستشرقون ومصطلحات التاريخ الإسلامي: تحليل ونقد**. عمان: دار جرير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.

- **ثورة الزنج ٢٥٥-٢٧٠هـ/ ٨٦٩-٨٨٣م: رؤية جديدة**. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، الرسالة ٢٥٩، الحولية ٢٧، آذار ٢٠٠٧.